

الحشد

بيشنتي بلاسكو إلبانييث

♦ المؤلف: بيثنتي بلاسكو إلبانييث

♦ العنوان: الحشد

♦ ترجمة: شيرين عصمت

♦ الطبعة: الأولى 2023

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٢ / ٢٥٨٠٩

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 359 - 6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ / ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ / ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

بيثنتي بلاسكو إلبانييث

الحشد

ترجمة

شيرين عصمت

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

La Horda

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2023

La Horda

هذا العمل نُشر بمنحة من

وزارة التعليم، الثقافة والرياضة الإسبانية

	GOBIERNO DE ESPAÑA	MINISTERIO DE EDUCACIÓN, CULTURA Y DEPORTE	"Esta obra ha sido publicada con una subvención del Ministerio de Educación, Cultura y Deporte de España"
---	-----------------------	--	--

في الثالثة فجرًا بدأت تصل أولى العربات من سلسلة الجبال إلى بيت المكس^(١) في لوس كواترو كامينوس^(٢).

كانوا يغادرون كولمنار^(٣) في التاسعة، مع حمولة من أباريق الحليب، يسافرون طوال الليل تحت المطر الثلجي الذي بدا أنه وداع الشتاء الأخير. يرغب سائقو العربات في أن يصلوا إلى مدريد قبل طلوع النهار، ليكونوا أول مَنْ تُكال بضائعهم. العربات تصطف، والبهائم تستقبل المطر الذي يُقطر في آذانها، ذيولها وأطراف سروجها. لجأ السائقون إلى حانة صغيرة قريبة، الباب الوحيد المفتوح في حي لوس كواترو كامينوس بأسره، واستنشقوا في جوها الخانق أنفاس زبائن الليلة السابقة. خلعوا قبعاتهم لينفضوا الماء من عليها، مُخَلِّفِينَ على الأرض طين أحذيتهم الفوقية^(٤) المزينة بالمسامير، ويرتشفون فناجين قهوة ممزوجة بمشروب العرق، كانوا يتناقشون مع صاحبة الحانة حول

(١) بيت المكس: كشك تحصيل الضرائب.

(٢) لوس كواترو كامينوس: حي يتبع مدريد إداريًا، يقع في الجزء الشمالي الغربي منها.

(٣) كولمنار: بلدية تقع في مقاطعة ملقة في الأندلس.

(٤) أحذيتهم الفوقية: أحذية تُلبس فوق الحذاء الأصلي للتدفئة ومنع البلل.

الطعام الذي ستعده لهم عند الساعة الحادية عشرة، عندما يشرعون في العودة إلى القرية.

عند المسقى القريب من بيت المكس، وقفت عدة عربات النقل المحملة بالجدوع تنتظر طلوع النهار لدخول البلدة. رعاة الأبقار ينامون تحت بطاطينهم الملتحفين بها، والثيران المتحررة من نيرها تجتر أمام قفف العشب الجاف، وبطونها على الأرض وقوائمها منكمشة.

بدأت تدب الحياة في لوس كواترو كامينوس. أَرَّ عددٌ العديد من الأبواب، وهي تُظهر عند فتحها مربعات كبيرة من الضوء الضارب إلى الحُمْرة على طين الطريق. فاحت الرائحة الكريهة النفاذة للزيت المقلي من دكان بيع الفطائر المقلية. في الحانات، يُسقى النوادل الغافون على أحد الطاولات القريبة من المدخل، مجموعة التسمم الصباحي؛ قنينات مربعة بها عَرَق بالأعشاب وقطع ليمون.

ظهر أوائل المستيقظين مرتجفين من البرد، وبعد شرب كأس كحول أو قهوة بخمسة فلسات، تابعوا سيرهم إلى مدريد في الضوء الشاحب لمصابيح الجاز. فُتح بيت المكس وتكدس السائقون حول الميزان. تلمع أباريق القصدير في صفوف طويلة تحت ظل المدخل. يصيحون من أجل الدور. عندما يحضر سائق جديد يسأل:

– مَنْ عليه الدور؟

وعندما يجيبونه، يضع مَنْ وصل منذ لحظات أباريقه بجانب أباريق الأخير، بغرض صد أي اقتحام لدوره.

جميعهم على عجلة كبيرة ليسمحوا لهم بالدخول، ويربكون بطلباتهم الموظف الموجود على الميزان والموظفين الآخرين الملتحفين بعباءاتهم، والذين يكتبون في ضوء المصباح النفطي. الأباريق تحتوي فقط على الحليب في نصف سعتها. وبينما ينتظر بعض سائقي العربات في بيت المكس، كان آخرون يتقدمون من مدريد بأباريق فارغة، للبحث عن أقرب منبع. هناك، في محيطه، دون خوف من الضرائب، كان يُؤكّد التعميد، ومضاعفة البضائع.

تتعاقب عربات الجبل -الكبيرة ذات العجلات الثقيلة والمظلة السوداء- نحو البلدة، متمائلةً مثل المراكب المعتمدة في الليل. كانت أخرى أصغر تنزلق بينها، تمر أمام بيت المكس دون أن تتوقف. كانت مركبات جامعي القمامة، بعض الصناديق المكشوفة التي تجرها حمير صغيرة. أصحابها ممدون في القاع، يتابعون أحلامهم في هدوء يمنحهم إياه شارع برابو موريو الخالي من الترامات في تلك الساعات. في بعض الأحيان، كانت البهيمة -وهي تقلد صاحبها- تُوقف خطواتها، وتظل ساكنة، بأذانٍ متهدلة كأنها نائمة، حتى توقظها هزة الزمام والسباب.

توقف المطر في الفجر. تسرب ضوء ضارب إلى البنفسجي من بين السحب المارة منخفضةً كأنها تخدش الأسطح. تظهر المباني ببطءٍ من بين ضباب الصباح، رطبة ولامعة بسبب ماء المطر؛ الأرض الموحلة مع برك كبيرة؛ والأرض المستوية الصفراء مع بقع النباتات في الأراضي المنخفضة.

تُظْهِر مقبرة سان مارتين فوق المرتفع كتلتها الخيالية من أشجار السَّرْو المستقيمة. المدرسة البروتستانتية - التي من طوب أحمر - تبدو ضخمة فوق المساكن الحقيبة البائسة. يحدد صف لا نهائي من الأعمدة الكهربائية شارع برابو موريو العريض: صف من الصلبان البيضاء المحاطة بالشجيرات، وفي الخلفية تغوص مدريد في أحد المنخفضات محاطة بضباب الصحو، بأسطحها التي في مستوى الأرض وفوقها برج سانتا كروث الأحمر بتاجه الأبيض.

وهكذا كلما تقدم النهار، تضخم حشد العربات والدواب أكثر في استراحة لوس كواترو كامينوس. كانوا يصلون من فونكارال، من ألكوينداس أو من كولمنار، مع مؤونة طازجة من أجل أسواق المدينة. بالقرب من أباريق الحليب تُوضع في بيت المكس سلال البيض الكبيرة المغطاة بالقش، قطع الجبن الأبيض، عناقيد من الأفراخ والأرانب المنزلية. تتعاقب فوق صفيحة الميزان المعدنية أنواع الغذاء في اختلاط قذر، يسقط عليها الجملان المذبوحة، بصوفها الملطخ بالدم الجاف، وبعدها بلحظات تتكدس في نفس المكان الجبن وسلال الخضروات. تعود الأكتاف - الملفوفة بشال، مع منديل معقود بقوة على الأصداغ - لحمل بضائعهم في قفف، وهم يسندون الحذاء الموحول على الميزان يقفزون برشاقة فوق حميرهم، يستحثونه بعجلة نحو مدريد لبيع بيضهم وخضراواتهم في الشوارع المجاورة للسوق.

يزداد غزو جامعي القمامة مع تقدم اليوم. عرباتهم الخفيفة لها شكل صندوق لونه أزرق صارخ، وعليه شكل بيضاوي يحمل اسم

المالك. يأتون من بيايستاس ومن تطوان^(١)، ومن أحياء تُسمَّى أَلْمِنَارا وفراخانا وكاروليناس. الأفقر لا يملكون عربات، ويسIRON على ظهر جحش، وأرجلهم مختلفة في القفف المخصصة للقمامة. تمر نساء النباش منتصبات فوق حميرهن، يستحثونها بعصا، وتتموج خلف ظهورهن أطراف المناديل الحمراء، بوجهٍ ملطخ بالبقع، وأعينٍ رُمَصٍ بسبب الكحول، وفي أيديهن السوداء صف مزدوج من الخواتم المزيفة واللامعة مثل الزينة الإفريقية.

تسير الحمير -الرفيق الوفي لجامعي القمامة- صفًا بكل اختلافاتها البائسة وهي تجر الصناديق، وتخب في سيرها تحت ضربات عصا الفارسات. حيوانات صغيرة وقذرة، تقريبًا تمتلك خبثًا بشريًا. في مراتٍ نادرة تبحث عن طعامها في الحقل، تتغذى على الحمص المتبقي من طيخٍ مدريد، تجتر في مelfها ما مر عبر مطابخ البلدة في اليوم السابق، وبدا أن هذا الغذاء أجج ذكاء الحيوان المتحضر. لم يشعر مطلقًا بالملامسة المنعشة للمقص ولا الاحتكاك المفيد للمحكة. جلده عبارة عن قشرة، لا يوجد على ظهره بقايا شعر، قوائمه الأمامية مغطاة بصوفٍ طويل، يمنحه الهيئة نفسها كأنه يرتدي بنطالًا. يمر ويمر فرسانٌ وعرباتٌ، مثل شردمة من عصور ما قبل التاريخ هربت وهي تحمل على ظهرها الجوع -وقبل ذلك، كدليل- الرغبة في الحياة. تخب البهائم في سيرها، وهي تصارع للتقدم الواحدة على الأخرى، كأنها تشم تحت

(١) تطوان: حي في مدريد سمي بهذا الاسم نسبةً إلى مدينة تطوان التي تقع في شمال غرب المغرب، والتي كانت عاصمة المستعمرة الإسبانية في الشمال.

كتلة الأسطح التي أغلقت الأفق بقايا يوم كامل من الحياة المتمدنة،
فائض المدينة الكبيرة الذي تحتفظ به للبائسين المخيمين حولها.

غزا حشد من المشاة الطريق. كانوا الجيران من الأحياء الفقيرة،
عُمال يسرون إلى مدريد، يخرجون من الشوارع المجاورة لشارع
إستريتشو وبونتا برابا، من كل جوانب لوس كواترو كامينوس، من بيوت
الحي الصغيرة الحقيرة بممراته المظلمة وأبوابه المرقمة، أعشاش الفقر
البائسة.

لم تصل مزيداً من عربات الريف بصلابتها الخشنة المشابهة لصلابة
الحياة القوية والسليمة. تشغل الشارع الآن مركبات النش القدرة
الوسخة، لون بعضها أسود مثل التوايت، بمظلاتها المصنوعة من
مفارش قديمة من قماش مشمع. عبر الأرصفة تعبر وتعب مجموعات
العمال ببلوزات بيضاء وأكياس غذاء صغيرة مُعلقة في زر، أو بستر
قائمة وقبعة مخرمة حتى العينين. يمكن مشاهدتهم من بيت المكس
وهم يتعدون وأيديهم في جيوبهم وظهورهم محنية، مع لفطة استكانة،
مستسلمون للمعاناة لما تبقى من حياة بلا أمل وبلا مفاجأة، وهم يعرفون
مسبقاً التعب الرتيب والقائم الذي يمتد حتى لحظة موتهم.

يرتدي آخرون أقمشة زرقاء مع قبعات سوداء وساعات، يتجمعون
أمام محطة الترام، منتظرين العربات الأولى. كانوا ميكانيكيّ المصنع،
رؤساء العمال، مديري الورش، الطبقة العليا في العمل اليدوي المنعزلة
عن الباقيين في رفايتها النسبية.

نادى رئيس بيت المكس -المتفرغ من المشاغل الصباحية والذي

يتابع من الباب مرور العمال- شابًا يأتي من مدريد ودعاه لتدخين سيجارة. لديه وقت للراحة: كان ينام طوال اليوم. وبينما يقدم إليه قداحة، سألوه وهو يغمز بعينه:

- ماذا عن السياسة يا صديقي مالترانا؟ متى تأتي «فرصتنا»؟ هل حقيقي أن الحكومة ستسقط؟!

أوما المدعو مالترانا بلا مبالاة في الوقت نفسه الذي يُشعل فيه سيجارته. كان شابًا قصير القامة، يرتدي ملابس متواضعة. قبعته ذات شريط قدر، ملقَى إلى الوراء، تركها لتكشف عن جبهة متنفخة وضخمة، والتي بدت طاغية بوزنها على الجزء السفلي من الوجه البني المخضر. عيناه ذواتا قَطر مائل، شاربه نحيف، شعره الباهت يمنح وجهه تعبيرًا آسيويًا، لكن لمعة بؤبؤي عينيه -التي توحى بذكاء يقط- تُلطف غرابة مظهره المزعجة.

تعلن شخصيته بأكملها عن بؤس الشباب الذي يقا تل بارتباك دون العثور على الطريق. حذاؤه ذو الرقبة له كعبان مكسوران وجلدهما متشقق تحت الحواف المتآكلة للبنطال. كان الكاب^(١) الأسود الضارب إلى الحُمرة بمثابة معطفٍ بالنسبة له، ومن بين طيات سترته يظهر -بكل فخر- ترفه الوحيد، ترف الشباب البائس، ربطة عنق كبيرة ذات ألوان صارخة، تُخفي قميصًا ورقبة مستعارة عالية، لها صلابة جامدة، اكتسب لمعانها -مع الاستخدام- لونًا أبيض مائلًا إلى صفرة الرخام القديم.

(١) الكاب: معطف قصير بلا أكمام به فتحتان لدخول الذراعين.

قال الموظف مرة أخرى:

- ماذا عن السياسة؟

اختتم مالترانا بلفتة لا مبالاة. تجعله التغييرات الوزارية -وما يُقال عنها في المجلس- يُبدي قليل اهتمام. هناك في صالة التحرير -حيث يقضي الليل- يتحدثون ساعات كاملة عن أمور كهذه، دون أن يبذل هو مجهودًا للاحتفاظ بكلمة واحدة في ذاكرته، منصرفًا إلى قراءة الصحف والمجلات. كيف من الممكن أن يهتم أحد بهذا العبث؟ لكن مع رغبته في إرضاء ذلك الصديق الجيد الذي يعامله ببعض الاحترام لكتابته في الصحف العامة، بذل مجهودًا وأجاب، دون أن يعرف يقينًا ما يقوله:

- أجل، أعتقد أن الحكومة ستسقط. لقد سمعت شيئًا عن ذلك في صالة التحرير.

- و«الرجال»؟ ماذا يقول «الرجال» عن هذه الأمور؟

كان إسيذرو مالترانا يعلم أن هؤلاء «الرجال» محرّري الصحيفة التي يعمل بها، الذين ينسجون الافتتاحية والمعلومات السياسية، «رجال ذوو شأن»، مثلما يسميهم الموظف مجازيًا، ويراهم المؤتمنين على السر القومي، رُسل المستقبل الوحيدين.

أجاب الشاب ببعض الخجل، كما لو أنه كره أن يكذب عليه:

- حسنًا، يعتقد «الرجال» أن هذا يسير في الاتجاه الصحيح، وأنه قريبًا جدًا ستأتي «فرصتنا».

- الشيء نفسه أقوله.

وبعد هذا التأكيد القوي الذي جعل الإيمان يتدفق، نظر الموظف ببعض الحسد إلى ذلك الشاب ذي المظهر البائس، الذي يتعامل على قدم المساواة مع «الرجال».

يرى مالترانا في كل صباح عند عودته من صالة التحرير. يضطر الشاب المسكين - من أجل النوم - إلى أن ينتظر أن يتخلى زوج والدته وأخوه الأصغر عن الغرفة الصغيرة البائسة في شارع لوس أرتيستاس، وبمجرد أن يدخلها، يتمدد فوق الفراش الوحيد الذي لا يزال دافئاً من أثر جسد البناء العجوز وصبيه، ينام حتى وقت متأخر من المساء، وتقريباً في الساعة التي يرجع فيها قطع العمال إلى لوس كواترو كامينوس، يعود هو إلى مدريد لبدأ حياة صعبة لطائر أعزل - دون منقار ومخالب - يرفرف في غابة من الصفحات المطبوعة، من دون غذاء أكثر من القليل من الفتات المنسي من الآخرين.

يستغل ضوء صالة التحرير والورق والحبر، في الساعات التي تكون فيها الجريدة خالية؛ ليترجم كتباً يجهل مصيرها. يقدم إليه هذا العمل بعض أصدقائه الذين كُلفوا به بدورهم من قبل مترجمين آخرين وقَّعوا على العمل. تصله المكافأة منقوصة، بعد أن مرت عبر أيادي الوسطاء، حيث مالترانا المسكين - بعد ثماني ساعات من الكتابة المتعبة - يفكر بحسد في السبعة ريالات التي يجنيها في عمله كبناء مبتدئ أخوه بين، المعروف بباراباس. ونعمة كبيرة عندما تتوافر الترجمات؛ فهذا العمل وسيلته الوحيدة لحياة ثابتة ومنظمة. فنقود واحدة من الترجمات تمثل وجبة في الليل في إحدى الحانات التي يتردد عليها زملاء المهنة،

صحفيون ذوو مرتبات قليلة، شباب ذوو شعور طويلة وغزيرة وربطات عنق فضفاضة يتحدثون بالسوء عن الجميع، يضيعون وقتهم بهذه الطريقة وهم ينتظرون بفارغ الصبر ساعة من الشهرة. لم تكن هذه المآدب ذات أهمية كبيرة، لكن كم فكر فيها في الأيام التي ينقصه فيها العمل ومنتظر ترجمات جديدة! يقضي ساعات الليل في صالة التحرير، وفي القراءة المتواصلة، وهو يشعر في الوقت نفسه بالتواءات الجوع في معدته. في بعض الأحيان، عندما يرى الحروف تتراقص أمام عينيه ورأسه يدور، كأنه يطرد كل الأفكار، يشعر بميل إلى القتال، رغبات شرسة لجرح أحد. حينها يبدأ مناقشات فلسفية تنتهي بالسخرية من الأهداف السياسية للصحيفة، فقط من أجل لذة سحق هؤلاء الجهلة -آخ! الذين يتناولون العشاء- بهرائه وبثقافته التي يستخدمها مثل مطرقة.

يهرب مالترانا -في هذه الليالي من الجوع الصامت والمركز- إلى بعض رفاقه في التوجهات من خارج مدريد، كأنهم رُسل السعادة، التواقون لترك ذكرى جيدة في صالة التحرير.

- لِنَرَ! أَحْضِرُوا القهوة للفتيان... وكل ما يريدونه.

يلتهم «الفتيان» قطعة الخبز المحمص المحملة جيداً بالدهن، يشربون حتى آخر قطرة من السائل الأسود ومن الحليب الموجود في أباريق القهوة، أشعلوا النار في سيجارة بنصف ريال، السمة الأخيرة والنهائية للكرم. يرى مالترانا -الثلُم من القهوة والدهن- كل ذلك أكثر جمالاً، مع إضاءة فجائية، من خلال سحابة التبغ الزرقاء، ويبدأ

في التحدث في الفلسفة والأدب بحُمية شبابية، يُدهش هؤلاء السادة الغرباء، الذين يكتشفون فيه رجلاً عظيمًا في المستقبل، ومَن يدري ربما يصبح حاكمًا عندما تحين «فرصتنا»!

يتابع مالترانا -في الليالي التي تغيب فيها هذه المساعدة غير العادية- بنظرة قلق، ورأسه بين يديه متظاهرًا أنه يقرأ مجلة أجنبية، مجيء السيد كريستوبال وذهابه، مالك الصحيفة، رجل طيب وصریح ويتصرف بأبوية، دون مخاوف أخرى غير جريدته، الثورة التي لا تحدث أبدًا والرغبة في أن يعترفوا بكل تضحياته من أجل «الفكرة».

- هومروس، سيجارة؟

كان هومروس هو مالترانا. ينسب الفتیان في صالة التحرير إليه كل شهر اسم شهرة جديدًا، يمتنون ثقافته التي «ترهقهم»، مؤكدين على أنه -بكل حكمته- غير قادر على كتابة وقائع حادثة أو اختلاق جريمة مشوقة. أولًا كانوا يلقبونه بشوبنهاور بسبب تكرار استشهاده بفلسفته المفضلة، بعد ذلك بنيتشه، لكن هذه الأسماء نطقها صعب، وذات ليلة تجرأ مالترانا، وهو منعزل عن الواقع، على تلاوة بضعة عشرات من أبيات الإلياذة باللغة اليونانية، فاتفق الجميع على تسميته هومروس مدى الحياة.

يقبل هومروس الطبيب السجائر بامتنان من السيد كريستوبال، الذي كان معجبًا به كأنه حكيم، مع اعترافه بأنه لا يصلح حتى حاجبًا لصالة التحرير. يُسلي انتظاره القلق لساعات الفجر الأولى، لحظة سخاء المالك، وهو يدخن. كان السيد الطبيب -عندما يشعر ببعض التواءات

المعدة- يشمل في جوعه بكرم جميع الفتيان. أحياناً كان ضائعاً مع فاصوليا بيضاء مطبوخ في الحانة القريبة، أحياناً أخرى وعاءً ضخماً من سمك القد مع البطاطس، والذي يبدو بالنسبة لمالترانا رائعاً مثل نجمة بين سُحب من الصحف تملأ الطاولة وتحت الضوء البارد للمصابيح الكهربائية. يقول السيد كريستوبال بملامح أبوية:

- لِنر يا سادة، أعيروني اهتمامكم أحضروا الخبز والنيذ للجميع... هومريتو، اقترب وكل من حصّة الآخرين. في عمرك توجد دائماً شهية، وتضطر أنت إلى أن تكون متأخراً قليلاً.

وضع هومروس الصغير يده بخجل في البداية، لكن أولى اللقّات توقظ الوحش المتحفّز الساكن في معدته، ولكبحه يرمي الطعام إليه بعجلة، خوفاً من أن يلتهمه لو تأخر في الإرسال. يسخر الراعي اللطيف من الجوع الشره لذلك الفتى القبيح. «آخ، الشباب! معدة يُحسد عليها!». يشعر وهو يشاهده برغبات جديدة.. كان هومروس فاتح شهيته.

وذات يوم، نظف مالترانا الوعاء والتهم الفتات الأخير، وشرب كأسيّ نبيذ، وبلغ فجأة البهجة المساعدة للهضم في الساعات الأخيرة في صالة التحرير، أفضل ساعات في الليل.

حينها فقط يتحدث هومروس عن السياسة، مشاركاً أوهام الباقين وآمالهم. سيحدث المُراد.. «فرصتنا». وحينئذٍ، إما ألا يكون هناك عدالة ولا خجل، وإما أن يكون السيد كريستوبال رئيس وزراء الحكومة التي يتم تشكيلها. لكن رفض المعنى هذا الشرف بابتسامة يصبغها التواضع. كان مالترانا، ليشجعه، نسبه إلى الورقة الرابعة. هو أيضاً سيكون شيئاً،

يا له من شيطان! كان مقتنعاً أن تكون الديكتاتورية فوق التعليمات العامة، لتثقيف البلاد بالعصا. كل شخص حسب اجتهاده.

يصف هو مروس الطيب -بين ضحكات زملائه- دخوله إلى المكتبة الوطنية في اليوم التالي للثورة، يتبعه مجموعة من المواطنين. لتقويم جميع الموظفين! كانوا أمناء المكتبة، الذين يعرفونه بسبب خوضهم أكثر من مشادة معه، ينتظرون قوله مرتجفين من الخوف. الآن سيدفعون ثمن أكاذيبهم كلما طُلب منهم كتابٌ حديثٌ ينكرون وجوده أو يدّعون أنه مع قارئٍ آخر؛ تلك الرغبة في أن لا تُقرأ إلا الأعمال العتيقة، سعة الاطلاع غير المجدية، كتب ضخمة مزعجة تنفر الناس، وتسلبهم الرغبة في تثقيف أنفسهم. يهبط سلسلة من السجناء بضربات بأعقاب البنادق، وقد علقهم الدكتاتور دون شفقة على أشجار ريكولتوس^(١)، مع لافتة على صدورهم: «لأجل خونة الثقافة والمحرضين على البربرية العامة...». دون الخروج من المبنى، قام بجولة صغيرة عبر قاعات الفن الحديث، ودخل دون اعتبار إلى مستشفى الوحوش، مخزن مروع من القبح والحماقات التاريخية. إلا استثناءات نادرة، أُلقيت جميع اللوحات من النوافذ، تكونت منها نار كبيرة. يقفز طلاب الفنون الجميلة -بأمر من الدكتاتور- عليها مسرورين لاختفاء الكثير من القُبْح.

لاحقاً، مع موكبه من التابعين العنيدين - وصل إلى متحف إيرادو. نداء وجمع من الموظفين وخطبة وقف لها شعر الرأس. حانت اللحظة لإنهاء الصخب الأبدي، التصنيف اللا نهائي، ترتيب الأعمال الفنية

(١) ريكولتوس: هو أحد الأحياء الستة التي تنقسم إليها منطقة سالامانكا في مدينة مدريد.

الجديد الذي يقيها في حركة دائمة، مما أدى إلى ارتباك الجمهور وتجوله من قاعة إلى أخرى كأنه في متاهة. أنا قلت: «رصاصة في الرأس لأول من حرك لوحة أو تمثالاً من مكانه». وأنهى هومروس رحلته الثورية مغلقاً المسرح الملكي إلى الأبد. تحيا الموسيقى! تسقط الأوبرا! الأرستقراطيون الذين يتحدثون بحرية في صالوناتهم، دون جلبلة الأوركسترا المزعجة، الذين تبرق مجوهراتهم دون اعتبار أن الفن يشي عن الترف. الحمالون القدامى الذين يكسبون الملايين لإصابتهم بمرض الصدح في حناجرهم، الأنسات ذوات الأردية البيضاء والشعر المسترسل اللواتي أُصبن بالجنون بين نقاط التمديد^(١) والكركرة^(٢)، إلى وظائفهم القديمة أو إلى الخياطة على الماكينة. لو أنهم لُقبوا فنانيين مرةً أخرى، فإنهم سيعانون من العقوبة المنصوص عليها في القانون بسبب الحالة الاجتماعية الزائفة. سترعى الدولة الموسيقيين الذين دون رواتب والمغنيين المتواضعين والمتحمسين، حيث ستقدم كل ليلة حفلة موسيقية مجانية، مع حضور إلزامي، في المناطق العشر بالعاصمة، بتناوب صارم.

وبعد هذه الإصلاحات التافهة، شغل هومروس مقعده على كرسي الديكتاتور، وقام بالإصلاح الكبير: الفحص العام لجميع معلمي المدارس؛ مراجعة عقلية لجميع الأساتذة، ولكن بطريقة قاسية، ودون رحمة، كما قد يحكم قاضي محاكم التفتيش. ينزل أساتذة الجامعات

(١) نقاط التمديد: هي نقاط توضع على يمين النغمة الموسيقية لإطالة القيمة الزمنية لهذه العلامة الموسيقية.

(٢) الكركرة: العُرب في الغناء.

ليكونوا معلمين قرويين؛ يستلم غالبية المربين الريفيين المعاش وقطعة من الأرض غير مزروعة لحرثها، وهكذا تتوسع قدراتهم الحقيقية بشكلٍ طبيعي. يدخل عديد من التعساء الموهوبين -الذين تذبذبوا في سبل الحياة ولم يعرفوا أي طريق يسلكون- مهنة التدريس المبجلة التي ترتقي إلى الوظيفة الوطنية الأولى. «المعلم الأكثر تواضعًا في إسبانيا سيحصل على راتب أعلى من القانوني».

هكذا يتحدث هومروس وسط ضحكات رفاقه، تاركًا بتواضع حل المشاكل الأخرى إلى رجال الفكر العظماء: مشاكل المعدة والضمير. هو لذويه، لصقل العقل الوطني؛ وبمجرد ركوب قاطرة التثقيف بشكلٍ صحيح، فإن أي شخص بلغ عشرين عامًا دون الاستفادة من هذه التسهيلات الثقافية سيتم طرده من الأراضي الإسبانية ليسكن إفريقيا.

سقط الدكتاتور المخيف، عندما خرج في الشارع قبل الفجر بقليل، فجأةً في الواقع. يجعل البرد -المتسلل من تحت الكاب الرقيق- الجندي الذي يعدم أمناء المكتبة رميًا بالرصاص ومدمر المتاحف العنيف يرتجف. يشعر الطاغية بإثارة شهيته من جديد مع برودة الفجر، ويقبل من المدير أو أي زميل فنجائًا من سُكُنوسكو^(١) مع نصف دزينة «فطائر». يذهبون إلى متجر الشوكولاتة في شارع خاكومتريثو، يجلسون بالقرب من الجدران المكسوة بالبلاط البارد، أمام بعض الواجهات الزجاجية المفتوحة عن عمد لكي يصاب جميع الأوغاد -الذين ينتظرون الصباح حول الطاولات الأولى- بالالتهاب الرئوي.

(١) سُكُنوسكو: شوكولاتة كريمية سميكة جدًا، لها نكهة ورائحة خاصة.

هناك - وهو يغمس الزلاية في السائل الموحول في الفنجان - يشعر بآماله تولد مرة أخرى، على الرغم من أنها أقل حدة مما هي عليه في جو صالة التحرير الدافئ. سيكون شيئًا. كان يصعد عاليًا. وكلما ملأ معدته، يشعر بأن إيمانًا أعمى بمصيره يشجعه. وبهذه الآمال، بدأ السير نحو لوس كواترو كامينوس، ليستريح على السرير الذي لا يزال دافئًا.

بينما تحين لحظة صعوده، لم يكن ممكنًا تصور حياته أكثر حزنًا. بدلًا من أن يبذل قصارى جهده، كما نصحه زوج والدته، ليستولي على لقمة العيش، كان يقرأ ويقرأ من أجل متعة المعرفة، مثل سيد عظيم يجب عليه أن يثبت وجوده وكل أهوائه. يقتطع من طعامه ليتمكن من دفع رسوم جمعية الفنون والعلوم متأخرًا. بدت له الحياة دون قراءة المجلات، ودون معرفة ما يحدث في أوروبا، لا تطاق. أضاع ليالي كاملة في غرفة التحرير، ونادرًا ما يمسك القلم. في البداية، كلفوه بكتابة الأحداث، وزيادة البرقيات. كان المدير مهتمًا به؛ يريد ضمه إلى موظفي الدار وأن يتمتع براتب يساوي راتب حارس المكس. لكنه قضى ليلة في تمزيق الصفحات والسير بتوتر ليحكي عن أحد الحرائق، وفي النهاية اضطر إلى تسليم الأمر إلى أحد أوغاد الدار صغار السن الذي لا يعرف كيف يكتب سطرًا مع تهجئته. أعطوه برقيات ليُزيدها، فكتبها بعدد كلمات أقل من كلماتها الأصلية. لقد كان روحًا متفوقة، غير قادرة على أداء مثل هذه الوظائف المتواضعة. في أحد الأيام، عندما تم تكليفه بالمقالة الافتتاحية بسبب غياب المحرر، ملأ ثلاثة أعمدة

من النشر المتعقل وغير المؤثر، نتج عنه -بعد فحص ووزن كل ما هو راهن- هدف سيئ ومعيب تدافع عنه الصحيفة ونظام الحكام الحاليون.

ووفقاً لصاحب العمل، هومروس هذا صابة^(١) معرفة. يقتل كل ما يغطيه بظله. لقد منحوه حرية الكتابة كما يشاء ونشر ثلاث مقالات عن راسكن^(٢) والجمال الفني، وعن نيتشه والإمبريالية، وعن التناغم والتنافر بين الاشتراكية ومذاهب داروين وهيجل. بعد شهور كانوا لا يزالون يضحكون في صالة التحرير على تلك الأعمدة النثرية الكثيفة والباهتة التي لم يقرأها أحد حتى النهاية. أكد السيد كريستوبال بسخرية شديدة أن الصحيفة ستكون على وشك الانهيار، وأن القراء سيهددون بالإضراب إذا نُشر مقال آخر لهومروس. الذهاب بمثل هذا الهراء إلى الجمهور المحترم، الذي يرغب في أن يصف رئيس مجلس الوزراء بالمخلاة أو في أن النواب يُكذَّبون السادة أصحاب المقاعد الزرقاء^(٣)!

استمر مالترانا -عديم الفائدة، الذي أصبح بلا أمل في الفوز بالخمسة عشر دورو^(٤) شهرياً التي ألحوا بها له قبل أن يفشل- في الحضور إلى صالة التحرير في الموعد المحدد. إلى أين سيذهب؟ هناك وجد من يستمع إليه، ولو بإيماءات ساخرة؛ في بعض الأحيان يشيدون

(١) صابة: شجرة ثمارها كالتفاح الصغير تُفرز سماً، قيل إن الموت يُصيب من ينام تحتها.

(٢) راسكن: جون راسكن كان ناقدًا فنيًا إنجليزيًا ومفكرًا اجتماعيًا بارزًا في العصر الفيكتوري، بالإضافة إلى كونه رسامًا ومتخصصًا في الألوان المائية.

(٣) المقاعد الزرقاء: هي مجموعة المقاعد التي تكون مخصصة للحكومة في التقليد البرلماني الإسباني. عُرفت بهذا الاسم بسبب لونها الخاص.

(٤) دورو: اسم لمسكوكة قديمة، تساوي الآن ٥ بيزيتات.

بثقافته، وذهبوا إلى حد الاعتراف بأن لديه بعض الموهبة، لكنه كان معتوفاً. بالإضافة إلى ذلك، فقد أدرك عيبه الكبير، مصيبة جيله، التي حطمت داخله الدراسة الفوضوية والإفراط في التفكير، سبيله الرئيس للحياة: الافتقار إلى الإرادة. كان عاجزاً عن العمل. درس بشغف ولم يعرف كيف يتحصل على نتائج دراسته. أمضى الليالي يتحدث. تشق التناقضات الظاهرية حديثه مثل صواريخ ذات ألوان زاهية. لكنه يشعر أنه غير قادر على إصلاح بقلمه ولو جزءاً صغيراً من الأفكار التي تفلت منه في فورة المحادثة.

وظل بلا حراك، عالماً في طريقه، مدركاً أنه يضيع وقته، وأنه يخطئ في مسار حياته، دون حماس لمحاولة بذل جهد، واثقاً في قدرة غريبة ستخرجه من الطريق الخطأ، متأكداً من حصول حدث غير عادي من شأنه أن يخرج به من الفوضى التي غرق فيها، دون الحاجة إلى فعل أي شيء من جانبه.

كان هذا الصباح من أسعد صباحات الشاب. يمتلك النقود، في الليلة السابقة قبض ثلاثة عشر دورو من الترجمة، وشعر ببعض اللذة من ثقل حفنة الفضة التي بجوار بطنه، والتي لا تزال تحتفظ بدفء ورفاهية المعاملة الجيدة الحديثة. تناول أشهى الأطباق في أثناء عشائه في الحانة، ملاذ الأيام السعيدة، ومن دواعي سروره أيضاً أن يدفع شوكولاتة الصباح لزملائه المحررين، المندهمشين من الثروة الوفيرة.

أغرى كرمه أيضاً صديقه الطيب من بيت المكس، الذي يقدم إليه سيجارةً وجزءاً من قهوته كل صباح. أراد أن يكرمه، وأن يشاركه في

ثروته، وبالقوة تقريباً أخذه إلى حانة ريفية خلف بيت المكس. سيتناول
فنجاناً من الشاي، كوباً، ما يريده: كان الوقت الذي اعترف فيه بشيءٍ
يخصه.

وظلاً بالقرب من باب الحانة، في انتظار أن يتم خدمتهما، ولا
يريدان الدخول إلى جوها الثقيل المقرف.

خلف بيت المكس، عند المسقى، ينقر سربُ حمامٍ الأرض.
كانوا من شارع قريب من لوس أرتيستاس؛ طاروا حتى هناك للبحث
في الأرض عن بقايا مرعى الثيران. بجانب النُّزل ترتفع الحوائط الترابية
البيضاء لمصح الكلاب، ملجأً كلاب الأغنياء، يعتني بهم طبيب بيطري
في مرضهم.

رأى مالترانا رجلاً يترك الطريق متجهاً إلى النُّزل. قال رئيس بيت
المكس:

- إنه كولتا دومينغو، جامع القمامة الشهير من لاس كاروليناس.

يحمل على ظهره كيساً فارغاً، لكنه يسير منحنيًا بالفعل، كما
لو أنه يشعر بثقله. كان الحذاء، الأطول من القدمين، مثنيّ الأطراف
إلى الأعلى؛ وسرواله الذي من القطيفة محكم عند الخصر بحبلٍ
من الحلفاء؛ وقد كشف قميصه المفتوح عن شعر أبيض ملبد وجلد
رقبة مجعد بأوتار مشدودة. ويكمل هذا الزي القذر والبائس بمعطف
له ذيل طويل وقبعة محدبة، مشوهة، تنتهي في طرفها مثل خوذة
المحارب.

كان عجوزًا، في وجهه الحليق بعض الحقد الكهنوتي، وعيناه الصغيرتان الخضراوان محميتان تحت حاجبين رماديين ضخمين. كان جزء من خديه الذي تداعبه الحلاقة هو الجزء الوحيد النظيف من وجهه. والباقي أسود من القذارة. كل تجعيدة أخدود موحل، وفروة الرأس المحلوقة تُظهر الشعيرات الحادة البيضاء بين قشور الرأس المتصلبة.

حيّا كولتا رجل بيت المكس، ثم ركز عينيه على مالترانا.

- ألسنت إسيديرو حفيد ماريوسا... أحد سادة مدريد ويكتب في الصحف؟

أجل؛ كان هو، وكان سعيدًا أن كولتا قد عرفه. «ماذا تريد أن تشرب؟».

ولكن قبل أن يجيب جامع القُمامة، لاحظ مالترانا وصديقه خدشًا كبيرًا أدى إلى احمرار جانب وجهه بالكامل، والدماء الجافة تلتطخ حواف المَزَق.

رفع كولتا كتفيه بلا مبالاة. لم يكن ذلك شيئًا: تعثر وهو يغادر حانة كوبانيتو في الليلة السابقة.

- قمنا أنا وفتيان من الحيّ بعمل جلبة حتى الواحدة صباحًا. سُكر شديد!

قبل أن يطلب شيئًا من صاحبة الحانة، التي ضحكت بمجرد رؤيته، أراد أن يعرف ما يشربه مالترانا، وأبدى إيماءة اشمئزاز عندما سمع أنه كأس من عَرَق الليمون.

-عَرَق! هذا للسكرارى. النبيذ: خمر نقي يطيل العمر؛ وكلما كان أكثر، كان أفضل.

يجب رؤية لفظة السخط التي يتحدث بها عن سكرارى الكحول، مادحاً فضائل السائل الأحمر. هناك يجاملونه مع سنيته الثماني والستين. يذهب كل صباح إلى مدريد للنش، وعندما يعود إلى كوخه في لاس كاروليناس، يمضي الساعات في اختيار حمولته وحمولة جارته، ثم يقوم بتنظيم حفلة في الحانة حتى الفجر، وعندما يكون في حالة رائعة يتعرّى دون خوف من البرد، حتى تصرخ فتيات الحي بشكلٍ فاضحٍ ويضحك الرفاق. لم يمرض مطلقاً.

- أنا لا أنام. أكل... أقل من طائر! أتغذى على كسرة خبز كذلك، واعذروني حضراتكم في الطريقة التي أشرت بها. إنه أكل رديء: الخبز يُفسح المجال للشرب. بالإضافة إلى أنه يُسبب الدوار ويجعل أحشاء الشخص تضطرب، ويتقيأ ويشمئز من الآخرين بسبب نشوته غير اللائقة... بالنسبة لي يحفظني النبيذ! يحيا الأسود! والأبيض أيضاً! هذا أفضل من الصيدليات.

وشرب فجأة الكأس التي قدمتها صاحبة الحانة إليه. مجموعة صبية تتبعه بنظراتها، من الطريق، من على بُعد وتطلق الشتائم.

- كولتا! أيها العم صاحب المعطف! السكران!

استقبل جامع القمامة هذه الصرخات بهدوء، كبطل راضٍ عن نجاحه الشعبي. وبينما يصرخون، حدث شيء أسوأ عندما صاحبت الحجارَةُ الصراخ، واضطر إلى التخلي عن كيسه لملاحقة المعتدين.

- اذهبوا واعبثوا في... عقيدة أمهاتكم.

وبعد هذه النصيحة الحكيمة، التي جعلت عصبة الأوغاد تزيد من سبابها، تذوق كولنا مشروبًا آخر، ممتدحًا الحظ السعيد الذي جعله يصادف أصدقاء سخيين في الصباح.

كان أفقر جامع قُمامة: لا عربة، لا حمار، لا بيت. يشرب كل شيء. زوجته متوفاة، وعندما يتحدث عنها تببل عيناه بسبب تذكره، بلا شك، الضرب الذي ضربها إياه. الآن على علاقة ببورأتشا، أقذر وأسوأ عاملة موجودة من بيابيستاس إلى فوينكارال. تنين يرتدي تنورة، أيها السادة؛ هو لم يكن يخجل من الاعتراف بجبنه. كان إذا أعطاه صفقة واحدة، تعيدها إليه ثلاثًا؛ ومن غير المجدي عند عودته من النباش أن يشتري عصا دردار جيدة من دكاكين إستريتشو أو قطع عصا شائكة من أي سياج: كان ذلك بمثابة توفير السلاح للعدو، حيث ينتهي الأمر ببورأتشا إلى أخذها منه، وهي تحثه على الخروج من الحانة.

كل الحسد، والغضب الصّرف؛ لأنه يجد أصدقاء يدعوه، وعليها هي -التي تحب النبيذ كثيرًا- أن تكتفي في أحسن الأحوال بـ «كورتيناس»، أي بما تبقى في قاع الكؤوس.

يعيشان في نوع من التقفيضة في نهاية حظيرة مليئة بأكوام القمامة. يساعدان مالكة المنزل في النباش بمنتهى العناية عن البضاعة، كما أنه يجلب على عربتها الكيس عند عودته من مدريد. لديه زبائن جيدون. منذ شبابه يستغل أحد أفضل الشوارع، يعيش فيه الإقطاعيون الذين يأكلون جيدًا. مع بقايا الطعام يمكنه أن يسمن مثل راهب، إذا أحب

تناول الطعام. عاش أبنائوه من زواجه الأول في مدريد، عملوا أحياناً في رصف الشوارع وأحياناً غاضبون من الجوع. بالكاد يراهم.

- العائلة.. معيوبة، يا سادتي. كلما كان لديك الكثير، تستحق الكثير؛ كل شخص لنفسه. عندما يراني الأولاد يحدثونني عن التنازل عن زبائني إليهم. مالكة بيتي أيضاً تريد نفس الشيء... هراء! العمل دائماً باسمي. أنا حيّ ورأيت الكثير. العمل عملي، بينما أعيش أنا: دومينغو ريفرو، الملقب باسم كولتا، في خدمتكم.

وعندما يتحدث بهذه الطريقة، نظر بفخر إلى الكيس الذي يحمله على كتفه، العمل المحسود، الذي ينوي الدفاع عنه حتى وفاته، كما لو أن قطعة الخيش هذه ستكون كفنه.

ثم امتدح صاحبة الحانة ونبذها. «مرحى أيتها النساء الفضليات! الكأس هناك أرخص من الكؤوس في حيّ جامعي القمامة، لكنه أفضل بكثير». عندما يذهب إلى مدريد ويعود، لا يستطيع تجنب إغراء مغادرة الطريق للتأمل في أعين المالكة، وهيئتها الوقورة وزبائن الدار، جميعهم سادة... وبكلمات المدح هذه فاز بكأسٍ ثالثة.

عاد مالترانا وصديقه إلى بيت المكس؛ خوفاً من أن يتخلى جامع القمامة عن ذهابه إلى مدريد إذا دعوه مرةً أخرى. تبعهم كولتا، مؤكداً أنه ليس في عجلة من أمره. يستيقظ زبائنه في وقتٍ متأخر.

على أرصفة بونتيا برابا أنشئت فعلاً أكشاك سوق لوس كواترو كامينوس الصغير. تتدلى من قواطع العوارض السوداء أرباع من رأس بهيمة مسلوخة. تتخلل رائحة حامضة من السمك المنقوع في الخل

والخضراوات الذابلة الهواء. تفرقت مجموعة الأطفال الذين يضايقون
جامع القمامة عندما رأوه برفقة جيدة، مختبئين خلف عربات الترام
الأولى.

فجأة أضاء الصباح الرمادي ببريقٍ من الذهب. تتمزق الأبخرة
البيضاء، انفتحت حفرة من اللون الأزرق الداكن في السحب، عبرت
خلالها أشعة الشمس المخفية. بدت الأرض كأنها تبتسم تحت قناعها
الرطب. تتلألأ برك المطر مع انعكاسات مرتجفة، كأنها مأهولة بأسماء
النار؛ ظهرت البيوت الريفية الحمراء والبيضاء كضربات فرشاة قوية
على التلال الخضراء الداكنة التي تحدد الأفق. بدا برج سانتا كروث
مثل لهب مستقيم فوق أسطح مدريد. انطلق سرب من الحمام في رحلة
حلزونية، مع حفيف الريش والهديل المبهج.

مرت شابتان بجانب بيت المكس الواحدة متأبطة ذراع الأخرى،
بلثام من شال أمام أفواههما. لديهما جمال العاملة، ونضارة ذلك
الشباب الهزيل للعاملات، الذي ينتصر للحظات فقط على فقر الدم
الوراثي، وعلى العوز الذي يعوق النمو.

ثبت مالترانا عينيه على الأصغر، سمراء ذات وجه شاحب وعينين
كبيرتين بلونٍ أسود حاد، مائل إلى الزرقة، تمامًا مثل شعرها. نصفها
العلوي منتصب داخل الشال في غطرسة طبيعية، وتنانيرها الصيفية
الرديئة تتحرك ببعض الإيقاع المهيّب، دون أن تلمس الوحل الذي حوّل
قدميها الصغيرتين متعلتي الحذاء اللتين بعناية كشفنا أنهما أكثر جزء
تهتم به.

صرخ المخمور، واضعاً يديه على خاصره:

- يحيا ما هو جميل! هناك تسير مفخرة الحي!

وللتعبير عن حماسه بشكل أكثر حيوية، ألقى القبعة الغريبة في
بركة ماء، ملطخاً الجميع بالطين.

حيّ الموظف الشابتين بلهجة أبوية:

- كونا بخير... احذرا أن تتوها.

تجاوزتهما الاثنتان مبتسمتين، دون أن يجيبا على التحية إلا
بإيماءات الرأس. تحدثت الفتاة الصغيرة وهي تبتعد:

- وداعاً يا إسيدرو.

قالت بصوتٍ جاد، وفي نفس الوقت احمرت وجنتاها.

أجاب الشاب:

- وداعاً يا فليشانا.

وتبعها بعينيه، مُعجباً بمشيئها الإيقاعية والرشيقة على الطين،
وجسدها الرقيق والممشوق الذي يصغر بابتعادها.

غابت الشمس فجأةً. تلبدت الغيوم ولم تعد البرك تلمع. انتشر
حجاب رمادي فوق الأرض مرةً أخرى، وتوقفت حلقة الحمام عن
الرفرفة، وسقطت فجأةً في الوحل.

تحدث رئيس بيت المكس عن الفتاتين. يراهما تمران كل صباح في
نفس الوقت، تعملان في مصنع للقبعات في شارع برابو موريو. كانت

فليشيانا الابنة الوحيدة لموسكو الصياد الشهير من تطوان، ورفيقتها فتاة من بياسيستاس تمر عليها كل صباح للذهاب للعمل معًا.

جعل اسم موسكو جامع القُمامة يُطلق صيحات الإعجاب. كان ذلك رجلًا. سبب الأرق لكل الناس في ريال باتريمونيو^(١). عرف كولتا ذلك من مصدر موثوق به: كان مدير إباردو يائسًا لعدم تمكنه من القبض على موسكو، وكان الحراس -بمجرد هبوط الليل- يتساءلون في أي جانب من الغابة الشاسعة سيعمل ذلك اللص.

تنام الأرانب الصغيرة في جحورها، مستسلمة سلفًا لعضة ابن مِقرض الدموية التي توقظها، اليحامير، عندما تشرب من مجرى الماء في ضوء القمر، تخور: «انتبهوا يا إخواني، لا بد أن موسكو يسير بالقرب». كان كلبه -الملقب ببويستو إن أما- مشهورًا بكونه مخيفًا، لدرجة أنه عندما قتله الحراس في إحدى المواجهات، حملوه منتصرين إلى إدارة إباردو، وهناك أبقوه مغطى بالتبن مع عينيه الزجاجيتين كأنه تحفة المكان الملكي.

يعرف كولتا هذا الحيوان. يصطاد الأيل الأسمر في الطريق في منتصف الليل، لم يكن هناك أيل يقاومه. ذات مرة جعل سيده يربح ما يقرب من ثلاثة آلاف ريال. الآن لدى موسكو كلب آخر، بويستو إن أما الثاني، جوهره حقيقية، ولكن أقل جدارة من الآخر، ومعه

(١) ريال باتريمونيو: هو الاسم الذي أطلق في القرن ١٩ وحتى عام ١٩٣١ على المؤسسة التي أدارت جميع الممتلكات التابعة لتاج إسبانيا. تضمنت هذه الممتلكات القصور، الأديرة، اللوحات، الأشياء الفنية أو الأثاث.

استمرت رحلات «المُخرب»، وجرأة خفية، تجعله يخرج منها في بعض المناسبات وهو ينزف الدماء، بينما يشق طريقه دائماً من خلال طلقات الحراس وعدو الشرطيين الممتطين الأحصنة. يا للرصاص الذي يحمله ذلك الرجل في جسده!

بعد أن استوفى كولتا مدح الصياد الجريء، الذي يعرف مآثره أفضل ممن كانوا يستمعون إليه، كان على وشك الانطلاق إلى مدريد، عندما لاحظ بغريزة الطفيليات لديه عربة مكشوفة تتقدم متأرجحة ببطء فوق آثار العجلات في طريق. البغلة - طويلة القامة وقوية - مصابة بجروح كبيرة بسبب قلة النظافة، ورأسها الكبير مزين بشرائط متعددة الألوان وجودت في القمامة. بدت كأنها بهيمة قبيلة تسير مزينة إلى احتفال همجي. قال كولتا:

- ستحملني هذه. مهلاً أيها العم بولو.. سيد بولو، توقف! يوجد هنا أصدقاء.

ظهر رأس رجل عجوز من الجزء الخلفي من العربة، مثل دمية من الخرق في قاع الصندوق، مع ياقة سترته التي تلامس أذنيه وغطاء شعره الذي يصل إلى كتفيه. وجهه أحمر ممتلئ الخدين، مع غموض في عينيه يحده الغباء. توقفت العربة، وشيئاً فشيئاً خرج رجل عجوز آخر من المقدمة، انضم إليه بمشقة وفي يده اللجام. بدا أنه الأب إترنو. لحيته الفضية العريضة تنتشر على صدره وتشكل هالة من الصوف الأبيض حول وجنتيه المتوردتين. الشفة العلوية - المحلوقة بعناية - هي الأنظف في وجهه. العينان الخضراوان الصغيرتان العميقتان محاطتان بالتجاعيد

التي بدت مثل خطوط الفحم بسبب الأوساخ في أخايدها. البدلة مبالغ فيها مثل كبر سنه. يرتدي نوعًا من حُلل القداس من فرو الأرنب، مثبت على الخصر بحبل. يحمي بنطاله عند فخذه مئزر مقطوع من سجادة قديمة ومزين بشرائط تشبه شرائط البغل. تغطي قبعة مائلة إلى الخضرة، عليها آثار أنسجة عنكبوت، رأسه الوردي والأبيض. تكشف زينتته الشخصية عن الأوساخ الجامحة والبساطة الطفولية. يده سوداوان مع قشور على ظهرهما، الخدان والشفتان التي تداعبها ماكينة الحلاقة، تُظهر نضارة طفل.

قال بصوتٍ منخفضٍ حاد ونبرة مهذبة: «ماذا أقدم لكم؟ كيف يمكنني مساعدتكم أيها السادة؟».

ثَبَّتَ عينيه على كولتا، وعبس احتقارًا:

- آه! هذا أنت أيها السكير!

ثم حيَّا برأسه رئيس بيت المكس، فهو يحترم أي سلطة قد تزعجه. وعندما وضع عينيه على مالترانا، أطلق صرخة فرح. سأل بصوته الطفولي:

- لكن هل هذا أنت، إسيذرو؟ حسنًا، لم يكن لديَّ رغبة كبيرة في رؤيتك! لا تفكر الجدة في شيء آخر؛ دائمًا تطلب مني نفس الطلب: «إذا رأيت الصبي، فقل له أن يأتي. لم أره منذ أن تزوجنا».

- أجل، هو أنا يا صديقي زرادشت. كيف حال جدتي معك؟ هل

لا تزالان في شهر العسل؟

قام الرجل العجوز بإيماء احتجاج، وهو لا يزال يتسم.

- مرة وإلى الأبد، سَمَّني اسمًا ولا تغيره حسب رغبتك. أحيانًا تناديني كروجر، ولا يزعجني أنك تقارني بهذا الرجل الطيب الذي تقاتل مع الإنجليز... أناس سيئون! ذات يوم وجدت في القمامة علبة من أعواد الثقاب عليها صورته، وفي الواقع، نحن متشابهان... في أوقاتٍ أخرى، أنا تراباتوسترا أو... ثورًا لا أعرف مَنْ.. شخصية أخرى أشبهها أيضًا، وفقًا لما تقوله... أجل؛ أعرف مَنْ هو؛ لقد أخبرتني بقصته ذات يوم. رجل حكيم لم يكن يمتلك كلبًا صغيرًا مثلي. لديه سر كل شيء ويضحك على كل شيء... مثلي؛ يعيش في مكان مرتفع، مثلما أعيش، وأرى مدريد كلها عند قدمي. بجانبه فرخ عُقاب عندما يحكي عن أموره، وأنا في حالة عدم وجود الطائر الكبير، لدى خمسة كلاب تفهم أكثر من كثير من الناس، يحيطون بي ويستمعون إليَّ عندما أحكي عن أموري... لأنك يا إسيدريو حتى لو بدا أنك تستهزئ من شخصيتي، فأنت تدرك جيدًا أن لديَّ شيئًا من الحكمة.

صاح مالترانا بنبرةٍ ساخرة:

- مَنْ يمكن أن يشك في ذلك؟ لسببٍ ما أُسمِّيك زرادشت. أنت منفرد في بياسبستاس، فيلسوف لوس كواترو كامينوس، رجل النباش الحكيم، أعمق جامعي القمامة الذين يدخلون مدريد.

تابع زرادشت، متوجهًا إلى رئيس بيت المكس:

- أربعة وتسعون عامًا يا سيدي. الجسم سليم، معدة نسر؛ لديَّ فقط ساقان ضعيفتان، مما يجبرني على البقاء في العربة، بينما يدخل

ذاك، وهو مساعدي -وأشار إلى الأحقق ذي غطاء الرأس- إلى المنازل. أنا الأكبر في المهنة. لم يتبقَّ سوى عدد قليل من زماني هناك في راسترو^(١)، حيث استقروا، وجمعوا ثرواتهم، ولديهم منزل مفتوح في الأمريكتين. أكثر من خمسين عامًا في الخدمة، وطوال هذا الوقت لم أتوقف عن النزول إلى مدريد يوميًا واحدًا... لقد رأيت الكثير؛ لقد رأيت سيّدًا من برابو مورييو يجلب الماء إلى مدريد وتدفق لوثويا^(٢) للمرة الأولى في النافورة القديمة في لا بويرتا دل سول؛ رأيت كيف توسعت المدينة الصغيرة وطردت الفقراء حتى نذهب أبعد. لقد رأيت بيت المكس هذا عندما كان في مكان ما يُعرف اليوم بميدان بيلباو. وحيث امتلكت أول كوخ خشبي يوجد الآن مقهى كبير. كان كل شيء مسوّى بالأرض، كهوف للأشرار؛ انتزعوا من الله عباءته فهبط الليل، والآن يمشي المرء هناك، وكل شيء عبارة عن شوارع ومزيد من الشوارع، ضوء كهربائي، حجارة وأسفلت، حيث رأت هذه الأعين الآثمة الأرانب تجري... المقابر القديمة بقيت في الداخل، الفقراء الذين يعيشون بالقرب منها سينسحبون، وسوف ينتهي بنا المطاف بالتخيم خارج فوينكارال. يقولون إن هذا تقدم، وأنا أحترم هذا السيد كثيرًا. جيد جدًا لأجل التقدم... لكن ليكن الأمر نفسه للجميع. لأنني يا سيدي أرى أنه لا يتذكر الفقراء إلا ليطرنا بعيدًا فقط، كما لو أن

(١) راسترو: هو سوق يُقام في الهواء الطلق تُباع فيه الأشياء المستعملة. كانت بداية إقامته حوالي عام ١٧٤٠ كل صباح يوم أحد وفي أيام العطلات الرسمية.

(٢) لوثويا: نهر يمر بالقرب من وسط مدريد.

رائحتنا كريهة^(١). لا يتقدم الجوع والبؤس أو يتغيران لشيءٍ أفضل. المدينة مختلفة، أولئك الذين في القمة ينفقون بشكلٍ أكثر تبجحًا، لكن مَنْ مِنَ الطبقة الوسطى والدنيا كما كانوا. الجوع الآن كما كان في أيام شبابي.

قال مالترانا مستغلًا وقفة من العجوز.

- جيد يا زرادشت، جيد جدًا!

تابع العجوز، موجهًا كلامه إلى رئيس بيت المكس:

- أنا يا سيدي أكثر ما آسف له أنني لن أرى ما سينتهي إليه كل هذا. وُلِدَ التقدم في زمني. عندما كنت صبيًا، سارت المياه في الاتجاه المعاكس. عندما كنت شابًا، كنت كارليست^(٢)؛ أنا من لا مانتشا وأصبحت مع باليوس^(٣): جهل محض. لكنني أكرر أنني رأيت الجنين يولد، وسأكون سعيدًا أن أرى بعيني إلى أي مدى يصل، ففي الوقت الحالي لم يتم فعل الكثير لصالح الطبقة الوسطى... لكنني عجوز جدًا! هل ترى حضرتك كولتا، هذا السكران الذي يستمع إلينا؟ يبدو أنه أكبر مني، وأنا حضرت ولادته... أربعة وتسعون عامًا يا سيدي، وسأعيش

(١) يتحدث هنا زرادشت عن التقدم على أنه سيد يتحكم في مصائرهم.

(٢) كارليست: عضو في حزب أنصار بيت الأمير كارلوس دي بوربون، وهو وريث عائلة بوربون الملكية الأوربية المهمة التي حكمت سلالتها إسبانيا، نابولي وصقلية في القرن الـ ١٨. وقد تأسس هذا الحزب السياسي -المتمسك بالتقاليد القومية والدينية- بسبب الخلاف على توريث العرش الإسباني.

(٣) باليوس: عبارة عن مجموعة منظمة من قطاع الطرق الذين تطوعوا في الحرب الكارلية الأولى بقيادة الأخوان بينيت وفرانيسكو روخيرو.

بعد المائة بقليل . متأكد من هذا.. فأنا أعلم هذه الأمور .

كان مالترانا وصديقه يستقبلان كلمات الرجل العجوز بحركات إيجابية . لا يمكن إيقاف إسهابه بمجرد انطلاقه، يتحدث بعدم ترابط طفولي .

- تأخرت في النباش اليوم، لكن لا يهم . زبائني مضمونون وجيدون : المقاهي في بويرتا دل سول والمتاجر القديمة في شارع كارمن . يوجد بيت أمتلكه من أربعين سنة، لقد عرفت مُلاكه الحاليين وهم أطفال، وعندما يكون يخوفونهم ويهددونهم بالعم بولو، الذي سيأخذهم في عربته . حينها كان لديّ روح دعابة أكثر وسترات أفضل . لطالما أحببت أن أردي ملابس جيدة . هل تريان ثوب الفرو هذا الذي لا يرتديه حتى الملك ؟ حسنًا، لقد صنعتُه أنا؛ وأحتفظ أيضًا بواحدٍ آخر في المنزل أيام العطلات، مع شرائط ملونة ونظارات تمنع الرؤية: زيّ عين من أعيان جزر الهند العظيمة، وفقًا لما يقوله إيسيدريو . في أوقاتٍ أخرى كنت معتادًا على ارتداء ملابس كحاج للذهاب للنباش، لكن الأولاد يتبعونني مثل الحمقى، وكان رجال الدرك يهددونني بأنهم سيقودونني إلى المخفر . لماذا يا سادتي؟ ما كنت أقوله لكما: أُلسنا كلنا في هذا العالم حجاجًا نطلب من الآخرين ونسير حتى نصل إلى نهاية حياتنا؟ الحاج هو الملك الذي يطلب من أولئك الأقل منه الملايين التي يحتاجها ليعيش حياة عظيمة؛ الحجاج الأغنياء الذين يعيشون على ما يحصلون عليه من الفقراء؛ نحن الحجاج، من الطبقة الوسطى... ولا أقول أولئك من الطبقة الدنيا؛ لأنه قبح . لا يوجد مخلوق من الله في الطبقة الدنيا .

فقط الحيوانات في الدنيا. نحن من الوسطى.

يتحدث وهو ينظر بعيداً، بشيء من الغموض المعروف لمالترانا على أنه نذير لهمرات من الهذيان.

فصرخ الشاب:

- زرادشت، لقد حلقت! لا تسحقنا بحماقاتك الفلسفية.

- حسناً، لقد حلقت. لم أستطيع النوم طوال الليل... هذه السيقان اللعينة، الروماتيزم الذي يتشبث بهما مثل كلب مسعور. يا له من موسم! والأسوأ أنه سيستمر طوال هذا الشهر. أنت تعلم يا إسيدريو أنني أفهم مثل هذه الأمور. لا كتب ولا بوصلة ولا خرائط مثل الحكماء. لقد قضيت حياتي في الريف، وأنا أنظر إلى السماء ليلاً ونهاراً. بالنسبة لي لا تحمل أسراراً. صدقني يا سيدي -أضف مخاطباً رجل بيت المكس- الشمس هي الجسد الكريم وكل الخير يأتي منها. ولكن قبل أن تصل إلينا، فإنها تمر خلال أربعة أجسام: أزرق وأحمر وأصفر وأخضر. هذا هو السبب في أننا نرى قوس قزح. حسب اللون المسيطر، وهكذا يكون الوقت. بالإضافة إلى ذلك، هناك ثمانية رياح. لكن هذه لا يفهمها إلا من يديرها، وهو الله. أليس هذا صحيحاً وواضحاً؟ حسناً، السادة الحكماء لا يريدون سماعي. لقد زرت المرصد مرات عديدة لتقديم نصائح جيدة، ولم يسمحوا لي بالمرور من الباب، قائلين إن لديهم بالفعل شخصاً لجمع القمامة. هكذا يسير كل شيء في هذا البلد. لا أحد يهتم بأمور السماء، وفي السماء يكون الخبز. من دون مطر لا توجد زراعة، والزراعة هي أنبل مهنة في البلاد. يجب حمايتها؛ يجب مساعدة

الطبقة الوسطى؛ التي أنهكت من الطبقة الأعلى، التي تمتلك بالفعل ولكن ليس كل شيء بالنسبة لها.

قاطع مالترانا الرجل العجوز. كان قادرًا على البقاء هناك طوال الصباح إذا استمروا في الاستماع إليه. سيكون زبائنه في انتظاره؛ رmqه مساعده، بوبو، بنظرات نافذة الصبر؛ كان كولتا المسكين ينتظره ليسمح له بالصعود إلى العربة للذهاب إلى مدريد. قال بولو بصوتٍ عطوف:

- اصعد، الحياة أبدية.

صعد السكير إلى العربة، وسحب كيسه الفارغ، وجذب زرادشت الزمام، وسار بالبعلة بشكلٍ مائلٍ للوصول إلى وسط الطريق. وقال جامع القمامة:

- وداعًا. لا تنسَ يا إسيدريو أن جدتك في انتظارك. اذهب إلى هناك؛ ستُسعد المسكينة... وأنت يا سيدي تذكر ما يخبرك به رجل عجوز يعرف شيئًا. عليك أن تساعد الطبقة المتوسطة. المتوسطة هي التي تمنح الخبز.

يتحدث ورأسه يستدير نحو بيت المكس، وهو يجذب زمام البعلة، دون أن يرى إلى أين يتجه. اصطدمت العربة بترام توقف لتوه في ساحة لوس كواترو كامينوس. تسبب طرف أحد قضبانها في سقوط عدة قشور من الورنيش وشظية طفيفة من العربة.

أطلق الموظفون اللعنات، وترجلوا يهينون زرادشت.

ركض الناس، واقترب من كانوا في بيت المكس، وتشكلت دائرة

كبيرة من الفضوليين حول العربة والذين يلوحون بأذرعهم يوبخون جامع القمامة. قال العجوز بصوتٍ حزين:

- لا داعي للغضب أيها السادة. أعرف ما يحدث.. خذوا اسمي.

كتب أحدهم عنوان العم بولو، دون أن يتوقف عن تهديده بسبب حماقته، وتوقع أن يكلفه اللهو غالبًا. كان نادرًا أن يمر أسبوع دون أن يصطدم مع الترام. في عمر كعمره عليه البقاء في المنزل، لا قيادة البهائم. غادرت العربة، وابتعد الفضوليون، واستحث زرادشت البغلة مرةً أخرى، بينما بوبو والمخمور صامتان، مذهولان من الحادث. قال للشباب:

- أنت يا إسيدريو لأنك تكتب في الصحف وتعرف شخصيات، تحقق إذا كان بإمكانك إصلاح ذلك من أجلي.

لكن العجوز قبل أن يجيبه مالترانا، ابتسم بحزنٍ وتابع قائلاً بتعبيرٍ محبط:

- لا تتعب نفسك؛ فذلك بلا فائدة. وداعًا أيها السيدان. إلى مدريد، أيها البغلة... سأدفع مثل العادة. من يعيث مع هؤلاء السادة إلا أصحاب الأملاك؟ ادفع مقابل جريمتك، فلأجل الذهاب لكسب الخبز، تفسد بعض الطلاب. لديهم الملايين ويمكنهم أن يقتلوا بسياراتهم بائسًا كل أسبوع، يمكنهم تغطية لا بويرتا دل سول بشبكة من أسلاك الشيطان، في اليوم الذي تسقط فيه ستقتل نصف مدريد... إنه كوكب المخلوقات.

يأكل الذئب الحمل، والجِدة^(١) الحمامة، والسَمكة الكبيرة الصغيرة،
وعلينا أن نشكر الغني؛ لأنه - وهو قادر على ابتلاع رجل من الطبقة
المتوسطة - يتيح العيش لهذا الذكر.
هكذا كان يتكلم زرادشت.

* * *

(١) الجِدة: نوع من الطيور الجارحة.

عندما يتذكر إسيدرو مالترانا ماضيه، يتوقف عند سنوات طفولته التي مضت في الملبأ. هناك شيء في ذاكرته يُحدّثه عن حياة سابقة؛ لكنها ذكرى مشوشة، ذكريات غامضة تخترقها بحيرات النسيان المظلمة، ويلفها كلها ضباب شاحب يمزج الأشخاص والأحداث.

الذكرى الأكثر بُعداً هي ذكرى فناء بيت السكنى، والذي بدا ضخماً بالنسبة له، في صغره، مع ضوء كئيب ومزعج جاء من الأعلى، يصبح غائماً عندما ينزل على الجدران الدهنية، ويتسرب من بين الثياب الرثة المتدلية من الممرات.

يفكر وهو يحبو عبر ممر لا نهاية له، أمام صف من الأبواب المرقمة بهذا الانتظام الذي رآه لاحقاً في الثكنات والسجون. كثير من النساء الجالسات أمام الأبواب يخطن ويتحدثن. في أوقاتٍ أخرى يتشاجرن، وعلى ضجيج أصواتهن، يمتلئ الدرابزين بأنصاف أجساد ملقاة إلى الأمام بسبب فضول وخيم، ورؤوس مشعثة تشير الخصوم مثل الحيوانات المسعورة.

في الليل يصل الرجال. كانوا حزينين مرهقين عابسين بشكلٍ مخيف، قليلي الكلام، بلا رغبة أخرى سوى طلب العشاء، يسبون سراً رؤساءهم،

زملاءهم، كل الأغنياء والحياة الصارمة والجاحدة التي تقدم لهم الفظاظة والصدمات فقط. أحياناً، يصلون في وقت متأخر، وبينما تُحصي النساء أكواماً صغيرة من العملات المعدنية، تقسمها كأن هذه التقسيمات قد دُفعت في نفقات سابقة، كانوا يغنون، يضحكون، وينادي بعضهم بعضاً من باب إلى باب، من طابق إلى آخر، بفرحة طائر، ناسين بؤسهم، تهيمن عليهم سعادة اللحظة، التي يعتقدون أنها لا تنتهي، وهم يتحدثون عن العودة إلى الحانة، التي توقفوا فيها طويلاً قبل أخذ أجركم إلى المنزل.

في الظهيرة، كانت والدته مالترانا تحمله على إحدى ذراعيها، وتمرر الأخرى عبر مقبض السلة، وتذهب بحثاً عن زوجها، عامل البناء. كانوا يأكلون على أرصفة الشوارع الضيقة والمنحدرة، بالقرب من رصيف مُبلط

بالحصى الحادة؛ في أوقاتٍ أخرى في قلب قشتالية^(١)، تحت ظل شجرة، وهم متألّمون من الشمس، يشاهدون عربات فاخرة تمر وتلقي أشعة لمعتها الخارجية، مظلات حمراء وزرقاء، قباب حريرية رشيقة تسير تحتها سيدات أنيقات، يتقدمهن أطفال يرتدون القفازات مع التنانير المجوفة، حيث يحدق ابن البناء بدهشة. يجلسون أمام الصحن العميق، حيث تسكب الأم قدر أيام الوفرة الصغير أو حساء البطاطس الفقير في نهاية الأسبوع. تغطي هبات الشتاء الطعام بالغبار والأوراق الجافة. وعندما تهطل الأمطار فور سكب القدر، الأسرة تلجأ إلى أحد مداخل البيوت لابتلاع بقية طعامهم.

(١) قشتالية: هي واحدة من ستة أحياء تابعة لمنطقة سالامانكا في مدينة مدريد.

الطفل الصغير يعلم بقدوم أيام الأحاد بسبب الطعام، والذي كان أيضًا في الهواء الطلق، ولكن من دون سقالات قريبة، من دون وجود أصحاب البلوزات البيضاء في الجوار، في ضواحي المدينة، يجلسون على حشائش متناثرة في أرضٍ مقفرة تملؤها علب الصفيح، قطع الزجاجات والأحذية القديمة؛ وهم يرون فوق الصورة الجانبية للأنقاض المجاورة صورة ظلّية ريفية لماعز حزين أو بقرة مسلولة؛ يستمعون إلى موسيقى الثاليس المجنونة التي تُدق بأقصى سرعة على بيانو الحانة، حيث ذهب والده لملء الزجاجاة المربعة بالنبيذ. كيف تذكر مالترا العجة المخللة في أيام الأعياد، وسط حقل قاحل اجتاحتها فضلات المدينة! كيف كانت القدور التي بها قطع لحم الخنزير، بجانب سياجات مبانٍ تحت الإنشاء؟! والدته بالكاد تأكل؛ منشغلة به فقط، فيدّ تذهب إلى الصحن، بينما الأخرى تسنده وهو في حجرها. بغريزة الأمومة لدى الطيور، يمر كل شيء خلال منقارها قبل أن يتلعه الصغير. تحمل الملعقة إلى فمها، تنفخ بها، تداعبها بأنفاسها، وبعد هذا التطهير فقط تقرر أن تقدمها لابنها، الذي كان يُلقى برأسه الصغير ذي الشعر الحريري للخلف، مظهرًا لثته التي بلا أسنان وحنكه الوردي بسبب شحوب فقر الدم. في هذه الأثناء، كان الأب يأكل بصمتٍ شديد، ملتهمًا أفضل ما في الطبق، وفقط عندما كان يشرب القطرات الأخيرة يلاحظ الطفل الصغير، ويجلسه على ركبتيه. يعطيه قطعًا صغيرة من الجبن على طرف مطواته، ويضحك متأملًا إيماءاته، مضغ فمه غريب الشكل، الذي يشبه مضغ رجل عجوز.

يتساءل ما لترانا كثيرًا -وهو يتذكر ماضيه- كيف كان يعيش والداه. يراهما يضحكان عائدين من غداء يوم الأحد، بفرح غير عادي، وهو يلح من أجل الإمساك بخصرها بينما يلفهم ظل الشفق، وهي تدافع عن نفسها، مستاءة لكونهم في وسط الطريق. أحيانًا -والذكرى بعد سنوات طويلة لا تزال تحرك مشاعر الشاب- كان الأب يلوح في ذاكرته غضوبًا، بصوته الأجش وملامحه المحتقنة، تفوح رائحته بالنبيذ، وينقض بقبضات مرفوعة على المرأة المسكينة، التي تهرب من الفرع في الغرفة الصغيرة، وهي تتجنب الضربات. مشاهد الرعب هذه تنتهي دائمًا بسقوط عامل البناء على الفراش، متعبًا من ضرب السيدة. بعد فترة وجيزة يُسمع شخير الوحشي، بينما الأم -وهي تحتضن الصغير- تبكي فوق رأسه بصمتٍ.

من هذه الفترة الأولية لذاكرته، أفضل ما يتذكره إسيدرو هي لطافة الكابتن، وهو كلب صغير قبيح وقذر، رفيق بؤس العائلة. يرافقهم في أثناء نزحات العصر في الحقل والغداء على الأرصفة. يحوم حول عامل البناء، منتظرًا فتات خبزه، تليها البطاطس، وبمجرد أن يُشبع جوعه، يتمدد بجانب الصبي الصغير، يداعبه برجليه الشقيتين، ويفرك وجهه بخطمه الرطب. ينام إسيدرو في معظم الليالي وهو يعانقه.

ذات يوم، رأى الصغير والدته تخرج، مشعثة الشعر وهي تصيح، تتبعها نساء أخريات لم يكن أقل انزعاجًا. ثم أخذته جارة بين ذراعيها دون الإجابة على الأسئلة التي يطرحها عليها هو بتلعثم طفولي. «بني! أيها المسكين الصغير!»، والشيء الوحيد الذي كانت تلك السيدة قادرة

على قوله: «كان يتذكر جيداً». وفجأةً وجد نفسه في قاعة كبيرة بدت له ضخمة، بيضاء ومكسوة بالبلاط، ورأى أسرة كثيرة، كثيرة! مع رؤوس ساكنة غارقة في الوسائد، وفي إحداها وجه محاصر، يكاد يكون مختفياً تحت تقاطع الضمادات، تجلطات دموية سوداء كأنها شوارب وعينان زجاجيتان بسبب التشنج من الألم، والتي نظرت إليه ربما دون التعرف عليه. لم يرَ أكثر. شعر بأنه أخذ مرةً أخرى. ولكن الآن والدته هي التي تتحب مثل جارتها. «بُنيَّ! أيها المسكين الصغير!».

أمّحى المنظر المؤلم على الفور من ذاكرته. جاءت لاحقاً فترة من الالتباس، وبعد ذلك، كان يرى نفسه وهو يرتدي بلوزة سوداء منحتة مكانة عظيمة بين أطفال الحي. عاملوه أفضل من ذي قبل، كأن المصيبة وضعته فوق الجميع. مات والده -بعد احتضار رهيب- مصاباً بكدمات ومهشماً نتيجة سقوطه من سقيفة. والدته تضي أياً خارج المنزل. تزور أقاربها طلباً للمساعدة. كانت العائلة مشتتة في أكثر الأماكن بُعداً في مدريد. بعضهم يعيش في تطوان، مكرسين أنفسهم للنش، مَنْ كانوا من الفرع الآخر -الأكثر ثراءً وسعادة- انتقلوا منذ سنوات إلى راسترو، ويمتلكون متاجر في الأمريكتين. لكن المساعدات تضاءلت مثلما مُحيت ذكرى المحنة، وعلى الأم البحث عن عمل في منازل غريبة، والعمل كخادمة، والعودة ليلاً إلى غرفتها الصغيرة مع بقايا الطعام في السلة، بمثابة غذاء للصغير.

حينها دخل مالترانا المأوى. أشفقت سيدة كانت تعمل والدته في منزلها على يتيم البنّاء. تعاني هذه السيدة من هوس التنظيف، وكل يومين

-على رأس خادوماتها وبجهود وصيقتها- تجعل غرفها في حالة ثورة، مقدرة إسيديرا بتعاطف عميق لأجل المهمة التي تنفّض بها السجاد، تفرك الخشب وتتخلص من الغبار الوهمي الذي بدا أنه هرب إلى الأبد، خائفاً من هذه العناية المسعورة. تمكنت من جعل الطفل يُقبل في المأوى، معتقدة أن والدته بذلك يمكن أن تكرر نفسها بحرية أكبر للعمل. السيدة -التي ليس لديها أطفال- تحب الصبي كثيراً، على الرغم من قبحه، بسبب حديثه المبكر. لاحقاً ستحاول فعل شيء من أجله.

وبداً ما لثرنا حياة نزيل المأوى: حياة الخضوع والانضباط، التي تخففها الدراسة والمتعة التي يمنحها له تفوقه على زملائه. أظهر المعلمون ميلاً كبيراً إليه. كان المدير -بكل عظمتة- يعتبره كائنًا شبه إلهي في الدار، يعرفه ويكرمه بتذكر اسمه. تقدره الراهبات لأجل تواضعه وحصافته، فتقدم الحلوى إليه. عندما تزور إحدى الشخصيات المؤسسة، يغادر مالترانا الصفوف ليُقدّم على أنه أفضل منتج للمؤسسة. وهكذا انقضت الأعوام، وإسيديرو يتكيف مع حياته الجديدة بحيث لم يتذكر أن لديه عائلة خارج المأوى إلا في أيام نزهاته.

في أيام الخميس والأحد، عند حلول المساء، تقف على رصيف تريبونال دي كويتاس، أمام البوابة ذات الطابع التشويجييري^(١) للمأوى، مجموعات من نساء فقيرات مع أطفال رُضع، عاملين عجائز، وحشد

(١) التشويجييري: نسبة إلى المهندس المعماري الإسباني خوسيه بنيتو دي تشويجييرا أحد أبرز أعضاء عائلة تشويجييرا الفنية. أنشأ جنباً إلى جنب مع أخويه خواكين وألبرتو ما سُمّي بالأسلوب التشويجييري في الفن المعماري، المُتميز بوفرة الزخرفة وبروز الديكور.

من الفتیان، الذین یتسلون فی أثناء انتظارهم بالوقوف فی منتصف الشارع «لمحاربة» الترام، فیتظرونه حتی اللحظة الأخيرة.. المحددة للفرار وعدم السحق.

كانت عائلات الصبیه فی المأوی. كانت الأمهات یأتین من الأحياء الأكثر بُعدًا فی مدرید: الغسالات، جامعات الخردة، أرامل العمال، المتسولات، وجميع النساء المهجورات والبائسات، اللاتی ینجبن لتشغلن عن الجوع. كن یتعامل بعضهن مع بعض عندما یتقابلن هناك كل أسبوع مثل الصدیقات. یوحد هذا الاجتماع المنتظم بتضامن وثیق الأمهات اللاتی كن یعشن فی المناطق النائیة عن السكان.

كن ینتظرن عودة نزلاء المأوی، الذین یرجعون فی بداية المساء للتنزه فی الجوار. صرخت سیده، وهی تشير إلی أعلى شارع فوینکارال: - یأتون من هناك!

ركضت المجموعات صعودًا، وهن یدعسن المارة، واكتسحن الأرصفة بتدافعهن، وهن یرغبن فی الالتفاف بأسرع ما یمكن حول صفوف الأطفال الذین یرتدون ملابس رمادیة، والذین یتقدمون ببطء، متعبین من الرحلة الاستكشافية.

توقفت كثير من النساء، وهن یتلعثمن. تلك المجموعة لیست مجموعة أبنهائهن. تصرخ أخرى:

- یأتون من الأسفل!

وتقهقر الحشد بأكمله، وهو یدفع المارة من جدید، تواقین للذهاب

لمقابلة أولئك الآتين من الجانب الآخر. لقد كانت رغبة شديدة في مقابلاتهم بعيداً عن المأوى قدر الإمكان، لكسب بضع ثوانٍ، لإطالة المقابلة السريعة، التي فكروا فيها أياماً كاملة.

انفجرت الأمومة الحماسية والصاخبة للمرأة الشعبية مع غضب شرس على مرأى من الصغار. بدت القبلات عضات؛ تحمر وجوه نزلاء المأوى من الاحتكاك العنيف؛ كثيرون يتراجعون، كأنهم خائفون من التدفق الأول. الرغبة في التعويض في لحظة حرمان من الأمومة مؤلم، ذلك البتر لأرقى الغرائز الذي فرضه البؤس.

تبدد تكوين نزلاء المأوى على الفور. بدا الزي الرمادي غارقاً في احتشاد المجموعات. تعلق النساء بأعناق الصغار وبكين، دون أن يتوقفن عن التحدث إليهم عن عاطفتهم بشكلٍ غير مترابط.

- ابن أمك... يا صغيري! ريكو!

كان الإخوة يحكون خرقهم، خرق الأوغاد الأحرار بمرتدي الزي الرسمي، الذي كان معجباً بهم، وهم لا يعرفون ماذا يقولون لنزيل المأوى، يرينه بصمتٍ ألعابهم الفظة، كنوزهم، أضرار الجندي اللامعة، أوراق اللعب الممزقة، ألعاب الخدوف^(١)، والطوايع من صحيفة مصورة، يحتفظون بها في طيات بين قميصهم

وأجسادهم تفوح منها رائحة العرق.

يسير أحد العمال المسنين منفرداً بجانب أحد نزلاء المأوى.

(١) الخدوف: عود صغير يدوره الشخص بخیط، فيدور بسرعة، ويُسمع له صوت.

المسكين الصغير! ليس لديه أم. كان -في محنته- أسوأ من الآخرين. يده الخشنة -المغطاة بقشور من العمل- تداعب خديه الطفولين، بينما الوجه الملتحي ينظر إلى الأعلى، وهو يفكر في أن الرجال لا ينبغي عليهم البكاء.

- خذ عشرة سنتمات: كنت أحفظهم لأكملهم خمسة عشرة... اجتهد... لتكون جيداً. كن لطيفاً مع هؤلاء السادة.

يتقدم نزلاء المأوى ببطء، بين القبلات، الدموع والتوصيات، وكثير منهم سيكون أيضاً، ولكن دون أن يتوقفوا عن السير، مع استكانة الجندي التلقائية، كأنما يجذبهم المدخل المظلم للواجهة الضخمة.

هناك آخر نوبات الحنان، والنساء المسكينات -بعد اختفاء أطفالهن- يظللن بلا حراك، يحدقن بشكلٍ غبي، من خلال دموعهن، إلى الملك الذي يتوج العمل المعماري لتشويجير، والسيف في يده. يقابل إسيديرو والدته أيضاً عند عودته إلى المأوى في أيام النزاهات. تنقُص مع النساء الأخريات -محطمة صفوف نزلاء المأوى- تعانقه وهي تبكي. تعرف إسيديرا تطور ابنها.

- السيدة مسرورة جداً... يتحدث المعلمون معها عنك كثيراً. اجتهد يا بني؛ مَنْ يعرف ما الذي يمكنك الوصول إليه؟ لِنَر لو أنك ستُشرف العائلة.

وبينما المرأة المسكينة تتحدث إلى ابنها وبين نحيب العاطفة، يقفز الكابتن من حوله، محاولاً لعق وجهه. أخذه مالترانا بين ذراعيه، وعلى

هذا الحال ذهب حتى باب المأوى، وهو يستمع إلى والدته ويكي متأثراً بمداعبات وهرير رفيقه السابق في بؤس.

ذات يوم، لم تنتظره الأم وحدها. ذهب معها رجل يرتدي بلوزة بيضاء، عامل بناء، كان يتذكره إسيدرو كجار للبيت الكبير وزميل لوالده. كان رجلاً مسالماً، يتردد قليلاً على الحانة. ووفقاً لما تؤكده صديقاتها المقربات من الجيران، فقد هجرته امرأته، إنسانة حسنة انطلقت في العالم بعد أن مرت حياته. سُرَّ مالترانا برؤيته. «الجار» - كما كان يسميه - يُشعره دائماً بوَدٍّ كبير. في كثير من الأحيان، عندما كان طفلاً، كان يذهب إلى غرفته الصغيرة، ويجلس على ركبته، يداعب شاربه الكثيف، ويسأله حول مغامرات حياته. لقد كان أراغونياً، مقتصدًا في الكلام، صارماً، رزيناً ومعتاداً على الطاعة. كان جندياً في ألترامار وحارساً مدنيّاً في شبه الجزيرة. منذ سنوات انضباطه كان يُبدي احتراماً كبيراً لكل سلطة قوية، عادة الإذعان التي جعلته يقبل العوائق بحلمٍ لا يتزعزع.

وقف أمام اليتيم دون أن يعرف ماذا يقول، مبتسماً له بعينين بهما وداعة البقرة، وشارب مخيف لشخص محنك، وأخيراً قام بمداعبة مؤخرة رقبتة بيدٍ كبيرة غليظة، حيث كان الجص يميز بخطوط متقاطعة قشور الجلد. قال بصوتٍ أجش وبطيء بدا أنه يخرج من أعماق بطنه:

- كن جيداً باستمرار. لا تزعج والدتك المسكينة.

واعتماد الصبي رؤية السيد خوسيه كل يوم أحد، كأنه من العائلة.

في أحد الأيام، حضر عامل البناء فقط، وقبل أن يدخل الصبي إلى

المأوى، أوضح له غياب والدته. كانت إسيدرا مريضة؛ لم يكن شيئاً خطيراً: كل ما في الأمر هو البقاء في المنزل لمدة أسبوعين دون النزول لرؤيته. وعندما استطاعت النزول من ذلك الحي النائي، حيث يتراكم بؤس الطبقة العاملة، رآها إسيدرو أنحف وأكثر شحوباً، تحمل صرة من الملابس على ذراعها يخرج منها بكاء يائس ويدان صغيرتان متشنجتان من الغضب.

— انظر إليه يا إسيدرو.. إنه بيبين.. أخوك. قبّله يا بُني.

قبّل مالتريانا ذلك الأخ غير المتوقع الذي ظهر فجأة في عائلته؛ رأى في حزمة الملابس المبتلة ذات الرائحة الكريهة رأساً ضخماً على رقبة رقيقة؛ جسداً صغيراً ضعيفاً أعلن عن قبح مشابه له.

منذ ذلك الحين، قسم مداعباته بين الصبي الصغير والكابتن المسكين، الذي بدا غيوراً من هذا الضيف الذي استحوذ على كل اهتمام الأسرة.

بعد سنوات، عندما أدراك مالتريانا حقائق الحياة، أعاد تشكيل مغامرة والدته التافهة، وحكم عليها برفق. انجذبت المرأة المسكينة في وحدتها إلى «الجار» التعييس والوحيد مثلها. لقد اجتمعت المصبيتان.

بالإضافة إلى ذلك، كانت بحاجة إلى سند، كما صرحت لابنها قبل وفاتها بفترة وجيزة. عملها لم يوفر لها الطعام في كثير من الأحيان، وذلك العامل الرصين والجيد، الذي لم يكن يتردد على الحانة ويستقبل المصائب بصمت، دون نوبات غضب ودون أن يضرب المرأة، كان أفضل من زوجها.

عاشوا «متكدسين» - على حد تعبير الجيران - دون أن يتسبب هذا الوضع غير السويّ في أدنى صخب في منزل كبير، حيث يفضل البؤس الاختلاط الذي يستحق مزيداً من الاشمئزاز.

كان السيد خوسيه - في طاعته الخرافية لكل ما هو مؤسسي - يريد الخروج من هذا النظام غير الطبيعي. لا يذهب إلى القدّاس، لكنه يحترم الدين كثيرًا، كسلطة أقوى من السلطات التي تجعل الإنسان المستقيم يتقدم. لذلك يريد أن يتزوج كما أمر الله. لا بد أن تلك العصفورة التي أزعجته كثيرًا في زواجه قد ماتت؛ ماتت في مستشفى سان خوان دي ديوس أو في منتصف الشارع. فقط ينقصه أن يستخرج «الأوراق الخاصة بموتها»، ويتزوجا على الفور. لكن إسيدرا رفضت هذا. وابنها؟ ألن يطردوا ابنها إسيدرين من المأوى عندما يُصبح له أب يعمل من أجله؟ كانت تريده هناك؛ تريده عالمًا - فوفقًا لتقارير المعلمين - سيكون هكذا، أظهرت السيدة في كل مرة استعدادًا أكثر لتجعل منه رجلًا نبيلًا، رجلًا ذا مهنة. لديها إيمان في مستقبل ابنها. سيكون ثريًا ومهمًا. مَنْ يستطيع أن يؤكد استحالة قضاء شيخوختها في فندق، مع عربة وقبعات كبيرة، مثل السيدات اللاتي كانت ترتاد بيوتهن للعمل كبهيمة؟

- ابني إسيدرو حظه جيد. لن ينقصه أن يستحنه أحد، حتى يعرف أن يواصل طريقه وحده.

في احتفالات العام الكبرى، يخرج الصبي من المأوى لقضاء اليوم في بيت راعيته. تلجأ إسيدرا إلى المطبخ مع الخدم، وهي ترتعش عندما ترى ابنها في غرفة الطعام، يجلس بجانب السيدة ويتحدث مع أصدقائها،

كلهم شخصيات تفرض هيبتها. سألوا الصبي أسئلة لتقدير تقدمه، وكان الجميع مندهشًا من سرعة إجاباته واثرائها. ليذهبوا إلى الطفل بأسئلة صغيرة! استدعت إسيديرا -المختبئة وراء ستار- الخادמות ليتفرجن على الصبي. يتجادل طفلها يسوع مع أطباء الهيكل، كما رأته في بعض الصور المطبوعة.

السيدة راضية عن محسوبها. تتقبل مديح الأصدقاء والأشخاص الجادين المعتدلين في إعجابهم، مثل المجاملات حبها الكثيرة الأخرى. إسيديرو صنيعتها. بالإضافة إلى ذلك، تحبه لطابعه الهادئ وخجله الذي جعلها تبقى على كرسي لساعاتٍ كاملة دون محاولة تنظيف غرفة جلوسها وترتيب الأشياء بشكلٍ جيد، والذي كان هوسًا بالنسبة لها.

عندما رأته حكيماً جداً، أرادت أن تتحمل نفقات صف الكهنوتية. لكن مالترانا -على الرغم من خجله- قبل العرض بتغطية من الانزعاج. أليس لديه ميل ليكون قسيساً؟ السيدة الطيبة لم تُرد أن تغير إرادته. إنه دَرَس ما يريد؛ في النهاية كان من الممكن في جميع المهن خدمة الرب والدفاع عن المذاهب السليمة للأشخاص المحترمين.

بدأ مالترانا دراسته الثانوية دون مغادرة المأوى. كان كل فصل دراسي مصدر حماس لراعيته ووالدته. جوائز، سجلات مشرفة، وكلمات رضى من المدير، فخورين بأن المؤسسة احتضنت مثل هذه المعجزة. كانت إسيديرا تقول:

- يشرب الكتب. أنا لا أعرف من أين أخرجت هذه الظاهرة!

يراه السيد خوسيه فقط من وقتٍ لآخر. لم تجرؤ زوجته على

اصطحابه إلى منزل السيدة؛ خوفاً من أن تكشف وضعها الشاذ. لم يعد إسيدرو يتنزه مع نزلاء المأوى الآخرين؛ وعندما يقابله عامل البناء بالصدفة، يتحدث إليه باحترام، كأنه شعر فيه بممثل مستقبلي لتلك السلطة التي توحى إليه بإعجاب ديني.

- هذا التقدم يا فتى. استمر بالتغلب على الكتب. ستذهب بعيداً... أقول لك، لقد رأيت الشخصيات العظيمة عن قرب.

ويفكر في ابنه بين، الذي بالفعل في السابعة من عمره ويسبب الأذى لعدة أولاد في الحي. لقد كان عبقرياً مدهشاً في العرقلة ووضع الحجر حيثما تستقر العين. ينتمي بين إلى جنسٍ آخر: جنس والده. لقد وُلد ليُطيع، ليبقى في الأسفل.

عندما أنهى مالترانا تعليمه الثانوي، أخذته السيدة إلى منزلها. لم يستمر في المأوى، وكان مخجلاً لمستقبل عالم ابن ذوات، العيش في غرفة والديه الصغيرة. بدأ إسيدرو في متابعة دروس الفلسفة والآداب في الجامعة المركزية. أراد أن يصبح طبيباً، ثم أستاذ كرسي، وبعد ذلك... مَنْ يدري ما الذي قد يحصل عليه بعد ذلك!

كانت السيدة معجبة بنقاء عاداته بقدر إعجابها بدراسته. بعد انتهاء الفصول الدراسية، يرافق أحد الأساتذة حتى منزله، وبالتالي يطيل الدرس. هؤلاء السادة الطيبون، يعرفون أصله، يعاملونه بمودة كبيرة.

في وقتٍ لاحق، عندما عاد إلى المنزل، حبس نفسه في غرفته المليئة بالكتب. كانت راعيته تُقدر مسيرة علمه بعدد المجلدات التي تحيط به. كان كرمها حاضراً في جميع الأوقات من أجل مكتسبات

جديدة، واستغلها مالترانا، الذي كان في حالة سُكر تام من المعرفة لفترة طويلة. اجتاحت موجة من الكتب الغرفة، وبعد انتشارها على الأثاث، تاركة أكوامًا طويلة من الورق المطبوع، انتشرت في الممر الملاصق. لم تكن السيدة -التي يملؤها الإعجاب بهذا العالم البالغ من العمر سبعة عشر عامًا، والذي لم ينبت شاربه بعد- تجرؤ على لمس واحد منها. ترى بعضها مكتوبًا بأحرفٍ غريبة، والتي -بحسب اليتيم- كُتبت باليونانية. وبعضها الآخر باللاتينية مثل كتب الصلاة. أزعتها الكتابات الفرنسية، والألمانية والإنجليزية بسبب غموض صفحاتها غير المفهومة. ماذا تقول هذه الكتب الكبيرة؟ بالتأكيد لم تكن كلها من أجل الدين والأخلاق. إن الروح البسيطة للسيدة الطيبة قبلت العلم باعتباره شيئًا مفيدًا، حيث تحكمه الإنسانية، وتمنحه شرفًا عظيمًا؛ وأبعد من ذلك، كانت تشعر، في أعماق نفسها، بالكراهية وعدم الثقة، معتبرةً إياه سلاحًا مفيدًا لحمايتها من شرور العالم، ولكنه يحوي داخله خطر الموت. عندما ترى مالترانا غارقًا في الدراسة في جميع الأوقات، تشعر ببعض الخوف على حالته الروحية. حينئذٍ ترتدي الطرحة، وبثوبٍ أسودٍ ومسبحة على معصمها تدخل غرفة الطالب.

- إيسديرين، يا بني، ستقتل نفسك من كثرة الدراسة... رافقني.
تأخذه إلى القدّاس أو التَّساعية، إلى المعابد التي تُعلن عن عظات الدعاة المشهورين. أغلق مالترانا كتبه دون أي إيماءة انزعاج، منتقلًا بقفزة من الفلسفة الثورية، التي يلتهمها بشغف مبتدئ، إلى الورع الوثني المحدود للسيدة العجوز المسكينة، سريعة التصديق لجميع المعجزات وأكثر ولعًا بالقدّيسين من الله.

يقبل هذه العبودية دون جهد، وبيع بعض السرور، كتعبير عن الامتنان لتلك الروح الطيبة التي سحبت من القاع السفلي للمجتمع لزراعته في أرض أكثر صحة.

بلفتة رصينة ومحترمة لخدام وُلد في المنزل وارتبط بالسيدة بسبب حنوها، يعطيها ذراعه عند نزول السلم وصعوده، ويرافقها إلى الكنائس، باحثاً عن أفضل الأماكن لتستمتع بكامل راحتها بالاحتفالات الصوفية. يهرب أقارب المرأة العجوز من منزلها، مستاءين من عاطفة الأمومة التي ميزت بها الطالب. غيظ الورثة الذين اعتبروا أنفسهم منهوين من قبل الدخيل، من قبل ابن «الخدمة»، كما أطلقوا عليه بنبذة مهينة. كان مالتراًنا يقرأ الكره في أعين هؤلاء الأشخاص عندما يقابلونهما في بعض الممرات في الشارع، العجوز ومحسوبها، أثناء عودتهما من الكنيسة. يبدو أنهم يقولون له بأعينهم: «ستأخذ كيس النقود... أيها اللص!». وفي الوقت نفسه يتسمون له ويحتفلون بتقدمه الجامعي بكلمات لطيفة، كأنهم يخشون أن يعادوه.

تبدو صحة السيدة الممتازة كأنها تسخر من الأفكار الأنانية لعائلتها. كانت مُحبة النظافة تلك تتخلص من السنين بنفس السهولة التي تنفض بها الغبار الوهمي من كل أركان منزلها. تقول بسرور لمحسوبها عندما تتحدث عن عمرها:

- أريد أن أكون مسهبة في كلامي. أنوي أن أراك شخصية وقورة؛ أن أكون عرابتك عندما تتزوج من آنسة جيدة ومسيحية سأبحث لك عنها. أنوي أيضاً أن أكون عرابة أبنائك.

يجيبها مالترانا بجدية، وفي نفس الوقت تبلل مشاعره عينيه:

- أتمنى أن تعيشي سنوات كثيرة.

ذات يوم عند عودته من الجامعة، وجد الشاب المنزل على قدم وساق. كانت السيدة في الفراش، عيناها مغمضتان، جبينها ملفوف بمناديل تفوح منه رائحة قوية، فمها غاضب، وشخيرها مؤلم. لقد سقطت على الأرض فجأة، أُصيبت بألم شديد من الاحتقان. أدهش الأطباء مَنْ في المنزل، وهم يأملون بعلاجات يائسة؛ وصل الأقارب طامعين لاهئين قلقين من الأخبار غير المتوقعة.

ماتت السيدة في اليوم التالي. عاملت العائلة مالترانا ببعض اللطف، حيث جعلوه يشارك في اتفاقات الدفن. تجاهل الجميع رغبة المتوفاة. يحترمون مالترانا، ويخافون من أن يكون سيد كل شيء في اللحظة الأخيرة. حتى إن بعضهم أطلعته على رغباتهم في الاستيلاء على بعض أثاث المرحومة. ظل الشاب في المنزل بضعة أيام، يحضر تسجيل ما تستلمه العائلة، ويراقب التفتيش بعناية، ويتدبر المفاتيح، ويسحب الأدراج التي لم تُفتح منذ سنوات طويلة، والتي ملأت الأرضية بالملابس القديمة والأشياء المنسية. يَرُجون المنزل وهم يشتتون محتوياته بنفس الفوضى والارتباك اللذين تسببهما عصابة من اللصوص دخلت إليه.

لكن مر أسبوعان دون دليل على وجود وصية، ورقة بسيطة تكشف عن إرادة المرأة الميتة. لم تكن السيدة -المتأكدة من صحتها، المعتقد أنها ستستمتع بها حتى سن متقدمة- تفكر في مصير محسوبها، وأجلّت وصيتها لاحقاً؛ لخوفها الخرافي من جذب الموت إذا استعدت له.

تغير موقف العائلة فجأة. ظل مالترانا في غرفته دون أن ينادوه. الأقارب يسجلون ويجردون لأجل أنفسهم، ونسوه. وعندما يرونه، تكون نظرتهم قاسية، وكلماتهم عنيفة، كأنهم يريدون الانتقام مرة واحدة من التملق الذي عاملوه به من قبل، ومن الخوف الذي يبثه فيهم. أمره ابن شقيق السيدة -الذي يكرهه بسبب طبيعته الأنانية وأكاذيبه العديدة في الأمور المالية- بمغادرة ذلك المنزل الذي لم يعد يخصه. تزعم جميع الأقارب، فارضاً عليهم الخوف والاحترام. لقد كان عضواً في مجلس الشيوخ، وصاحب أملاك عظيم في قشتالة، كان يُلقب خُطباً لصالح الدين والقمح، ويعتبر جميع الحكومات قليلة التحفظ ومتراخية؛ لأنها لم ترسل المؤيدين عديمي التقوى إلى السجن والمدافعين عن إدخال الحبوب الأجنبية بسبب ذريعة تافهة، وهي جعل الخبز أرخص. استمع مالترانا في صمت إلى الخطاب المضجر الرنان للشخصية الهامة. لم يبقَ له شيء ليفعله في منزل ليس ملكه. نسيت المتوفاة مصيره؛ سيكون هناك الكثير من الأسباب لذلك: لقد فعلت ما يكفي لإخراجه من حالته البائسة. لكن العائلة -مع رغبتها في عدم السهو عن أدنى رغبة لإرادة المتوفاة- قررت حمايته حتى يتمكن من إنهاء حياته المهنية. سيعطونه ثلاثة آلاف بيزيتا دفعة واحدة، مما يقطع أي علاقة والتزام من الآن فصاعداً. إضافة إلى ذلك، يمكنه أخذ جميع كتبه؛ لكنه اضطر إلى مغادرة المنزل في أسرع وقت ممكن.

وأعطى الشخصية الهامة -الذي أخرج محفظته لتسليم ثلاثة آلاف عملة ورقية من البيزيتا، ولكن ليس قبل دعوة مالترانا لتوقيع إيصال-

الشاب خطابًا جديدًا مليئًا بنصائح جيدة. «لا بد من التعامل مع الحياة وجهًا لوجه. الحياة جادة؛ الحياة ليست لعبة يا صديقي الشاب. حتى ذلك الحين، لم يفعل شيئًا سوى اللعب، وقضى حياته بشكلٍ لطيف بجانب تلك السيدة التي كانت قديسة. (هنا تحية للقديسة التي تستحق احترامًا كبيرًا لموتها دون وصية). لا بد أن يعمل الشاب. ثلاثة آلاف بيزيتا هي رأس مال صغير. بدأ آخرون بأقل وأصبحوا من أصحاب الملايين. يمكنه إنهاء حياته المهنية ويكون رجلًا فاضلاً». وتابع الخطيب:

- حياتك كلها من قبل كانت حلمًا، لا تنسها. ولا داعي للحلم أيها الشاب. يجب أن تكون عمليًا.

بعد هذه النصائح، قام السيد جاسبار خيمينث، عضو مجلس الشيوخ، الماركيـز الأول خيمينث -وهو لقب بابوي منحه إياه أحد الأساقفة الودودين مع بعض التبرعات التي تم المساومة عليها جيدًا من أجل أموال القديس بطرس- بمصافحة الشاب، وأوصاه مرةً أخرى أن يختفي في أسرع وقت ممكن.

سار مالتـرانا مع جميع كتبه إلى بيت ضيافة بالقرب من الجامعة، حيث يعيش بعض زملائه في الفصل. كانت حياة الطالب بالنسبة له اكتشافًا لبهجة الحياة.

يذهب -في بعض الأمسيات- إلى ساكرامنتال دي سان مارتين، وهي مقبرة جميلة وهادئة مثل بستان فاكهة، والتي كانت مغلقة منذ بضع سنوات، لكن راعيته تحتفظ فيها بمدفن بجانب زوجها. كان هو الوحيد الذي يزور القبر. ولم يتذكر الأقارب، المنشغلون بتوزيع

الميراث والمتوعدون بعضهم بالقضايا، استبدال قطعة قماش مُسمع بأحرف ذهبية من الكرتون كانت تغطي مدخل المدفن بشاهد قبر رخامي. أيقظت تلك المقبرة الرومانسية، بمجموعات أشجار السرو المستقيمة وأروقتها الشرقية وحدائق الورد، حزنًا عذبًا داخل الشاب أحيًا في ذاكرته صورة السيدة الطيبة.

هذا التأثر تلاشى عند عودة إسيدرو في الليل للمقاهي المجاورة للجامعة، حيث تجتمع مجموعات الطلاب النشطة، الذين يتهادون بسبب حفلات البيانو والأبواق. يقول بحماس:

– الحياة مبهجة. لا بد من إعطاء الحياة معنى هيلينيًا^(١).

وتألفت الهيلينية لدى الصبي الفقير في التدخين للمرة الأولى، وشرب أكواب من المارشينو^(٢)، وهو المشروب الوحيد الذي يتحمله ذوق جمجمته اليونانية، وإرسال رسائل حب في أبيات كلاسيكية إلى الخياطات أو بنات بعض السيدات أصحاب المعاشات حيث يقضون السهرة في مقهى بلايث أو في الجامعة، وفي الاختفاء لمدة نصف ساعة في أحد مداخل الأزقة المجاورة، ويأخذ خلفه المرأة التعيسة التي تتجول على الرصيف في حذر.

تابع مالترانا دراسته بنفس الاستغلال، برغم سعادته الهلينية. أرادته والدته أن يستمر في العيش في دار الضيافة: لا يمكن لرجل علامة مثله أن

(١) الهيلينية: انتشار اللغة والثقافة اليونانية خلال فترة فتوحات الإسكندر الأكبر.

(٢) المارشينو: مشروب سُمي بذلك نسبةً إلى الكريز المارشينو، وهو الكريز المُسكر المحفوظ الذي يتكون منه.

يكون في كوخ في الضواحي، بين البنّائين والعاملين في المدن الصغيرة والمشردين. ماذا سيقول أصدقاؤه! عندما انهارت أوهامها بوفاة الراعية، تشبثت المرأة المسكينة بعنادٍ أكثر من ذي قبل بمجد ابنها، بالرغبة في أن يخرج إلى الأبد من دائرة البؤس التي وُلد فيها. لكن إيمانها لم يعد هو نفسه؛ بدأت تشك في مستقبل مالترانا وهي ترى افتقاره إلى الدعم. ربما تُترك في منتصف الطريق دون قوة من أجل الوصول إلى النهاية.

الحياة في المنزل أصعب وأصعب. السيد خوسيه يقضي أسابيع دون عمل. وبين -الذي يبلغ من العمر أحد عشر عامًا- سيئٌ للغاية لدرجة أن الجيران أطلقوا عليه اسم باراباس^(١). في كل شهر يعمل في وظيفة جديدة؛ لكنهم طردوه من ورش العمل، فقد اشتهر بأنه أكثر المتدربين وقاحة. تعمل الأم المسكينة الآن مساعدة غسالة، لكي تجلب إلى المنزل بعض المال، وفي صباحات الشتاء تنزل إلى النهر واهنة، يرتجف هيكلها العظمي البائس المغطى بالجلد عند ملامسة الماء.

ذات يوم، جاء باراباس إلى منزل أخيه ليخبره بهدوء أن والدته في المستشفى. لقد كان زكامًا أو التهابًا رئويًا أو ما شابه ذلك، وُجدت في النهر. لم يستطع الوغد إلا أن يقول إنها مريضة للغاية وإن امرأتين من المغسلة حملها من ذراعيها حتى المستشفى.

ذهب مالترانا إلى هناك، ورأى والدته في سرير، مع احمرار عظام

(١) باراباس: هو المجرم الذي طلبت الجموع من بيلاطس -في عيد الفصح وبتحريض من الكهنة والشيوخ- أن يُطلق سراحه وأن يُصلب يسوع.

الوجنتين، الجلد المتوهج والشفتين البنفسجيتين، وزفير حشجة رثيها المحتقتين. شعر الشاب - وهو يتذكر المال الذي لا يزال يحتفظ به في المنزل - ببعض الخجل عندما رأى والدته في تلك الغرفة الحزينة، عارية تمامًا، بجانب مرضى آخرين.

نقلها إلى غرفة منعزلة: سيدفع هو جميع النفقات. وقضى أمسياته بجانب المريضة، يستمع إلى نصائحها، ويشجعها على آمالها. توسلت إليه المسكينة ألا يتخلى عن السيد خوسيه وابنها عندما يصل إلى مكانة عالية. كان ذلك الرجل طبيبًا معها وساعدها بشجاعة في لحظات فقرها السيئة. الأمور التي حدثت بينهما كانت دون إدراك؛ كانت نتيجة رففته من أجل الاحتماء من البؤس. يتوجب على إسيدرو احترام عامل البناء كأبيه. لقد أحبه أكثر من الآخر.. الحقيقي. تجلى ذلك في صمته اليأس، ونظرة الألم التي ينظر إليها بها وهي مستلقية على سرير المستشفى.

توفيت المريضة بعد ثلاثة أشهر، بعد أن أثرت بشكل كبير في ثروة مالترانا الضئيلة.

لم تكن الحياة سعيدة حقًا؛ فقدت الحياة معناها الهيليني.

تمعن الشاب في حالته، مدفوعًا بالحزن. لا بد من اتباع مسارات جديدة. بالكاد تبقى له مال لمتابعة دراسته. تنقصة سنة التخرج الدراسية؛ ستان ليكون دكتورًا. وبعد حصوله على الشهادة ماذا سيفعل؟

سيطر التشاؤم على مالترانا. لماذا يحصل على الدكتوراه؟ لم تكن الدراسة تعني العلم، بل تعني الروتين. لقد رأى كثيرًا وعرف حقيقة الأمور. كانت الجامعة كذبة، مثل جميع المؤسسات الاجتماعية.

سيقوم بعمل مقابلة للكرسي؛ سيعجب به زملاؤه، وأحد الأساتذة ذو الشخصية الفظة سيعطيه صوته، لكن النتيجة المؤكدة أنه لن يحصل على شيء. فالمنزويون أمثاله -دون رعاة ودون جاذبية اجتماعية- غير مسلحين للنضال اليومي: مصيرهم هو الموت.

يحب العلم لذاته، لمتعته، من أجل شهوة المعرفة الأنانية. يحيا العلم الحر! ما أهميه قصاصة الورق تلك بالنسبة له، شهادة العلم، التي يكلفه نيلها عامين من البؤس؟ لم تكن من الضروري الجامعة ليكون فيلسوفًا. الرجال العظماء الذين يُكنُّ لهم الإعجاب لم يكونوا أساتذة، ولم يكونوا حائزين على شهادات أكاديمية. كان شوبنهاور -مثله الأعلى في الوقت الحالي- يسخر من الفلسفة التي ارتقت إلى كرسي التعليم لتكون مفهومة.

سيكون مفكرًا مستقلًا؛ سيكون كاتبًا. وقد أطلق مالترانا -الفيلسوف البالغ من العمر تسعة عشر عامًا، مع أثر طفيف لشارب- نفسه في العالم. توقف عن التردد على مقاهي الطلاب؛ عاش في وسط المدينة، وانتقل من مجموعة صغيرة إلى أخرى من تلك التي تشكل جمهورية الآداب^(١) الصاخبة والتي لا يمكن السيطرة عليها.

يقرأ المجلات الأجنبية في المساء في النادي، ليكون «على اطلاع» بتطورات الفكر العالمي ويضايق بعض الرفاق الجاهلين الذين -بسبب نشرهم بعض الأشعار في الصحف- حاولوا إبهار الفقير «الذي لم

(١) جمهورية الآداب: أو الجمهورية الأدبية، هو الاسم المستخدم لتمييز المجتمع الواسع للمثقفين من أوروبا وأمريكا الذي تشكل في نهاية القرن السابع عشر وفي القرن الثامن عشر.

يُنشر له شيء». بالإضافة إلى ذلك، استمر في اقتناء الكتب رغم فقره. لم يستطع التخلص من هذه العادة المتبقية من أوقات الرخاء. يقاطع الطعام، ويُطيل استخدام الأحذية الممزقة، لشراء كتاب وصل لتوه من باريس. المكتبة -التي تشكلت تحت حماية راعيته- تتقلص ببطء بسبب مقايضات لا حصر لها. باع بعض الأعمال ليقنتي أخرى. عرف جميع بائعي الكتب المستعملة مالترانا بسبب مقايضته؛ يضحك الشاب أمام نتيجة تبدلاته. كان خمسة فلاسفة مشهورين، بصفحاتهم الباهتة نوعاً ما، تساوي قيمتهم روائياً عادياً توقف للتو؛ كان يعادل ثلاثة شعراء مشهورين بأطروحة مستعملة خاصة بعلم الاجتماع، وجد فيها مالترانا مجموعة بدائية من الأمور المعروفة كفاية.

قضى ليلاليه في فورنوس^(١)، على طاولة عابرة المستقبل، الذين تم تجاهلهم جميعاً مثله، لكنهم مقتنعون بأن منحهم سيكون بقدر تحدثهم كثيراً عن التاريخ. بعضهم أصغر من مالترانا. لم يكتبوا شيئاً، لكنهم كشفوا للعالم عن نيتهم الراسخة في إنشاء أعمال خالدة، وتوحيد أنفسهم بشكلٍ ظاهري وفقاً لزي مهني: شعر طويل، قبعات كبيرة، وربطات عنق واسعة وفضفاضة أو ضيقة بحلقاتٍ لا حصر لها فوق ياقة قميص تلامس آذانهم.

أخذت الحصبة الأدبية أشكالاً عنيفة أخافت مالترانا. عرفت هذه المخلوقات كل شيء، على الرغم من سنواتها القليلة، كأنها بدأت في

(١) فورنوس: من أشهر المقاهي في مدريد لتجمعاته الأدبية وأشكال الحياة الفنية المتنوعة فيه. افتتح المطعم عام ١٨٧٠.

تصفح الكتاب الأول عندما أخذت حلمة المرضعة. بدت أحكامهم مرعبة، قاسية، مقتضبة، قادرة على جعل طاولات المقهى ترتعد من الرهبة. جميع الكتاب الإسبان تقريبًا من أسماك التونة أو المَرَّجان أو الحيوانات الرخوية الصخرية: نوع بحري لا يمكن أن تحبه إلا الأذواق الفظة. ثم، والمِرْقَاة^(١) في أيديهم، يعبرون الحدود. زولا! حَمَّال مع بعض المواهب. فيكتور هوغو! رجل بليغ جدًا، لكنه لم يكن شاعرًا. لامارتين! بكاء... وليس شاعرًا أيضًا. موسيه! كان أكثر من ذلك بقليل. لكن الحقيقيون، الشعراء الفريدون، كانوا يجعلونهم؛ وبأعين زائغة، مرتعشة من الإعجاب، يستشهدون بأسماء وأسماء، كان غموضهم وأعمالهم القليلة يضيفان الميزة الرئيسة، ويضعونهم فوق المؤلفين المشهورين الذين يحطون من قدر أنفسهم سعيًا إلى أن يفهمهم العالم بأسره، الناس البائسون والبرجوازية البغيضة.

سئم مالترانا من هذا المتندى. بالإضافة إلى ذلك، أظهر له العباقرة بعض الضغينة من المزاح السيئ الذي سمحت به ثقافتهم، في اختراع الكتب والمؤلفين ويعلن خدعته في اللحظة الأخيرة، عندما «يسقط» الجميع مدعين معرفة العمل وإعطاء تفاصيل عن جمالياته وعيوبه.

أراد صديق من المجموعة حمايته.

- لا يأتي هنا إلا الصحفيون المبتدئون فقط. سأقدم لك مجموعة من الكُتَّاب الحقيقيين. شعراء عظماء... أناس يختبرون النجاح للمرة الأولى.

(١) المِرْقَاة: ضاغط لوقف النزف، واستعملت كأداة تعذيب قديمًا.

وفي فترات المساء يتردد على حانة للبيرة، وهي نقطة التقاء التجمع الجديد الذي فرض احترامًا كبيرًا على مالتريانا الخجول بسبب مظهرهم. تعرض ابن إسيديرا لاضطراب كبير عند تعامله مع مَرَكِيزين كانا شاعرين وشبابًا آخرين ذوي صلة بشخصيات مشهورة. يرتدون ملابس أنيقة؛ يتبعون الموضات في أعظم مبالغاتها. كان الشعر المسترسل الضعيف اللامع هو الكشف الوحيد عن حماسهم الأدبية. قال أحدهم لإسيديرو، ملخصًا بذلك قانون لباسهم:

- جسد جميل ورأس فنان.

أثار الإعجاب الصامت الذي يستمتع به الشاب إليهم بعض التعاطف لصالحه. ذات يوم تجرأ على الحديث عن الشعر اليوناني، وقام بتحليل أرسطوفان وأعماله الكوميديّة بسهولة كما يتعامل مع جليس قهوة. حتى أنه تلا مشاهد كاملة باللغة اليونانية دون أن يفهمه أحد. أظهر الشباب الأنيق إعجابهم. «مدهش جدًا!» «مثير جدًا!»، ثم أمعنوا النظر فيه لأول مرة، وأشادوا بعينه العميقتين، وثقل حواجه القوية. امتدح أحد الأشخاص قبحة الرجولي، وشعره الخشن والأشعث، ووجد بعض التشابه مع رأس بيتهوفن. اقترب بكرسيه واحد من الماركيزين، بافتنان مفاجئ، مخالطًا طوال المساء ذلك البيتهوفن الذي يتحدث اليونانية.

لم يتأخر مالتريانا في إدراك قلة شجاعة هؤلاء الأشخاص. واحد فقط يستحق الاحترام، الأكبر سنًا، المُعلّم؛ مؤلف ذو موهبة كبيرة، مكتئب دائمًا، كما لو أن وهن حياته أثر على شخصيته، وأظلمها بحزنٍ شديد. بدت سخريّة كلماته كأنها استهزاء ضد إرادته الضعيفة. يجتمع

الجميع على انحرافات الذوق أكثر من الإعجاب الأدبي.

يغتاب الغائبين في التجمع، في حضور مالترانا، بتغيير جنس أسمائهم، وجعلها أنثوية. «تعتقد إنريكيثا أن لديها موهبة، وهي خادمة^(١)»، «كوميديا بيبا لا تساوي شيئاً...». في الليل يذهبون جميعاً إلى ما يسمونه العالم العظيم، إلى الاجتماعات التي تتردد عليها عائلاتهم أو إلى مقصورات الأرستقراطيين. تسر السيدات إليهم، وتحدثن إليهم بلا مبالاة سببه غياب كل خطر. ثم كانت تجمعاتهم في الحانة امتداداً لثرثرة أنثوية، وهم يذكرون العيوب الخفية لأشهر السيدات، بتلذذ عدائي، كأنه يرضيهم ضعف وبؤس جنس معادٍ.

لقد كانوا جميعاً مهذبين، لطفاء وأعداء للمادة الحقيمة، الحياة اليومية التافهة والعواطف العنيفة. كانوا ينشرون مجلدات شعرية، صفحاتها الفارغة أكثر من تلك المطبوعة. كل مجموعة صغيرة من الأبيات كانت مُحاطة بعدد من الأوراق العذراء، مثل زهرة في دفيئة يمكن أن تموت بمجرد أن تلمسها رياح الشارع. يكرهون جحود الجماهير، وكل حقائق الحياة التافهة؛ تسموا بالكاثوليكيين، الفوضويين والأرستقراطيين في نفس الوقت. لم يفكروا كثيراً في الدين، لكنهم يتحدثون بأعين زائغة عن حلاوة الذنب البشع وشهوة التوبة، ثم العودة إلى الإجماع. يجدون خلفية مميزة في طقوس الكنيسة القديمة، ويعنونون قصائدهم التافهة بالمزامير، الابتهالات، التاسوعية. يكتب آخرون مسرحيات هزلية هجائية ضد عادات الطبقة

(١) استخدم هنا كلمة fregona، وهو لقب تحقيري للخادمة.

الأرستقراطية، التي كانت عاداتهم: أعمال مسرحية يتعاون فيها مصمم الأزياء مع الشاعر، ولم يكن هناك عمل يخلو من علاقة غرامية. فكانوا يصيحون بتعبيرٍ مرعب: «لا بد من الجلد». يفكر مالترانا وهو يبتسم:

- جيد... ومن يجلدكم؟

من وقتٍ لآخر يحاصرون بعض الرجال ذوي المظهر البوهيمي والأخلاق الفظة في الاجتماع، الذين يتحدثون إليهم دون تكلف، ويعاملونهم بتفوق يحتقر الذكر القوي. كانوا مصارعبي ثيران فشلة، وحراس مدنيين سابقين، وشباب الترام، يرتدون كأولاد الذوات، راضين عن راحة حياتهم. يتحدث بعضهم عن زوجاتهم وأطفالهم، ويبررون، بارتباك، أشغالهم غير العادية بحبهم لعائلاتهم.

- عليك أن تساعد نفسك بشيءٍ ما. الأوقات سيئة، وكل شخص يتشبث بما يستطيع.

أحد الشبان -الماركيز الذي وجد أن مالترانا يشبه إلى حدٍّ ما بيتهوفن- قام بمطاردته بصدافته اللزجة. يدفع له الأثواب، يهديه عددًا من ربطات العنق، يجلس بجانبه، وهو يمعن النظر في وجهه الأسمر القبيح بحدقتي عينيه الزرقاوين الضاربتين إلى الخضرة اللتين تضيئهما نارٌ غريبة.

كان حليقًا بالكامل. وفقًا لنمّامي المجموعة، فقد قص شاربه، وأرسله، في نوبة حنين، إلى رسام عاش معه في باريس، فنان سيئ السمعة ورمزيّ، يمثل تصوراتهِ للعضلات الأنثوية من خلال غِلْمان عرايا.

ذات مساء عندما كانا بمفردهما في الحانة، دفع مالترانا كرسيه إلى الخلف، وهو يشعر بالحاجة إلى صفع تلك العينين الرائقتين المتمعنيتين فيه بوقاحة. كانت يد رشيقة، لها نعومة أنثوية، تندفع على ساقه أسفل الطاولة. وصرخ ساخطاً:

- لكنك لست كاتباً أو شاعراً أو أي شيء. أنت...

وأطلق الكلمة الفظة السوقية. لكن الآخر -دون أن يتضايق، دون أن يتوقف عن مداعبته بعينه- أجاب بضغفٍ خافت:

- لا تكن عادياً؛ لا تقل مثل هذه الأشياء... جذبتني الروح النقية.



هرب مالترانا من مثل هذه النفوس، ولم يعد أبداً إلى حانة البيرة.
متعب من التجمعات العقيمة ومُطارد بسبب الحاجة، عليه أن يفكر
في كسب قوته. لم يتبقَّ له شيء من ميراث راعيته.

لم يعد يراه أصدقاؤه إلا في النادي الأدبي وهو يقرأ المجلات، أو في
المكتبة الوطنية يبحث بدقة لأجل بيانات بعض العلماء والأكاديميين،
الذين منحوه أجراً ضئيلاً مقابل هذا العمل. من حين إلى آخر يمرر إليه
أحد الأصدقاء كتاباً يترجمه بنصف السعر. إضافة إلى ذلك، يكتب
مقالات لمجلة اجتماعية أسبوعية، مقابل عشرة سنتات للصفحة، والتي
يقوم المدير بتوقيعها، مما يعطي مثلاً عملياً على أن الملكية ليست
مقدسة، بل بعيدة عن ذلك.

بعد أن انتقل إسيدرو من دار ضيافة إلى أخرى، وهو ينقذ بقايا مكتبته
من أصحاب البيوت الذين يلاحقونه بسبب عدم انتظامه في الدفع، اضطر
إلى تسلق منحدر لوس كواترو كامينوس واللجوء إلى شارع لوس
أرتيستاس، وطلب مأوى من السيد خوسيه. في هذا الحي البائس كان
ينتزع الشفقة من السيدة الطيبة، وأصبح أكثر تعاسةً وانعزاًلاً من أجل
معركة الحياة من الناس الوقحة المحكوم عليهم بعقوبة الجهد الجسدي.

منذ ذلك الحين عاش مع زوج والدته وشقيقه بيبين، الذي يشتغل صبيًا في الأعمال. جعله وجوده الجديد على اتصال بأقارب والدته.

لديها شقيقان، جامعا قُمامة عجوزان من بيابيستا، استقرا أخيرًا في راسترو. أحدهم يمتلك كشكًا في ريبِرا دى كورتيدورِس، تخصص في الأسلحة والآلات الموسيقية القديمة، والتي يرتبها بمهارة غير عادية. والآخر كبير العائلة؛ يتحدث الجميع عنه باحترام بسبب ثرائه. كان حال أعماله جيدًا؛ بالكاد يعرف كيف يرسم توقعه، لكنه تاجر قطع فنية قديمة، وله متجره في ساحة الأمريكتين القديمة.

كلاهما يعرف ابن أختهما مالتِرانا بشكلٍ غامضٍ، فقد وصلتهما شهرته كعالم. علاوة على ذلك، فإن الأمل في أن يرث راعيته جعله يحظى بينهما بتقديرٍ كبير. في المرة الأولى التي جاء فيها مع والدته، رحَّبًا به بحفاوةٍ كبيرة. وعندما عاد بمفرده، لاحقًا، لا يزالان يستقبلانه ببعض العاطفة، معتقدين أنه يمتلك الميراث وفي الطريق إلى أن يكون شخصية تبسط حمايتها على كل أفراد الأسرة. لكنهما يريانه في كل زيارة بمظهر أكثر بؤسًا، يلمع كوعا البدلة وركبتها من الاستخدام، والحذاء ملتوٍ، فانتهى بهما الأمر بالتحدث معه ببرود وريبةٍ واضحة.

قال مالتِرانا لنفسه: «إنهما يخشيان أن أقترض منهما المال وألا أردّه».

وبما أنه يعيش في الطرف الآخر من مدريد، فقد توقف عن زيارة أقاربه في راسترو.

في حي لاس كاروليناس، خارج تطوان، مأوى النباشين، كانت

جدته، السيدة إوسيبيا، المعروفة باسم ماريوسا، واحدة من أقدم جامعات القمامة.

ذهب مالترانا لرؤيتها في بيتها الصغير المبني من الطوب، أفضل مبنى في الحي، والذي يمكن للشباب أن يلمس بيديه إفريز قرميده القديم.

في الحظيرة أمام المنزل، ثلاثة خنازير سوداء هزيلة تشخر، وهي تحفر في القمامة. ينقر الدجاج في نصف برميل مليء بالحمص المفتت، الفاصوليا، وبذور الزيتون، وتشكل جميعها عجينة مثيرة للاشمئزاز. كانت عبارة عن فضلات طعام تم جمعها من المنازل؛ بقايا القدور التي تُغذي مدريد.

استقبلته المرأة العجوز بحنانٍ واحترام وهي ترى فيه مجد العائلة. نظرت إليه بعينها الحمراءوين الدامعتين بلطفٍ، لكنها في نفس الوقت لم تجرؤ على مد ذراعيها إليه، لتضع يديها السوداوين النحيفتين عليه، بأصابعها المليئة بخواتم من النحاس الأصفر. أطل أنفها الذي كأنف الساحرة وذقتها البارز من تحت منديل أحمر يضغط على صدغيها. قطعة من الشال معلقة على الخصر بحبل بمثابة مشد وحزام. كانت الصدرية مصنوعة من الحرير الأسود، المهترئ بفعل الزمن، والمفتوح من جميع الجوانب، وكشف من خلال السدى^(١)، في بعض الأجزاء عن قميص أبيض مائل إلى الصفرة، وفي أجزاء أخرى اللحم الجاف المنكمش ذا اللون البرونزي الصدي المائل للخضرة. ترتدي شبشبًا

(١) السدى: مجموعة من نفس الخيوط مرتبة بشكلٍ طولي.

بحجمين ولونين مختلفين، أحدهما أحمر والآخر أزرق، حصلت عليه بالصدفة أثناء النش. التنورة مصبوغة ببقع كبيرة، لكن تحت هذه الخرق الممزقة، كان تطريز المخمل البدائي لا يزال مكشوفاً في أماكن عدة.

ينظر مالترانا بشفقةٍ بالغة إلى عينيَّ العجوز الصغيرتين الرمصتين، وفمها الغارق في هالة من التجاعيد، يتحرك وهي تتحدث بإيماءات ماعز، وخديها الراتينجيين^(١) من الأوساخ، المزينين واللامعين، اللذين لا بد أن الماء أحدث فيهما التأثير المؤلم لطلقة بندقية. ومن هذا الكائن جاء هو! وذلك اللحم كان لحمه!

استقبلته المرأة العجوز بأخلاقٍ عظيمة تنم عن الإعجاب. كم هو جميل! يا له من شاب جسور! كان الحي بأكمله يعرف حماسها لذلك الحفيد الذي كان رجلاً حكيماً، وشخصية لها مستقبل، ووفقاً لها فقد اعتنوا به كثيراً في مدريد.

تركت مهمتها في الاختيار من بين أكوام القمامة، وأجلست مالترانا على أفضل قطعة أثاث في المنزل، مقعد من ترام قديم قد اشتريته بالكامل بمساعدة رفيقها السيد بولو: عمل عظيم جمعا من أجله رأسمالهما.

لم تستطع السيدة إوسيبيا إسيدرو دون أن تتأسف على الفور على مصير ابنتها الحزين.

(١) الراتينج: مادة صمغية لزجة تخرج من لحاء بعض الأشجار كالصنوبر.

تريد أن تصبح مدرّيدة، وتخجل من أن تكون نباشة قُمّامة. هكذا قضت حياتها مستعرة مثل امرأة ملعونة. أولاً، غادرت الحي لتخدم في منزل كبير. تخدم، بينما والدتها لها مهنة نزيهة وقطعة خبز! كل تجارِ تطوان سعوا وراءها؛ ولم يكونوا من الشُّعث الذين يدخلون إلى مدرّيد بكيسهم على أكتافهم ويجمعون القُمّامة من عدد قليل من المنازل، بل رجال أعمال يمتلكون عربات وحميراً، يقفون مثل السادة أمام أبواب الفنادق في لا كاستيانا أو يصعدون إلى أفضل الشقق في شارع سِرانو.

«العمة ماريبوسا، أنا أحب الفتاة». «سيدة أوسيبيا، أريد أن أكون صهرِك».

جميع أصحاب المهنة في لاس كاروليناس، وألمنارة وبياسبيستاس يُقدّمون طلباتهم للأم؛ وهي، الفتاة، مصممة على احتقار التجارة الأكثر احتراماً، حيث وقعت في حب عامل بناء يعمل بالقرب من منزل أسياها. في النهاية، حققت ما تمتته، وتزوجت. جوع كل يوم، ضرب طوال الأسبوع، حياة في أحد تلك المنازل الكبيرة التي تشبه خلايا النحل المظلمة؛ برد في غرفة الغسيل لكسب جنية سيئ، وفي النهاية الموت في المستشفى. اذهبي وخذي البناء! وكل هذا لتُرضي نفسها، شديدة الجهل، لتعيش في مدرّيد، وتكون سيدة، وتنظر باستخفاف إلى نباشات القُمّامة المسكينات... ألم تكن مهنة والديها محترمة مثل أي مهنة أخرى؟

- نحن ندفع الضرائب يا إسيدرِين، مثل أي شخص من أولئك

الذين يمتلكون متجرًا في شارع بوستاس. عليك فقط أن ترى ما تطلبه منا البلدية للحصول على الترخيص: حصة من المال. أما بالنسبة للزبائن، فلدينا ماركيزيون وكونتيسات، جيدون مثل أولئك الذين يدخلون للشراء من كاسا دي سوبرينو^(١). إنهم أناس طيبون جدًا في هذه التجارة. هل ترى هذه التنورة؟ حسنًا، أهدتها إليّ السيدة التي تذهب إلى القصر وتقريبًا تكلم الملوك عنك. هل ترى هذه الصدرية؟ حسنًا، لقد كانت من ممثلة كوميدية جميلة جدًا، تحدثت عنها الصحف كثيرًا: لقد ماتت المسكينة الآن!

وتُفصّل المرأة العجوز لحفيدها مزايا مهنتها: كل المنفعة. بالنسبة له، وهو الذي كان عالمًا، لم يهتم بهذه الأمور، لكنه لن يخسر شيئًا من معرفتها. ولأنها وحيدة، كان لديها في خدمتها صبي من الحيّ، ابن إحدى الجارات التي ماتت. يعتني بالحمار، ويقود العربة عندما يبدؤون السير إلى مدريد في الفجر، ويصعد إلى الطوابق العليا، بينما سيدهته تعتني بالعربة في الشارع. عند العودة إلى المنزل -قراية الظهيرة- كان شغله الأول هو ترتيب ما هو صالح للأكل. في برميل، يودعون بقايا طعام بعض المنازل، التي كان أصحابها نظيفين ويتذكرون الفقراء، حيث يحرسون على فصل بقايا المطبخ. كما أنها تعرف زبائنهم وتصنفهم وفقًا لحالتهم الصحية، فتحفظ عن ظهر قلب قائمة المنازل

(١) كاسا دي سوبرينو: مطعم إسباني شهير في مدريد تأسس في عام ١٧٢٥. من قبل الفرنسي جان بوتن وزوجته، وكان يسمى في الأصل كاسا بوتين، وهو أقدم مطعم في العالم لا يزال يعمل حتى الآن. وقد ورثه ابن أخاه وقام بتغيير اسم المطعم إلى سوبرينو دي بوتين الذي بقي حتى الآن.

الصحية وقائمة المنازل الأخرى حيث يوجد سادة شاحبون، محنيون دائماً بسبب السعال أو يُظهرون أمراضاً مثيرة للاشمئزاز.

- لديّ يدان ذهبيتان من أجل الطبخ الرديء. هل تعرف أيها الصغير؟ أسخن الطعام الجيد وأقيم موائد مشتركة لها شهرتها في الحي. لو كنت رقيقة، فلن يخرج العم بولو من هنا أبداً. له قانون لما أطبخه... وأما وقت الوفرة، فخذ ولا تضجر! كل يوم هناك مائدة مشتركة من أجل إحدى المجموعات... وخيبات الأمل تكون جيدة! فربما تعتقد أنك تأكل الفاصوليا البيضاء وتتعرثر في قطعة لحم. في بعض الأحيان، بين البطاطس المقطعة، وجدنا تلك الأشياء الصغيرة السوداء مثل الفحم التي يسمونها الكمأة^(١)، والتي يدفع مقابلها السادة كما لو كانت مصنوعة من الذهب. هذا هو الصبي الذي يخدمني: أحمر وبدين مثل رئيس الكهنة. لا يمكن قرصه من مؤخرته. من قوته -عندما أخذته- كان أكثر جوعاً من الذئب... لديّ زبائن جيدون جداً يا إسديرين.

ثم ثارت ساخطة على المنازل الأخرى، منازل السادة الأشرار، الذين يتركون الطعام يُهدر في القمامة. يا إلهي، يا لها من مطابخ! كانت الخادومات قليلات الحياء والسيدات مُهملات. كانت بقايا القدر تحتوي على قشور البطاطس، أوراق الملفوف الجافة، نوى فاكهة وسدادة من الفلين. في بعض الأحيان يوجد إبر خياطة، خيوط، أقماع الخياطة وحتى ألعاب أطفال صغيرة في الحساء. وتفكر أن آخرين في الحي، الذين يمتلكون منازل مثل هذه فقط، عليهم إطعام أنفسهم بهذه الحثالة،

(١) الكمأة: هي نوع من أشهى وأغلى الفطريات الصحراوية.

بعد تنظيفها قدر استطاعتهم! تستخدمها لخنازيرها. لذلك يدفعون إلى تجار الضواحي سعرًا أعلى. تطعمهم فقط بقايا طعام اللوردات. لم تكن تجرؤ على إعطائهم «أشياء أخرى» تحبها تلك الحيوانات الصغيرة، القادرة على ابتلاع أمهم؛ لديها ضمير مُفْرِط بالنسبة لهذا الأمر.

كانت متحمسة وهي تذكر تفاصيل الوفرة التي تحيط بها. خبز، بالأكوام، كان هناك يوم تملأ فيه كيسين بالفتات، حتى الدجاج يشبع، ولا يرغب في المزيد. في الصباح، عندما تستيقظ، القهوة اللذيذة. يعطونها لها في المنازل بعد غليها للمرة الثانية؛ لكنها تقوم بنشرها في الزريبة على جريدة، لتجفيفها في الشمس من أجل الإفطار. تحتفظ بكيس ورقي ممتلئ.

المنزل ملكها؛ فلديها في الحظيرة كومة من قش الإسطبل، أعلى من السقف، والتي تُباع إلى أفران الطوب للتخلص منها؛ تتغذى الحيوانات دون مصاريف، وهي والصبي، بالإضافة إلى الطعام، يضمنان الملابس، فطالما يمشي الناس في البلدة بالثياب، فلن يريا أنفسهما عرايا.

-أنا فقط اشتري النبيذ: لا أحد يشرب الماء في لاس كاروليناس. يُفطم الصبيان على حليب الكَرمة. لكن لأجل ثلاث قطع نقدية يملأون لي قارورة من أجل اليوم بطوله. هنا، في الخارج، يُهدى النبيذ.

وبعد إشباع احتياجات حياتها بشكل جيد، يتبقى لها -كأرباح- نتائج النباش، واكتشافات غير متوقعة.

سمع مالترانا حديثًا عن ثروات جدته، عن الكنز الخفي، الذي كان دافعًا لمحادثات غامضة في الحيّ بأكمله. يقول النباشون في الحانة:

- العمة ماريبوسا، الثرية. إنها محظوظة؛ تذهب فقط إلى بيوت النبلاء. يا للأشياء التي تجدها هذه المرأة!

أعلن كولتا المشهور -عندما يثرثر بسبب سُكره- أنه فاجأ المرأة العجوز لحظة إحصائها كنزها في أحد أركان الحظيرة، وأغمض عينيه كأنه يتذكر الجواهر بشكلٍ أفضل، القطع الفضية، أكوام العملات التي أبهرته.

ينتهي الشاب -في محادثاته مع المرأة العجوز- دائماً إلى نفس الطلب:

- جدتي، يقولون إن حضرتكِ ثرية جداً. إذن أريني كنزكِ.

اعترضت السيدة إوسيبيا. إنها ثرية! أكاذيب الناس؛ اختراعات كولتا والسكراري الآخرين؛ هوس العم بولو، الذي يبحث عنها منذ أن أصبحت أرملة، وقد مات بالفعل أربع زوجات له، واقترح عليها أن تكون الخامسة. كانت فقيرة. لا تمتلك شيئاً. تبتسم بشكلٍ غامض عندما تقول هذا، كانت عيناها تلمعان؛ لم تتحفظ في أن تلمح بأن الكنز حقيقة... لكن لن يراه أحد على الإطلاق.

أيام الأحاد هي الأيام الوحيدة التي يتحدث مالترانا فيها مع السيد خوسيه ويرى شقيقه. عندما يصل، بعد الفجر، إلى لوس كواترو كامينوس، يجد بينين بالفعل في وسط الشارع يجند الصبية للقيام بأحد الرحلات التي لها طابع الغارة إلى أمانيل، الأمر الذي يُزعج أصحاب المطاعم الصغيرة.

كان مالترانا عندما ينهض، يسوي حساباته مع زوج والدته، ويمنحه ما يستطيع مقابل إيجار الغرفة. ثم ينصرف الاثنان، وفقاً لحالة ثروتهما، لتناول شريحة لحم رخيصة ولحم ضأن طري في أحد «أفران الشوي» في لوس كواترو كامينوس، أو دواجن محضرة في الأكشاك بالقرب من بونتّا برابا.

يأكلان في الهواء الطلق، على طاولة صغيرة مستديرة مطلية باللون الأحمر، يجلسان على كراسٍ صلبة بلا مسند. تصل عربات الترام بأحمال كبيرة من المديرين؛ تتفرق البلوزات، الشالات، القبعات العريضة والقلنسوات السوداء حول الأفران والحانات بحثاً عن النبيذ واللحوم، وهي أرخص مما عليه في المدينة؛ لأنها بيعت دون علم دوريات تحصيل الرسوم. دقت آلات البيانو بلحنٍ سريع، تتدرج في سلمها الموسيقيّ بضربات رنانة؛ يرقص الأزواج، يلفون مرتين وهم يرقصون الفالس في منتصف الوجبة؛ تدور مظلات اللعبة «الدوّارة» بخيلها الصغيرة وعرباتها الطفولية؛ تلوح زوارق الأراجيح الخضراء بشكلٍ متناغم فوق الأسقف القرميدية، بها نساء يقفن وهن يمسكن بالحبال، ويصرخن مثل الدجاج، يضغطن على تنانيرهن بين أفخاذهن؛ وعلى خلفية السماء الزرقاء، كانت الأعلام البركالية^(١) الحمراء والذهبية ترفرف في جو من الزيت المقلي والدهن الذائب.

يستمع مالترانا إلى السيد خوسيه في صمت. يحب عامل البناء التحدث إلى الرجال المتعلمين الذين يعرفون كيفية التمييز. على الرغم

(١) البركال: قماش قطني يُستورد من الهند.

من أنه كان ابن إسيدرا، إلا أن تعليمه جعله رجلاً متفوقاً، تقريباً واحداً من تلك الكائنات التي يجعلها الحرس المدني القديم كرامة للبشرية، اختارته قوة غامضة لم يكلف نفسه عناء معرفتها. بالقرب من الشاب، أفسح عامل البناء المجال لإسهابه البطيء، بصوت أجش ورتيب. لم يستطع التحدث إلى زملاء العمل؛ لم يكن على وفاق معهم؛ يهينونه لكونه رجعيًا وجاهلاً، وهم يذمون في وقت عمله كحارس مدني. يقول:

- أنت رجل حكيم يا إسيدرو، أنت تعقل الأمور، ولهذا يمكنك أن تفهمني وتنصفني أكثر من هذه الحيوانات... وما الذي أقوله ليدعوني بالخروف؟ لا يمكن أن يصبح الفقير فوق الغني أو نظيره، وأن يعلو الخادم على سيده، لا يمكن أن يكون كذلك. كان دائماً بعضهم يمتلك المال وبعضهم الآخر لا يملكونه، وسيظل الأمر دائماً على هذا النحو. إن هذا بسبب الاجتماعات والجمعيات التي تعمل فقط على ملء رأس العامل بالهراء وإلقائه في الشارع. ما يهم العامل اليومي هو أن يجد ما يدفعونه إليه، ويكون جيداً أن يساعده السادة بالصدقات... يغضبني أيضاً أنهم في كل تلك الاجتماعات يصادقون القساوسة، وأنا كما تعلم لم أذهب إلى قداس منذ فترة طويلة. ولكن ما الضرر الذي يلحقه هؤلاء السادة المساكين ذوو السربال^(١) بالعامل؟ إنهم على الأقل يقدمون شيئاً: يوزعون الصدقات، ولديهم ملاجئ، يعتنون بالفقراء ويعطون الأثرياء من أجل أن يساعدهم بالمال. والآخرين، الذين يتحدثون في الاجتماعات عن هؤلاء بابّوات الاشتراكية والفوضى، لا يعطون حتى

(١) السربال: ثوب أبيض من الصوف يلبسه الكاهن الكاثوليكي تحت الدثار.

زراً. ماذا لديهم ليعطوه، إذا كانوا حقراء!

يشعر السيد خوسيه -عندما يتحدث عن المتمردين- بغضب مؤيد سابق للنظام، تشكل بسبب الانضباط. بُعثت الروح تحت قميص الحارس المدني. يدرك أن كل شيء يُوزع بشكل سيئ وأن الفقراء يعانون كثيراً. لقد مر هو نفسه بفتراتٍ من البؤس الرهيب، وستكون نهايته، عندما يشعر بالشيخوخة، هي التسول في الشارع أو الموت في المستشفى. لكن إذا تدخل أولئك المصلحون الذين يعطون ضد الأغنياء، فهل سيبدو العالم أفضل؟

تابع البناء:

- كل شخصٍ لما وُلد له، وليكن راضياً عن حظه. لقد أدركت أمراً أيضاً يا إسيدرو، على الرغم من أنني لا أعرف القراءة والكتابة مثلك... ما هو أفضل شيء منظم في كل الأمم ويسير أكثر استقامة؟ لن تخالفني.. إنه الجيش. أنا أنتمي إليه ومدين له بتربيتي الحسنة. وماذا عن الجيش؟ حسناً، الجنود هم الأكثر، يأكلون وجباتهم ويصبرون، الضباط، الأقل عدداً، والكولونيلات والجنرالات الأقل بكثير، يأكلون الحجل^(١) أو ما يشتهون، ويعيشون بشكل أفضل. وظّف كل الجنود العاديين، كما يريد البعض، وينتهي الجيش، اجعل كل الرؤساء جنوداً بسطاء، كما يطلب آخرون، ولن يكون هناك من يقود؛ المحصلة: نفس النتيجة. حسناً، طبق هذا على أبناء البلد، وستفهم لماذا أفكر هكذا. من وُلد منا ليكون جندياً، ليحمل على كاهله جراب العمل، دون التفكير في

(١) الحجل: طائر متوسط الحجم، يعيش في أوروبا وآسيا وإفريقيا والشرق الأوسط.

ثورة أو إطلاق النار من الخلف على الرؤساء. أنت، مَنْ ولدت لتكون ضابطاً، لتجني مبكراً الأشرطة ولترى إذا كنت ستفوز بالحزام يوماً ما.

يبتسم الماترانا وهو يستمع إلى زوج والدته. يفكر في الغرفة الصغيرة المعتمدة والنتنة في شارع لوس أرتيستاس؛ في الفراش الحقيق، المائدة والمقعدين اللذين يشكلان كل جهازه؛ في أيام البطالة الاضطرارية التي أجبرته على إظهار بؤسه ليساعده عامل البناء. سأل الشاب:

- وحضرتك ماذا ستخسر إذا تفكك الجيش الاجتماعي وقُتل قاده -
-إذا اعتُبر هذا ضرورياً- وأحرق نصف العالم؟

قال البناء، مستنكراً:

- الآن أصبحنا مع هؤلاء! هل أنت أيضاً مِمَّن يطالبون بمثل هذه الفظائع؟ تبدو كذبة... مع الكتب التي قرأتها. والنظام يا فتى؟ من دون نظام لا يمكن العيش. أتذكر أن ذلك قد شرحه لنا جيداً أحد الملازمين القدامى في الحرس المدني. سيتقاسمون كل شيء، وسينهبون المنازل، وسيأكل بعضنا بعضاً مثل المتوحشين. لا يا فتى؛ فكر في الأمر بهدوء. كيف يمكن للناس الطيبين أن يعيشوا من دون قساوسة وبلا جنود، لا سيما من دون جنود؟

وصاحب الحارس المدني العجوز هذا السؤال الغامض بإيماءة من الاشمئزاز والرعب. قال لاحقاً وقد استعاد رباطة جأشه:

- يحتاج الرجل إلى الخبز والعصا. سوط طويل جداً ليسير مستقيماً. العالم مليء بالأوغاد. أطلقوا سراح الرجل، وسنرى الحرية التي يتسلح بها.

في النهاية، هداً السيد خوسيه مُظهرًا تفاؤلاً شرسًا.

- لحسن الحظ، سيستغرق هذا وقتًا طويلاً. مثيرو الفتن لا يملكون بنادق الماوزر. قد يخرجون، قد يخرجون ويعرفون ما هو جيد! لهذا السبب، عندما يكون هناك إضراب في المهنة، أعقب بأنني لن أشارك فيه، بل أنصرف إلى المنزل. ثم ميل كبير إلى إطلاق النار على الناس، دون خوف من رد آخر غير الحجارة، ويختارون الهدف حسب الرغبة، كما لو كان الناس بطاً!

قبض يديه عندما قال هذا وغمز بعينه، كما لو كان يمسك بندقية وهمية. كان يتسم كأنه يشعر بالإطراء من ضراوة ذكرياته. يفكر مالترانا باندهاش -أمام إيماءة تلذذ الأراغوني القاتلة- أن ذلك الرجل كان صالحًا. كان يُجمل سنوات إسيدرا المسكينة الأخيرة بوداعته الصامتة؛ لقد كان والدًا لطيفًا لبين المشاغب. كان رفاقه يصفونه بالخروف بسبب صبره الذليل الذي يقبل به كل مظالم ومصاعب العمل، ومع ذلك يتسم مثل جلاد يتمنى القتل الجماعي، وصيد الرجال، ما دام يتحقق تحت حماية القانون، من قبل منفذين لهم زِيٌّ موحد. كان الاحترام الخرافي للنظام الذي لقنوه إياه عندما كان شابًا قد تشكل داخل إطار صرامة الانضباط الذي أدخل في روحه قسوة وحشية. بالنسبة له، يمكن للمجتمع أن يتقدم فقط بالسجون الممتلئة، الإعدام بالرصاص في كل زاوية والحرس المدني الذي يُفرغ أسلحته على أي مجموعة تجرأت على إطلاق هتاف، والتلويح بعلم. يقول ذلك بصرامة أوحث برهبة، وفيما يلي يلين أمام ابنه باراباس المشاغب. فعندما يرتكب الأخير

واحدة من أفعاله، يكتفي حيوان الحرب العجوز بأن يقطب حاجبيه ويلوح بمخالبه وهو يصرخ بصوتٍ أجش: «انظر، سأضربك!». ويضحك الوغد الصغير، وهو يعرف أنه لن يضره أبداً.

في أيام العمل، إذا كان الطقس جيداً، وكان مالترانا يمتلك في جيبه بعضاً من البيزيتا، يتوجه إلى حي لاس كاروليناس لتناول الغداء مع صديقه موسكو، القناص الخفيّ، والذي بلغ مجده حتى كولمنار. حتى إن «المخرب» الشهير للممتلكات المَلَكِيّة يستحق بسبب مآثره احترام القناصين في سيرا، على الرغم من أنهم ينظرون إلى رفاقهم من ضواحي مدريد، الذين يعيشون من الصيد مستعينين بابتن المقرض في غابات إلباردو، على أنهم لصوص جناء.

يعيش موسكو بالقرب من منزل السيدة إوسيبيا، في مبنى من طوب شبه متفكك، مع سقف من القرميد القديم الذي جلبه من أنقاض البلدة. في الخارج، يشغل جدار كامل ثلاثة صفوف من الأقفاص بها طيور غناؤها لا ينتهي، طيور الحسون وعصافير تفاحي، تُستخدم للصيد بالشبكة. عندما وصل مالترانا إلى الباب، اضطر إلى أن يشق طريقه بين اثنين من كلاب السلوقي الجميلة ذات النحافة الأنيقة وكلاب أخرى ذات صوف قدر ومتدلّ، قبيحة، مليئة بالطفيليات، لكنها تتمتع بشهرة مساوية لشهرة سيدها، لقدراتها المدهشة.

وجد موسكو في الداخل. ابنته فليشيانا -هي كل عائلته- تعمل في مصنع القبعات، وينتقل من مكانٍ إلى آخر، لإعداد الغداء، بعد أن قضى فترة الظهيرة بشكلٍ جيد.

كما أن موسكو ينهض متأخرًا. ومالترانا يتفاجأ كثيرًا بملابس عمله، بدلة مخملية ملطخة بالطين، صندل ومِسْماة^(١) مبللين، وبيريه بعناقيد جافة وأشواك من نباتات الأدغال. كان رجلًا ضئيلاً نحيفًا، حركاته سريعة بعصبية وإيماءاته حازمة. جسده يتأرجح مثل رعدة زنبرك معتدل على وشك أن ينطلق. الحياة وسط الطبيعة والقرصنة في الغابة منحته - عندما كان يظل صامتًا - خشونة فظة، شبيهة بخشونة شجرة أو حجر ضخيم. عندما يتحدث، يكشف عن رجل المدينة في داخله، الهارب من التجمعات البشرية العظيمة، ليعيش بمفرده، في قتال مستمر، يكسب قوته بالسلاح أو بالمكر، كما لو أن نزعة بعيدة تسحبه، وتجره ليعيش حياة رجل بدائي. عند رؤيته، كان يستقبله مالترانا دائمًا بنفس السؤال:

- كيف كانت ليلتك؟

يتسم موسكو مرات؛ ويجب مراتٍ أخرى بهمهمات من المزاح السيئ. هناك ليالٍ رائعة، حيث سقط اثنان أو أكثر من اليمحور، والذي سُلخ في تلك الأوقات وقُطع بالفعل، ويبيع سرًّا بين سكان تطوان. ليالٍ أخرى، يصطاد الأرناب فقط، وعندما يعود إلى المنزل قرب الفجر، يستلقي على سريريه دون خلع ملابسه، وهو يلعن سوء حظه، وينام بتعب شخص قضى الليل يسير على أربع، وأذناه دائمًا منتبھتان، مُعتقدًا من وقتٍ لآخر أنه يسمع صوت «توقف!» وصافرة الرصاصة.

كان الأشخاص المخربون في الحيّ، التعساء الذين يعملون في

(١) المِسْماة: جورب طويل يرتديه الصياد ليقويه من الحر.

أسطح المنازل القرميدية خلال فصل الصيف، وبدافع الجوع في الشتاء فقط يقررون الذهاب للقنص، يعجبون بموسكو. لم يكن يذهب مثلهم من دون سلاح في حزامه، مستسلمين مقدماً لتلقي طلقة بندقية أو ضرب مبرح، ليُنقل إلى سجن إسكوريال، ومن هناك إلى السجن المشدد، دون أن يُبدي أدنى مقاومة. لقد كان رجلاً بحق مثل صيادي الغابة في كولمنار، الأشخاص الأقوياء وأصدقاء البارود، الذين يطاردون الحراس من شجرة إلى أخرى، حتى حبسوه في منازلهم الصغيرة.

في الليلة التي يخرج فيها موسكو ببندقية ويترك ابن المقرض في المنزل، يرتجف حشد المخربين الساذجين من القلق والفخر. كان رجلاً. في اليوم التالي الذي يكون هناك لحم غزال اليعمور في تطوان؛ والحارس الذي حاول منعه خاطر ليُطارده، ويطلقون عليه النار من بين الأدغال دون إنذاره «توقف!». إذا لم يكن هناك لحم، فذلك لأن موسكو في سريريه مغطى بالقش، متسخ بالدم، مع جزء من رصاصة تحت جلده.

أعجب مالترانا بصديقه مرات عديدة عندما يُظهر له جسده بوقاحة شجاع: خُردقان^(١) في الرأس، مغروسة في عظام الجمجمة؛ رصاصة في الكتف وأخرى في الساق، مقذوفات مستديرة استخرجتها طبيعة دجالة من الجوار بإجراءات مؤلمة، وفحص بدقة لباقي الجسم بحثاً عن الخُردق، الذي بالكاد يعيره أهمية، معتبر إياه حوادث تافهة.

(١) الخُردق: هو كرات صغيرة من مادة الرصاص تُحشى بها طلاقات بندق الصيد (الرصاص أو الخرطوشة).

وجبات غداء مالترانا في منزل موسكو لذيدة. يدفع ثمن الخبز والنبيذ، الذي يحضره من حانة قريبة، بينما يضع المخرب الشهير فوق المائدة طيخًا من الأرناب الصغيرة أو بعض الأرناب البرية التي يتم اصطيادها في الليلة السابقة. يصيح إسيديرو بسخرية:

- نخب العائلة الملكية! يعيش الملك الذي يرعى رعاياه!

كانت قطع الصيد البري هذه التي يقتات بها موسكو هي الوحيدة التي يمكن العثور عليها في مسكنه. دائمًا يتوقع تفتيشًا؛ أعين الحرس الملكي على منزله؛ يزوره المدنيون في أكثر الأوقات. لم يكن هناك أدلة أخرى للعيان على هوايات السيد أكثر من الأقفاص المعلقة بالخارج في ساعات النهار والكلاب التي تنام متفوقة أمام الباب. يقول بجدية ساخرة للحراس عندما يظهرون:

- أنا صياد شرعي. أهتم بصيد الطيور بالشبكة، أو آخذ الكلاب إلى الحائط الترابي لإلباردو، في حالة خروج أي أرنب من الحدود. القليل من الهواية... ما يقولونه غير ذلك عني هو كذبة.

كانت البندقية مُخبَّأة تحت القرميد؛ ينام ابن المقرض في القاع المزدوج لصندوق مغطى بالخرق، ويتنفس من خلال ثقب في الخشب.

عندما يحضر مالترانا، كان صديقه موسكو -كدليل على ثقة كبيرة- يُريه الحيوان الخرافي، درة المنزل، أكثر ما يحبه. يخرج من قاع الدرج الوحش الصغير جدًا الذي يمد جسمه المتموج مثل جسم زاحف ويخدش بقوائمه أصابع الصياد القاسية. يحمل موسكو الفم ذا الشارب

والأسنان الحادة إلى فمه، ويلفه بأنفاسه، بينما الحيوان الخرافي يداعب شفتيه، ويُخرج لسانه الصغير مع عبوسٍ لطيف. يصيح الصياد:

- لكن كم هو لذيذ! انظر إليه يا إسيدرو: إنه الأفضل في العالم. كلفني خمسين ريالاً في كولمنار. لم يتواجد من يلمسه: وحش حقيقي. مزق إصبع أحدهم. يقبض على يده، وحتى الله لم يجعله يُفلته. لقد ربيته كما ترى، يأكل من شفتي ويحبني مثلما يحب فليثانا. لكن لا يمكن لأحد إلا أنا القيام بهذا. إذا لمستّه، سيعضك. مرر يدك على ظهره، ستري كيف أن شعره ناعم... لا تخف، لن أفلته.

واستمر في مدح الحيوان المثير للاشمئزاز الدموي. يجعله يصطاد سبعة أيام متتالية دون إرهاق. في بعض الأحيان يقتل ما يصل إلى خمسين أرنبًا: كان دائمًا متعطشًا للإبادة. لا بد من إدخاله في مداخل الجحور بخيط في ساقه، لسحبه عندما يغفو، بسبب سُكره من الدم. كان موسكو -دون أن يتوقف عن الكلام- يُخرج قطعة من الجُبْن من جيبه، ويضع منها القليل بين شفتيه، ويلتهمها الحيوان مع حركات التوائية مثيرة للضحك. قال الصياد:

- لكن كم هو لذيذ! انظر إليه مرةً أخرى. هنا حيث تراه، يتغذى بخمسة عشر سنّاً من الجُبْن كل يومين.

أثار موسكو ذكرى دُرة أخرى يمتلكها، الكلب الشهير بوستو إن أما. لقد أطلق الاسم نفسه على كلب آخر من كلابه، لكن لم يكن يستحقه الأخير مقارنةً بذلك، الذي يتحدث عنه الحراس بذهول وكان كابوسًا لكبار موظفي إباردو! يقفز موسكو فوق الحوائط الترابية في منتصف

الليل، دون مرافقة أخرى غير بويستو إن أما، ويختبئ بجوار الجداول، في المياة الراكدة حيث يشرب اليعمور. كل مَنْ يقترب يمكن اعتباره ميتاً. يذهب الكلب في مطاردة خلال النباتات البرية: يكسر الحيوانات الأغصان بسبب اندفاعهما في الركض، ويُحدثان ضجيج إعصار، ويركض خلفهما المخرب بصندليه الجلديين الخفيفين. كان بويستو إن أما، عندما يبلغ اليعمور، يعضه بين رجله الخلفيتين، في العضو الأكثر حساسية، فيظل الحيوان خائراً على الأرض من الألم، حتى يقتله موسكو. في غضون بضعة دقائق. مع هذا الكلب يحتاج في كثير من الأحيان إلى مساعدة جبناء الحي ليحملوا على ظهورهم البهائم التي اصطادها.

كاد المخرب يبكي وهو يتذكر موت رفيقه الشجاع، وإطلاق النار الذي جعله يسقط بالقرب منه، وفرحة الحراس، المنتشرين في صف كجيش للإجهاز على حيوان كان أكثر دهاءً من كثير من الرجال، وقيادة جثته إلى بلدة إلباردو، حيث أعجبوا به كما لو كان منتصراً بعد موته.

يشعر موسكو بالحنق عندما يفكر في كلبه. ولا يزال يعيش المحتال الذي أعطاه طلقة البندقية مجاناً! وهو، موسكو، لم يقتله بعد

كان مالترا نا -وهو يستمع إلى مآثر الحياة الهمجية، الرجل الذي يصطاد الحيوان هو نفسه مطارد من قبل رجل - يفكر بذهول في أصل المخرب الشهير.

ينحدر من عائلة من تطوان، لكنه وُلد في مدريد، ويعمل في مطبعة. انتهى به الحال ليدبر مطبعة تُلقى فيها صحف عدة لم يكن يقرأها أحد؛

لكن في أيام السبت، حالما ينتهي من عمله، يغير بدلته ويركض إلى تطوان، حيث هواياته، متفرغاً للصيد مع أشهر المخربين، كأنه منجذب بتأثير أسلافه، وميراث أجداده.

خلال الأسبوع، وهو يتجول بين صناديق الورش، الملطخة بالحبر والتي تفوح منها رائحة الورق الرطب، يفكر بحنين في التلال المغطاة بأشجار الصنوبر، السنديان الفليني والبلوط، في الشجيرات التي تُفتح أمام خطم الغزلان، وهي تهرب لاحقاً مع نفخة إنذار، في المساحات الكبيرة للسماء الزرقاء، وقمم جواداراما الثلجية في الخلفية، مثل سور شرفات فضية تتألق في الشمس.

كان غير اجتماعي: يختنق داخل البلدة، تثير الشوارع اشمئزازه بسبب حشود الناس وهم يسرون في نفس الاتجاه. انتهى به الأمر بالزواج من ابنة جامعة قُمامة، وتخلّى عن مهنته ليُباشر تجارة زوجته. لكنه بالكاد يذهب إلى مدريد بالعربة. متجر الخردة ذريعته: مهنته الحقيقية الصيد وممارسة هواياته.

لقد وُلد، كما أعلن لِمالترانا، من أجل العمل العنيف، ليعيش في مغامرة مستمرة، ويخاطر بنفسه. ولماذا يبقى داخل بلدة، يجمع حروف الرصاص الصغيرة، منهكاً في مهمة النساء هذه؟ كان رجل قتال؛ يحب محاربة الموت كل يوم - حسب كلماته - يزوغ منه، ويلتقط الخبز من بين قدميه.

- كنت سأكون جندياً عظيماً يا صديقي إسيديرو. لكن لم تعد هناك حروب، حروب حقيقية، مثل تلك القديمة، حيث يستمد كل رجل قوته

كاملةً من ذراعيه أو من فطنته. علاوة على ذلك، أنا لا أرتدي زيًا رسميًا مهما كان الثمن؛ أنا لا أرتدي قناعًا، ولا أدخل في ضوابط وقوانين.. لأكون مأمورًا، من الجيد أن أظل هناك في المطبعة، مع قساوة مثل شمس كل يوم. آه، كم مثلي في السجن المشدد، وكانوا في وقتٍ آخر أبطالًا!

يحب الحرب الوحشية، الصادقة، دون نفاق الإنسانية، ودون رياء الحضارة: تلك الحروب التي كان المحاربون يُقتلون فيها من أجل المجد الذي تحققه الإبادة، ولم يحصل على أي مكافأة أخرى غير سلب منزل المهزوم ونهب حقوله؛ لكنه وُلد متأخرًا، كما يؤكد بلهجة حزينة، وفي غياب سيناريو أفضل، استسلم عند أبواب البلدة الكبيرة لحياة ما قبل التاريخ، اصطيد حيوان من أجل الطعام، والإنسان، إذا لزم الأمر، للدفاع عن نفسه؛ معتبرًا الأرض ملكه، بغض النظر عن الحوائط الترابية التي يستطيع القفز فوقها، والقوانين التي يمثلها رجال فانون مثله.

يحتفظ من ماضيه ببعض التبجيل للكتاب. لهذا السبب، كان صديقًا لإسيدرو منذ أن تعرف عليه في منزل جارتها السيدة إوسيبيا.

أحيانًا يتذكر أيامه كعامل مطبعة. لم يكن يقرأ الصحف العامة، بينما يذهب من حين إلى آخر إلى مدريد؛ لكنه يعتقد أن زمنهم كان أفضل، ومن يكتبون الآن هم أقل بكثير ممن كان يعرفهم. وبينما يفكر في هذا، ينظر إلى مالتريانا، وهو يقارن في عقله بينه وبين الرجال العظماء الذين لا يزالون باقين في ذاكرته. هل قرأ صديقك عن فلان وفلان؟ وهنا أسماء وأسماء مستعارة وقّعوا بها، قبل عشرين عامًا، في مجلات وصحف قليلة

التوزيع، أزهار ورقية ضعيفة، عطورها الذهنية لم ينتبه إليها الجميع. أطلق موسكو هذه الألقاب بمسحة معينة، بين الإعجاب بمجدهم والفخر بمعرفة مَنْ يلقبون بها، وقد أثار دهشته سماع مالترانا وهو يُعلن بصراحة أنه لا يعرفهم. لسببٍ ما يشك في أن الصحافة آخذة في الانحدار.

استند إعجاب موسكو إلى أغرب صفات هؤلاء العباقرة. كان يتحدث عن أحدهم بذهول؛ لأنه يكتب وهو يغني، دون أن يزعجه أي ضجيج، دون أن يرفع رأسه على الرغم من إطلاق طلقات مدفع بالقرب منه. استحق آخر حماسه لأنه تحدى الدائنين، وعندما كان يحمل من المطبعة المسودات إلى منزله يجد فيه سيدة جديدة. كم كانوا غير مهذبين! جميعهم لا يملكون المال، يدينون للمطبعة بعدة طبعات، يلهثون خلف البيزيتا، مثل ثربانتس، «الذي لم يتناول العشاء عندما انتهى من كيخوت»، كانوا غاية في السرور ويضحكون المُضْضدين^(١) بنكاتهم. لكن الشخص الذي يتذكره بأكبر قدر من الاحترام كان رجلاً أنيقاً وجاداً، مؤلفاً لمقالات طويلة عن السياسة الدولية، يجلس في أي ركن من أركان المطبعة، دون أن يلمح نفسه، ويكتب مرتدياً قفازات.

- دون أن يخلع القفازات يا إسيدرو! هل هناك كثيرون يمكنهم فعل ذلك الآن؟

كانت ريفيته تُقدر هذا باعتباره أعظم دليل على الموهبة، ونظر إلى يديه، معترفاً بأنه غير قادر على مثل هذه المفخرة، معلناً أنه لا يستطيع اصطياذ حتى أرنب صغير بيدين مرتديتين الجلد.

(١) المُضْضدين: مَنْ يقومون بمعالجة النصوص وتنسيق الحروف المطبعية وجعلها كلمات وجُملاً.

في بعض أيام الأحاد، كان موسكو يدعو مالترانا لتناول الطعام، معلناً أن شقيقه - مشرف بيع الصحف، السيد مانولو إل فيدرال - سيأتي من مدريد، وهو شخصية مرموقة بين الأشخاص المهتمين بتجارة الورق المطبوع.

يعرفه مالترانا. كان مشهوراً في صالات التحرير بلغته الرائعة والمعقدة وآرائه السياسية. يحضر إلى الصحف، بوجهه الكهنوتي العريض المتعرق دائماً، بعينين بارزتين ومخيفتين، ليشتكى أحياناً باعتباره «رجل صناعة» (كانت كلماته) من تأخر الإدارة في توزيع الورق؛ أحياناً أخرى بصفته «مواطنٍ واعٍ» (كلماته أيضاً)، باسم لجنة المقاطعة، للمطالبة بنشر أحد البيانات ضد الوجوديين، الذين لا يقلون ضرراً على البلاد من المالكين أنفسهم.

اكتسب إسيدرو صداقته، على الرغم من عدم تسجيله في «إحصاء الحزب». لقد كان فتى لطيفاً، على الرغم من أنه «مواطن فاقد الوعي». كان يقول له:

-عندما تريد حضرتك أن ننجز نوبة عمل، فأنت تعلم أين توجد مكاتب: بويرتا دل سول، من الخامسة إلى الثامنة صباحاً، على رصيف صيدلية بوري... حتى لو أمطرت بغزارة، حتى لو هوت قروود الكابوتشي منتصبه.

لم يكن المطر والثلج كافيين لمنع المكتب من العمل. عند الفجر، يصل السيد مانولو مع مساعديه حاملين حزم الصحف. له تخصصه وهو البيع في الضواحي. يحيط به جميع الباعة، المسنات، الأطفال،

والرجال رثو الثياب، وهم يصرخون، ويمدون أيديهم ليكونوا الأوائل. لم يكن ينزعج من هذا الحشد: كان معتادًا على نزاعات أكبر في «حياته السياسية الطويلة».

- النظام أيها المواطنون، وقليل من التهذيب!

ناهيك عن الطبقة الرابعة^(١)! سيُمنح كل واحد وفقًا لتنظيم شجاره وحقوق إدارته.

وبهدوء شديد يوزع رُزم الصحف، ويطالب كل واحدٍ منهم بحصيلة بيع اليوم السابق، ويحفظ عن ظهر قلب حساباته المعقدة، وبقِيَمٍ بمجرد النظر صحة مبالغ النقود المعدنية، والبيزيتا ترن على الأسفلت بهذه الشدة التي ترتد بها إلى يديه بعد الاصطدام كما لو أنها كرة.

كانت «الطبقة الرابعة» عبارته المفضلة، يحويها كل شيء، ولا بد من تخمين مداها. أحيانًا، كانت «الطبقة الرابعة» مجرد بائعي صحف؛ أحيانًا أخرى الناس العامة. وبعض الأحيان كل من يشتري الصحف. يسأله مالترا نا دائمًا، عندما رآه، عن «الطبقة الرابعة» الشهيرة. يجيب السيد مانولو:

- صار شيئًا مضمنيًا؛ توجد أزمة مادية: يميل الناس قليلًا إلى الورق. عندما يبيع صحيفة جديدة، يقول بحماس:

- لقد نجحت اليوم خارج الأسوار. كان على المحررين أن يصوتوا

(١) الطبقة الرابعة: هي الطبقة الوليدة: حرفيون وفلاحون تحولوا إلى عمال. هي طبقة اجتماعية جديدة تختلف عن طبقة النبلاء ورجال الدين والبرجوازية.

لي برسالة شكر، رغم أنهم لم يستدعوني لإعطائي صوتًا وتصويًا. أمتلك حِسًا ذا خبرة، ولقد قدمت اقتراحًا واستهلك نوبة عمل لأظهر لهم أنه يجب عليهم إخراج الصحيفة بعد ساعتين. ولكن بما أن المرء ليس متعلمًا، فإن الحجة قائمة ضده، والطبقة الرابعة تنخر.

كان ابتهاج إسيدرو -الوحدوي البائس، غير القادر على فهم بعض الأمور- يثير حماسة نصير الاتحادية. بالنسبة للسيد مانولو، كانت إسبانيا مقسمة إلى أربع عشرة ولاية، كما خطط أتباع الدين عن طريق موثائق خطيرة وجريئة. كان مواطنًا من كاستيا لا نويا؛ لكنه يريد العيش في سلام وأخوة مع الأغراب من الولايات الإسبانية الأخرى، حتى لو كانوا من الأرستقراطيين، وكذلك من «الطبقة الرابعة».

صرخ في المكتب عندما رد على أحد المسافرين:

- هل أنت من ريوس^(١)؟ حسنًا، لقد اتفقت ولاية كتالونيا مع ولاية قشتالة. هيا لنشرب بعض النبيذ، مثل المواطنين المتحالفين الجيدين. كانت الوجبات يوم الأحد في منزل موسكو هادئة ولذيذة. تعد فليثيانا -ابنة الصياد- المائدة أو تظل بلا حراك بالقرب من الحائط، وعيناها مثبتتان على مالترا. إذا تحدث الأخير، تبدو كأنها تشرب كلماته، مع تعبير إعجاب في عينيها، كأنها خاضعة لثقافة الشاب، الذي لا يزال أكثر بهاءً بين رفاقه القرويين.

نظر إليها إسيدرو عدة مرات. كانت جميلة ابنة موسكو! يجدها في كل مرة أكثر جمالًا. لقد خَمَّن إعجابها، لكن تلك العينين السوداوين

(١) ريوس: هي مدينة تقع شرق إسبانيا في إقليم كتالونيا.

المثبتين عليه تلهمانه فقط بالامتنان الغامض. لم يخطر بباله أبداً إمكانية تضييع الوقت مع امرأة. لقد ترك هذا للشبعانيين، للسعداء.

يأكل السيد مانولو بحماس، مشيداً باللحوم الطرية لحيوانات الباردو. تفوح منه رائحة الزعتر وإكليل الجبل وجميع عطور الغابة.

أيام الأحد بالنسبة له أيام راحة وعزلة هادئة. لم يمتلك صحفاً؛ بالكاد في الفجر يوزع قليلاً من الجرائد على الرعاع رثي الثياب الذين يدفعونه إلى الجنون. مع ذلك تهاجمه هموم المهنة في منتصف راحته، ويقطع وجبته ليسأل موسكو ومالترانا:

- أين ستذهب الفرقة الكبيرة الآن؟

ورفع المستجوبون أكتافهم بلا مبالاة. «الفرقة الكبيرة» مجموعة من البائعين بأصوات بوق، يعرفون كيف يبدعون نداءات جذابة من المخيلة: أرستقراطية المهنة، لا تهتم إلا بإطلاق الصحف الجديدة وتقديم الكتب التي تفتقر إلى المشترين، مع خصومات هائلة.

أبلغ السيد مانولو -بعد تفكير طويل- أصدقاءه بمكان وجود مثل هذه الفرقة.

- لا بد أنهم في سرقسطة، يبيعون صحيفة جديدة، تلك الخاصة بالجريمة الأخيرة، والتي تهم الطبقة الرابعة كثيراً.

لم يعد إسيدرو يتوقف عند منزل جدته، عند زيارته لمنزل موسكو. لقد أجزّت المنزل الصغير، وذهبت للعيش مع السيد بولو، الذي كوخه على قمة ربوة صغيرة، يمكن رؤية مدريد منه.

أخيراً، قررت السيدة إوسيبيا أن تتزوج -دون مساعدة الكنيسة أو الدولة- من ذلك الشريك الذي يتودد إليها منذ ترملها، وهو ينتظر اللحظة التي يرق قلبها، لقد عقد قرانه بعددٍ من الجارات في الحي.

احتفل جامعو القُمامة بجلبة كبيرة بارتباط هذين «التاجرين»، الأكثر قِدماً في النّش. يا لهما من زوجين من الجيف! لكن لم يجرؤ أحد على عمل ضوضاء^(١) وغيرها من النكات المزعجة التي حاول بعضهم مغازلتها بها. كانا يستحقان الاحترام: هما رائدا الصناعة الأهم في الحي، وقد قاما بعمل جيد بالانضمام إلى اسم شركة واحد.

شعر مالترانا والسيد مانولو -بسبب سماعهما حديث موسكو عن رحلاته الليلية- بالرغبة في حضور إحداها. واحدة لا أكثر، أليس كذلك؟ مجرد رؤيته كان كافياً. لم يكن الأمر يتعلق بالتعرض لإطلاق النار بدافع الفضول. من وقتٍ لآخر، كانت الأخبار التي يتناولها الصياد في قصصه تهدئ حماس المستمعين، مما تسبب في تأخير الرحلة لأوقاتٍ أفضل.

- الليلة الماضية، في مجموعة مساكن سومونّيس، أطلقوا النار على بونيفا، صبي مسكين لا يعرف كيف يهرب من الخطر.. قبل أسبوع، قبضوا على باستيان وبالتو في جولوسو متلبسين، وتعرضا لعقوبة موت، والآن هما في سجن إسكوريال.. في مساكن كانيوس كبرادوس، يوجد حارس بخنجر يطلق النار أولاً ثم يتوقف. في ناباتشيسكاس،

(١) يقصد هنا بالضوضاء التي تُثار في القرى بجلاجل الأبقار وأمثالها ليلة عُرس الأرامل للاستهزاء منهم.

هناك محتال آخر قتل اثنين من المخربين، ويقولون إنه يريد رؤيتي أمام
بندقيته.

تبادل إسيدرو وبائع الصحف نظرة ذكية. لقد كان أمرًا متفقًا عليه:
سيتركون الأمر لوقتٍ لاحق. لكن موسكو -فجأة- كما لو كان يسلي
نفسه برعبهم، أظهر تصميمًا على قيادتهم في رحلة؛ وقيل الصديقان
الاقتراح، بدافع الحب وعدم السخرية.

هَلُمَّ بنا للمطاردة! لم يحالفهم مثل هذا الحظ السيئ حتى اصطدما
بالحراس من أجل الذهاب إلى الغابة ذات ليلة، بينما لم يرههم موسكو
منذ شهور أو حتى سنوات.

حددوا ميعادًا في اليوم التالي ليلاً في «بِتورّو دى لاس لاتاس»، وفي
المساء التقى السيد مانولو ومالترانا في ميدان لوس كواترو كامينوس.

يرتديان أسوأ ملابسهما -على الرغم من أنهما لا يعرفان على وجه
اليقين ما هو أفضل من ذلك- مع البيرييه القديم الملقى فوق أعينهم،
والنظرة الحذرة والغامضة لمتأمرين مقتنعين برعب مهمتهما. مُشرف
العمال يرشدهما، وهو يعلم الهدف من الميعاد. غادرا الطريق في
بياسبستاس، وسارا على طول ممر عميق، بين أسقف القرميد وحوائط
البساتين الترابية، وبجانبهما تمر مياه القناة، الهامسة والمزبدة.

يهبط الليل. السماء أرجوانية؛ الروابي المعتمة تغلق الأفق جاعلة
قمم الأحراج السوداء المعدنية تبرز على شريط ذهبي باهت. نجم يسبح
بلمعانٍ لبنيٍّ في ضباب الشفق الناعم. تدق جلاجل القطعان غير المرئية
بطيئة وحزينة؛ تنبح الكلاب الصغيرة في البساتين على جانب الطريق،

تصرّ العربات من على بُعد؛ بدأت نوافذ المنازل الريفية المتناثرة في تلك الأراضي الزراعية تُنير بالتناوب بالكثير من الإضاءة.

وجدا موسكو جالسًا على صخرة قريبة من النُزل. قال بصوتٍ منخفض:

- ابقيا في الجوار. ادخلا لتناول كأس، ولا تتحدثا معي حتى أنصل بكما.

جلس الصديقان تحت تعريشة عند باب النُزل. كان عبارة عن كوخ منخفض السقف، يعبئه الدخان من الداخل، ولا يوجد به منفس آخر غير الباب ونافذتين صغيرتين. وقد بُني بعلب المعلبات قديمة التي حلت محل الطوب. السقف مصنوعٌ من علب النفط، الصفيح المائل للاحمرار والصدئ بفعل المطر. بعض الألواح السميكة المتأكلة المثبتة في الجدار الخارجى بمثابة مقاعد. «بتورّو دي لاس لاتاس» نقطة التقاء للمخربين قبل بدء السير.

بدأ الليل يطبق. رأى مالترانا -في الضوء الضعيف الذي لا يزال باقيًا في المحيط- وصول الصيادين. يتفحص تنظيمهم وهو يتذكر قصص موسكو. كل زوج من الرجال «فرقة». رفقاء الحياة والموت، اللذان لا يتخليان عن بعضهما وقت الخطر، واللذان أثناء الهروب في اتجاهات مختلفة يعرفان غريزياً أين يجدان بعضهما، ويقسمان نتاج الصيد بعدالة أخوية.

كانوا شبابًا أقوىاء البنية بمظهر يشبه عمال مصنع القرميد. على الرغم من البرد، يسرون بملابس خفيفة ومن دون بطانية؛ بعضهم يضع

البيرييه على أحزمتهم، مثل رجال اضطروا إلى السير لمسافات طويلة والتعرق كثيرًا خلال الليل. بعض الفرق تصطحب -كدعم صبيّ يحمل إبرة- قضيبًا حديدياً ثقيلاً مدبباً من جانب وينتهي بحلقة في الجانب الآخر. هؤلاء المخربون المدربون يحملون القضيب متدلياً من أكتافهم بحبل كأنه بندقية، ويتباهون بين المجموعات ببعض الفخر، قانعين بالمشاركة في مخاطر ومغامرات الرجال.

تصل كل فرقة مع مجموعة من الكلاب. تجمعت الكلاب، بعد اشتمامها مالترانا ورفيقه وتخمين أنهما شخصان دخيلان، على جسر يبدأ منه الطريق الذي على أسيادهم اتباعه. كانوا من جميع الأعراق، الأشكال والألوان: بعضهم ذو ظل أنيق ومُغذّى جيداً؛ وآخرون مُلطخون مع شعرٍ طويل؛ لكن الجميع صامتون على قدم المساواة، بدون نُباح، بدون أدنى صوت، خطيرين وساكنين، مثل الجنود الذين يستشعرون اقتراب القتال.

يتحدث أسيادهم بأصواتٍ منخفضة، معتادين على الاختفاء في المناطق المحظورة. تصل كلماتهم إلى مالترانا كهمهمة طفيفة. يحيون بعضهم؛ ومن لم يتقابلوا منذ فترة طويلة يسأل بعضهم بعضاً عن أخبارهم. تحدث أحدهم عن أخيه: لقد تلقى منه رسالة في الصباح؛ كان في بلنسية، في سجن سان ميغيل، ولم يتبق سوى بضعة أشهر من العقوبة التي فُرضت عليه لاصطياده خلصة في الممتلكات الملكية. وأحاط آخرون بزميل فتح قميصه وأظهر صدره. بالكاد تظهر علامة الخُردق الذي يدخل بين أضلاعه. بعد أسبوعين من الراحة، عاد إلى العمل في تلك الليلة.

يتحدثون عن الراق في سجن إسكورال، وهم يناقشون نصيبهم المحتمل.

ودّع أحدهم أصدقاءه؛ لن يروه مرة أخرى لبعض الوقت؛ في اليوم التالي سيذهب إلى مدريد للمثول في سجن موديلو، لقضاء الأشهر الثمانية التي حُكم عليه بها.

يتحدثون جميعاً، وقد نسوا الصيد فجأةً، عن اقتراب الموسم الجيد، الربيع، حيث ستُفتح مصانع القرميد، ويعرضون عليهم أجراً في تقطيع الآجر. تبادلوا أخبار المهنة. في بيالبا كانوا يدفعون أفضل ألف مرة مما يدفعوه في مدريد. بعضهم يريد العمل وأن يبدأ رحلته بمجرد أن يصبح الطقس جيداً... لكن كلابهم، التي تشم أيديهم وتفرك نفسها في أرجلهم، والتي تتوق إلى البدء في السير، تجعلهم يركزون على الحاضر وينفجرون في الشكوى. يا لها من حياة أيها السادة! أسوأ وقت في العام: بدء التكاثر. الأرانب نحيفة جرباء. يتم اصطياد الأرانب الصغيرة جداً فقط، وفي مقابل حزمة منها لا يُدفع أكثر من بيزيتا. بالإضافة إلى ذلك، كثرت الليالي السيئة، حيث بدا أن الحيوانات تختبئ في أعماق الأرض، ويدخل ابن المقرض إلى الجحور دون أن يتعثر بأصغر كومة شعر. النتيجة: خاطر بالحياة وبالحرية من أجل الخروج نهاية الشهر بأجر ستة ريالات. ولا يزال الحراس المحتالون -الذين يتقاضون راتباً جيداً- يطاردونهم بشراسة. كان الحراس من الفرسان هدفاً للعناتهم. يتحدثون برعبٍ عن حصان حارس، حيوان شيطاني، أكثر موهبة ونية شريرة من الرجال؛ كان وحشاً، عندما يطارد مخرّباً،

يعضه، ويطرحه بين قوائمه، ويسحقه بحدواته، حتى أن الفارس كان يضطر، وهو يترجل، أن يساعده لسجنه حيًّا. آه، أيها الحيوان الشرير! طلبة خُردق أفضل من مقابلته.

تنطلق بعض الفرق في السير، بعد وداع باهت، تتقدمهم كلابهم، ويضيعون في الظلام. يُجيب الآخرون بزهوٍ غامضٍ:
- وداعًا. ليلة سعيدة لكم.

كانوا أول من غادر لأنهم ذهبوا بعيدًا جدًّا، إلى آخر أحواض الملكية الملكية: إلى جولوسو، إلى سان جورج، إلى بالدلاجانار، بالقرب من بينيويلاس.

أولئك الذين بقوا على الجسر الصغير تبادلوا الأحواض حيث يخططون لقضاء الليل. ذهب بعضهم إلى بالدالبومير، إلى لا بورتيرا، إلى كيرا؛ فكر بعضهم الآخر في عبور مانتانارس، وهم يصطادون بجرأة في الجزء الآخر من إلباردو، الذي يتردد عليه الرماة الملكيون: لا أتالايا، ولوس تورنيوس، وبالدلابينيا، وتروفا، ولا ثارثويلا.

شيئًا فشيئًا، كانت الكتلة السوداء التي تُسد الجسر تتضاءل. تغادر الفرق، واضعة ظلها المظلم على الفُسحة البيضاء من الطريق. برزت للحظة على قمة التل، تضاءلت بفعل المسافة واختفت.
اقترب موسكو من النُّزل:

- عندما تريدون...

يحمل في كيس صغير -معلق حول رقبتة- كنزه، حيوانه الخرافي،

الذي كان متكبيًا في سجن من قطع القماش باحثًا عن دفء صدره. بجانبه المساعد -الشخص الذي يُكمل طاقمه- فتى صغير ويقظ، له رشاقة قرد، الملقب بتشيّياس، لم يكن يفكر -مثل الآخرين- في عمل مصانع القرميد، بل إنه يتمنى، لإعجابه بمعلمه، مواصلة الصيد على مدار السنة.

يحمل تشيياس القضيّب الثقيل على كتفه لهدم الجحور وفتح الطريق أمام ابن المقرض عندما يختبئ الصيد، ولم يعد قادرًا على الوصول إلى فتحة الخروج. بالإضافة إلى ذلك، يحتفظ بالكايوس، يضعها في حزامه، وهي الشباك التي تُنصب عند مخرج الجحور للقبض على الأرانب.

شرعوا في السير في نفس طريق المخربين الآخرين. يسير موسكو في المقدمة، يتقدمه اثنان من كلابه، وكان تشيياس يُنهي الحملة.

- يمكنكم التحدث؛ يمكنكم التدخين. نحن لا نزال على أرض آمنة. سأخبركم عندما يجب السير بأعين ثابتة.

يسير المستجدان خلف الخطوات الرشيقة لموسكو، الذي لم يتوقف عن الكلام. بقى في النّزل بعيدًا عنهما، حتى لا يشك أحدٌ في أنهما يرافقانه في رحلته. يخشى أن يُبلغ أحد ويذهب بوشاية. بالنسبة له، لا يوجد شيء؛ يعلم الحراس جيدًا أنه يصطاد كل ليلة، حتى لو سقطت السماء. كلما كان الليل أسوأ، كانت أكثر ملاءمةً له. لكن عندما يرونه مع بعض الأصدقاء، دون حرية الفرار، يمكنهم الاستفادة من الفرصة ومطاردته. لأنه لم يكن قادرًا على الهرب، وذهب مع شخصين

لا يعرفان الأرض، يُفضل أن ينتهي به الأمر إلى أشلاء قبل أن يرتكب هذا العمل الفاحش. تابع:

- إنها حماقة، الذهاب إلى هذا العمل مع شخصين كسولين مثلكما. لكن صيد هذه الليلة ليس صيدًا جادًا: إنه مراقبة. سنقترب؛ مسألة تفتيش عن بعض المداخل، حتى تعرفا ما هو... كم ستكون الغزلان والأياثل سعيدة هذه الليلة عندما يرون أن موسكو لا يريد أي شيء منها!

سألها هل تناولا وجبة جيدة في العصر قبل مغادرة المنزل. في الجبال لن يجدوا سوى أحد الجداول حيث سيشربون منه جرعة، وحتى هذا يجب تجنبه؛ لأن مجاري الأنهار أكثر الأماكن التي يتردد عليها الحراس. عند العودة إلى لاس كارولينا، يطبخون اليخنة، الطبق العظيم للصيادين، الذي عرف المجد: طبخ من أحشاء الأرنب الطازجة.

استعاد مالترانا والسيد مانولو -بعد سماعهما نوايا المخرب الشهير بعدم المخاطرة في تلك الليلة- الهدوء. لقد انقبضت قلوبهما عند سماع هؤلاء الناس يتحدثون عن الإصابات، الضرب والسجن المشدد، كحوادث طبيعية لمهامهم. سأل السيد مانولو شقيقه:

- هل أنت متأكد من أننا لن نصادف أتباعهم؟

- يا رجل، لا أعتقد ذلك؛ لكن لا شيء يمكن ضمانه. يمكن.. عن طريق الصدفة.

صمت طويل رَحَب بهذه الكلمات المطمئنة قليلاً. تابع موسكو الحديث لإلهاء رفاقه عن تعب السير. يصف عظمة إلباردو: لم يكن يعرفه أحد مثله هو. في بعض الأماكن لم يتمكن الحراس مجتمعين من العثور عليه، على الأقدام وعلى ظهور الخيل. هناك أربعة عشر فرسخاً من الأرض يحتفظ بها الملوك من أجل صيدهم. هذا دون احتساب كاسا دى كامبو، لا جرانخا، ممتلكات أرانخوئث وممتلكات أخرى لم يتذكرها... وليمت الآخرون!

جعلت هذه الأفكار السيد مانولو ينسى قلقه، وانطلق ينزل، من قمم فيدراليتة المثالية، إلى التطبيق العملي لما كان يسميه -مجازياً- «منهج».

- اليوم الذي ستكون فيه ولاية قشتالة ذات حكم ذاتي، ستنتهي هذه الفضيحة. على ضفاف مانتانارس سننشئ بعض البساتين، حيث أسخر من بساتين بلنسية ومُرسية. سنهدم الأجمة، لكي يدفأ أبناء الطبقة الرابعة في الشتاء؛ سنحرث الأرض لنزرع القمح، ويحيا الخبز الرخيص! أربعة عشر فرسخاً ليستمتع رجل، عندما يكون للطبقة الرابعة سبع أقدام فقط من الأرض في المقبرة! لكن هل هذا كبير مثل واحدة من مقاطعات النظام الوجودي!

يراقب مالترانا الكلبين اللذين يقودان الطريق، صامتتين، برقابٍ شامخة وآذانٍ متقدمة، وهما يتشممان الأفق الأسود، دون زمجرة ودون الالتفات إلى رفقاء العرق الذين ينبحون في البساتين البعيدة.

مشوا أكثر من ساعة، دون أن يروا حوائط إلباردو الترابية. لاحظ

موسكو لهات رفيقيه، والإرهاق الذي شعرا به على المنحدرات
المظلمة، التي أحجارها المتناثرة تتدحرج تحت أقدامهم. قال لهما:

- تشجعا! لقد توقعت هذا بالفعل: أنتما من المدينة وغير معتادين
على السير. لكن هل هذه نزهة؟!

عبروا قاعًا رمليًا لتيارين جافين. عند التوقف على إحدى القمم،
أدار مالترانا رأسه ورأى حجابًا أحمر، وهجًا من حريقٍ بعيد، طافيًا
خلفهم، فوق التلال السوداء، حيث يلون جزءًا كبيرًا من الأفق. كان هذا
هو البخار المضيء لمدير غير المرئي. أقرب، انتشرت مجموعات
ضيقة من الأضواء أو مسابح من اللهب الخفيف على طول الخط غير
المنتظم للأفق، كما لو أن الأرض عبارة عن بحيرة من القار تعكس
الكواكب بشكلٍ كثيب.

بسط موسكو ذراعيه بطمأنينة خبير في المشهد الليلي. الأضواء
الأكثر قربًا من بيايستاس ولاس كاروليناس؛ والأخرى من تشامارتين
وتطوان. من الأمام، فوق موجة الظلال، مثل لمعان خافت ملحوظ
بصعوبة، أشار إلى مدن أخرى: أراباكا، بوثيلو دي ألكوركون؛ وبعيدًا،
بعيدًا جدًا، حيث لم تصل إليه سوى عيني البومة، أضواء إسكوريال.

وعندما نزلوا من القمة، وجدوا جدولًا واسعًا. انحنى موسكو ليأخذ
مالترانا على ظهره، متجاهلاً مقاومته. من المعتاد أن يعبر المخربون
مجرى النهر وهم يحملون رفيقهم على ظهورهم. عند العودة، يقدم
الرفيق الذي كان محمولًا على الظهر الخدمة نفسها، وهكذا يتقاسم
الجميع البلبل بالتساوي. فقط المرضى -الذين يذهبون إلى الصيد في

فترة النقاهة أو الحمى - يتم إعفاؤهم من هذه المعاملة المتساوية. يعتبر موسكو رفيقيه الضعفين مريضين، متعبين من المسيرة.

على الجانب الآخر من الجدول، رأى إيسيدرو والسيد مانولو انزلاق الطريق، متعرجًا، بين سياجين مرتفعين من النباتات الشائكة. أمرهما موسكو بالقاء السجائر؛ لم يعد بإمكانهم التدخين حتى العودة: يدخلون أراضي العدو. يُسمَّى هذا المكان «الممر السيئ». في كثير من الأحيان، كان حراس إلباردو يخرجون من نطاق سلطاتهم، يتربصون هناك لمفاجأة المخربين عندما يعودون إلى منازلهم. في ذلك المكان أُصيب عَرَّابه جَروتشا برصاصة ذات ليلة عندما كان الاثنان عائدين محملين بزوجين من الغزلان. الرفيق المسكين، بعد شفائه من الجرح، ذهب إلى السجن المشدد في ألكالا، لأجل سرقتهم الصيد الأكبر. هرب موسكو دون أن يُفلت حمولته. صرخ:

- ظلم، إهانة! هذه الأرض ليست لهم، هم هنا ليسوا أكثر من أفراد مثلكما ومثلي. لكنهم ينتمون إلى «البيت الكبير»، وليس هناك محكمة أو إله لا يكون إلى جانبهم.

لا يزالون يسبِّرون وقتًا آخر جيد، لكنهم خرجوا عن السبيل، عبر حقول الأرض المتغيرة التي بها الأحجار خفية، حيث يتعثرون بها. اصطدم إيسيدرو -عند عبوره كرمة- بجذع فأصاب ساقه. ولكن أين كانت غابات إلباردو تلك، التي تبدو أنها تجري وتغرق في الظل؟ كان موسكو يقولها بصوتٍ خافت:

- تشجع! نحن قرييون بالفعل، أرى الحوائط الترابية.

لكن السيد مانولو وصديقه لم يميزا شيئاً. كان إسيدرو يمشي - بساقه المتألمة، مستهيناً بالعثرات، كما لو أن الشرور الأسوأ من غير الممكن أن تحل به - وعيناه مثبتتان على كوكب الزهرة، الذي يضيء في الأفق. عند صعود المنحدر، ارتفع الكوكب في السماء؛ وبينما ينزلون، يغرق حتى أصبح في مستوى التل الذي أمامه. بدا كأنه يلعب معهم، يجذبهم، للفرار من قمة إلى قمة.

أخيراً، وجد المستجدان نفسيهما عند سفح جدران إلباردو. اعتبر مالترانا ارتفاعه أعجوبة. لم تكن هذه حوائط: لقد كانت أسوار الصين. وهل عليه أن يتخطاها؟ يفضل البقاء أسفلها يستريح. سيئظر وهو ممدد على الأرض عودة موسكو، مع أنه قد يعود عند الفجر. تمتم الصياد، ليجعله يتحدث بهدوءٍ أكثر:

- صه! ستصعد؛ سأحملك لكي تصعد.

كان احتجاج مالترانا آخر مقاومة بسبب الخوف، تراجعت الغريزة أمام ذلك الجدار المعتم، الذي كان خلفه ما هو غير الشرعي والمحظور، تهديد الحارس ببندقيته بلا رحمة.

يعد موسكو ومساعدته للهجوم في صمت، وهما يتحدثان دون أن ترن كلماتهما، ويتحركان دون أن تُحدث خطواتهما ضوضاء. بالنسبة إلى مالترانا، بدوا شبحين... إلى فوق! سند تشيسباس إحدى قدميه على يدي سيده، خدش الحائط، وفي لحظة انفرجت ساقاه عليه.

الآن، الكلبان! يعرف الحيوانان واجبهما، سمحا أن يمسك بهما موسكو، ويدفعهما له، تشبثاً بأعلى الجدار، اهتزا لبرهة على الحافة،

وبطونهما مفلطحة، وسقطا على الجانب المقابل، دون اصطدام آخر إلا جلبة الأوراق الجافة الخافتة جدًا.

شعر مالترانا أنه يُمسك من ساقيه ويُرفع، في الوقت نفسه الذي قام فيه تشيسباس -وهو منحني- بالإمساك به من ذراعيه. ضحك المخربان من وزنه الخفيف. ظل للحظة منفرج الساقين أعلى الحائط، مذهولاً من صعوده، وجسده يؤلمه من احتكاكه بالطوب البارز. حياه موسكو من الأسفل بدعابة جعلت شعره ينتصب.

- يا له من هدف جيد يا رجل! يا لها من طلقة فوتها الحراس!

لم يكن لدى إسيذرو القوة للاحتجاج. يا لها من مزحة ملائمة! كان مضطراً أن يهبط على الجانب المقابل، وهو مطيع بحكم الضرورة ومستسلم بالكامل لرفيقه الفظيّن، يساعده تشيسباس، الذي سبقه وأمسكه من ساقيه. قفز السيد مانولو، الأكثر رشاقة، من فوق الحائط دون بذل كثير جهد، وبعد لحظة انضم إليهم موسكو.

كانوا بالفعل في مصيدة فئران. فكر إسيذرو برعبٍ في استحالة التغلب على تلك العقبة إذا لاحقه الحراس. لكن تأثير الخوف تضاعل عندما نظر إلى ما يحيط به.

جعلته المفاجأة يعتقد للحظة أنه في عالم جديد. كانت القفزة من الحائط الترابي مثل العبور من كوكب إلى آخر. لقد نسي التلال الصخرية، أحواض الزرع الجذباء التي تحتوي على الحصى أكثر من النباتات، وأطيان قاحلة بأكملها غارقة في الظلام على الجانب الآخر من الحائط، متشابهة منبسطة يُنظر إليها على أنها بركة سوداء.

أمام عينيه الغابة الهائلة جُمِلت بضوء النجوم المنتشر، ماحيًا في شبه العتمة وعورة النباتات البرية الشديدة، التي وُحِدت ألوانها الهمجية في غموض خيالي لحديقة ساحرة هائلة. اعتقد مالترانا أنه رأى رسمًا ضخمًا بالأبيض والأسود على ورق أزرق مثقوب بواسطة ثقوب دبوس لا حصر لها تفسح المجال للضوء.

بدأت الغابة -وهي نائمة تحت بريق النجوم- كأنها حديقة أسطورية. فكر مالترانا في فاجنر^(١) وسيجورد^(٢) الشجاع؛ في المزمارة الريفية الصغير للبطل الذي يجعل الطيور تتحدث. حتى اعتقد -للحظة- أن تينًا قد يخرج من تلك الأدغال، لا يعرفه الحراس.

بدأ نبات اللاذن الكثيف الملفت بسبب المسارات المتعرجة كأحواض شجيرات ورد يعود تاريخها إلى قرون. كانت الأرض بيضاء، بيضاء كالحليب، والأشجار تشكل قبابًا من حاجز شبكي أسود، وخلال مساحاتها الفارغة تبدو الكواكب كأعينٍ تطرف. في أعلى التلال، تبرز قمم مظلة أشجار الصنوبر المنفردة على المساحة الزرقاء: بعضها مستقيم وأنيق؛ والبعض الآخر مائل كما لو كانت تريد الاستلقاء.

لم تكن زهور الحديقة الرائعة مرئية، لكن مالترانا يتخيلها هائلة، بحيث لا تُفسح مجالًا لضوء الشمس على الأرض. يطفو عطر راتينجي، مع مداعبة لاذعة، في الهواء كثيف لدرجة أنه بدا أنه يُمضغ عند التنفس. كانت خلاصة روائح لعماق. من صمت البستان جاءت صيحات طيور

(١) فاجنر: مؤلف موسيقي وكاتب مسرحي ألماني.

(٢) سيجورد: بطل أسطوري من الميثولوجيا الجرمانية، اشتهر بأسطورة قتله للتينين.

غير مرئية، تحية هزلية لقدمين تتقدمان في صمت بالقرب من الأدغال، متجنية إبراز صورتها الظلية على مساحات الأرض البيضاء؛ ركض رقيق يشي بالصحو المخيفة للآرانب، الفرعة من الخطوات الحذرة للفرقة.

شك مالترانا في الواقع. لا بد أنه يحلم؛ هذا العالم لا يمكن أن يتواجد. بالتأكيد سيستيقظ في لحظة أو أخرى، ليجد نفسه في الفراش في شارع لوس أرتيستاس.

لم تكن الكائنات التي تحيط به حقيقية. ذلك الكلبان اللذان يسيران دون أدنى جلبة، دون تنفس، ووجها رأسيهما نحو سيدهما كما لو كانا ينبحان بأعينهما، كانا الكلبان من أحلام. كان الصيادان أيضًا اللذان يمشيان أو ينحنيان مثل الظلال، وهما يتحدثان دون تحريك شفاههما، ويتفاهمان من خلال الإشارات، من الأحلام، وحتى رئيس عمال الصحيفة، الذي يسير منحنيًا، بعينين بارزتين وفم مفتوح، تنقبض بطنه بدافع الخوف. فقط خطى مالترانا تجعل الرمال تطلق، وبدا له هذا الضجيج عظيمًا جدًا، وهائلًا جدًا بسبب الصمت، لدرجة أنه يمكن أن يوقظ الحراس من مسافة كبيرة.

من وقتٍ لآخر، كانت الغابة تهتز بتموجات صاخبة. هبت رياح حركت غصنًا فأعطى الإشارة. ارتج البستان كله ومالت القمم. تتحرك رؤوس أشجار الدردار، الصنوبر، السنديان والبلوط؛ تهتز الأوركسترا الهائلة في الغابة، ويتشر رثاء السيمفونية البرية من طرف إلى آخر، موقظًا أصداء الأودية الصغيرة، يشحذ نفسه على المرتفعات، وينزل

مرةً أخرى لِيبحث عن كتل جديدة من الأشجار التي من شأنها أن تكرر تنهدات القيثارة المرتجفة.

كان إسيدرو -الذي يبحث في البداية عن الحائط الترابي بعينه- كما لو أنه رأى الأمل بقربه، يتقدم الآن بجرأة، وساقاه ترتجفان، لكن غزا معنوياته الصمت المهيب. في ذلك السلام كان من المستحيل على الرجال أن يقتلوا أمثالهم من الرجال.

توقف موسكو -الذي يعرف كل الجحور في إلباردو- بالقرب من شجرة بلوط كبيرة. هناك فُتحت بعض المداخل التي تُخفي بلا شك شيئاً. انحنى شقيقه ومالترانا بناء على نصيحته. دارت الكلاب حول الشجرة بصمتٍ كأنها تستنشق الصيد المخبأ في أحشاء الأرض. سار تشيسباس على ركبته مسافة ما. كانت المخارج هناك، ووضع شباك الصيد فيها. فتح موسكو الكيس وأخرج النمس. كان الحيوان غريب الشكل يرتدي جرساً صغيراً جداً له صوت خافت حول رقبتة، وفي أحد قوائمه حبل يجبره على العودة إلى سيده.

تضيع الجلجلة الحادة تحت الأرض. يتابع السيد مانولو العملية باهتمام، مستلقياً على أربع بجانب أخيه. كان مالترانا، متمدداً على ظهره، يحدق في النجوم، السماء الزرقاء الداكنة المزركشة بالغبار المضيء. لقد واجه الخطر بسبب مشاهدة الصيد الخفي، والآن لم يعد مهتماً. يفضل أن يظل ساكناً، في هدوء عذب، يتألم من التعب، يداعبه السلام الذي بدا كأنه يهبط من الأعلى. كان هناك كما لو كانت الغابة ملكه. لماذا يجب أن يظهر الحراس؟ بدد جمال الليل خوفه، وطرده كل احتمالات الخطر من روحه.

صاح تشيسباس بفرح؛ ثم أخرى... ثم أخرى: «ثلاثة... أربعة... خمسة: الحيوان الخرافي يعمل بشكل جيد». يجمع الأرانب من شبكات الصيد بمجرد سقوطها؛ بعضها بصحة جيدة، وبعضها الآخر دُمرت رؤوسها بواسطة النمس وتنزف دمًا. أولئك الذين نجوا سالمين، وهم يفرون من السفاح الشرس، يخنقهم الفتى بأصابعه القاسية. يقوم بتسليم القطع إلى السيد مانولو، وكان الأخير يضحك، بمتعة وحشية بالدمار، وهو يقدم إلى مالترانا الأرانب ليتحسسها. كانت لا تزال ساخنة: كيف تركها الحيوان الغريب عندما عضها؟!

أعلن تشيسباس أنه لم يعد يخرج المزيد؛ أفقر الجحر من سكانه. شد موسكو الحبل وعادت ترن الجلبة المكتومة. تثير ثمالة الدم الحيوان. أطلق الصياد سُبَابًا مكتومًا قبل أن يعيده إلى الكيس؛ لقد غرز أنيابه الحادة في إصبعه.

تخلي إسيدرو كرهًا عن فراش من القش، ليتبع الفرقة بحثًا عن أفواه جديدة. لماذا لم ينسحبوا الآن؟ شوهدت العملية. لكن موسكو اعترض.

- أترجع؟ هراء! يبدو الليل جيدًا.

ساروا ساعتين عبر الأخاديد بحثًا عن أكثر الأماكن المعروفة بجحورها بالنسبة للصياد. لم يكن هناك مسكن أرنب لم يدونه في ذاكرته.

استفاد إسيدرو من جميع نقاط توقف المترصد للاستلقاء على الأوراق الذابلة ناظرًا إلى أعلى. الكوكب السيّار الذي يتأمله في الطريق

لم يعد يضيء في الأفق؛ أصبح محجوبًا، وكواكب جديدة تغزو السماء. ينظر حوله أيضًا، معجبًا بجمال الغابة البري. بالتأكيد، عمليات التدمير التي خطط لها السيد مانولو عندما ينتصر الحكم الذاتي للولاية القشتالية، وهدم الغابة وحرثها، إصلاحًا ثوريًا للغاية؛ لكن هكذا أفضل، كانت أجمل، على الرغم من أن العامة قد تغضب بحق.

خرجت إشارة إنذار بالخطر من الكليين لإسيدرو بسبب شروده. يتقدمان بحذر، وتوقفًا، وأدارا رأسيهما لينظرا إلى سيدهما. وارتفع ذيلهما بحركات كشفت عن تردد؛ أرهفت أذنيهما السمع بقلق. تمت موسكو لكي يظل رفاقه هادئين في الدغل:

– صه! صه!

كانوا جميعًا راكعين، يستندون على أيديهم، ورؤوسهم تتقدمهم مثل رؤوس الكلاب ليسمعوا بشكل أفضل. فتح رئيس العمال فمه، كأن قلبه سيهرب منه، مرتبك من الخوف. كان مالترانا يشعر بطنين دمه في صدغيه.

هرّ كلب، وبدا موسكو هادئًا. كان شخص ما قريبًا، لكنه لم يكن عدوًا. وأعلن الكلبان بحركات صامتة اقتراب الحراس. عندما قررا الهرير؛ لأنهما يشتمان أشخاصًا مألوفين.

قام الصياد، منضمًا إليهما، بصفع أحد فخذيهما عدة مرات. على الفور بدا صوت نفس الضربات على الجانب الآخر من الدغل، كما لو كان يُصدرها الصدى. ثم رفع ظهر إحدى يديه إلى فمه، وشقت صافرة خافتة لطائر الصمت. أجابه طائر آخر غير مرئي. قال موسكو:

- هيا.. هم أصدقاء.

كُسرت أغصان الشجيرات، فأفسحت المجال لرجلين منحنيين.
فرك كلاب الفرق أنفسهم للحظة مع كلاب أخرى خرجت من الأدغال.
مر الرجال بالقرب من موسكو. سأل الأخير:

- ماذا لديكم؟

- لا شيء حتى الآن.. غزالان.

- أتمنى لكم ليلة سعيدة.

اختفت الفرقة مع كلابها، وواصل موسكو التقدم، وهو يعد رفاقه،
الذين لم يتعافوا من الخوف، بإنهاء الرحلة فوراً، بمجرد أن يفتش بعض
المداخل بالقرب من جدول، والتي كانت الأغنى في البارادو.
توقفوا في دغل، وسمعوا من مسافة قصيرة خرير ماء غير مرئي
يتدفق بين الحصى.

لم يحضر مالترانا صيد رفاقه؛ كان يتمنى أن تنتهي الرحلة في أقرب
وقت ممكن. كانت تلك الأجسام الصغيرة ذات الشعر الناعم التي كان
السيد مانولو يجمعها معاً، بينما يمدح وزن لحمها النابض، تسبب له
الشفقة والاشمئزاز.

مستلقيًا على منحدر، ذراعاه متقاطعتان تحت رأسه، رأى فجأة
صليبين بعدة أذرع، خشنين، غليظين، كما لو كانا منحوتين بفأس،
يرتفعان من الغابة أمامه. أنف أسود، لامع بسبب الرطوبة، أطل من
الدغل؛ حدقت عينان دامعتان لامعتان في وجهه للحظة. اعتقد مالترانا

- متأثراً بخوفه - أنه رأى وحشاً فظيماً، مسخاً مهيباً من الغابة المسحورة؛ شيئاً مشابهاً لتنين أسطوري نشأ في ذاكرته عندما خطى أولى خطواته. جعله رعبه يقفز على قدميه. رجت نفخة شيطانية الشجيرات. اختفى الصليبان، وطققت الشجيرات وهي تتكسر بسبب ركض مجنون.

حضر موسكو مع صيحات غضب:

- يا للعجب! ولم أحضر البندقية! كيف يعلمون ويراوغون!
تراجع الكلبان، بعد محاولة مطاردة، بجانب سيدهما، وهما يريان أنه بقي بلا حراك.

تلاشت أي رغبة داخل موسكو لمواصلة الصيد بعد اللقاء مع الأيل.

- لنذهب؛ ماذا نفعل هنا؟!

بدأوا الانسحاب، وساروا مباشرةً بحثاً عن الحائط الترابي. عاد إسيديرو، عندما قفز فوقه بمساعدة رفاقه، ليرى نفسه في الحقل المقفر والأسود مشوباً بأضواء من بعيد. اعتقد مرةً أخرى أنه يحلم، أن الأشجار ذات الصوت الخافت والحديقة الرائعة كانت موجودة فقط في خياله.

كانت عناقيد الحيوانات الميتة الثقيلة التي يحملها السيد مانولو بين يديه الشهادات الوحيدة على حقيقة المغامرة. قال رئيس العمال ضاحكاً:

- المسها يا إسيديرو. يا له من طيخ متميز سنأكله!

يشعر الشاب - وهو يفكر في الحراس - الآن بخوفٍ أكبر من الذي

اختبره على الجانب الآخر من الحائط. بدا مستحيلاً بالنسبة له أن يظل هادئاً داخل مصيدة الفئران تلك، مستلقياً في الدغل، محدقاً في السماء. يا لها من رصاصة هرب منها!

فحص موسكو موقع النجوم.

- إنها الساعة الثانية؛ قبل الفجر سنكون في المنزل.

عبراً مرةً أخرى، على ظهري المخربين، الجدول الصغير المجاور «للممر السيئ». يسير تشيسباس ومعلمه برشاقة، دون أدنى أثر للإرهاق، غير راضين إلى حد ما عن عملهم. لقد فقدوا الليل: الحصيلة، دزينة ونصفاً من الأرناب. بالنسبة للصيادين، كان التعب القلق والرعب الذي لا يزال مالترانا ورئيس العمال يرتجفان بسببه، حوادث بلا أهمية في النضال اليومي... يا لها من طريقة لكسب قوتهم!

عندما توقف للحظة على قمة التل، رأى الشاب مرةً أخرى سلاسل لامعة لأضواء القرى، السحابة الحمراء التي تخيم على مدريد.

تستريح المدينة العظيمة في ضوء مميز، بينما في محيطها الكثيب تحرك مغامرو الحياة دون خوف من الخطر.

اعتقد مالترانا -وهو يفكر في مدريد البعيدة- أنه رأى رمزاً للحياة الحديثة، وعدم المساواة الاجتماعية غير الرحيمة والقاسية.

كان المحظوظون والمتخمون يستريحون بهدوء في دفة حضارة هم الوحيدون الذين يحتكرون مزاياها. لم ترغب قافلة المنعمين في الذهاب أبعد من ذلك، معتقدين أنهم رأوا ما يكفي. ينامون حول النار،

تداعبهم أنفاسهم الفاترة، مع سبات شهواني لهضم وافر. وأبعد من الدائرة الحمراء التي ترسمها النيران، على جدار الظلال المرتعشة والتي خلفها يكمن المجهول؛ تلمع الأعين الغاضبة، تصرّ الأظافر في أثناء شحذها، ينفجر هدير الحيوانات الجائعة التي أعمأها كثيرٌ من البريق. كان متشردو الصحراء الاجتماعية -الهاربون من القافلة، المطردون منها، الحيوانات الضارية، مسوخ الليل - يطوفون حول المخيم، دون أن يجرؤا على مغادرة دائرة الظلمات، خوفاً من مواجهة الضوء.

تعميهم النار؛ يخوفهم -مع قشعريرة قارسة- بريق الأسلحة التي تسقط بالقرب من النائمين. يهددون ويزأرون؛ لكن المنعمين، الغارقين في نومٍ حلو، لم يستطعوا سماع تهديداتهم وزئيرهم.

اعتقد ما لترانا أنه في وقتٍ ما ستُطفأ النار شيئاً فشيئاً، نتيجة لنقص الوقود الجديد؛ وعندما تبقى الجذوات الحمراء فقط وتغزو الظلمات الشرهة دائرة الضوء، سيحدث عراك عظيم، صراع في الظل، واندفاع للحشد لا يُقاوم، وهجوم مسوخ الظلمة، للاستيلاء على كل ثروات الأشخاص السعيدة: على الأمتعة التي تحتوي على الرفاهية التي يحتكرونها؛ على الأسلحة، والتي هي أفضل امتيازاتهم.



في اليوم الثاني من الكرنفال، في المساء، عندما غادر مالترانا شارع
لوس أرتيستاس، توقف عند لوس كواترو كامينوس، مترددًا بين النزول
إلى مدريد وبين الذهاب إلى بياييستاس ولاس كاروليناس.

يشير كرنفال مدريد المبتذل والرتيب اشمئزازه، وليس لديه أي
مغريات أخرى سوى وخز الحشد ودعسه، فقرر الذهاب للبحث
عن صديقه موسكو واستغلال الرحلة ليعرج على منزل جدته الجديد
لزيارتها، الذي هو منزل زرادشت. رغبت المرأة المسكينة في التحدث
إليه، كما أوضح له بولو في آخر مرة التقيا فيها أمام بيت المكس. ليس
هناك ما يخسره لجعل الجدة سعيدة. في لاس كاروليناس، ظلا يتحدثان
عن كنزها، ومن يعلم هل ستفكر في حفيدها بوصفه وريث؟!

ضحك إسيدرو على الشُّح الذي استيقظ داخله. شعر بالبهجة،
على الرغم من أنه لم يكسب أي أموال منذ وقتٍ طويل. قد اقترض لتوه
من زوج والدته بضع قطع من النحاس، مستغلًا الثقة التي يلهما للبناء
ليكون راضيًا وهو يدفع جميع متأخراته في حصته من إيجار المنزل.

يداعبه الأمل، ذلك المساء، في الحصول على وجبة خفيفة في منزل موسكو؛ لأنه على يقين من أنه لن يتناول العشاء عندما ينزل إلى مدريد ليلاً.

في بؤسه، لم يتخلَّ عنه أبداً يقين الشباب الذي ينتظر دائماً شيئاً غير متوقع ويؤمن إيماناً راسخاً بأن الكون بأسره يهتم به، مما يؤدي إلى انعطاف مجرى الأحداث دون غرض آخر سوى إخراجه من مواقفه الصعبة.

يتمتع إسيدرو -في تفاؤله- بحظٍّ كبير. لهذا السبب كان جلوداً في كل انحرافات القدر التي ستنتهي به بالاستسلام مهزوماً.

قبل يومين، عندما مر من شارع ألكالا أمام وزارة المالية، التقى السيد جاسبر خيمينث، أول ماركيز من عائلة خيمينث، ذلك السيناتور كان قريباً من السيدة راعيته في أيامها الجيدة. يُصادف الشخصية المهيبة عدة مرات دون أن يلاحظه الأخير. يتعرف عليه، لكنه يسير متظاهراً بعدم رؤيته.

لا بد أنه على دراية بحياته المتشردة، ورغبته في ألا يكون رجلاً ذا شأن، وتلك الحياة البوهيمية التي أعاقته أكثر من نصف مسيرته الجامعية. كان السيناتور قاسياً. «الحياة ليست لعبة»، كما قال له عندما طرده من منزل راعيته.

لكل هذه الأسباب، شعر مالترانا بدهشة كبيرة عندما رأى أن الشخصية، التي ترتدي سترة رسمية شائعة وقبعة عالية، مع المظهر الجاد والمتناغم لأحد مدراء الدولة، عندما تلاقي معه، بدلاً من أن

يصرف نظره، ركزه عليه، يداعبه بابتسامة لطيفة.

ابتعد السيناتور عن اثنين من السادة الآخرين ليسا أقل أهمية ممن كانوا يسرون معه، واقترب من مالترانا، ووضع يده الحامية على ظهره:

- كيف حالك أيها الشاب؟ كيف تسير أمورك؟

لأن مالترانا المريع -الذي كان في اجتماعات الشباب عنيداً ولم يصفح عن شخص أو مؤسسة، ساخطاً على كل ما هو موجود ويصف البلد بأنها إصطبل بهائم لم يُعثر فيه حتى على نصف إنسان، أمام أقل إشارة احترام من شخص قوي.

أزعجته رُتبة السيناتور وابتسامته لدرجة جعلته يتلعثم. يعتقد أن من الضروري أن يكون للمرء علاقة طويلة مع الأشخاص للتعرف عليهم. ذلك الرجل بالنسبة إليه برجوازي حقير، سخيف، متحذلق وفارغ... ها هي مساوئ الحكم على الناس من بعيد. الآن -بعد رؤيته عن كثب بعد بضع سنوات - يجده متعاطفاً بشكلٍ مفاجئ، مع بعضٍ من مظهر مفكر واقتصادي سامٍ، من النوع الذي يحمل مفاتيح بيت المؤونة الوطني. ليس هناك مبالغة، يوجد سبب للترقي، وعندما وصل ذلك الرجل إلى الأعلى، كان ذلك بسبب وجود شيء داخله. تابع السيناتور:

- ألم تُنه شهادتك؟ لقد أبليت بلاءً حسناً، إذا كانت هواياتك تأخذك إلى اتجاه آخر. أنت فنان؛ لقد ولدت لتكون كاتباً.

ومع دهشة مالترانا الكبيرة، أخبره عن المقالات التي نشرها. لم يكن يعرفها، فهو يفتقر إلى الوقت لعمل أشياء كثيرة، لكنهم أوصوا

بها بمديح كبير. الأدب «العميق» بالنسبة إليه الذي يسره؛ دراسات جادة وممتقنة. يحب ما هو متقن، ما هو جاد... شعر مالترانا بتحول هيئته، كان على وشك الارتفاع فوق الأرض مع زهو من الفرح، عندما سمع أن شخصاً ما أشاد بمقالاته، وأن هذا الشخص رجل في أقل من يوم متوقع أن يصبح وزيراً.

- تعالَ لتراني عندما تستطيع، بثقة تامة؛ أنت تعلم بالفعل أننا صديقان قديمان: أنا أعتبرك من العائلة.. أعتقد أنه من مصلحتك أن يرى بعضنا بعضاً؛ سيخرج شيء جيد من المقابلة.

حاول مالترانا -المتلهف للأمل بعد هذه الكلمات- زيارة السيناتور في اليوم التالي. لكن أراد الأخير قضاء أيام الكرنفال في مزرعته الخاصة في مدينا ديل كامبو، بعيداً عن صخب المدينة، فهذا يناسب رجلاً ذا شأن. بعد الحفلات ينتظره في منزله في أي صباح.

وابتعد برفقة رفاقه المهيبين -بعد مصافحة إسيديرو- بنفس البساطة كما لو كان زميلاً. تبعه مالترانا بنظرة من التعاطف الشديد. هناك شيء جيد يخرج من صداقته غير المتوقعة مع الشخصية المهمة... ورافقته ذكرى الماركيز مثل وعد بالثروة في أيام الكرنفال.

عندما وصل مالترانا إلى بياسبستاس، اعتقد أنه شاهد نسخة متحركة من لوحة لجويا. عدد من الفتيات الشعثاوات -من فتيات النبس- يرمين في الهواء دمية: بدلة قديمة مليئة بالقش، بها انتفاخات ضخمة، ترتدي حذاء ممزقاً وتنتهي برأس من الورق المقوى. حاولت مجموعة من الشباب الصغير انتزاع الدمية منهن لأخذها سجينة إلى

الحانة، والفتيات الشعثاوات المسلّحات بالمقشّات يدافعن عن دمية الخرق بالضربات. تركض المجموعة عبر الفسحة مع ضجة القتال، تتدحرج بعض المقاتلات على الأرض بقوة دفعهم، واللاتي انتهت بالكشف عن الخشونة التي بداخلهن.

يبدو أن مالترانا -مع الكاب البالي وقبعة السيد الفقير- يصرف انتباه هؤلاء الشبان الفظين عن القتال. تسير الفتيات وراءه، تشابك أذرعهن، وهن يغنين بأغنية وقحة:

وها هو يذهب! وها هو يذهب!

العم في المعطف!

ضحك الفتيان على النكتة، وبدوا على استعداد لدعمها بأغنية كتحية للسيد إذا كان لديه ذوق سيئ يزعجهم.

ترك مالترانا هذا الفرح العدائي وراءه، وخرج إلى الحقل. يفكر في زيارة كوخ زرادشت قبل الذهاب إلى لاس كاروليناس.

وجد نفسه على قمة ربوة، حيث تحيط بنظره مدريد بأكملها. تبدو من بعيد كومة من الأنقاض والقمامة. تتألف من ثلاثة أجزاء منفصلة، لكنها منخفضة جداً، عالقة في تجويف في الأرض، بحيث بالكاد تبرز أسقفها من حافة القمة. تبدو عربة زرادشت أكبر من المساكن؛ مظهرها أفضل منهم، مستلقية على مؤخرتها، بقضيين إلى أعلى متصلين بحزام بطن البغل، الذي يظهر على السماء مثل المشنقة.

خمن الشاب قرب الكوخ حين رأى مجموعة من الكلاب تجري

نحوه. كانت رفقة زرادشت. من أجناس وأحجام مختلفة، كلها قدرة، بأعين صفراء ولعاب مسعور على أنيابها: حيوانات برية تقريباً، ترى من وقتٍ لآخر وصول بعض الفقراء فقط، وشعرت بغرابة شرسة أمام إسيدرو، أغضبها المظهر الخارجي لرجل المدينة.

لم تنبح. اقتربت، صامته، تصر أسنانها بهدف صريح للعض، مدت مخالبتها نحو بنطاله. التقط الشاب حجراً، وصرخ بصوت عالٍ على زرادشت والسيدة إوسيبيا.

رنت صافرة خلف الكوخ وصوت بولو الضعيف ينادي كلابه. تمكن إسيدرو من الاستمرار برفقة المجموعة الشرسة، التي تدور حوله وتشتم ملابسه.

مر بين العربة وجدار منخفض، ودخل ساحة صغيرة في مواجهة الحقل، ومدرّيد في الخلفية، وعلى أحد الجوانب تلال كاسا دي كامپو المظلمة. باقي الساحة الصغيرة مغلق بسبب الأكواخ الثلاثة التي تشكل مسكن زرادشت العظيم وملحقاته. كان الأخير جالساً على دلو، ويخيط بالدوبارة بعض قطع سجادة قديمة من المفترض أن تُستخدم كبطانية للبلغل. قال بصوته الطفولي:

- آسف لأنني لم أنهض. أنت من المنزل. آه، هاتان الساقان!

قد استبدل حُلة جلد الأرنب بأخرى للاحتفالات العظيمة: النظارات والأشرطة الملونة، مما منحه مظهرَ همجّيٍّ في مسرح.

من بقايا فرحه القديم، ذكرى تلك السنوات التي نزل فيها إلى

كرنفال في وسط مدريد مرتدياً أبهى خرقة، متقبلاً استغراب الناس واستهزاءهم كشهادة على إعجابهم. يتبع عادة تشويه نفسه بالزخارف البرية عندما يحين الاحتفال، لكنه بقي في المنزل، وقد تغلب عليه رومانيزم الخرف الذي شل حركة ساقيه.

تأمل مالترانا بفضولٍ مسكن زرادشت، الذي وُسّع ليشمل مباني جديدة منذ آخر مرة شاهده فيها. إن نشاط الرجل العجوز، موهبته النادرة في الاستفادة من الغنائم، جعله يعيش في إصلاح دائم لمنزله. ابتسم جامع القمامة وهو يرى دهشة الشاب.

- ما رأيك؟ كبر هذا كثيرًا؛ هذا هو القصر الملكي في تطوان. يأتي سادة من مدريد لرؤيته فقط: خاصة الرسامون... هذا الجزء هو المخزن -وأشار إلى الكوخ الذي يجلس عند بابه-، في الجهة المقابلة المطبخ والإسطبل. له اتصال بالجزء المركزي، المنزل القديم، حيث أعيش أنا وجدتك.

أراد مالترانا أن يضحك أمام المهابة التي يتحدث بها بولو عن منزله، مشيرًا إلى أجزائه المختلفة. لقد بنى كل شيء بمساعدة خادمه، مما أعطاه صلابة قلعة.

تبدو الأكواخ الثلاثة كأكوام كبيرة من القمامة والأنقاض، حيث قامت عائلة من حيوانات الخلد بفتح حُفر كالأبواب، وقاعات ملتوية كالغرف. تم استخدام جميع بقايا المدينة في المبنى. فقط من حين لآخر يظهر بعض الطوب والردم من الأنقاض؛ بُني الباقي من أكثر المواد غير

المتجانسة، حيث تم دمجها في المِلاط^(١) - عوضاً عن الطوب - علب الطعام المحفوظ، صفائح الزيت، أباريق القهوة، المبال، وقوالب الأحذية، ومع هذه البقايا أو ان مكسورة من الخزف الصيني، أعمدة صغيرة من المرمر، وقطع من التماثيل، كلها بشكلٍ عشوائي، حسب فوضى الحصىلة اليومية في مدريد.

رأى مالترانا طرفاً حاداً صدىً بارزاً من الجدار، فوق رأس زرادشت. نظر إليها عن قرب، كانت حقنة. وراءها.. تلمع قطعتان من البلاط القيشاني ذي الانعكاس الذهبي، ويظهر ذراع أنثى برونزية اللون، والتي بلا شك تحمل مصباحاً غازياً في أحد المقاهي.

عدد من دلاء الزنك التي ليس لها قاع، والمثبتة بشكلٍ أفقي في الجدار، كانت بمثابة كُوات دائرية في السقف، مماثلة لتلك الموجودة في قمرات السفن. الأسقف من القش، من فروع الأشجار، ومن المُشمع القديم، مشكلاً غطاءً كثيفاً، لا يمكن أن تمر خلاله أكثر الأمطار المستمرة. وسُدت الفجوات بالورق والخرق. وبدا سطح المطبخ كُراس جرة مكسورة، والتي تُستخدم كمدخنة.

نفوح من المخزن رائحة غبار، عظام متعفنة وملابس فاسدة، إلى جانب ذلك ضباب المنازل القديمة المغلقة منذ فترة طويلة والذي لا يمكن تحديده. طنين الذباب اللزج يرن في عتمة الأكواخ العميقة. من

(١) المِلاط: أو المونة مادة بناء تستخدم لربط الطوب أو الحجر ولملء الفراغات بينها. ويُصنع على شكل عجينة تصبح صلبة حين تجف، تتكون من مواد مختلفة مثل الطين أو الصلصال أو الأسمنت أو خليط من هذه المواد وقد يضاف إليها الرمل.

وقتٍ لآخر، يرفرف دبور أزرق ضخّم بالقرب من إسيدرو، له وميض معدني، كئيب، سام، منتفخ بشكلٍ مثير للاشمئزاز، كما لو أنه امتص للتو التراب من قبر.

سأل مالترانا عن جدته.

- أنا وحيد في المنزل. لقد أرسلت بوبو إلى مدريد ليرى حفلات التنكر، والمرأة العجوز موجودة في الأبرشية، في ذلك الحوش الكبير في بياسيسستاس حيث تنضم السيدات إلى قطع النيش الأنثوي لترنيم الصلوات.

يسمع زرادشت -الذي يفتخر بمعرفته بمدريد بالكامل- عن بعض هؤلاء السيدات المتدينات عندما كن صغيرات، ويضحك غامراً بعينه الدامعتين. الشيطان، شبع من اللحم... تهدي جامعات القمامة غطاء سرير في السنة، وأرزاً وكستناءً في عيد الميلاد؛ لكن تجبرهن على سماع خطبة الأبرشية مرتين في الأسبوع. في الكرنفال هناك اجتماع عظيم، ليغفر الرب حماقات العالم، ويبدأ وقت الصوم الكبير المرهق. أولئك اللواتي فاتتهن هذه الاحتفالات العظيمة خسرن أغطية الأسرة.

- أقول لك يا إسيدرو لقد استحققتها عن جدارة، فعندما يصلن لأخذ الخرق من هؤلاء السيدات يصبح لديهن جلد متصلب في ركبهن، مثل الفيلة. لكن الطبقة الوسطى، عندما تشعر بالحاجة، لا تتوقف أمام شيء، فيجب رؤية من هن من الحي عند مغادرة الأبرشية، قديسات، وبالتالي يغفلن عن السيدات... على الأقل يقولن عنها أنها ماهرة... يحب الجميع أن يحصل على شيء. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فهناك

جدتك التي تفكر في غطاء السرير طوال العام. لماذا تريدها، سيدة يعرف الجميع أنها ثرية؟ الإناث -يا إسيدرو- أشرار! لقد رأيتني جدتك في ورطات عديدة: كان عليّ أن أدفع إيجار الأرض التي أزرعها هنا في الجهة المقابلة، فأنت تعلم أنني مزارع قبل أن أكون جامع قُمّامة. لم يكن لديّ ولا حتى زر، وتركتني في ضيق، دون أن تخبرني أين تحتفظ بكنزها. ولهذا ضربتها؛ فبالنسبة للإناث، الخبز في يد والعصا في الأخرى... ألن أكون على دراية بهن، لقد تزوجت خمسًا! الشابات، بعضهن ببغاوات صاحبات، دون رغبة أخرى سوى إرضاء أجسادهن وافتقادهن لشخص؛ أما العجائز، فثملات وتمسكات بالمال، حتى لو أصبح زوجها عاريًا.

صمت زرادشت، وهو ينظر إلى مدريد التي أغلقت الأفق بكتلة كبيرة من الأسقف والأبراج. تبدو السماء الزرقاء -دون أدنى بخار رطوبة، سماء قشتالية، جافة وحارقة، صافية بشكلٍ كبير، والتي تُظهر بقوة ضواحي المدينة- أنها تُقَرَّب البلدة البعيدة.

يعتقد جامع القُمّامة أن عينيه الصغيرتين تحيطان البشرية بأسرها المقيمة تحت هذه القشرة من القرميد، والتي تجري في ذلك الوقت وتصرخ في زنانات وأزقة الخلية الضخمة. صوته له لهجة جلييلة، كما هو الحال دائمًا عندما يعتقد أنه يقول شيئًا مهمًا.

- الأنثى -يا إسيدرو- أدنى من الرجل وغير جديرة به. ركز في ذلك وتذكره دائمًا؛ سيكون من المفيد لك أن تكون صديقًا لرجلٍ حكيم رأى الكثير ويعرف الحياة. الأنثى حيوان قليل الفطنة؛ متبجح مثل الديك

الرومي، سخيفة مثل صوت شاذ في أغنية. امنحها فستاناً جيداً وحذاءً جيداً ذا رقبة ضيقة وغيرها من متطلبات الفخامة، وستكون سعيدة. لا تمنحها أنت الوقار والرفاهية التي تطلبها، فستسلم جسدها للشيطان... الرجل أكثر جدارة ونُبلاً؛ إنه قلق بشأن أشياء أخرى غير الخرق، ولذلك السبب هو الشخص الذي يجب أن يأمر ويضرب بالعصا في الوقت المناسب ليحظى بالاحترام. مع بلوزة وجِفال^(١)، يشعر الشخص في كثير من المرات أنه أفضل مقارنةً بقبعة التشريفات والمعطف. لديّ ملابس جيدة ويمكنني أن أكون كل يوم كما هو الحال اليوم، لكنني لا أشعر بالرغبة في ذلك؛ على العكس، لا توجد أنثى في النباش، عندما تأخذ تنورة جيدة من بين الخرق، لا ترتديها لتثير حسد رفيقاتها. المرأة التي ترتدي ثياباً رديئة، حتى لو كانت عجوزاً وقبيحة؛ لأنها لا تستطيع أن تكون أفضل، لا تنقصها الرغبة. إن الرجل الذي انتهى ليكون آدم ليس لأنه يفتقر إلى «المال»، بل لأنه يصب اهتمامه على الأمور الأسمى، لأنه حيوان نبيل وذكي.

هكذا كان يتكلم زرادشت.

مالترانا -المنزعج من رائحة المخزن الكريهة ورفرة الذباب- انتهى به الأمر إلى مغادرة مقعده، المتكون من ثلاث قطع من الفلين ممسمة على شكل مقعد. بما أن الجدة كانت غائبة، فقد أراد المغادرة. أوقفه جامع القمامة. لم ينصحه بانتظار المرأة العجوز؛ فإذا كانوا يصلون في بياسبستاس من أجل مغفرة كل الخطايا المفرحة التي

(١) الجِفال: حذاء صيفي من الخيش الخشن، ونعله من النسيج المضفور.

سُرتكب في ذلك المساء في مدريد، فقد كانوا يؤدون صلاةً قصيرة حتى الليل. ولكن قبل أن يغادر إسيديرو، يريد أن يُريه المنزل، وخاصة الغرفة التي رتبها بغرض زواجه. تشعر النساء بالرضى من فائض العيش الكريم، ولم يكن الأمر كذلك مع السيدة إوسيبيا، عندما تركت منزلها في لاس كاروليناس، ودخلت مسكنًا بدائيًا.

قال زرادشت، وهو مندمج في بعض الأعمال، بعد أن غرز الإبرة في قماش التنجيد وثناه فوق المقعد:

- هنا القليل من السيادة.

يمشي مُنحنيًا، وساقاه مفتوحتان متصلبتان. وعلى هذا الحال سبق مالترانا في ممر معتم وسقف منخفض وضيق للغاية لدرجة أن مرفقيه تلامسان الأشياء الغريبة المثبتة على الحائط. يمر ضوء خافت عبر برطمان مخلل، وُضع بمثابة كوة سقف، ينشر ضوءًا أصفر في نهاية الممر، في شعاعه الباهت يرقص سرب من الذباب.

كان هناك في أحد الجوانب مساحة نصف دائرية بمثابة إسطل. الجدران من الخشب الفاسد الناتج من الردم، بها فجوات محشوة بالقش وقطع الجرائد؛ أنسجة العنكبوت تتدلى من السقف ضخمة ووحشية، تتموج مثل أعلام سوداء بسبب الغبار، وتغطي الجدران مثل عنوان متجر حرق.

تلمس البغلة السقف تقريبًا بأذنيها، وتبدو أضخم، وكبيرة بشكل هائل، في مسكنه الحقير. فكر مالترانا في معجزات العادة، ورشاقة ذلك الحيوان للانزلاق كل يوم عبر الممر المعتم، حيث بالكاد يتسع لرجل.

رفع زرادشت، وهو يترك الإسطبل، ستارة من البركال المشجر، لكن مالترا نا رأى فقط ظلامًا شديدًا.

قال نبّاش القمامة:

- أضيءْ عود ثقاب.

عندما أضاءت بقايا شمعة موضوعة في عنق الزجاجاة على الخزانة، تمكن إسيدرو أن يرى بين الظلال المرتعشة مغارة أصغر من الإسطبل، مع سقف من القش وجدران مليئة بمسامير، تتدلى منها كثير من الأسمال في خزانة ثياب العجوزين: تنانير من الحرير البالي، سترات رسمية طويلة مليئة بالرفع، قبعاا رسمية ذات خيوط حريرية منفوشة ومتقلصة كما لو كانت منفاخًا.

قال جامع القمامة:

- هنا يوجد سيادة. لا يمكنك إنكار هذا. انظر إلى هذه الخزانة؛ تأمل هذا السرير، الذي لا بد أنه ملكٌ لدوقٍ ما. تفوح منه رائحة القصر بمجرد أن يُنظر له. إنها قطع كلفتني مبلغًا جيدًا جدًا هناك في راسترو. ذهبت لشرائها من أقارب ماريوسا، بعض العاقين الذين عندما يرون أنفسهم أغنياء لا يعرفون العائلة. لا نزال في نزاع بسبب بعض البيزيتاا التي لا أريد أن أدفعها... لكن انظر -أيها الوسيم- إن الأمر يستحق ذلك.

واضطر مالترا نا أن ينظر -على ضوء الشمعة- إلى السرير المرتفع ذي الشكل القديم، المذهب بأكمله، ولكنه قديم جدًا لدرجة أنه في

بعض الأماكن ظهر المعدن المتقشر الباهت، وفي أماكن أخرى كان أخضر، مما يكشف عن بقائه في العلويات المنسية، تحت الشقوق التي يتسرب منها المطر.

لاحقًا، يُظهر زرادشت بفخر فنان زخارف بعض قطع الحائط الخالية من الخرق: صور القديسين، وصور مطبوعة ملونة لسيدات عاريات، أو راقصات باليه باللون الوردي، وكلها جُمعت عشوائيًا، في أثناء النباش، وعلى الفور وضعها في غرفة النوم بمساعدة مسامير الزينة أو الخبز الممضوغ. أخيرًا، أظهر جامع القمامة أفضل ما في المنزل: بعض الطاولات الموضوعة بين السرير والحائط، وعليها أكوام من الصحون الصغيرة السمكية، وعشرات من أكواب الخزف القوي المستخدمة في المقاهي، وأكوام من الأكواب مدسوس بعضها في بعض. قال العم بولو:

- يمكنني دعوة حي لاس كارولinas بأكمله إذا أردت، دون الاضطرار إلى الاقتراض من أي شخص. انظر أيها الشاب. قل هل رأيت جدتك نفسها في مثل هذه الوفرة! هذا يشبه مقهى في بويرتا دل سول.

رأى مالترا - في ضوء الشمعة الضعيف - كل الأطباق مشققة بخطوط سوداء، فناجين بها شقوق أو من دون مقابض، أكوابًا ذات حواف مكسورة. هذه بقايا المؤسسات التي يجمع بولو قمامتها، والتي يخزنها سنوات، دون أن يعرف بالتأكيد ما يمكن أن يحصل عليه من هذه المجموعة المترفة.

غرفة النوم ليس بها منفذ آخر غير الباب. السقف منخفض جدًا

لدرجة أنه ليس هناك سوى مساحة كافية بينه وبين السرير للنوم ممدداً. عليك أن تتسلقه منزلقاً كما لو كان فم جحر. لاحظ إسيديرو عدم وجود نوافذ.

- إنه أفضل شيء في غرفة النوم. عندما يكون الجو بارداً أو متجمداً، ينام المرء بشكلٍ رائع مع دفء البغلة والروث، الذي يمنح المجد. انظر إنه دافئ، حتى أنه في الشتاء لدينا ذباب. ولا حتى في ساحة أورينيت يكون يوم ثلجي جيد لهذا الحد مثل هنا.

رفع جامع القمامة الضوء إلى السقف، وهو يلمس ببعض العناية -مثل الأشياء الهشة والشمينة- الأقمشة المغطاة بالغبار التي تتدلى من القش.

- انظر... أنسجة العنكبوت. هل تراها؟ هنا وهناك في كل مكان. ليس لدينا نوافذ، زجاج وأشياء أخرى غير مجدية ومؤذية للصحة؛ لكن خيوط العنكبوت، يمكنني المراهنة مع أغني شخص لمعرفة من لديه منها الأفضل.

بدا مالترانا في حيرة من الجدية التي يتحدث بها زرادشت.

تابع:

- عندما ترى أنسجة العنكبوت سترى الصحة فقط. هذا ما لا يعرفه أطباء مدريد غير الماهرين، الذين -بسبب قراءتهم الكتب- يسخرون من الحكماء مثلي، الذين يقرأون الأرض والسماء. في بيوت المدن لا توجد خيوط عنكبوت، وكلها هزيلة، مائلة إلى الصفرة وتموت صغاراً.

إن نسيج العنكبوت هبة من الله، فهو يهتم بصحتنا. ينخل الهواء، ويزيل الدويبات الضارة التي تسبب الأمراض، ويأكل الميكروبات والحشرات الأخرى.

هكذا تكلم زرادشت وهو يمرر نوره قرب السقف؛ ويظهر في الظلام نسيج العناكب المعلق، ضخماً، عتيقاً، كأنه من عمل أجيال عديدة، شفافاً مع وهج شعلة الشمعة الوردية. يتجنب العجوز تكسير الأنسجة الرقيقة. تتدلى حتى تلمس سريره؛ يهزهم بشخير عندما ينام، ويشعر بانزعاج شديد عندما يستيقظ ويجد خيوط عنكبوت ساقطة بالقرب من فمه.

- هذا ما يطيل الحياة؛ هذا لا يُجلب بالمال. إذا أرادت جدتك أن أضربها، فلتلمس واحدة فقط.

عندما عاد مالترانا إلى الساحة الصغيرة، أغلق عينيه منبهراً بالشمس. يستنشق الهواء النقي بصعوبة، بعد مكوثه في ذلك العرين المشبع بالغبار والروث.

عاد إلى رؤية مدريد مرة أخرى أمامه، بكتلة المدينة العظيمة الهائلة، بأبراج تدق فيها الأجراس ومداخل ضخمة مسودة من الدخان. لقد شعر بالدهشة - الغرابة الهائلة - بسبب هذه الحياة القاسية والبرية التي تحيط به، والتي - في نظره - نواة عظيمة للحضارة. الماضي - صلب وقاسٍ - وكانت طفولة الإنسان - المجردة من حيوانيته الفطرية - تقبع على أبواب المدينة الحديثة.

يسعى زرادشت ليستبقي الشاب. كان مؤلماً أن يحرم نفسه من

حديث يمكن أن يتباهى فيه بعلمه. قال:

- أترى.. يا لها من شمس جميلة؟ حسنًا، سُمطر قبل نهاية الأسبوع. سوف تبتلُّ حفلة دفن السردين^(١). وجه القمر خطر كل ليلة. فإما أنني لا أعرف كلمة عن أمور السماء، وإما أن هذا القمر يعلن عن ثورات عظيمة، مجاعات، أوبئة ودماء... قال مالترانا:

- وداعًا زرادشت العظيم.

بإمكانه الاستمرار في التفلسف، محاطًا بكلابه، بينما يفكر في المدينة الجاحدة التي لم تعترف بعلمه. كان ذاهبًا إلى لاس كارولينا، هاربًا من تلك الظلمة كريهة الرائحة التي تـُـقلب معدته. يبحث عن صديقه موسكو وابنته فليثانا، التي لها يدا عذراء لطهي القدر، تستحقان ألف قُبلة؛ والوحيدتان في الحي اللتان كانتا تُظهـران بعض النظافة. سيعود مرة أخرى لرؤية الجدة.

ثم انطلق، تتبعه لمسافة كبيرة كلاب زرادشت.

عند دخوله حي لاس كارولينا، شعر بالحيرة والارتباك من مظهره وسط الكرنفال. من بين هؤلاء الأشخاص المزينين ببقايا المدينة، لم يكن من السهل تمييز أقنعة غير المتنكرين. مر بجانبه طفل مرتديًا حذاء ذا رقبة لامعًا في إحدى قدميه، وحذاء أحمر في الجهة الأخرى، مرتديًا بنطال رجل يجر فوضى تجعيدات، ويغطي رأسه بقبعة نسائية من القش غير الملتصق عليها آثار زهور. لا، ليس قناعًا.

(١) دفن السردين: هو طقس يأتي في ختام احتفالات دينية وشعبية للكاتوليك الإسبان تسبق فترة الصيام الكبير، ولهذا يُدفن السردين ليدل رمزياً على الامتناع عن أكل السمك.

يسير بجدية طفل فقير يقوم بمهمات والديه، يحمل قارورة كبيرة على صدره ليملاؤها من الحانة. ولم تكن النساء البائسات اللواتي يراهن من بعيد بتنانيرهن متعددة الألوان؛ والرجال الذين يرتدون سترات الجنود القصيرة أو سترات رسمية ذات اللون الأخضر الضارب إلى الأسود والتي ذيلها يغطي أرجل سراويلهم المرقعة وصدورهم المشعرة تطل من بين البطانات الحريرية لثنايا صدر السترة، أقنعة أيضًا.

كان قناع الورق المقوى القديم أو الخِرقَة التي تحتوي على ثقوب للأعين هو الشيء الوحيد الذي ميز الأقنعة في ذلك العالم حيث بدوا جميعًا متنكرين بالقدر ذاته.

في وسط الأزقة -بجانب الأبواب وداخل الحظائر- كانت هناك أكوام من الورق الملون ممزوج بالقمامة. كانت بقايا اليوم الأول للكرنفال، القصاصات الملونة والأشرطة الورقية التي تم جمعها في الصباح من مسارات الموكب في مدريد؛ بقايا فرحة شعب بأكمله، والتي تختلط في مثل هذه المجارير مع فضلات طعامهم وملابسهم. وكان بعض الأطفال الصغار جدًّا يلوحون بأعلام ورقية، أكاليل من الزهور المزيفة وزخارف أخرى سقطت من العربات الفاخرة التي تجري في قشتالة في مساء اليوم السابق.

مر إسيद्रو بعدة شوارع تشكلت في معظمها من حوائط الحظائر الترابية. وفوقها تطل الأهرامات العظيمة المصنوعة من القش المتعفن المخصص للطهو في مصانع القرميد. عند جلبه خطواته، كانت كلاب الماستيف الشرسة تطل برؤوسها الضخمة من الجدران بنباح مكتوم.

كان الهواء متشرباً برائحة روث رطب. من خلال الأبواب المواربة كان من الممكن رؤية خنازير الحظائر، التي تُباع للتجار في الضواحي بعد أن يصبحوا سمينين من قذارة البلدة، تحفر في أكوام من الأحذية القديمة وأكداش من الخرق. ينظر مالترانا إلى هذه الحيوانات القذرة، ذات الضراوة الهمجية، باشمئزاز شديد. يتذكر موسكو -وهو ساخط على بعض الجيران الذين- عندما وجدوا كلباً ميتاً في مدريد، أحضروه إليه في العربة، وألقوا به في الحظيرة، حيث أصبح بعد وقتٍ قصير مجرد هيكل عظمي هزيل.

عندما خرج مالترانا إلى مساحة كبيرة خالية من المنازل، بدد منظر السماء المفتوحة والجبال إحساسه بالغثيان.

اعترضت جوادراًما الأفق بكتلتها ذات اللون الوردي المتوج بأهرامات من الملح. يتلألاً الثلج على القمم، تجرحه الشمس؛ يبرز بياضه البكر مقابل زرقة السماء الكثيفة، وهو يتساقط في خطوط متعرجة، أسفل الجبال، عبر الهوات والوديان. تُنسي البانوراما العظيمة بؤس هذا الحشد من النبّاشين، حيث البشر يبحثون عن رزقهم في البقايا التي هجرها أشباههم.

بدأ مالترانا نزول منحدر آخر شارع في لاس كاروليناس، وهو شارع موسكو. أمامه -في نهاية الصف المزدوج من الأكواخ البائسة- تل لوس بينوس، ينبوع كانيو كورادو، وهو ركن وارف زرعه بناء قناة لوثويا، والذي أصبح على مر السنين غابة.

رأى الشاب مجموعة من الصغار يتجهون ناحيته. في المقدمة

يسير قناع كبير وهو يرفع مقشّة، ووجهه به أثر السُّخام ويرتدي الخيش والعُقْد الورقية.

- أنت لا تعرفني! أنت لا تعرفني!

وكتحية ضربه بالمقشّة في وجهه، ثم هرب بخطوة مترددة صارخاً تبعته الغوغاء الطفولية التي تصيح وهي تهتف بالشكر.

آه، أيها السكران اللعين! حسناً، ألم يكن يعرفه؟ كان كولتا الذي يسلي الحي بإسرافه في السُّكر.

واصل إسيدرو التقدم، وعندما وصل إلى منزل موسكو، طرق الباب المغلق مراراً وتكراراً دون جدوى.

أنت امرأة ويدها متقاطعتان على بطنها. كانت بوراتشا -أنثى كولتا- امرأة ترتدي الأسمال مع ضمادة على جبينها وقطعة صغيرة من القماش تتدلى على عينٍ واحدة. في ذلك الحي القذر تتمتع بشهرة كبيرة لإهمالها نفسها. لديها قشور على يديها، لم تغسلها أبداً، خوفاً من أن الماء قد يُزيل لمعان الحلقات النحاسية التي تزين أصابعها. ثقت بشرة غضروف أنفها. خرمت القذارة والمشروب لحمها، وفقاً لما ذكره كولتا عندما أهانها وهو في حالة سُكر تام بلقب بوراتشا. قالت بوداعةٍ منافقة:

-ليسوا في المنزل سيد إسيدرو. لقد غادر موسكو صباح اليوم مع السيد مانولو، حاملين الأقفاص والشبكة. ذهبوا لصيد الطيور. والفتاة -فليثيانا- ذهبت إلى الاحتفال التنكري. منذ برهة نزلت مع صديقاتها إلى كانيو دورادو. ها هي.. يمكنك رؤيتها من هنا.

وظهر لإسيدرو مجموعة من الألوان الزاهية التي تركض عبر
الحرّجة في تل لوس بينوس.

نزل الشاب المنحدر. وراء آخر منازل جامعي القُمامة، على
النقيض من البؤس الدنيء للحي، كانت تبدأ الغابة الصغيرة لكانيو
دورادو. أدى التأثير المفيد للرطوبة إلى نمو كتلة كبيرة من الأشجار
المُهمهمة، التي تسكنها الطيور، في قاع الوادي الصغير. كان متنزهًا من
الحديقة القديمة، بجدران من خشب شجر البقس تشبه المقص، يمتد
حول كانيو دورادو، اسم الينبوع الذي تأتي إليه فتيات لاس كاروليناس
لملء أباريقهن.

تمتلئ زاوية هادئة وصامتة في الربيع بالزهور والزغاريد، التي لم
يعرفها سكان مدريد؛ جنة خفية، قطعة شُعرية لحشد جامعي القُمامة
المخيم على التل المجاور.

أحب مالترانا هدوء كانيو دورادو. ذكّره حديقته القديمة بأحواض
الزهور في مونكلوا، لكنها أكثر انعزالية وريفية، دون أن تجد مارة
آخرين في شوارعها العريضة إلا صبي من الحي يحمل إبريقًا على كتفه.
بالإضافة إلى ذلك، كان سعيدًا بالأغنية الدائمة للنافورة المتساقطة من
القنال الذهبية في حوض له أربع دوائر. عندما دخل الشاب إلى الحرّجة،
رأى الأفنعة التي أرتها له زوجة كولتا تتجه نحوه.

- إنه إسيدرو! إنه الرجل الحكيم! الذي يكتب في الصحف!

أحاطت المجموعة به: التي كلها سيدات. لقد انصرفن إلى الغابة
الصغيرة، وهن تعبات من التنزه عبر شوارع الحي، حيث عليهن الدفاع

عن أنفسهن من قرصات الفتيان. وقفن هناك، راضين عن لباسهن التنكري، لكن يشعرن بالملل، وهن يمرحن مثل الطفلات والقناع في أيديهن. عندما رأين مالترانا قمن لبسن أقنعتهن مرةً أخرى، ويتحركن حوله، وهن يدفعونه، ويمسكن به من طية صدر السترة، وهن يصرخن، بضجيج مشابهة لقرقرة قفص الدجاج:

– أنت لا تعرفني! أنت لا تعرفنا!

يرتدي بعضهن ملابس أطفال، بألوانٍ بديعة، وشعرهن الدهني قليل يتدلى على ظهورهن، وتظهر أسفل تنوراتهن الداخلية استدارة ربلتهن^(١) والخطوط المبهجة لجواربهن. كلهن تقريباً يرتدين قفازات، وهذه البطانة المصنوعة من الجلد التي أخفت أيديهن الخشنة والقدرة لحدّ ما جعلتهن فخورات بها كعلامة للتميز، في نفس الوقت تشل حركاتهن. ارتدت أخريات ملابس الأوغاد، لبسن بنطال الرجال، والتي تبدو أنها على وشك الانفجار بسبب ضغط اللحم السمين. يغطي وشاح أحمر صغير رقبة بلوزاتهن، وتطل من البريه كُرة تسريحة شعورهن الظرفية. وبينما يتحركن حول إسيذرو، أحاطنه بحلقة من المسك، عطر رخيص تشربته عذروات النّيش من أجل رونق أعظم للحفلة.

يصيح الأوغاد بوداعة مبالغ فيها، وهم يشدون من شاربه، ويصفغونه بحماس خضب خديه بالحمرة:

– أنت لا تعرفني!

(١) الريلة: وتسمى أيضًا بطة الساق، وهي العضلة الخلفية في الساق.

صرخ طفل ذو لون وردي، وركز مالترانا انتباهه عليه:

- أنت لا تعرفني!

هتف الشاب:

- حسنًا، لماذا لا أعرفكِ أيتها الطفلة؟ أنت فليثيانا. لا توجد يدٌ أخرى مثل يدكِ في الحي بأكمله. لهذا السبب تجعلينها غير مغطاة ومُغَارِلة.

ركضت عدة أقنعة، وهم يصرخون مندهشين من هذا الاعتراف ومهانين من الإشارة إلى أيديهن التي ترتدي القفازات. تنزل مجموعة من الشبان المنحدر لمقابلتهم، ركضن هن لرغبتهن أن تتم ملاحقتهن. كان مالترانا بمفرده تقريبًا بجانب الطفلة. انفصلت رفيقاتها الحميمات بضع خطوات، وركزن انتباههن على لقاء الفتيان بالأقنعة. قال الشاب مرةً أخرى وهو يمسك يديها:

- أجل؛ أنت فليثيانا. قولي لي متى سيعود والدكِ؟

صرخ القناع بصوتٍ مرتعش بدا كأنه يهتز من الغضب:

- أنا لست فليثيانا. يدا فليثيانا أقبح من يديّ. والدليل أنك رأيتهَا مرات عديدة دون أن تتفوه بكلمة للمسكينة.

- هيا يا فتاة، لا تتحدثي بسخافات. هل تناولتِ مشروبًا هذا المساء؟

تابع القناع، يتحدث باندفاع، كأنه يخشى أن تتخلى عنه شجاعته قبل أن ينتهي:

-أنت متغطرس يا إسيدرو، أنت مغرور، معجب بأهميتك لدرجة أنك لا تلاحظ أحدًا. أنت فخور جدًا كونهم سموك حكيماً لدرجة أنك لا تنظر إلى الناس، وليس لديك ذرة من المواهب لتخمين ما يفكر فيه من حولك.

سمعها مالترانا باستغراب.

-ولكن ما هذا الهراء الذي تتحدثين به يا فتاة؟ هل أنت ثملة؟

ابتعدت جميع الأقنعة باتجاه الوادي الصغير، حيث ترن صيحات الملاحظات المرحية. كانا وحدهما؛ لكن على الرغم من هذا، تحدث الطفل بصوتٍ حادٍّ من القناع، مثبتًا عينيه السوداوين العميقتين على عين إسيدرو، من خلال ثقبَي قناع العينين.

-أنا لست فليثيانا، لكنني أفضل صديقة لها. إنها مثلي... أكثر من أختين. وهل تعرف ما تقوله فليثيانا؟ إنك متغطرس؛ مهما نظرت إليك، فلن تلاحظها أبدًا؛ حيث يبدو لك أن أمرها هين؛ لأنها تعيش في لاس كارولينا وتذهب إلى مصنع القلنسوات... بالطبع! بما أن السيد يعيش في مدريد، ويكتب في الصحف، ويرتدي ملابسه مثل أولاد الذوات! من يدري إذا كان لديه في لوس مادريلس^(١) الهزلية من يتنافس عليه، سيدات ذات شأن يمارسن الحب معه!

ضحك مالترانا على صراحة الفتاة. تتخيل تلك التعيسة حياته على أنها مسار من الوفرة والانتصارات. كانت سذاجتها سخرية قاسية. قال:

(١) لوس مادريلس: هي كلمة شائعة للإشارة إلى مدينة مدريد.

-لكن يا فتاة لقد شربت. أنتِ فطنةٌ يا فليثيانا.

قالت بغضب:

-اعثر على فليثيانا! لقد أخبرتك بالفعل أنني لست هي. إذا كنت هي، فسأخبرك بأربعة أمور غليظة، ولسبب وجيه؛ متغطرس! وقح! وغدا! مُدَّعٍ! لكن لا تغضب. أقول لك هذا لأنني أرتدي القناع، ولأنهم جعلونا نشرب قليلاً هناك في الأعلى. فليثيانا المسكينة! النساء مسكينات! يرتب الرجال الأمور بطريقةٍ ما، فنضطر إلى الصمت وننفجر حزناً إذا لم يخمنوا ما بنا. وأنت -أيها الوغد الصغير الجاد- مع كل علمك، غير قادر على التخمين، أعمى إلى حدٍّ ما... بحيث لا يمكنك التمييز بين فليثيانا أو قدور الأرانب التي دعاك والدها إليها.

كان مالترانا الآن هو الشخص الذي شعر بالارتباك، ولم يعرف بماذا يجيب. تلاشى خجله من الجرأة التي يعبر بها القناع الصغير. أخذها من يديها مرة أخرى، ويضغط عليها دون أن يعرف ماذا يقول، مكرراً الشيء نفسه:

-فليثيانا... فليثيانا!

-يا رجل، اتركها وشأنها! لقد أخبرتك بالفعل أنني لست فليثيانا. لماذا تعيد اسمها؟ هل تلاحظها عندما تراها! لم تنظر في عينيها قط. لم ترَ شيئاً غير عادي فيها. لقد نشأت من أجل أشياء أفضل. أرادت والدتك أن تراك متزوجاً من سيدة؛ جدتك تؤكد أن أفضل يوم سيأتي عند رؤيتك في عربة ذات خيلين، مع سيدة شابة ذات قبعة طويلة...

دع فليثيانا؛ دع المرأة المسكينة تبكي وتتعفن من الحزن. لكن اعرف هذا، أيها الفاسق، النذل الصغير، الوغد المتباهي والأحمق: من سوء حظ فليثيانا أنها جُنت بك؛ فليثيانا تحبك؛ لكنها امرأة، وتلزم الصمت، ودمها يفسد عندما ترى أن هذا الحمار، إما أنه لا يعرفها، وإما أنه لص يتسلى بالتظاهر بأنه لا يعرفها.

تنهد خلف القناع. وضع الطفل يديه على صدره، ومن خلال الثقوب الموجودة في الورق المقوى كانت عيناه مبللتين باكيتين.

مالترانا منزعج من كلمات القناع، لم يستطع الإجابة. بشكل غريزي، مد يده إلى القناع الصغير وشده من عليه.

بدا وجه فليثيانا محتقناً، وعيناها ممتلئتان بالدموع. عندما وجدت نفسها ووجهها مكشوفاً أرادت الهرب. ثم حاولت الابتسام.

- كانت كلها مزحة. اعترف - يا إسيدرو - أنني عرفت كيف أجعلك تشعر بالدوار، انس هذا الهراء.

قال الشاب بجدية:

- فليثيانا لا تبكي. مزاح أم حقيقة، أبارك شجاعتك التي سمحت لك بقول مثل هذه الأمور لي. أنت محقة: أنا أحمق. لكن متغطرس.. أبداً. الأعمى يرى؛ الغافل يلاحظ.

دون أن يدرك ما يفعله، أطلقت إحدى يديه يد الفتاة، وانزلت بشكل غريزي إلى خصرها.

تأملته فليثيانا بعينيها المبللتين، السوداوين كقطرتي حبر، اللذين
يعكسان بؤرة الشمس البعيدة. بدا أن ضغط ذلك الذراع على خصرها
يُرضخها، يتغلب عليها.

نظرا إلى بعضهما، ولم يتجرأ على قول أي شيء، خائفين من
جرأتهما، من هذا التقرب السريع.

رنت صرخات الأقنعة بالقرب منهما. كانت المجموعة المرحّة
عائدة من الوادي الصغير حيث تطاردها الفتيان.

الجرأة التي جعلت الفتاة تتحدث بالقناع تركتها فجأة. تلاشت
جرأتها التي نتيجة بضع رشقات من النيذ وحماية قناع صغير. قامت
فليثيانا بعمل إيماءة خوف كأنها استيقظت فجأة عارية تماماً على مرأى
من الرجال. انطلقت من ذراع مالترانا وركضت نحو شجرة قريبة، مُتَكِئَةً
عليها بمرفقيها، وهي تخفي وجهها بين يديها.

لم تكن تريد أن يراها إسيدرو. كانت خائفة من النظر إليه. الآن
تبكي حقاً، وتئن بين تنهدات:

- يا للعار، يا إلهي! يا للعار!



- اجلس أيها الشاب. أنت في منزلك.. تعلم أنني أعتبرك من العائلة.

وداعب السيناتور السيد جاسبار خيمينث مالترانا بتلك الربتات الراحية التي جعلت الشاب يشعر بالفخر.

في مكتب الشخصية المهمة غرفة مؤتة بالصرامة التي تليق برجل بأهميته وعقله. الكراسي من الجلد والجدران مظلمة. في المكتبة نُسقت مجلدات جلسات مجلس الشيوخ بجانب المذكرات، علم الإحصاء والرسوم الجمركية؛ مجلدات ضخمة نظراً لحجمها مطبوعة على نفقة الدولة. معلقة على الجدران، في إطارات متألقة، تعرض ألقاباً متعددة تشريفية مختلف الجمعيات، مبرهنة على جدارة ماركيز دي خيمينث، وبطاقة كبيرة، آية في الخط، حيث هنا فيها المندوبون القشتاليون «السيناتور الجدير» على خطاباته البراقة التي يدافع فيها عن حماية القمح.

تملاً صورة زيتية بالحجم الطبيعي جانباً من المكتب. يظهر

الماركيز على القماش واقفاً مرتدياً الفراك^(١) مع كل أوسمته، متكئاً بمرفقه على المدفأة في قاعة الاستقبال ويسند جبينه العابس المشحون بالأفكار بيده اليمنى. تحفة. عندما تأمل إسيديرو هذا التمثال بصدرة المرصع بالأوسمة، وجد تشابهاً بين صديقه ذي النفوذ وعديد من المشعوذين المشهورين. في وقتٍ لاحق، شعر برغبةٍ في الضحك أمام الجدية والوقار المتكلف اللذين يظهر بهما السيناتور في الصورة. يزور رجلاً نبيلًا في منزله الخاص.

بدا الماركيز الجاد -الذي يعامل الناس دائماً بنبرة الراعي- شاكاً في حضور مالترانا.

يتحدث معه ببعض الشرود، كأن فكره بعيد. يستفسر بفضولٍ متصنع عن حياة الشاب، ونضالاته وتطلعاته، بينما يقطب حاجبيه، وبدا أن نظرتَه الغامضة تبحث عن ذريعة لقيادة المحادثة إلى حيث يريد.

أخيراً، تحدث عن السبب الذي جعله يتصل بإسيديرو. قال بلهجة مهيبة يستخدمها عندما يثرثر في حلقات مجلس الشيوخ:

- حسنًا صديقي الشاب، لقد أخذت حريتي بجعلك تأتي؛ لأنني يجب أن أقترح عليك شيئاً أعتبره مفيداً جداً لشخصك. أفهم أنه يجب حماية الشباب؛ أنا أحب الشباب؛ أنا أحدهم، حتى لو كان الكثيرون لا يصدقون ذلك، وهم يرونني أكرس وقتي للدراسات الجادة، والمشاكل الخطيرة، والتي تتوافق بشكلٍ أفضل مع كبار السن. لكن الحياة ليست

(١) الفراك: هي البدلة الرجالية الرسمية الأقدم والأكثر فخامة في مجموعة الأزياء الرجالية، ظهرت في نهاية القرن الثامن عشر في إنجلترا. اعتُمدت كلباس للحفلات الرسمية والماراسم الملكية.

حلمًا، كما أخبرتك في بعض المناسبات. الحياة ليست لعبة، ويجب قبولها بكل جديتها.. غير ذلك، ما قد يكون منفعة بالنسبة لحضرتك سيكون بلا شك مفيدًا جدًّا لي، وإذا قبلته، فستستحق شكري.

لم يفهم إسيديرو -الذي يستمع باهتمام إلى كلمات السيناتور هذه، بكل ما تحتويه من أجزاء خطابية- شيئًا واضحًا. ماذا أراد السيد الماركيز؟ كان هناك ليخدمه؛ يمكنه قول ما في نيته.

تحدثت الشخصية المرموقة مرةً أخرى دون أدنى التباس ومواربة، كما لو كان خائفًا من اكتشاف فكره فجأة. يعيش مشغولًا جدًّا. الرجل الذي يمتلك أقل وقت لإشباع هواياته الخاصة في مدريد كلها. من جهة.. الدفاعات المقدسة عن القمح، ومن جهة أخرى.. جمعيات لنشر الدعوى الكاثوليكية وللتدين العمالي، التهمت كل وقته. كان نائب رئيس بعض الاتحادات، وسكرتيرًا لأخرى، ويعتبر عدم التغيب عن اجتماعاتهم واجبًا مقدسًا. بالإضافة إلى ذلك، يلاحقه الحزب بمقتضيات الانضباط، فقد يتمتع بود الرئيس، الذي لم يسمح له بالتغيب عن اجتماعاته، وعليه أن يعتني بتعليم أبنائه، فتبين لا عيب فيهما، كانا يعلنان أفكار والدهما المفيدة واستحقا ثناء معلميهما السابقين، كاهنين صالحين من الرهبانية.

رحب مالترانا بهذه الكلمات بإيماءات جدية وضحكات داخلية. يعرف ابنه بالشكل: فقد التقهما عدة ليالٍ في روميا وقاعات أخرى حيث كان يغني ويرقص «نجوم» الجنس الأدنى. أحدهما يوقع على سندات

إذنية فارغة لجميع مرابي مدريد لدعم مرافقة معينة من برينيان^(١). تابع
السيناتور بلهجة كلام خطائية:

- في ظل هذه الظروف، حسنًا، من المستحيل بالنسبة لي تكريس
نشاطي للعمل الكتابي، للتعبير عن أفكاري المتواضعة على الورق. لأنني
-صديقي مالترانا- كاتب أيضًا. لهذا السبب يلهمني الشباب -مثلك- بهذه
العاطفة الذين يكرسون أنفسهم للأدب الجميل^(٢). أنا -وفقًا لأصدقائي-
أحدث جيدًا كفاية؛ هل تعتقد أنني كاتب أكثر من خطيب. لقد نشرت
قليلاً؛ تواضعي يمنعي. لكن لو رأيت كومة الورق التي لطختها!

ولأنه يعتقد أنه رأى بادرة فضول في مالترانا، سارع إلى إضافة:

- لا؛ لا أستطع أن أريك أيًا من أعمالي. تواضعي يجبرني على
تقطيعها قبل أن أنتهي منها. أحتاج إلى شخص يساعدني ويدفعني.
لدي أفكار.. كثير من الأفكار. ما أفقر إليه هو المساعدة، تعاون شاب
مستدير يمتلك كل وقته للكتابة.. شخص مثلك.

أدرك إسيدرو أن الشخص وصل أخيرًا إلى حيث أراد. يمكن
للمرء أن يرى على وجهه هدوء تقديمه اقتراح مخزٍ كان يعذبه. قبل
الشاب بكلماتٍ موجزة. ماذا يجب أن تكون وظيفته؟ كان على استعداد
لخدمته، ممتنًا جدًا لأنه لاحظ وجوده.

(١) هي مدينة في جنوب فرنسا، شمال شرق شبه الجزيرة الأيبيرية، كانت تابعة لإسبانيا حتى عام
١٦٥٩ عندما وقَّعت المملكتان الإسبانية والفرنسية معاهدة جبال البرانس.

(٢) الأدب الجميل: مصطلح يُستخدم لوصف فئة من الكتابة الأدبية التي تقتضي الاهتمام بجمالية
النص وشكلياته أكثر من قيمة مضمونه.

يشعر مالتريانا المسكين هكذا بالأمر، مقدّرًا اقتراح الشخصية الوقورة باعتباره شرفًا كبيرًا.

ما يريده الماركيز دي خيمينث هو تأليف كتاب، لكنه كتاب رائع من شأنه أن يعزز مكانته كاقصادي وكمفكر جاد. لم يرد أن تكون لديه أسرار مع مالتريانا، واعترف بأن مثل هذا الكتاب سيكون خطوة أخيرة للوصول إلى حقبة الوزير يوم عودة حزبه إلى السلطة. وعده الرئيس نفسه بكتابة مقدمة العمل.

- كما ترى صديقي مالتريانا. يا له من شرف! يا له من شرف لنا!
جعلت «لنا» الشاب يشعر بعدم المبالاة. لقد تخلى مقدمًا عن كل شيء إلا المكافأة التي أراد الماركيز منحه إيّاها. تابع الشخص الوقور:
- ستكتب؛ سأقدم لك الأفكار؛ وبهذا أعتقد أن وظيفتك ستكون سهلة، مثلما يقولون... أنت شاب فطن يكتشف الأمور، وسيحرص على عدم الخروج عن السياق وهو يمزج في العمل أفكارًا من هذه الأفكار الشيطانية والعصرية التي تجذب فتیان هذا الزمن. سيُهدى الكتاب إلى جلالة الملك؛ لا أحتاج أن أخبرك أكثر. إهداء بسيط، لكنه جميل، حيث تتكرم بكتابتة. الأمر أن تقول له أنه هكذا مثل الجندي الأول في الأمة، المزارع الأول، الصياد الأول، الأول في كل شيء، سواء لتوجيه السياسة أم لتوجيه سيارة، هو أيضًا، بالنسبة لي ولجميع الخيّرين الذين نضطر لفقدانهم، أول عالم اجتماع. ألن يكون الإهداء بهذا المعنى جميلًا؟

أجاب إسيدرو بإيماءات تأكيد.

- لأن مؤلّفي يا صديقي مالترانا سيكون اشتراكياً؛ لا تنزعج: اشتراكي من الاشتراكية الحقيقية، العملية، الاشتراكية التي يمكن أن تكون، والتي ندافع عنها نحن الأرواح الصادقة، ونحن نجمع مطالب العصر مع التقاليد المقدسة والمصالح الخاصة.

سأله الشاب عن الأفكار التي تكون بمثابة دليل، الحكمة القوية، والتي لن يكون هناك عمل آخر له سوى تنسيق الكلمات بالقلم: «منتهى السهولة»، كما قالت الشخصية الوقورة. قال الأخير:

- يمكن أن يكون الكتاب بعنوان الاشتراكية الحقيقية؛ لكن إذا وجدت عنواناً أكثر جمالاً، فلا تحرمني منه؛ ليس لديّ رغبة في حب الذات في هذا الأمر. أنت تأمر.. أنت السيد. افعل ما تعتقد أنه الأصح؛ كلما زاد عدد المبادرات لديك، كان ذلك أفضل.

وبجدية -وهو يقطب حاجبيه- كما لو أن كل فكرة كلفته عملية استخلاص مؤلمة، عرض خطته. لا بد أن يكون الكتاب ترنيمة للإحسان؛ حيث الأغنياء يمنحون الفقراء، والفقراء يحترمون الأغنياء، وكلاهما سيعهد إلى قيادة الكنيسة الكاثوليكية، مُعلمة لقرون في هذه المسائل، وإلى قداسة البابا، أول اشتراكي للاشتراكية الحقيقية. وتابع:

- أعتقد أنه بهذا لديك ما يكفي لعمل الكتاب. لم يبقَ شيء سوى كتابته، أسهل شيء؛ يستغرق الأمر وقتاً فقط، وأنا لا أملكه. ستدرك أن هذه الأفكار ليست مجرد شيء؛ بل بها وجهات نظر جديدة تماماً. إنها تكلف القليل جداً لعرضها؛ لكنني أعرف كم من الوقت أفكر فيها، وأشكّلها، وأعدّها، بحيث لا يكون عليك سوى كتابتها. أيضاً، لديّ

مبادراتي الخاصة بشأن شكل الكتاب. يجب أن يكون سميكا، سميكا جداً. لا تخف من أن تبالغ في الأمر؛ سيتم إنفاق كل ما هو ضروري في الطباعة. يجب أن تعرض الفصول في المقدمة تلك الفقرات كتابةً، في شكل صغير يُسمّى ملخصات. لطالما أحببت هذا؛ يعطي جواً معيناً من الجدية والأسلوب. ثم أريد أن تحتوي جميع الصفحات على ملاحظات، وعددٍ من الملاحظات تشغل مساحة بقدر النصف. لقد رأيت أن جميع الأعمال المهمة تسير على هذا النحو. وهذا يعطي أيضاً جواً من الجدية وإثباتاً على سعة اطلاع المؤلف. عليك أن تستشهد بكثيرٍ من الأسماء ويجب أن يكونوا أجنب؛ كلما كانوا أكثر تعقيداً، كلما كان ذلك أفضل. هذا ما ستفعله بسهولة؛ إنها مسألة بحث في كتب، وقضاء بضعة أسابيع في المكتبة. لو كان لديّ الوقت!

يبتسم مالترانا وهو يستمع إلى تعليمات راعيه. وتابع الماركيز:

- المهمة سهلة. لا تعتقد أنني أجهل أماكن المصادر. نتفق مع بعض الرجال من أوربا على هذه الاشتراكية الصادقة والخالية من الفضائح. وفقاً لما قاله لي الرئيس، هناك أستاذ إيطالي أو سويسري، لا أتذكر جيداً، كتب شيئاً مشهوراً جداً عن الاشتراكية الكاثوليكية. ليس لدى المرء وقت لقراءة كل شيء. ابحث عنها بنفسك، ولديك بالفعل مصدر آخر بعد مصادري.

تحدث السيناتور فترة طويلة عن عمله، ليُظهر لمالترانا السهولة التي يمكنه بها الكتابة على أساس ثابت من أفكاره.

-وأنا لا أسعى إلى التقليل من مكافأة عملي صديقي الشاب. أنا

أفهم أن هذه المهام يجب الدفع لها بشكل جيد. كما أنني أحب الشباب وأريد حمايتهم. سأعطيك ثلاثة آلاف ريال مقابل عملك؛ لكن اجعل الكتاب ضخماً، خاصة الملاحظات... كثير من الملاحظات. ربما إذا سار الأمر كما أرغب، كما تصورته، سيصل إلى أربعة آلاف. في الوقت الحالي، خذ عشرين ريالاً للنفقات الأولى... الورق والحبر والأقلام. أخذ مالترانا الورقة النقدية ببعض العاطفة، وهو يجيب بذهول على جميع توصيات الشخصية المرموقة.

- إلى العمل أيها الشاب. الحياة ليست حلماً. عليك أن تعمل، عليك أن تكون عملياً. في حالة شاب جديّ مثلك، أعتقد أنه من غير المجدي أن نوصي بالحدز. يجب أن يبقى هذا سرّاً. إلى جانب ذلك، لا يقتضي أن يكون هذا أمراً جليلاً: يعني أنني لا أملك الوقت فقط. الكتاب الذي كلفتك به؛ ما عليك سوى كتابته. آه، لو لم أكن مشغولاً للغاية!

لا يزال يوصيه مرةً أخرى بالألا ينسى ملخصات الفصول والملاحظات، وكثيراً من الملاحظات، مع استعراض ضخّم للمؤلفين.

- سأراك كثيراً. عندما تنتهي من فصل، أحضره إليّ، وهكذا مع البقية كلها. سأقوم بنسخه، حتى ينتقل من مخطوط إلى الطباعة. على الرغم من أنني مشغول للغاية، أعتقد أنه سيكون لديّ وقت لهذا العمل الصغير.

اعتقد مالترانا -عندما وجد نفسه في الشارع- أن الحظ يسير أمامه، يُفسح له المجال برفرة أجنته الذهبية. لم يشعر بأي تأنيب ضمير بسبب عمل المرتزق الذي كُلف به للتو. يضحك على الاشتراكية

الكاثوليكية وأفكار راعيه: أربع تفاهات اعتبرها هذا الأحمق كافية لهيكل كتاب. أحمق شجاع هو السيد خيمينث! لكنه يحترمه، ويرى فيه رجل العناية الإلهية الذي سيغير مجرى حياته، الحدث المتوقع الذي سيخرجه من مستنقع شغفه.

كانت الورقة النقدية فئة المائة بيزيتا المطوية في جيب صدرته تزن مثل ثقل الصابورة^(١) الذي منحه اتزاناً جديداً؛ لقد رأى خلفها طمأنينة الأوراق النقدية الأخرى، المزيد من المال، وكل ذلك مقابل ملء بضع مئات من الصفحات بقصاصات من كتب الآخرين، وحماقات غير مقبولة بالنسبة له، والتي سيوقعها السيناتور العظيم دون تردد، ويضعها تحت حماية شخصيته المتباهية.

يمكن للماركيز دي خيمينث المهيب أن ينام في هدوء. سيحصل على الكتاب في وقت أقرب مما يتوقع؛ ضخّم، ضخّم جداً، مع ملاحظات، مع ملخصات، حتى مع الملاحق، تتعاقب في الجزء السفلي من صفحاته، في سيل صاخب، أسماء جميع المؤلفين المعروفين وغير المعروفين، مع عدد قليل سيخترعه. من الصعب على الشخصية أن تُظهر عدم الرضى؛ وبمجرد أن يسعد بكونه مؤلفاً مقابل تكلفة زهيدة، سيكرر المهمة، ويعطيه أفكاراً لكتب جديدة. سيُظهر له رغبته في أن يصبح أكاديمياً، أن يغزو الخلود من خلال رجمه بأجزاء كبيرة من الملاحظات التي لا نهاية لها والتي لن يقرأها أحد. لقد وجد للتو منجم ثراء؛ سيحصل على دخل ثابت.

(١) الصابورة: ما يوضع في جوف المركب ليثقل فلا يميل على أحد جانبيه.

والبوهيمي -دون تأنيب ضمير بسبب هذه القرصنة الأدبية- قبلها
بسعادة بكونها تحرراً من البؤس، فكر في صرف الورقة النقدية، وفي
التمتع برفاهيته المستقبلية مُقدماً.

كان ذلك بعد الظهيرة. ذهب مالترانا إلى «حانة العباقرة» التي
يزورها فقط في أيام الازدهار. سيستسلم للشراسة الكسولة! بحث
في القائمة عن أفضل الأطباق، تلك التي يقرأ أسماءها بحزنٍ في
الليالي التي يدخل فيها المتجر دون مال آخر غير بيزيتا. تحيا الوفرة!
لقد أكل على هواه الأعلى ثمنًا، وتناول قهوة، وجعلهم يحضرون
إليه سيجار هافانا من تاباكاليرا في شارع إشبيلية. لا بد من الاحتفال
بالحدث.

يشعر بسكينة الهضم الجيد، وهو يتذوق كأس البراندي محاطًا
بسحابة زرقاء من الدخان العطر، ذلك الإيمان بالقدر الذي نما داخله
عندما ملأ معدته.

يفكر في المستقبل. كان راعيه على حق: الحياة ليست لعبة؛ وعليه
أن يغير طريقته على الفور.

يقتضي العمل الترتيب؛ سيُخفي الحياة الليلية: سيتوقف عن
الذهاب إلى صالة التحرير. لم يعد بإمكانه البقاء في الغرفة الصغيرة في
شارع لوس أرتيستاس، في انتظار أن يغادر زوج والدته وشقيقه السرير
ليحتله هو. لقد انتهت البوهيمية الحزينة والهائمة. له الحق في منزل،
مثل الجميع.. ولماذا لا ترافقه امرأة في هذا الصعود إلى الحظ، الذي
يعتقد أنه بدأ فعلاً؟

بدأت صورة فليثيانا، فلي الجميلة - كما يسميها - كأنها تظهر أمام عينية بين سحب الدخان الأزرق.

لا يزال تأثير المفاجأة والفخر الذي أحدثته كلمات الفتاة قبل أربعة أيام باقيًا داخله. إنه قبيح للغاية وبائس، لدرجة أن السخرية أو اللا مبالاة فقط هي ما يوحى بها إلى النساء، ورأى نفسه محبوبًا، والدهشة الأكبر أن الأنثى هي التي خرجت لمقابلته، وعرضت نفسها في نوبة من الجرأة.

يعترف أن في هذا الحب كثيرًا من الإعجاب. كانت الفتاة المسكينة من لاس كارولينا تسعقه ككائن متفوق. الرجل الوحيد الذي كشف لها عن وجود حياة مختلفة عن الحياة الهمجية القذرة العنيفة التي تحيط بها.

فكر مالتريانا: بالنسبة لفلي المسكينة، أنا الشعر؛ قطعة من السماء تنزل إليها؛ شيء متفوق تحبه وتبجله في نفس الوقت. ما دامت لا تفقد أوهامها عندما تراني عن قرب.

جلده الحظ سنواتٍ طويلة، لمنحه كل شيء دفعة واحدة: المال والحب. منذ أن أدلت فلي باعترافها، لم يعد يستطع النوم دون أن يتقطع نومه بالرؤى، التي تظهر فيها ابنة موسكو تداعبه بابتسامة، وتمد إليه ذراعيها. عندما يستيقظ، تظل الصورة ثابتة في ذاكرته، يمجدها ويحملها بالحلم، مثل وهم آخر من الأوهام التي يحملها في حقيبة آماله.

ظل مالتريانا مترددًا، عندما تساءل هل يحب فلي حقًا؟ لم يعرف بماذا يجيب بشكلٍ أكيد. لم يعرف حبًا آخر غير حب المسرحيات

الهزلية والروايات، ويعترف بنبيل أن حبه لم يكن من هذا النوع. اعتاد بسبب ميوله الفلسفية على البحث عن أسباب الأمور وكشف العواطف، وشقها ليكتشف سرها، وينتهي به الأمر إلى تحويل أكثر المشاعر حيوية إلى هياكل هزيلة.

لا؛ لم يكن يحب فلي بحدة كبيرة، لكنه ينجذب إليها بلطف. في هذا الانجذاب هناك القليل من الامتنان وبعض من التباهي الشخصي، ومن التعلق في حب الذات. يريد لها أيضًا بدافع الأنانية، حيث رأى فيها أنثى مرغوبة يمكنها تجميل حياته.

يحلم مالترا -على حساب كرامته كفيلسوف- وهو يَقْظُ مراتٍ كثيرة عندما يفكر في مستقبله. عندما تحلق مخيلته مثل عُقاب، وجد نفسه والأمم تهتف له، يعترف الجميع بأنه أعظم عباقرة القرن، ويرأس -باسم العلم- الولايات المتحدة الأوروبية^(١)، التي تعيش سعيدة بفضل مالترا، العظيم مالترا الأول، نابليون الحديث صاحب الفتوحات العظيمة للتقدم.

في أوقاتٍ أخرى، ترفرف أحلامه منخفضة. لا هيمنة ولا الولايات المتحدة الأوروبية ومشاكل أخرى: كان قانعًا بأن يكون رجلًا يمتلك ثقة بنفسه مؤكدة واحتياجاته، ويمضي حياته بهدوء بين الوفرة والدراسة. ويحلم الشاب -عند كتابة ترجماته- أن يكون له غرفته الخاصة ذات

(١) الولايات المتحدة الأوروبية: أو الفدرالية الأوروبية أو أوروبا الفدرالية، أسماء تشير إلى سيناريوهات مفترضة لتوحيد أوروبا في اتحاد اندماجي واحد من ولايات ذي سيادة، مشابه للولايات المتحدة الأمريكية، كما كان متصورًا من قبل السياسيين والجغرافيين والمؤرخين.

يوم، وعدد من الكتب وبعض الأشياء الفنية. وحينها -عندما يشعر بالإرهاق من العمل- سيظهر من خلفه ذراعان أنثويتان، ييضاوان وعاريتان، يضمانه، ويلامس الفم المُداعب أذنيه، ويهمهم بكلمات محبة.

لم يكن هذا مستحيلًا. يمكنه تحقيق ذلك. حان الوقت لتحقيق أحلامه. تسير جنية الأساطير الطيبة أمامه بعضا ذهبية، مما جعل شجيرات الورد تنبت على أطراف طريقه.

غادر الحانة والسيجار الضخم بين شفتيه، وهو يُلقي الدخان أمامه، كأن الأوهام تفلت من فمه، وتسبقه في السير.

بدا أن شمس المساء الدافئة وزرقة السماء الشفافة تتسلل إلى روحه. لا تزال بعض الأقنعة تجوب الشوارع، آخر ذكريات الحفلة الأخيرة. ابتسم مالترانا لهم، وجدهم ممتعين؛ أيضًا تتجول في خياله مثل الأقنعة الأوهام الأكثر تنوعًا.

مع فرح الرفاهية، انطلق سيرًا على الأقدام نحو لوس كواترو كامينوس. يفكر في التوقف في شارع بربابو مورييو، أمام مصنع القبعات حيث تعمل في؛ في انتظار خروجها ليخبرها عن الحظ الذي جمّل حياته بشكل غير متوقع.

وهي تسير على رصيف الشارع الواسع، خلف المستودعات القديمة، رأت إسيديرو يذهب إلى أحد معارفه القدامى.

- باركك الله سيد بيثنت.

كان رجلاً يرتدي ثياباً نظيفة بعناية، لكنها لم تُصنع لجسده من
وُسْعها. يرتدي المتعرق القبعة، التي أكبر من رأسه، منتفخة بسبب
شرايط ورقية مخفية. وجهه ضارب إلى الحمرة، وله خطوط عميقة
تبدو بشرته في قاعها بيضاء لامعة. عيناه تطرفان، ملتتهتين، بدون
جفنين، القرنيتان ملطختان بالدماء. الأذنان بارزتان، كادتا أن تنفصلا
عن الجمجمة، كما لو أنها على وشك أن ترفرف. كانت أشواك شاربه
ولحيته البيضاء الضاربة إلى الصفرة تشي بعدم براعة المقص المُستعمل
بلا تبصر.

يبدو قوياً، يتمتع بصحة ريفية قادرة على تحمل أكبر قدر من
الخشونة، لكن العوز جعل جسده جافاً وأعطى خطوته نوعاً من عدم
التناسق، كما لو أن ساقيه لا يمكنهما أن تتقدما إلا على حساب هزات
عصبية. يومئ في أثناء الكلام ويتحدث وحده، متجاهلاً استغراب
الناس. يتوقف من وقتٍ لآخر، ويسند كوعه على إحدى يديه، ويحرك
الأخرى إلى جبهته، المقسمة بسبب تجعيدة رأسية.

عندما سمع الشاب يحييه، تردد للحظات، كأن عينيه الملتتهتين لم
تتعرفا عليه. قال بصوتٍ عذب:

- آه! أهذا أنت سيد مالترانا؟ الذي تحميه العذراء. هل تعمل
كثيراً؟

يعرفه مالترانا بسبب عادة الطواف ليلاً. يستلقي مثله في الفراش
وقت ولوج النهار، ويستيقظ ذلك الرجل قبل الفجر بوقتٍ طويل،

فيلتقيان عدة مرات في شوارع مدريد، بالقرب من الأسواق، عندما تظهر بالكاد بواذر الصباح.

يشعر إسيدرو نحوه بإعجاب تهكمي. لقد جاء إلى العالم متأخرًا، تمامًا مثلما اعتقد في صغر سنه، أنه قد وُلد مبكرًا جدًا حتى أنهم لم يفهموه. قبل قرنين من الزمان، قد يبجل الحشد السيد بيثنت؛ كان من الممكن أن يزوره الملوك في كوخه. ويسقط الأتقياء -في ساعة وفاته- فوق جثته، ينتزعون شعره وأجزاء من ثوبه مثل الرفات المقدس، وربما في ذلك الوقت سيُرسَم في المذابح، وتبديل ملابسه المتسخة بأردية ذهبية.

تمتلئ جيوبه دائمًا بالقصاصات المطبوعة التي تحتوي على الصلوات والطوابع الصغيرة والصحف الدينية الساخرة التي تسلمها له الجمعيات الكاثوليكية ليوزعها. عثر مالترانا عليه في الفجر بالقرب من ساحة لا إيبادا وهو يتجادل مع سائق عربية؛ لأنه يسوق حيواناته بكُمّ هائل من اللعنات. رقع السيد بيثنت وذراعه متقاطعتان أمام الخاطئ، طالبًا منه أن يضربه بالسوط، ليُطفئ غضبه، مقابل أن يترك اسم الله المقدس في سلام، أراد الموت بدلًا من أن يراه مُهانًا. كان الشاب مهتمًا بهذا المجنون الذي جاب مدريد وسط غرابة واستهزاء، كأنه بُعث من الموت. لو وُلد في أوقاتٍ أخرى، لَأَسَّس نظامًا -قاعدةً دينيةً جديدةً- وترك بصماته في التاريخ.

فيما بعد رآه مرات كثيرة في الصباح وهو يُوقف الخادِمات بجوار الأسواق لإعطائهن طوابع وصلوات، ويحدثهن عن العذراء، وعيناه الضاربتان إلى الحُمرَة تنظران إلى أعلى، دون أن يلاحظ ضحكات

الفتيات، اللواتي شعرن ببعض الأسف على عته هذا الرجل الطيب، الذي كان في نفس الوقت شخصًا رقيقًا.

في أحيانٍ أخرى، يجده جالسًا في كُشك صانع أحذية، يحك رأسه برسوم إلموتين^(١) الكاريكاتورية القديمة المناهضة للسلطة الدينية الملتصقة على الحائط، بينما يتحدث إلى صانع الأحذية عن الله والقديسين، دون أن تخيفه الهتافات الساخرة ودق المطرقة على النعل.

ذهب إلى الحانات، دون خوف من سخرية الرفاق المبتهجين الذين يدعونه لتناول كأس. شكرًا؛ لم يكن يشرب. فالنبذ يؤدي عينيه. لكن في مقابل إنصاتهم إليه، ينتهي به الأمر بأخذ رشفة بمثابة عذاب، فيفعل الانفعالات نفسها كما لو كانت سمًا، ويتحدث إليهم عن عباداته البسيطة، عن تقواه كرجل بسيط. كما يراه مالترانا هائجًا مع غضب رجل مجنون مسالم فقد هدوءه. يحيونه بلعنات متتقة بعناية لإثارة غضبه. في البداية يرحب بها مغمض العينين، خافض الرأس، مثل شهيد في كروب العذاب الأولى، لكن صبره ينفد عندما يرى أن إهانة الآثم تشمل ملكوت السماء بأكمله. يعود الفلاح إلى الظهور، الرجل القوي الذي اعتاد العنف: قبضته محكمة بشكلٍ خطير.

يزأر بصوتٍ شبيه بلهجة الكلام التي يستخدمها المجدفون الأشرار عندما يسيئون إلى الله:

(١) إلموتين: منشور ظهر في إسبانيا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كان كتابًا ساخرًا، مناهضًا لسلطة رجال الدين، ينتقد المحافظين، ويدافع عن وحدة الحزب الجمهوري. تألف في البداية من أربع صفحات فقط، تتضمن تعليقًا وقصيدة وبعض الأخبار الموجزة.

- مريم العذراء! الرب المقدس!

ولكن يكف عندما يتوقف المستهزئون، المتعاطفون مع هذا الغضب الذي يغيم نور عينيه، عن مثل هذا المزاح، حتى يلين الثائر، ويعود ليدعو كل مَنْ حوله بالإخوة.

يراه مالترانا أيضًا بالقرب من لوس كواترو كامينوس، وهو يدخل في محادثة مع حراس المكس، وهو يدخل مطاعم الوجبات الخفيفة للتحدث عن الله إلى أولئك الذين يشكلون دائرة حول طبق مُصران الدجاج المقلبي وزجاجة النبيذ أو إلى الأزواج الذين كانوا يمسك بعضهم بعضًا من الخصر، يرتاحون على مقعد، متعرقين لاهئين من اللفات التي قاموا بها للتو على إيقاع البيانو. قال مالترانا، مجيبًا على سؤاله:

- عملي يسير على ما يرام سيد ييشت. وأنت إلى أين تذهب؟
للدعوة؟

ابتسم الرجل المقدس، وكانت تغمز عيناه الرمصاتان بمكر بريء.
- ليس هناك حاجة للراحة سيد مالترانا. هذه الأيام بمثابة دليل لطف الرب. الذين أساءوا إلى اسمه المقدس في الحفلات المقنعة! الخطايا التي سيختبرون بها لطفه اللامتناهي! الآن هو الوقت المناسب: وقت التعب وخيبة الأمل.

ونظر نحو لوس كواترو كامينوس، كما لو أن في أحياء العمال البائسة أناسًا ماجنين يستترون ويقضون تلك الاحتفالات وسط عريضة.

أخبره إسيدرو أنه يجب أن يعود إلى وسط مدريد، إذا أراد أن يهدي مذبنين عظماء: في الضواحي لن يجد سوى التعساء الذين لا يمتلكون الخبز اللازم، بالكاد يفكرون في الأشياء المجنونة.

قال السيد بيثنت:

- في كل مكان يوجد خطأ بحاجة إلى النصيحة. كل شخص يختار مجاله حسب قوته. اللاهوتيون، الكهنة الحكماء، أناس خطيرو الشأن في الكنيسة، يعتنون بالفعل بالشعب الجليل؛ أنا قروي مسكين إلى الله أصدق بأفضل ما أستطيع، وأذهب إلى المتواضعين، إلى الوحيديين الذين يمكنهم فهمي. ومع ذلك، إذا استطعت أن ترى مدى صعوبة غزو بعض الأرواح بالنسبة إليّ! أربعة عشر عامًا قضيتها في جذب صانع أحذية إلى الطريق الصحيح، وهو أفضل من هديت. الوقت والكلام من دون فائدة! لكنني أقول خطأ: اخسر، لا... انتصر، لأنني أخيرًا أتيت به إلى حظيرة الرب. لقد كان واحدًا من المرعبين؛ رجل في روحه صدوع، يدنس أمور السماء.

يعيش في غرناطة في كانتون عندما كانت الثورة، وألقى القديسة العذراء من مذبحتها - هنا خلع السيد بيثنت قبعته وانحنى - أيضًا؛ لقد جعلته حَمَلًا، ومنذ شهر تقيّد بأخوية السر المقدس في أبرشيته. إنه أفضل مكاسب.

سأل إسيدرو:

- وكيف حال هاتين العينين؟

- كيف تريد أن يكون حالهما! سيء، سيء للغاية. أنا أختنق كثيرًا.
الآثمون يسببون لي كثيرًا من المتاعب.

نصحه مالترانا بالهدوء. صرخ السيد بيثنت متحمسًا:

- هل تعتقد أنه يمكنني أن أظل هادئًا؟ يحترق دمي عندما أسمع
أن أي بربري في وجودي يهين الله بقسم قدر. يشبه الأمر كما لو أنهم
أطلقوا النار في منتصف صدري. أفضل أن يقتلونني، أجل سيدي أن
يقتلونني قبل أن أسمع مثل هذا التجديف.

وعندما يقول هذا، يضرب صدره أو يفتح ذراعيه كأنه يعرض حياته
على الشاب، ويتوسل إليه أن يقتله. بعض المارة يصغرون خطواتهم
وينظرون إلى العجوز الذي يحرك ذراعيه ورجليه كأنه يتحدى أعداء
غير مرئيين. قال مالترانا:

- اهدأ يا سيد بيثنت. احذر؛ احفظ حياتك لتخدم ربك.

صرخ الورع ببعض الاحترام:

- لو أنهم جميعًا مثلك يا سيد مالترانا! أنت من الأنقياء، لا تعتقد
أنني لا أعرفك؛ أنت تعيش ناسيًا الله وأملك القديسة. لكنك متعلم ولا
تستهزئ بالأشياء المقدسة ولا تتفوه بالتجديف. أنت طيب، وسيأتي
اليوم الذي سيلمس فيه الله قلبك. لهذا السبب لا أقول لك شيئًا. ماذا
أقول لك، يا عصفور الرب المسكين، تقرأ وتعرف الكثير! لا أستطيع أن
أفعل أي شيء سوى الصلاة من أجل صحة روحك، وأعتقد أن أكثر من
جزء من صلاة المسيحية مخصصة لك. تنسى الرب لأن عملك يسير

على نحوٍ سيئٍ؛ لكن في يوم من الأيام ستشعر بآثار رحمته، وستتوب وتذكر ما قاله لك الأخ بيشن.

أراد مالترانا، لإضفاء الحيوية على انتظاره، أن يستبقي هذه الشخصية غريبة الأطوار، التي أظهرت رغبة في الماضي قدمًا نحو لوس كواترو كامينوس. قال لإطالة المحادثة:

- كنت جنديًا، أليس كذلك؟

- نعم سيدي؛ كنت رجلًا عسكريًا. كان كذلك القديسون الآخرون.

ولما تذكر أيامه كجندي، نبضت في كلماته بعض الكبرياء. نفس الرضى المتشامخ الذي تُظهره الكنيسة عندما تقول إن عددًا من قديسيها كانوا في السابق رجال سيف.

- ألم أخبرك في مناسبةٍ أخرى صديقي السيد إسيديرو؟ كنت عسكريًا وكنت في ذلك القتال في ألكوليا^(١)، ولكن بجوار الأشرار. أنت تعرف ما هو الانضباط. كنت عريفًا في قادش؛ استغاثوا واضطرت إلى الانطلاق خلف المتأمرين، وإطلاق النار على الدين، الملكة وكل شيء قديم وخير. إنها أعظم خطيئة في حياتي؛ لكن الله سيغفر لي؛ لأنني كنت مضطراً وليس لدي نية الإساءة إليه... ثم تركت الخدمة وكرست نفسي للأشياء المقدسة.

- ولماذا لم تصبح راهبًا؟

- كانت لدي الرغبة يا سيد مالترانا. أصر ماركيز - وهو عقيد سابق

(١) ألكوليا: بلدة تقع شرق مدينة غرناطة.

كان يرأسني وشخص متدين للغاية- أن يقبلوني في دير؛ لكنهم لم يرغبوا في أخذي. ليس لديّ مزايا كافية لارتداء هذا الثوب.

قال ذلك خافضاً رأسه، منكمشاً لإظهار تواضعه بشكل أفضل. فكر الشاب أن الرهبان تملكهم الخوف من تمجيد السيد بيثنت، مدركين أن جنونه المقدس كثير الطوف، لا يمكن أن يبقى في الدير. وتابع:

-لكنني أعيش الشيء نفسه، كأني أنتمي إلى نظام. لديّ قاعدتي. كتب إليّ كاهن على ورقة ما يجب أن أفعله في جميع الأوقات، وأنا أتبع تعليماته، وأنا أتألم من استياء الرب. توصي القاعدة بالمشي، والمشي لمسافات طويلة، بضع ساعات من التمرين دون التفكير في الأمور المقدسة. قام كاهن آخر بإصلاح الورقة الأولى، وأمرني بالمزيد من ساعات المشي؛ مساء كل يوم في الحقل. يقولون إنني إذا لم أفعل ذلك بهذه الطريقة، فقد يختل رأسي وسيمنحني الشيطان الشهادة بفتنته الفاسدة. أنا أطيع.. كل مساء أخرج إلى الحقل؛ كل يوم إلى مكان في الضواحي. لقد دُرت مدريد حوالي عشرين مرة. لا يوجد طفل أو امرأة في الجوار لا تعرف الأخ بيثنت. الطوابع التي وزعتها! أمشي من أجل الطاعة. أتحدث مع الطيور، والكلاب، وكل وحوش الله الطيبة التي ترافقني في الطريق؛ لكن هل توقفت عن التفكير في الأمور المقدسة؟ لا أستطيع... لا أستطيع! وأنا أخطئ بالعصيان.

كان السيد بيثنت غاضباً من استحالة نسيان شؤون الروح وعظمة السماء لبعض لحظات.

- يقولون إنني أفكر كثيراً يا سيد مالترانا، وربما يكونون على حق.

هناك ليالٍ يبدو فيها أن رأسي يغلي، ولا أستطع النوم. يعذبني الشر بصور حقيرة. يقول السادة الكهنة أفاضل المؤتمرات إنني أكل قليلاً، وعليّ أن أنتبه أكثر إلى جسدي... لا؛ كان هناك قديسون مشهورون أكلوا أقل من طائر، وأنا يا سيدي هناك أيام لا أصوم فيها وأنفق ريالاً أو أكثر على طعامي. تمنحني السيدات الصالحات اللواتي يرعينني المال وعدداً من البدلات، يوصيني أن أعتني بنفسي، وأقول نعم لكل شيء، لكنني أهدي أفضل صدقاتهن للفقراء الذين يعيشون في الخطيئة، لنرى إذا كانوا بهذه الطريقة يلينون ويتوبون. بصفتي دنيوياً، أحاول جعل نفسي نظيفاً ولائقاً: أعتقد أنني أقوم بعمل جيد.

عندما قال هذا، نظر إلى نفسه من قدميه حتى صدره. انتبه مالترانا إلى قميصه القماشي الخشن، والياقة تطل من فوق عدة لفات من ربطة عنق داكنة. تتحرك النقطة السوداء والنشطة للطفيلي بين حافة القماش وجلد رقبته الضارب إلى الحمرة.

تابع الورع ببعض الفخر:

- لا أحتاج إلى أكثر من ريالٍ لأعيش. لم أشتري صحيفة مطلقاً، ولا أعرف كيف يكون الحال عندما يكون لديّ علبة أعواد ثقاب. أذهب إلى الفراش في الظلام؛ أما بالنسبة للأوراق البالية، فلا يهمني شيء على الإطلاق، أكون ملعوناً لو هممتني السياسة. في هذا الوقت لا أعرف من يحكم إسبانيا. لا يهم إذا كان أحدهم أو الآخر. كلهم متماثلون: حكام، متلاعبون وراقصون؛ وهذه السياسة تافهات، أكاذيب، خرافات وحماقات.

تملك التقى الحماس عندما تكلم. يقول كلامه على عجل؛ يحني رأسه، كما لو أن دقائق حديثه تُسحب منه.

- الليبرالية، سيد مالترانا، وكل ما يتعلق بالتقدم والثورات تتلخص في بضع كلمات؛ ما أعنيه: «القتل، السرقة وعدم أذية أحد...» يقتلون الروح، يسرقونها من الله، ثم يقولون إنهم لا يضرّون أحدًا... الحرية! يلاحق الناس خرافاتهم، التي تُرضي الحيوان الذي نحمله جميعاً في داخلنا ويريد البقاء كما يحلو له. لكن الإنسان شرير ويحتاج إلى تأديب جيد. دعهم يتركوا الرجل في حرية كاملة، وسنرى الهمجية.

كان مالترانا، الذي تسلى بهذا الحديث، يتظاهر بالموافقة على كل شيء بإيماءات رأسه.

- لقد قرأت كثيرًا، سيد بيثنت.

- لا شيء - سيد مالترانا - أنا علماني. ليس لديّ القدرة على فهم أعمال اللاهوت. علاوة على ذلك، هاتان العينان ليستا للقراءة... لكن لديّ الكثير من الكتب، كثيرة جدًا: لا تسعها ثلاث عربات. أنا أنفق كل أموالني عليها. يعرفني بائعو الكتب الرخيصة في مدريد بأسرها، وبمجرد أن يقع عمل قديم عن علم اللاهوت الأخلاقي، عن الشرائع وسير القديسين، مربوط جيدًا في الرّق، يضعونه جانبًا، قائلين: «للأخ بيثنت». مهما كلفتنى الكتب! يمكن أن أعيش في عُلية أو أن أكون ضيفًا على عائلة مسيحية؛ لكن لديّ الكتب، التي هي عائلتي، وأنا أدفع ربع ثمانية دورو حتى تستقر بشكل جيد. ليس لديّ كراسي، ليس لديّ سرير، لا أشعل الضوء، أنام على الأرض على خيشة؛ لكن الأعمال على

رفوفها، جميلة ونظيفة فقد تكون أعمال المعهد اللاهوتي أو الأسقفية. إنها عيبي، إنها ضعفي، سعادتني الخاطئة. يبدو لي أنهم يُنشئون حديقة، حديقة الحكمة الأبدية. كل كتاب هو زهرة، يعطره الغني بالرق والغبار. لم أقرأ أكثر من القليل عن سانتا تيريزا والقليل عن سان خوان دي لا كروث. ولكن إذا كرمتني في يوم من الأيام بزيارتك، فسترى نسخة من الخلاصة^(١) في مجلدات كثيرة، كثيرة! وأنت -الذي اعتدت أكثر على الدراسة- ستقضي وقتاً ساحراً. لا أستطيع؛ تتشوش أفكاري، يدور رأسي بمجرد أن أقرأ أشياء عميقة. أنا حيوان صغير فقير إلى الله، ولديّ موهبة أقل من الأخت النملة التي تمر بالقرب من قدمي.

نظر الورع إلى حذائه وأضاف:

- إنهم ينتظرونني في بيايستاس سيد مالترانا. أحمل ثلاثة ريات في جيبي وبعض القصاصات لأرملة ما. المسكينة في حالٍ سيئ جداً؛ لديها كتبية من الصبية الصغار. أنت تعرف -سيد إسيدرو- أين أعيش. لنرى إذا كنت ستشرفني ذات يوم بحضورك وتزور حديقتي. ليس عليك إلا أن تسأل عن السيد بيثنت، دون بيثنت أو الأخ بيثنت، أيّاً كان ما تريده، فهم ينادونني بكل هذه الطرق... أتمنى أن تسير أعمالك على ما يرام. عليّ فقط أن أقدم إليك نصيحة؛ لأنني أحبك. اجعل داخلك إيماناً كبيراً برنا يسوع المسيح، وبأمة القديسة مريم، وفي شفيعنا القدير

(١) الخلاصة: هو نوع أدبي كُتب باللاتينية ظهر في نهاية القرن الثاني عشر وتطور في القرن الثالث عشر وما بعده. وهو نوع من الموسوعات التي طورت موضوعاً أو تخصصاً مثل القانون واللاهوت والفلسفة خاصة.

القديس خوسيه، وبهذه المساعدات، صدق أن كل شيء سيكون جيداً بالنسبة لك، وإذا لم يكن هكذا على الأرض، فسيكون في السماء... عمت مساءً سيد مالترانا.

قال هذا على عجل، مثل صلاة قصيرة محفوظة عن ظهر قلب، ورفع يده إلى قبعته وكشف للحظة عن جمجمته الحليقة المدببة الضيقة ذات الأذنين البارزتين. ثم ابتعد كأنه لم يستطع تهدئة التعالي الذي استيقظ داخله بسهولة عندما ذكر رُعاته السماويين.

تابع مالترانا الشخصية الممتعة لفترة طويلة، سبب فرح الخادmates في الساحات الصغيرة والعاطلين الذين يتجمعون في الحانات والأروقة المسقوفة.

قال إسيدرو في نفسه: «وأظن - لو وُلد قبل قرنين من الزمان - لكان لدينا قديس بيشنْت آخر!».

سرعان ما نسي الشاب صديقه المبدع. وقد بدأت النساء في مغادرة مصنع القبعات. رأى مالترانا فلي تتوقف عند المدخل وتُنظر إليه من زاوية عينها، كأنها على علم بوجوده لرؤيته من نوافذ المصنع.

سارت الفتاة صعوداً، وهي حريصة على عدم اختلاطها بالأخريات من العمل وعدم انتظارها لرفيقتها التي تصل معها كل صباح إلى الورشة. خرج مالترانا لمقابلتها. التحية الخجولة إلى حد ما كافية لكي تبسم فلي، متناسية كل النوايا الجادة التي صاغتها عندما رآته. احمر خذاها عندما تذكرت ما حدث مساء يوم الكرنفال.

بدأ إسيدرو يتحدث معها بتأثر. منذ أن اعترفت الفتاة بعاطفتها، لم يستطع التفكير فيها بنفس اللا مبالاة التي كان عليها عندما كانت فقط ابنة رفيقه موسكو، وكان يأكل ألوان الطبخ الشهيرة دون الالتفات إلى نظراتها.

أعادت ذكرى حظه الطيب، ذكرى الكتاب الذي كلفه به الماركيز خيمينث والذي بدا له أنه الإعلان الأول عن الثروة، ثقته بنفسه كرجلٍ متفوق.

- فلي، كنت في انتظارك لأنني بحاجة إلى التحدث معك؛ إذ إنني أرغب في أن نتكلم دون عجلة. يجب أن أخبرك أمورًا مهمة.

اجتازا الشارع وخرجا منه، ودون أن يدركا ما يفعلانه، دخلا إلى الحقول، يتبعان حدود المستودع الثالث، باتجاه مقبرة سان مارتين، التي ترتفع في عمقها كتلة أشجار السرو.

حاولت الفتاة التوقف. إلى أين هما ذاهبان هناك؟ لكن إسيدرو دفعها برفق.

- تقدمي؛ تعالي معي، أنا أحترمك وأنا رجل نبيل. لن نسير في الشارع حيث يعرفنا الكثيرون: سيكون من المستحيل بالنسبة لنا التحدث.

اتبعا طريقًا عبر الأراضي المزروعة، مُسَوِّدًا بسبب تراب الفحم من مصنع قريب. أكمل الشاب:

- فلي، يجب علينا التحدث. بعد مساء اليوم التالي في كانيو

دورادو، كنت بحاجة للتحدث حول الأمور التي أخبرتني بها... لم تسمح لي صديقاتك. إلى جانب ذلك، كنت تبكين كمن ستموت.

صاحت الفتاة، واصطبغ خذاها باللون الأحمر:

- لكنني لم أقل شيئاً! وإذا قلت شيئاً، فلا أتذكره. لم أعرف ما الذي أتحدث به. كنت في حالة سُكرٍ.

اقرب إسيدرو أكثر، وهو يلصق أحد جانبي جسده بجسدِ فلي، شاعراً بصلابة جسدها المرن، ونعومتها الدافئة من خلال الشال والتنورة الرقيقة.

- مهلاً فلي، دعينا لا نكون سخيفين. لماذا نناق ونغازل، كما لو كان أحدهنا يرى الآخر الآن لأول مرة؟ أنا أحبك؛ أنتِ تحبينني؛ كلانا يحب الآخر. يبدو لي أن هذا أبسط! لا يوجد فرق آخر بيننا، غير أنك -كامرأة- أكثر ذكاءً في أمور الحب، وقد اكتشفت الحقيقة قبل حين. أنا أحمق واحتجت أن تأتي وتخبريني بذلك، كما لو كنت آنسة سخيفة. باختصار: فلي، جميلتي، أنا أحبك... وأنتِ؟

لم ترد الفتاة بالكلمات. خفضت عينيها، وأحنت رأسها برفق في إشارة بالرضى.

وضع مالترانا ذراعاً تحت الشال والتصق بالفتاة. وهكذا ملتصقاً جداً، قريباً جداً. هذه الضغطة الصامتة، هذه اللمسة غير المرئية تساوي أكثر من كل الكلمات.

يمشيان ببطء، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر، كما لو أن كل انتباههما وحرارة حياتهما مركزة في ذراعيهما، اللذين يضغطان على بعضهما مع لمسة مرتجفة، مما أربك الخفقان في عروقهما.

يعتقد مالترانا أنه يمشي في منتصف ضباب يخفي الأشياء، فجعل الأرض مرنة، وأعطى خطواته خفة خارقة للطبيعة.

كان عطراً غريباً، ناعماً بشكلٍ مُسكر، يداعب أنفه. بدا له مستحيلاً أن تكون رائحة فتاة نشأت في لاس كارولinas بين قمامة القرية طيبة. تخرج من شعرها الأسود الممشط من دون اعتناء، بإهمال لطيف؛ من جسدها الرشيق، ورفرفة تنانيرها. لقد كان عطراً خارقاً للطبيعة لا يمكن شراؤه بالتأكيد من أي متجر عطور، والذي ربما كان وهمًا من الخيال، لكنه أفقده رشده مثل أقوى أنواع النبيذ. ولا امرأة، عندما تمر بالقرب من مالترانا، تفوح منها رائحة مثل هذه. يعلم الشاب الآن أنه الحب وخداعه اللطيف.

رأيا رجلاً عجوزاً ذا وجهٍ عابس يتجه نحوهما مع عكاز في ذراعه، كان أحد حراس المكس يتنزه. افترق الاثنان غريزياً، وفكا ذراعيهما. أخرجهما هذه المفاجأة من غفوتهما الحلوة. عاد مالترانا -المتأثر بشكلٍ أقل، كما كان يقول- إلى الواقع.

تلك الأخبار المهمة جداً التي أراد إيصالها إلى فلي كانت، ببساطة، الوظيفة الجديدة التي سيضطلع بها، المال الذي جاء بشكلٍ غير متوقع، مما دفعه إلى الفرح بجنون، كما لو أنه ضمن رفاهيته لبقية حياته.

- أنتِ جلبتِ إليَّ الحظ الجيد يا فلي. سأصبح ثريًا؛ بمعنى سنصبح ثريين.

وبما أن الفتاة أرادت أن تعرف ما الثروة الكبيرة، اضطر إسيدرو إلى أن يشرح ببعض التردد.

- أثرياء على الفور، ما يُطلق عليهم أثرياء، لن نكون كذلك. لن يمنحوني أكثر من ثلاثة آلاف ريال. لكن هذا أفضل من لا شيء، وبعدها ستأتي أخرى. ما يهم هو إيجاد الطريق، وأنا على الطريق بالفعل... هل تعرفين لماذا كنت أعمى يا فلي؟ لماذا لم ألاحظ شخصك الصغير اللطيف جدًّا؟ لأنني حتى اليوم كنت متسولًا، بلا منزل، بدون بيزيتا واحدة، أنام بقليل من الصدقات. كيف أفكر في امرأة لأقترح عليها أن تشاركني بؤسي؟

أراد مالترانا التحدث عن الفقر الذي يُعاني منه حتى ذلك الحين، لكن الفتاة قاطعته. كان فقيرًا، فماذا في ذلك؟ تعرف هذا فعلاً. في كثير من الأحيان، تلاحظ الشره الذي يأكل به في منزل والدها، والذي يكشف عن عوز مؤلم. لكنه كان جيدًا، كان حكيماً، وبالنسبة لها كان الرجل الأكثر وسامة في العالم.

صاح إسيدرو واضعًا ذراعه تحت الشال مرةً أخرى:

- ساخرة! هل تريدان أن تهزئي بي؟

تابعت الفتاة ببساطة:

- أقول ما أشعر به، الأكثر وسامة في مدريد. لكن لا تفخر بهذا يا

سيدي.

لقد وقعت في الحب دون أن تعرف كيف. يتحدث والدها إليها بإعجاب عن الرجال العظماء المنتقص من قدرهم الذين يتعامل معهم وقت عمله بالمطبعة. عندما ظهر مالترانا، اعتقدت أنه أحد تلك الكائنات الذين يبدون -في كوخ المخرب- كأنصاف آلهة.

كانت ماريبوسا تتحدث عن حفيدها إلى الحي بأكمله، وتفاءلت أنهم في يوم من الأيام سيرونه بين الشخصيات النافذة؛ أدرك موسكو في إسيدرو موهبة تقترب من موهبة نماذجه العظيمة؛ وأعرب السيد مانولو الفدرالي عن أسفه، من وراء ظهره؛ لأن صبيًا بهذه الجدارة لم يُسجل في تعداد الحزب. وبسبب هذه الإطراءات، تنظر فلي إليه بإعجاب متزايد، واستمعت لساعات كاملة من شفثيه إلى أمورٍ لم تكن تفهمها، لكنها بدت في أذنها مثل الموسيقى السماوية.

من وقتٍ لآخر، في سور الكلمات غير المفهومة، انفتح مَرْق، نافذة كبيرة، تتأمل من خلالها الفتاة سماء جديدة، وشمس أخرى، وعالم خارق للطبيعة يسكنه فقط كائنات مثل إسيدرو. عندما تلا الأخير أبيات في نهاية وجباته الخفيفة مع موسكو، عندما يتحدث عن هؤلاء الكتاب العظماء الذين عاشوا في الخارج مع تكريمات الأمير، يرتجف قلب فلي المسكينة، وتشعر أن ساقها تنثنيان، وعلى وشك البكاء، كما لو كانت في حضور دينٍ جديد.

بدأت تقضي الليالي في حُلْم مستمر، تراه هو، دائمًا هو، جميلًا كملاك، يُذهل الرجال بعظمته؛ ويكون أكثر غرابة في اليوم التالي، وهي تتأمل حقيقته، فلا تجده كما كان هو، بل مزينًا بنفس روعة الرؤية الليلية. صاح مالترانا:

- أنتِ أيضًا! أنتِ أيضًا تحلمين!

ثم تحدثت فلي بحزنٍ عن الشكوك التي تعذبها. كان إسيدرو أعلى من أن ينزل إليها، الفتاة المسكينة ابنة مخرب والتي تعيش بين بائسي النباش. في كل مرة يصل فيها شاحبًا من الجوع، باحثًا عن غداء موسكو ووجباته الخفيفة، تشعر بالبهجة. تنكب على الطبخ، واضعة كل أحاسيسها في صحن الأرناب. لقد حمدت حرمان الحياة البوهيمية هذا، كتدخل من العناية الإلهية يقرب المحبوب، ويمنحها أملًا جديدًا. ولكن بعد ذلك تمر فترات طويلة دون أن تراه. كان في مدريد... في مدريد! تكرر الفتاة الكلمة بشيءٍ من الغضب، كأنها تستحضر عالمًا مجهولًا مليئًا بالإغراءات. لا بد أن إسيدرو لديه هناك نساء جميلات للغاية؛ بالتأكيد كان صديقًا للممثلات، مثل كل من يكتب في الجرائد. الليالي التي تقضيها وهي تن من اليأس معتقدة أن أوهاها ضاعت!

تقول فلي البريئة هذا، وهي لا تزال ترتجف من الخوف، كأن ليس لديها ضمان لامتلاك إسيدرو، كأنها تخشى أن تفتنه تلك الإغراءات التي تبلغ فيها مع أهمية كبيرة. ضحك مالترانا على بساطة الفتاة. روح ساذجة ومرتجفة! لو عرفت حقيقة حياته! افترضت أنه يمرح بين الممثلات والمغنيات العظيمات، في الوقت الذي يتضور جوعًا، يفكر في حلة صالة التحرير الداعمة! الاعتقاد بأنه مفضل عند النساء، مُطارِد منهن، عندما يسخر حتى الرجال من قُبْح هوْمروس المسكين الجسدي ويؤذونه بنكاتهم!

سببت كلمات الشابة -دون علمها- مفارقة قاسية. واصل مالترانا

الضحك من براءة فلي عندما أخبرته بإيماءة عابسة:

- انتهى الطيش، أليس كذلك؟ ستحبني فقط: لن تكثرث بالسيدات.
لأنني أحذرك -أيها الشاب- من أنني غيورة جدًا، وإذا فعلت بي واحدة
من ألاعيك -أيها الوغد الكبير- سأجعلك تدفع ثمنها... حسنًا،
ستدفع ثمنها!

لقد دخلا الطريق القديم المؤدي من مدريد إلى بطريكية سان
مارتين. عند حلول المساء، ينزل المتسولون من الضواحي عبر هذا
الطريق؛ لجمع الحساء من مأوى سان برناردينو.

وصل الشابان إلى حديقة الزهور الممتدة أمام البطريكية. بدت
خطواتهما -وهي تطقطق الرمال- هائلة بسبب الصمت. بين الحين
والآخر يُسمع صياح طائر وترتجف أوراق الشجر مع رفرفة غير مرئية.

شعرت فلي -التي ترى دائمًا هذه المقبرة من بعيد- بقلق بالغ عندما
تقترب منها. بين فروع الشجر وبين حديد الحاجز الشبكي يمكنك رؤية
بياض رخام المدافن. ارتعشت ذراع الفتاة مع القلق، ضاغطة على ذراع
صديقها. هتف مالترانا:

- سخيقة! أليست هذه حديقة! آخر جثة دفنوها جثة راعيتي، وقبل
إحضار جثتها مرت سنوات كثيرة دون دفن... هذا جميل للغاية: إنه
يجعل المرء يفكر في الحب أكثر من الموت.

من حديقة الزهور، تتأمل الشابة واجهة المقبرة: جناحان بلونٍ وردي
متصلان بصف أعمدة مزدوج من نفس اللون المبهج. في أحد الأجنحة

الكنيسة الصغيرة، مغلقة لسنواتٍ عديدة، مع برج أجراس حديدي على السطح، يتدلى منه جرسان مغطيان بالصدأ. الجناح المقابل بمثابة غرفة بواب، وفي نافذة نصف دائرية كانت أُصص الزهور منسقة تحت ستارة متدرجة في ألوانها المبهجة التي تسبب النسيم في تموجها.

يُغلق الحاجز الشبكي صف الأعمدة، ومن خلال حديدته يمكن رؤية المقبرة بأكملها مثل حديقة وارفة. واصطفت أشجار السرو، الممشوقة والأنيقة، على طول الطرقات. في الفراغ بين جذوعها جُمعت شجيرات الورد الطويلة ذات الشيوخوخة الجميلة. لفت النباتات المتسلقة تموجاتها الخضراء حول أعمدة الأديرة، لتصل إلى الأقواس التي على شكل حدوة الحصان. تبدو الأضرحة والصور المسجاة والملائكة الرخامية وسط الحوض النباتي الكثيف كتماثيل الحديدية.

كان مالترانا - كلما رأى هذه المقبرة من بعيد، حيث تبرز في السماء الأسطح المستديرة لأجنحتها، صف الأعمدة والنباتات الهيلينية لأشجار السرو الرشيقة - يفكر في أكروبول^(١) كلاسيكي لتلك التي كانت حصناً، مكاناً مقدساً ومنتزهاً في نفس الوقت.

الهدوء اللطيف - الذي قطعتَه ضجة أوراق الشجر وزقزقة الطيور البطيئة - بدد قلق فلي. قال حبيبها:

- لندخل. هذه مقبرة خيالية. حديقة لا مثيل لها في مدريد.

شعر الزوجان المحبان بالانجذاب للصمت الشعري من هذه الزاوية المنسية.

(١) أكروبول: القسم الأعلى المحصن من المدن اليونانية القديمة.

عند صف الأعمدة رأيا امرأة عجوزًا تحيك، وبجانبها رجلًا كبيرًا،
ركز نظراته الفاحصة على الشابين. قال:

- هل أنتما قادمان من أجل قريب؟

أجاب مالترانا بحزم مَن يقول الحقيقة:

- لديّ أفضل مَن في عائلتي هنا.

لم يبدُ الحارس راضيًا. سأل مرة أخرى:

- ألم تأتيا للرسم؟ لأن الرسم يحتاج إلى إذن.

ابتسم إسيدرو، ورمى طرفي كابه. رسم! يا له من سؤال! أين
سأخفي الألوان واللوحة؟

دخل الشaban -بعد دمدمة موافقة من البواب- إلى البطيركية
وهما يعلقان على أسئلة الأخير الغريبة بضحك بدا كأنه يُفرح الصمت
الجنائزي.

أراد مالترانا أن ترى فلي قبر راعيته، وغادر الاثنان الطريق المركزي
لينزلا سُلماً صغيراً على شكل نفق إلى فناء مجاور.

في هذا المستطيل -وهو منخفض أكثر بكثير من وسط المقبرة- لم
يريا أشجاراً أو حوضاً. احتل الموت الأرض بالكامل. القبور مطوقة
بين أروقة الدير.

زخرف الإهمال هذه الزاوية بشعرٍ مؤلم. الشواهد العظيمة مقوسة
بفعل الزمن والمطر، مع النقوش المطموسة. والنباتات الطفيلية -التي
تنمو بين قطع الرخام- تجعلها تبرز، وهي تفصلها بالدفعات الحيوية

لجذورها. التيجان -المتدلية من صلبان حديدية صدئة- ضاعت أزهارها وطلاؤها الذهبي الخالد أطواقًا من القش الأسود المتعفن، محتفظة في جزيئاتها بسرب من الحشرات.

أثارت خطوات الشابين دوي التجاويف الحافلة بالعظام؛ في كل مكان، على الأرض وعلى الجدران، الإحساس بالفراغ، التكرار اللانهائي لأقل ضوضاء، صمت الموت.

توقف مالترانا أمام مدفن. هناك ملاكه الصالح الذي يُطلق عليه مجازاً «السيدة». تذكر -وهو يتحرك- كلمات العجوز الطيبة عندما وعدته أن تجد له زوجة تسعده. أيتها السيدة، الرفيقة كانت هناك: جاءت لتحيتها، ممتنة لما فعلته معه. لم تكن ثرية، ربما لم تكن مسيحية جيدة، كما كانت تتمنى أن تكون؛ لكنها ستجمل حياته، وتشجعه على اتباع ذلك الطريق الوعر الذي تركته فيه يدها الحامية، عاجزة بسبب الموت.

عندما خرجا من الساحة الجنائزية، بدا لهما الشارع المركزي للمقبرة أكثر جمالاً. تطرد الحديقة -بجمالها الحزين- كل أفكار الموت بعيداً. كانت مختلفة عن الساحات القريبة المليئة بالبحث. بدت مقابرها المتناثرة كأنها آثار مزخرفة، وُضعت هناك دون أي هدف آخر سوى تغيير رتبة النباتات الخضراء. لقد كانت قبور الأثرياء -ذوو الامتياز- الذين حتى بعد موتهم بدوا محافظين على سكينه السعداء. تسطع أسماء الوزراء القدامى، والجنرالات، والدوقات المشهورات من أجل مكانتهم، على أوجه هذه الألاعب الرخامية الضخمة.

تحرك الفراشات الأولى أجنحتها فوق شجيرات الورد، التي بدأ

موسم جفافها الشتوي في التزايد بسبب البراعم الرقيقة. تطن الحشرات في محيط المساء الذهبي؛ تنشق الأرض لتُفسح المجال للنباتات البرية، للتشابك الأخضر، الذي يشبه شعر الربيع وهو ييزغ ببطء من الأرض. يرج النمل الأرض، ويُعلي أهرامات بجوار نفق مسكنهم، ويجتاز في السواقي السوداء رفوفها، وتدور تحت العشب المعتم ملاحم من المعارك، الغزوات والأعمال الخارقة. ترفرف الطيور السوداء من شجرة سرو إلى شجرة سرو، وهي تخترق الصمت بصفيرها. كانت طيور الشحرور السوداء وطيور أبي قلنسوة المختبئة في غابة البطيريركية، الملجأ الوحيد لأوراق الشجر وسط التلال المقفرة.

ثلاثة أطفال في بلوزات بيضاء، متوردون وممتلئو الخدود مثل الملائكة، ثلاثة صغار من عائلة البواب أو من أحد البيوت الصغيرة القريبة، يمزحون جالسين القرفصاء على العشب، يعبثون في عش النمل ويرمون الحجارة على الطيور، التي بالكاد تحرك أجنتها. تأملتهم فلي بعينين محبتين؛ تشعر برغبة في عناقهم، وأن تقبل أنوفهم الوردية القذرة، كأنهم صورة لحياة منتصرة، وهي تغزو ركن النسيان.

تحدث مالترانا إلى فلي، تحت تأثير هذه البيئة الحزينة والحلوة، عن أفكاره. يحب مقبرة سان مارتين، بنباتاتها المهمهمة في الحديقة المهجورة؛ لأنها تعرض جمال الموت كما يتصوره.

لم يكن الموت هيكلاً عظيماً لضحكة هزلية وشقليات غريبة الشكل، والذي يمثله الفن البربري للعصور الوسطى في رعبهم من الجسد. كانت سيدة عظيمة ذات جمال حزين، شاحبة، شاحبة للغاية،

ذات بشرة غير لامعة تبدو أنها تمتص الحياة من الهواء، دون أن تترك لمعاناً أو عُصارة على سطحها؛ بعينين سوداوين، حادتين، جليدتين، عميقتين، تجمعان ضوء الفضاء دون أن تُرجع أدنى بريق. سيدة مهيبة ذات وركين قويتين، ولدت الحياة في أحشائها من جديد؛ من ثديين قويين وضخمين، منتفخين دائماً من الحليب الكثيف والمر. تتشبث الذكرى بأحد الثديين، وهي تئن عند تذوق سائل المرارة. وبالأخر النسيان، حيث تمتصه مغلقةً عينها رغبةً في النوم. تصمت الطيور أثناء مرورها، تذبل الأزهار، تسقط الكائنات المتحركة على الأرض، ويسود الصمت. تجعل قدمها - غير المرئيتين تحت الرداء الحريري المموج - الأرض ترتجف كأنها ترتدي حذاء كوثرن^(١) حديدياً. ولكن بمجرد مرورها، يُبعث كل شيء من ورائها ثانيةً، تقريباً على حواف حجابها الجنائزي: تتعش الزهور بقوة جديدة، وتزغرد طيورٌ أخرى، ومن الغبار حيث سقطت العجائز، عديمو النفع والضعفاء ينهضون مرةً أخرى، وتغير هيئتهم إلى الشباب. كانت سماد الحياة، المنجل الذي يحصد المرج حتى ينبعث ثانيةً بقوة أكبر. يعرفها مالتراننا: لقد رآها تمر أمام عينيه، بكل روعتها الكثيبة، التي أثارها أسمى تبجيل فني. أخرجها فاجتر من ظلمات ما هو غامض، وجعلها تسير بين الألحان الخطيرة التي كانت صدى لآلام الإنسان. تأملها مالتراننا مرتين مغمضاً عينيه، ببشرتها الشاحبة، وعينيها السوداوين الباردتين اللتين تلمعان نحو

(١) حذاء كوثرن: حذاء خاص بالممثلين في روما القديمة. وهو مصنوع من الفلين عالي النعل يتم تثبيته بواسطة أحزمة جلدية أو مواد أخرى مستخدمة في هذه الفترة.

الداخل، ووركي المبدعة الخالدة، وثدييها المريريين: عندما يتحدث
سيجموند^(١) الهمجي إلى الفالكيري^(٢) التي أخبره بموتها؛ عندما
تتلوى إيزيو اليائسة من الألم وتنتف شعرها، الذي تحركه ربح البحر،
أمام جثة تريستان^(٣).

كانت هي، الحقيقية، الوحيدة، التي تُلهم الخوف والسلوان؛
الجمال الحزين الذي لم يذبل أبداً؛ سيدة العالم الشاحبة؛ الغادة الحساء
التي تصل في الوقت المحدد للموعد بقُبلّة النسيان والسلام، مع أعلى
تشنج لفقدان الحس والإعياء.

تستمع فلي إلى صديقها وعيناه تتسعان دهشةً، وتكافح من أجل
فهمه. همهمت وهي تداعبه بنظرتها:

- كم تعرف يا إسيديرو! لهذا السبب أحبك كثيراً؛ لأنك تقول أشياء
لطيفةً.

ضحك مالترانا من بساطة الفتاة، وشعر بالإطراء في نفس الوقت
من إعجابها. كاد أن يندم على ما قاله: كانت حماقات؛ تحدث معها
كأنها رفيق أراد أن يزعجه بمفارقاته. أمسكا بذراع بعضهما مرةً أخرى،
وقاد مالترانا الشابة إلى ممر من الكوى في أعماق المقبرة.

(١) سيجموند: هو أحد أبطال ملحمة فولسِنجا في الميثولوجيا الاسكندنافية.

(٢) الفالكيري: في الميثولوجيا النوردية هي واحدة من مجموعة ربّات يخترن المقتولين في
المعركة، ويأخذن من ماتوا بشجاعة منهم إلى قاعة الأبطال في مكان يُسمّى فالهالا حيث
ينضمون إلى معبودهم أودين كبير الآلهة.

(٣) أسطورة تريستان وإيزيو: واحدة من أجمل أساطير العصور الوسطى تتحدث عن الحب
والموت، بطلاها شاب يُدعى تريستان وأميرة آيرلندية تُدعى إيزيو.

- أريد أن أريك كيف ينتهي الأمر بالرجال الموهوبين، وكيف يستريح من كانوا في الحياة متملقين ومتعصبين... انظري.

وبعد بحث سريع بعينه، أشار إليها إلى الكوة الأكثر بؤساً على الإطلاق. كان مدخلها بالكاد مغطى بقماشٍ مشمع، منزوعة أطرافه؛ خِرقة سوداء بأحرف صفراء مطموسة. قرأت فلي ببعض الصعوبة: «أباريسي وجيخارو». تابع إسيدرو:

- هذا الرجل كان مشهوراً في حياته. ألقى خطابات في المجلس استمرت عدة جلسات. كان الكهنة في كل إسبانيا، المتعبدون والنساء ينتظرون بفارغ الصبر الصحف ليقرأوا له. والآن انظري إليه: أي حارس حانة لديه سكن أفضل بعد الموت... لقد كان شاعراً وحالماً؛ والشعراء -لا أدري لماذا- سيئو الحظ في السياسة... لا أو من به؛ لكنني أشفق عليه وأدافع عنه لأجل روح الجماعة. هذا النسيان يُعزّي منا الذين يعملون بلا أمل تحت المظلة المقابلة، وهي مظلة الفقراء، الرعاع.

واصل مالترانا الحديث بنبرة غضب. إما أن يكون ملك ذلك الخطيب السياسي قادراً على إصلاح مقبرته؛ وإما كان ممثلو التقاليد يتذكرون القليل عن الفنان العظيم الذي أثارهم بترانيمه الخطابية. كان من السخرية المشينة الاستشهاد باسمه في جميع الأوقات، كمجد وعلم للتطلعات نحو الماضي، بينما ظلت بقاياه في زاوية، دون أدنى علامة تكريم، مثل بقايا رجل مر في الحياة دون ضوضاء ودون تأثيرات.

تتهجى فلي الكتابة المحفورة بالقلم الرصاص التي سودت الجص

حول الكوة. كانت أبيات غير منطقية وبسيطة تكريرًا لـ «شيشرون»^(١) الإسباني، «بطل الإيمان والتقاليد»؛ شهادات حماسية من بعض الرهبان الضّعاف، الذين عندما قَدِموا إلى مدريد، لم يرغبوا في العودة إلى قُراهم دون رؤية قبر رجلهم العظيم.

بدا القماش المشمع الساقط ضاحكًا بتجاعيده من هذا المديح، الذي بدا زائفًا في هذا الإهمال.

فحص مالترانا التوقيعات.

- كلها ترجع إلى الرعاع: رهبان فقراء، رجال حرب مغترين؛ أوباش، ترجع إلى مَنْ لهم قلب.

ذلك الحالم بِلِفانتي، الفنان المخدوع، كان له قلب أيضًا، ولهذا يرقد في النسيان.

تابع مالترانا:

- لقد كان فقيرًا ودافع عن الأغنياء؛ من عامة الشعب وطلب إعادة إحياء الماضي بامتيازاته العرقية. تمتع بالطبع المستقل والفوضوي إلى حدٍّ كبير في أرضه ويرغب في الحكم المطلق. ومَنْ دافع عنهم لا يتذكرونه، وربما يتبعون في هذا الأمر غريزتهم التي لا تُخدع. لقد عاش من أجلهم، لكنه لم يكن عائلتهم.

ابتعد الشابان عن هذه الزاوية عائدين إلى الشارع المركزي. ينتهي

(١) شيشرون: كاتب وخطيب روماني في روما القديمة، وصاحب إنتاج ضخم يعتبر نموذجًا مرجعيًا للتعبير اللاتيني الكلاسيكي.

بمبنى مكشوف، نوع من القبو الرئيس في الكنيسة، الذي يحتل الجزء الخلفي من المقبرة، بجدران نصف دائرية ونصف قبة. فُتحت محاريب كبيرة في الجدران بها جرار جنازية نفيسة. تعرض قطع القبة رسومات مختلفة تمثل قيامة يسوع. يكشف الباب الكبير الخلفي -المغلق بحاجز شبكي متعفن- من خلال زجاجة التل المواجهة ومجموعة من أشجار الحور بين منزلين صغيرين لونهما أحمر في أعماق وادٍ صغير.

فوق هذا الباب، فُتحت نصف دائرة من الزجاج الملون، من خلالها تتسرب شمس المساء، فتمنح الجدران والمقابر والأرض خفقان القزحية متعدد الألوان. يبدو أن الضوء الرائع يعيد الحياة إلى صور القبة، ويبعث فيها الروح مع روعة التأليه. تمتت الفتاة:

- كم هو جميل!

يُبهج هذا الضوء الأعين، ويمحو فحوى المكان الكثيرة. بالنسبة لـفلي يبدو لها القبو الرئيس كأنه قاعة رقص مضاء بأضواء ملونة: تعتقد أن جميع الموتى -في بدل بهية- مبتسمين ودون أن يُلقوا الخوف، سيظهرون ليشاركوا في الحفلة. ترقزق الطيور في الحديقة المجاورة أو ترفرف تحت الأروقة، كأن الإضاءة الجميلة تجذبها.

تثير الطبقة الاجتماعية للأشخاص المدفونين في هذا الجزء من المقبرة صور الفخامة فقط، المتعة والاحتفالات. كنّ دوقات مشهورات بجمالهن، سيدات من البلاط الملكي مثنّ في أفضل عمر لهن، ونساء استمتعن بأوقاتهن من الملك والهيام. بدت الأسماء المتألقة بأحرف ذهبية على البياض البني للرخام حلمًا في الحفلات الأنيقة، المقابلات

الودودة، والمزينات الفاخرة المتشربة بالخلاصات العطرية الناعمة،
والمُزينة بأزهار باهظة الثمن.

تَبَّتْ مالتِرانا - كأنه يشعر بعواطف ذكرى الشهوة والحب التي
أثارتها النساء الميتات الشريقات بأسمائهن - عينيه على فلي، التي تتأمل
وهي مستغرقة القبور الجميلة. وضع ذراعًا حول خصرها، وجذبها إليه
وقبّلها حيث استطاع، حيث بلغت شفتاه، بين شحمة إحدى أذنيها
ورقبته السمرء، فأثارها، وانتفضت عند ملاسة الشفتين.

ابتعدت الشابة بدفعه صارمة. صاحت خجلة:

- إسيدرو! إسيدرو!

وخفضت رأسها بحزن، كأنها متألمة من جرأة حبيبها.

ثم تحدثت لتتهم نفسها، دون أن توجه أدنى عتاب إلى الشاب. كان
عليها الذنب: يجب عليها أن تتجنب هذه الوحدة، وأن ترفض دخول
المقبرة مع إسيدرو، الذي اعتاد على أكبر وقاحات مع صديقاته قليلات
الحياء من مدريد... قبّلها! وفي ذلك المكان!

نظرت حولها، كأنها تنتظر أن تُفتح القبور، وتتصب الجثث غاضبة
من هذا التدنيس.

بيتسم مالتِرانا. حمقاء! لماذا هذا الخوف؟ هذا المكان مثل أي
مكانٍ آخر؛ وأفضل من ذلك، لأجل سحر الحديقة المهجورة الصامت
الملائم للغرام. لم يفعل شيئًا سوى تكرار ترنيمة الحياة الأبدية. قبل أن
يغنيها أولئك الذين كانوا سعداء وينامون الآن في أغلفة رخامية. الشيء

الوحيد الحقيقي في الحياة هو الحب. إذا كان الأموات يستطيعون تذكر الماضي، فإن ذكرى ساعات الحب ستكون عزاء ليلهم الأبدى. هؤلاء الأرستقراطيات المختبئات وراء الحجر الذي يُعلن عن ألقابهن، عُصبتن وإحسانهن لم يقضين حياتهن كلها بإكليل فخم على شَعرهن الممشط وشرائط على صدورهن، فأصبحن سيدات سعيدات. لقد كن نساء فخورات بجمالهن، يسترضيهن الفوز بالإعجاب بسحرهن كصدقة ملكية.

قام إسيدرو -بخيال وقح- بتمثيلهن في هجر غرفة نومهن، وهن يُظهرن غموض عرق اللؤلؤ والورد من خلال مجموعة من الدنتلا، متشبثات بحبيبهن مع ارتجاف رغبة شديد، متناسيات العظمة المزيفة للحياة، وهن يركزن حياتهن بالكامل على العصرة العنيفة الشهوانية. تلك الشخصية الوقورة التي ترقد على تابوتها الحجري برداء متمزمت لمن يحكم على أشباهها لم تكن دائماً عابسة ومتشددة، كما يُظهرها النحات. في بعض المرات، يهزم الرجل الشخصية، ويختفي مثل صبي يبحث عن شعاع من السعادة في زوايا غامضة، بعيداً عن عائلته، لاعتناً أخلاقه المختلة والفضة. لقد عرف الموتى النعيم منذ زمن بعيد؛ الآن حان دورهما، وعليهما الاستفادة من الحظ السعيد. صاح مالترانا بمبالغة شديدة:

- فلي، عزيزتي، اضحكي من الموتى؛ إنهم لا يكرهوننا، إنهم يحسدوننا. اصرخي معي: يحيا الحب!
همهمت الفتاة:

- لا؛ دعنا نذهب. ستحدث بعيداً عن هنا. سأصرخ كما تريد.
نتبادل الحب لأول مرة في المقبرة! هذا يجلب الحظ السيئ؛ سينتهي
أمرنا بشكلٍ سيئ. دعنا نذهب يا إسيدرو.

تجذبه ورعبٌ طفولي يملكها. تبعها الشاب. وعندما مرت تحت
القوس الذي يؤدي إلى المحراب الرئيس، أوقفها إسيدرو مطلقاً صرخة
تعجب من الدهشة.

الضوء من الزجاج يلف فيلي. كانت عبارة عن مجموعة من الألوان
النابضة تغطي الشابة من قدميها حتى رأسها، مما جعل جسدها كله
يرتعش كأنه مكون من أحبار قزحية. صاح ما لئانا بنشوة:

- كم أنت جميلة! لو استطعت رؤية نفسك! لديك تنورة خضراء
وصدر أزرق. فمك برتقالي؛ خد بنفسجي والآخر كهرماني. يبدو أن
لديكِ قرنفلًا على جبهتك.

ظلت فيلي بلا حراك، تبتسم برضى أنثوي، مسرورة لأن صديقها
رآها جميلة جداً. تشعر بمداعبة شعاع الشمس السحري؛ أغمضت
عينها قليلاً، أعمتها موجة الألوان التي تخفق في ملابسها وجسدها.

بدد تملق دلالها خوفها من المقبرة، وبهذه السهولة تنسى النساء
عندما يشعرن بمداعبة غرورهن.

شيء أكثر من اللمسة الحارقة للضوء شعرت به فيلي فجأة. يضغط
صديقها عليها مرةً أخرى، ولكن مع حدة أكبر، دون أن تحاول المقاومة.
- دعيني أقبل ذلك الأصفر الذهبي! الآن.. الآن.. الأرجواني! الآن..

الأزرق! الوردى على جبهتك! الوردى- الأرجوانى على شفئك!
البنفسجى لعينيك.

تسقط القبلات عليها كالمطر الرنان، مع طقطقة الولع، مما زاد
صدى المقبرة.

تحرك فلي بين ذراعيه، محاولة عبثًا التخلص منهما. فى أثناء
تحركها، تغير الألوان موضعها، وهى تمر من جزء لآخر من جسدها
الرائع. يتدفق كل وميض الضوء عبر فمها. لم يتغاضَ مالتراناً عن واحد؛
أراد أن يتذوقها جميعًا، وسط بهاء الألوان الذى يلف مجموعته المحببة.
أغمضت فليشيانا عينيهما، وهى تنتفض من وابل القبلات، ورقة
مشاعرها العذرية تهتز بقبضة ذراعين ذكوريتين، وشعرت بقرب
السقوط على الأرض، كما لو أن ساقىها المرتعشتين لا تستطيعان
دعمها، تغمغم بين تنهدات حلوة:

- كفى... دعنى... أنت تقتلنى: يا له من صوت... قاتل!

تمكنت أخيرًا من الابتعاد وإصلاح شالها، وتمليس شعرها
الفوضوي بسبب القبضة الرجولية، وثبتت عينيهما على حبيها بنظرة فيها
عتاب وامتنان.

- على الفور تُمسك بي مرةً أخرى... وكيف يتسلى الطفل
بسخافات الألوان هذه! دعنا نذهب أو نتخاصم.

ركضت نحو المخرج، كأنها تتجنب تفسيرات مالتراناً، الذى
تبعها. بالقرب من الحاجز الشبكي، قصّر الاثنان خطوتهما وسارا

معًا، ووجهاهما يتسمان بالجدية، كأنهما يغادران حزينين من زيارتهما للقبور.

مرا دون أن يفتحا فمهما أمام البواب الذي رحب بهما بهذه الأسئلة الغريبة؛ ولكن، بينما يتعدان، أدارت فلي وجهها لتنظر إليه وانفجرت في قهقهة طفولية. خمن إسيدرو تفكير حبيته؛ لقد تذكر الإيماءة الكئيبة التي سألهم بها البواب هل يدخلان للرسم. قال مالترانا بمرح:

- توقع العم الحدث. لو أنه اكتشفه في الوقت المناسب، لكان قادرًا على طلب نصيبه من الألوان.

جعلته ذكرى المداعبات يقترب، يُمسك ذراعها، ويمشيان متكئين أحدهما على الآخر، وينظران إلى بعضهما بأعين تتوهج فيها نيران الأحاسيس الأخيرة.

نسيت فلي غضبها. عندما رأت نفسها في أرض عراء، حيث لا يمكن أن تخاف من نوبات جديدة لحبيها، استسلمت، استندت عليه وهي تشعر بالدوار، وداعبته بنفخة من أنفاسها، ونظرت إليه عن كثب لدرجة أن مالترانا اعتقد أنه يشعر بحرارة جذوة عينيها.

المساء ينقضي. الشمس تختبئ. وفي السماء ذات اللون البنفسجي الناعم يطفو القمر مثل سحابة صغيرة شاحبة، لا تزال ضبابية بسبب ضوء النهار.

واصل العاشقان طريقهما على طول المستودع الثالث، يخشخش تحت أقدامهما غبار الفحم الذي يسود الأرض. تمر باتجاه مدريد نساء

قدرات مع أطفال نائمين بين أذرعهن؛ عجوزات متجعدات وسوداوات مثل الساحرات، مع قدور مخصصة لتلقى طعامها من مائدة القديس برناردينو.

تشم هؤلاء البائسات -عند عبورهن بزواج شبابي- الحب بغرائزهن الأنثوية، ويتوسلن الصدقات. قام إسيدرو بتوزيع الأموال بسخاء، مصحوبة بنصائح غير أخلاقية، ما جعل فلي تضحك. لا شيء لشراء الخبز: تلك الصدقات كانت للنبيذ، للحصول على الشكر العظيم. لا بد أن يفرح العالم ويقفز بجنون من الشكر؛ يجب أن يعكس السعادة التي تدفقت في روحه عندما رأى نفسه محبوباً من قبل فلي.

يبحث الاثنان أيضاً عن مطعم صغير، عن مكان جميل، لتناول الطعام والشراب، والاستمتاع بجولتين من رقصة الفالس على صوت البيانو.

تحيا الحياة! يكرر مالترانا -متذكراً دلائل لأوقاتٍ أخرى- لحبيته أن الحياة مبهجة، وأن للحياة معنى هيلينياً، أن الألم الذي يبدو لا نهاية له ليس أكثر من حادث عابر، فاتح شهية للسعادة، وبعد ذلك يكتظ المرء بأفضل مباحج الحياة.

مر رجل ومعه سلة من البرتقال، وعندما تفاجأ إسيدرو بنظرة شره من حبيته أوقفه. دعنا نحصل على أفضل ما في السلة على الفور! تحب فلي البرتقال، لم تتذوقه في ذلك العام، وكان قادراً على فرش محصول حقول بلنسية بالكامل عند قدميها، مثل السجادة الذهبية.

أرادت فليثيانا فقط أن تقبل برتقالة واحدة.. الأجل، وواصل

الاثنان -وهي تلعب كطفلة مع كرة صغيرة بلون النار- فتجعلها تقفز بين يديها. انتهى بها الأمر بفتح ثقب بداخلها وامتصاص عصيرها بالضغط عليه بين أصابعها. نزلت دفقة من العنبر أسفل زاوية شفتيها إلى ذقنها ذي الاستدارة المليحة، فحلّى بشرتها. أراد إسيدرو أن يشربه، ومرة أخرى لامس فمه فم فلي. صاحت الفتاة متراجعة بين ابتسامة وسخط: -مرة أخرى! لكن، أيها الملعون، ألا ترى أنهم ينظرون إلينا... ما مشكلة الناس؟

ثم ضحكت على إيماءة إسيدرو المحبطة، الذي طأطأ رأسه مثل طفل عابس. بلطفة رقيقة وضعت البرتقالة في فمه.

- خذها ولا تبك... لقد وضعت شفتيَّ هناك؛ امتصها، وكن حذراً في العودة إلى القبلات... يجب أن أعاملك مثل رضيع. اصفع... اصفع الطفل الصغير، إنه سيئ.

وبيدها الرقيقة البيضاء، يد الآنسة تلك، التي تثير دهشة لاس كاروليناس، صفعت وجه الشاب بمودة.

عند الغسق، دخلا مطعمًا صغيرًا في منخفض أمانيل. تحدثت الفتاة بصوتٍ منخفض عن الحاجة إلى العودة إلى المنزل حالاً، لكن إسيدرو اعترض. لم يكن والدها يقلق لأجل أمرٍ بسيط؛ سيصدقها، مثل أوقات أخرى، في منزل رفيقتها في بياسبيستاس. ربما سيكون في تلك الساعة بالفعل في «نزل لاس لاتاس»، استعدادًا لمسيرته إلى البارود.

تضيء الفوانيس الورقية المطعم الصغير بتوهج منتشر. استُخدمت

عربات الترام القديمة في بنائه، تمامًا كما هو الحال في حي لاس كاروليناس. المقاعد ذات الظهر المتحرك مصنوعة من العربة المكشوفة؛ والحواجز ستائر النوافذ الصغيرة. بجانب السقف -بمثابة إفريز- هناك بقايا من صور مائلة إلى الصفرة، تمزج بين مناظر هاثانا وشوارع باريس وفيينا الواسعة مع نسختين من نافورة تيجا والجسر. تبدو رؤوس الملائكة المطلية بشكلٍ رديء والمذهبة، وهي بقايا رفوف متبجر أنيق، تدعم عوارض السقف.

أعجب إسيديرو -الذي يرى كل شيء باللون الوردى- بتزيين المطعم الصغير. جميل للغاية! مبتكر جدًا! كان هذا فنًا حديثًا! وكان المالك، الراضي عن مجاملات رجلًا يبدو ذكيًا، يُجيب بتواضع:

- قليل من الذوق، ولا شيء أكثر. ومع ذلك، يكلفني ذلك جزءًا من المال... ماذا ستشربان؟

يريد إسيديرو المطعم بأكمله لـفلي. لكنها لم تشعر بشهية، لم ترد أي شيء؛ وأخيرًا -حتى لا تعارضه- طلبت زجاجة بيرة.

كان أزواج آخرون يشغلون الزوايا صامتين، في اتصال حميمي تحت الطاولة يلتهم بعضهم بعضًا بأعينهم. يؤمن مالترانا بعالم جديد، أفضل من العالم الذي عرفه من قبل. تحيا فرحة الحياة... والهيلينية أيضًا!

خلف حوض نباتات، انفجر فجأة، مثل صاروخ، صوت البيانو،

مصحوبًا بدقات أجراس. نظر إسيدرو بإعجاب إلى الصبي الذي يرتدي البيريه، ووشاحًا صغيرًا حول رقبته، وبنطالًا واسعًا لجارية تدبر ذراع التدوير. ويا لها من موهبة يمتلكها ذلك الفاسق! يا له من موسيقي عظيم! لم يشعر مالترانا أبدًا بنفس الانفعال: ولا حتى في أفضل الحفلات الموسيقية. ذلك الفالس -الذي بدا للوهلة الأولى مكتوبًا ليكون رقصة خادومات- كان قطعة رائعة: ربما عملاً لعقري عظيم غير معروف. لم يتردد الشاب في تأكيداته؛ كان هذا رائعًا مثل السيمفونية التاسعة.

- مرحى، فلي هيا لنرقص. دعينا نرى كيف تهزين ذلك الجسم الغجري الصغير.

لم يكن أي منهما يعرف كيف يرقص. كان إسيدرو -في أوقات دراسته- يتلقى دروسًا من صديقاته في المقاهي القريبة من الجامعة. كانت فيليثيانا ترقص مع رفيقاتها، وهي التي تتبع إيقاع الموسيقى بشكل أفضل، مسترشدة بغريزتها الأنثوية، وهي تجر شريكها.

كان أمرًا شجاعًا أن يهتمتا بالرقص بشكل جيد أو سيئ، سواء ضحك زبائن المطعم الصغير أم لا! الشيء المثير للاهتمام هو أن يكونا بين ذراعي بعضهما، ملتصقين من الصدر إلى الركبتين، ينقلان الروح مع حرارة أجسادهما، فيربكان أنفاسهما.

يشعران بفرح جنوني، كما لو أن رشفة الجعة التي شرباها للتو تحتوي على كل مُسكرات الأرض. لم يُقبَّلَا بعضهما لأجل القليل من الحياء، خوفًا من الناس، لكن بدت شفاههما الجافة، التي تداعبها

رطوبة اللسان، منجذبة لبعضها عبر المسافة الضئيلة التي تفصلهما.
عندما غادرا المطعم الصغير، سارا بخطوة مترددة، صامتتين، عبر
عزلة الحقل.

توقفا بالقرب من كاناليو. يعكس القمر وجهها اللطيف على زرقة
الماء البلورية التي تمضي بصمت.

هرب الاثنان من الضوء. أرادا الراحة؛ فهما يشعران بالعجز عن
المواصلة، وتوقفا بجوار أنقاض، مختبئين في الظل الذي ألقته كتلة
التراب.

سُمعت طقطقة خفيفة، وأصوات احتجاج مكتومة في شبه العتمة.
كانت فلي تتحدث بهدوء، وبصوتٍ باكٍ.

- أقسم لي أنك لن تتخلى عني. أنك ستحبني دائماً... لا تحتقرنني
لأنني ضعيفة معك... لأنني أحبك.

أقسم إسيدرو على كل شيء دون أن يتكلم؛ أقسم لها بيديه
المتوترتين، بشفتيه المداعبتين، بالضغط الرجولي الذي جعل تلك
الروح -البسيطة والبدائية، المتلهفة للمثل الأعلى- تسقط مهزومة
ومستعبدة بين ذراعيه.



في صباح يوم أحد، نزل إسيدرو وفلي إلى راسترو.

في الليلة السابقة تحدث الشاب بلهجة حازمة.

- فلي، لن يحدث ذلك غداً. حان الوقت للعيش معاً. لقد سئمت من التجوال في الأنقاض مثل العجر. أنا أعمل من أجلك، ولدينا الحق في تكوين عشنا.

ترددت فليثيانا للحظة. ووالدها؟ ولكن نظرة واحدة منه كانت كافية للتغلب على مقاومتها. كانت في حالة سُكر كامل من الحب، لا رغبة أخرى لها سوى أن تعشقه وتتبعه. معه، معه، حتى لو كان عليها أن تنكر كل ماضيه!

يمتلك مالترانا المال ويتخذ عادات البرجوازية، كما يقول بشكلٍ ساخر عندما يتحدث عن رفاهيته. كان بحاجة لامتلاك منزل، والعيش تحت سقف خاص به، وأن يكون لديه ملجأ حيث يمكنه الانعزال والعمل، يداعبه دفء العلاقة الحميمة.

عمله (الاشتراكية الحقيقية) على وشك الانتهاء. عمل بنشاطٍ كبير، يكتب في أثناء النهار في المكتبة الوطنية، في أثيناوس، حيث

يجد الصمت والكتب. يتقدم العمل بسرعة، دون نسيان توصيات الماركيز دي خيمينث، الصديق العظيم ذي المعرفة الواسعة. تحمل كل صفحة في الجزء السفلي قاعدة كبيرة من الخط الصغير المتراص الذي يستشهد بمؤلفين من جميع الأمم، وكُتب في جميع الآداب، وأجزاء طويلة بلغاتٍ مختلفة.

لم يكتب دليلاً، مهما كان بسيطاً، لم يرافقه بشهادة نصف دزينة من الكتاب. يسير المؤلف ببطء، بتردد طويل، لكن عندما يتقدم بقدمه، يضعها بثبات، كرجل يرشده ويقوده جميع حكماء الأرض.

تجري المعرفة الواسعة مثل سيل جارف في الجزء السفلي من الكتاب. يكدها مالترانا بسهولة تخلو من الشكوك. عندما يريد عرض شيء بنصوص أشخاص أجانب ليسوا في متناول يده، يستعين بمورفينوس ذائع الصيت من الأكاديمية النرويجية، بماكس ستراديفاريوس الأستاذ الشهير في جامعة جوتينجن، وغيرهم من علماء الاجتماع الرائعين، الذين اخترعهم لإبهار عميله. في النهاية، لم يكن ليوقع على العمل. كان الماركيز دي خيمينث يتلقى فصلاً كل يومين، وعندما يقوم بنسخه بخط يده -على الرغم من انشغالاته العظيمة- يندش من علم الشاب.

إن هذا سيثير الإعجاب -كان يفكر- ربما هو جيد بشكلٍ زائد عن الحد؛ يجب وضع القليل من أسلوبِي الخاص.

ولكي يضع «أسلوبه الخاص» في العمل، يقوم بتغيير مكان الفواصل أو ترتيب الكلمات؛ كتب «ذائع الصيت» حيث وضع مالترانا

كلمة «مشهور»، أو العكس بالعكس. عمل شاق جدًّا عليه... وسيظل هناك مَنْ يشك عند نشر الكتاب في أنه عمله!

يترك مالترانا -وهو مضطر إلى العمل في أثناء النهار- الغرفة الصغيرة في شارع لوس أرتيستاس، حيث السيد خوسيه وابنه يشغلان سريرها الوحيد ليلاً. ينام الشاب في مدريد، في نُزل أحد زملائه البوهيميين مؤقتًا.

كان بحاجة لمنزل. يكره التسكع مع فلي مساء كل يوم عبر الحقول بالقرب من لوس كواترو كامينوس، يرافقها لاحقًا إلى حيّها عندما يحل الليل.

بدأ موسكو -على الرغم من أنه لم يكن ينتبه كثيرًا لأفعال ابنته- في إظهار بعض الدهشة من التأخير في عودتها من الورشة، متحججة بأشغالٍ غير عادية لتبرير تأخرها.

جُمِلت ضواحي مدريد القاحلة مع حلول الربيع. تغطت التلال باللون الأخضر مع نمو شعر الشعير والقمح. في الأودية الصغيرة، مجموعات أشجار اللوز مزينة بأزهار: بعضها أبيض مثل عرق اللؤلؤ؛ بعضها الآخر وردي، مع لون اللحم الأنثوي. يتدلى الليلك مثل عناقيد من البنفسج من الأغصان العالية. الحشرات تطن، ثملة من الحرارة والحياة؛ والطيور تخفق، وملأت أوراق الشجر بالقشعريرة والتنهدات؛ تصرّ صراصير الليل الأولى مختبئة في العشب. يبدو الريف كأنه يتجمل لإخفاء مداعبات الحب في أدغاله، ليهدهد الأزواج بعطور وأغاني الحياة المليئة بالحيوية.

بجوار بستان أوبيسبو، طريق تصطف على جانبيه أشجار اللوز
يجتذب إسيديرو وفلي مساء كل يوم. كانا يتنزهان وكلاهما يمسك
خصر الآخر بين الأشجار التي تنشر قبة من الزهور فوق رأسيهما. تبدو
أن تويجات الزهور الحمراء الملتهبة تفتتح لتحييهما.

قالت فلي:

- انظر إليها. إنها أفواه صغيرة تبسم لنا وتريد التحدث إلينا.
قَبْلَ ما لترانا هذا التأكيد الساذج للفتاة. أجل؛ كانت أفواه أزهار
تفتحت لتخبر فلي أنها جميلة جدًا.
وتابع بجدية:

- وأنا أبنى الرأي الحكيم لهذا التجمع المُزهر.
نسيم المساء يهز الأشجار، والثلوج تتساقط من البتلات على فلي،
مما تسبب في تشابك تسريحة شعرها.

جلسا على المنحدرات المغطاة بالعشب، وبينما يتحدثان يقتلعان
الأقحوان البري الذي نما في متناول أيديهما. وهكذا ينتظران حلول
الشفق، والظلال تفاجئهما مراتٍ كثيرة في محيط القناة الصامتة
والعميقة، الحاضرة دون همهمة، مع تواطؤ حسن النية مع القمر، العلاقة
الأولى لحيتهما.

تعيش فلي في نَعاسٍ حلو، مستغرقة في سعادتها، مندهشة إلى حدٍّ
ما من أن العالم يُخفي كثيرًا من الملذات. يبدو كل شيء على ما يرام
بالنسبة لها؛ استسلمت بوقاحة غير مسبوقة؛ شعرت بأنها قادرة على

السقوط في أحضان إسيديرو في منتصف فُسحة لوس كواترو كامينوس
بنفس النشوة كأنها في مكان مهجور.

مالترانا أكثر تطلبًا وغير سعيد. حقل الربيع جميل جدًّا، بجوه
الشاعري وذلك الشفق الأفضل في العالم! لكنهما لن يبقيا هكذا طوال
حياتهما، يتسكعان مثل كلبين عاشقين، يبحثان عن زاوية منعزلة، وهما
يفران من الناس، ويرتجفان عند أدنى ضوضاء.

إلى جانب ذلك، يفكر في موسكو الذي قد يفاجئهما، بعد أن
يعلم ما يجري من أي نَمَام. لم يذكر اسم صديقه المخيف، لكن هذه
المقابلات الشاعرية في حقل مفتوح بالقرب من لاس كاروليناس تبدو
له خطيرة ولا يمكن الدفاع عنها.

لدى إسيديرو عزم الضعفاء الجريء. خوفه من موسكو جعله
يتجرأ ويواجه الخطر في الحال.. هل حقًا فلي تحبه لاتباعه، للعيش
معًا، متناسين كل شيء غير حبهما!

تحدثا دون أي عاطفة، بأنانية الشغف، عن التخلي عن الأب، وعن
خداع الصديق.

يملك مالترانا ألفي ريال، رأس مال، إذ إنه لم يَرَّ أبدًا هذا القدر
من المال. سيعيشان داخل مدريد، حيث لن يتعرفوا عليهما. سيكونان
زوجًا وزوجة بالنسبة للأشخاص الذين لا يفهمون الحب إلا بالوثائق
والأختام. في وقتٍ لاحق، عندما يكون لديهما أطفال، سيفكران حينها
في الزواج. كانت فليثيانا، التي هُزمت في تورعها الأخير، تعجب
بالإيجاب على جميع خطط حبیبها. تريد هي أيضًا حياة جديدة: أن

تكون دائماً مع إسيدرو، ولا تعود إلى حي جامعي القمامة، الذي يبدو لها الآن أكثر قذارة وحرناً.

ناقش مالترانا مع فلي مطولاً تفاصيل توليه وظيفته. يقول:

- علينا أن نكون عمليين؛ علينا أن نكون برجوازيين.

وتجيب فلي بجدية لا تقل عنه:

- ستكون ثروة وتعيش بشكل جيد.

يبحث إسيدرو -لرغبته في أن يكون عملياً- عن منزل في الطرف المقابل لمدريد، وهو ركن لن يتمكنوا من العثور عليهما فيه، بعد الفضيحة التي ستبع هروبهما. لكن الإيجارات باهظة الثمن!

في أحد أيام السبت عرض قراره على فلي. لديهما بالفعل منزل؛ في اليوم التالي سيذهبان إليه. لقد قابل الأخ ييشت، ذلك القديس المجنون الذي يوزع قصاصات الأوراق الكاثوليكية وينشر الدين في الضواحي. يعيش في ضواحي ساحة دي لا ثبادا. صعد إسيدرو إلى الغرفة، الطابق الرابع، تحت السقف القرميد، لكن مع قطع بقايا خاصة بالأخ ييشت ودفاتر ملاحظاته القديمة في مكتبته. سيعيشان معه. كان رجلاً صالحاً، وديعاً ومتسامحاً، لا عيوب أخرى فيه سوى هوسه بالقداسة. لديه عدد من العمال في منزله مع عائلاتهم، لكن انتهى به الأمر إلى أنه صرفهم، بسبب نميمة النساء وسكرهم. لم يرد مزيداً من الضيوف؛ لكن السيد مالترانا -كما يقول هو- كان رجلاً مهذباً ومتعلماً، يستمع إليه في صمت، دون أن يسمح لنفسه بالسخرية. عندما أخبره الشاب أنه تزوج، قَبِلَ بسعادة الحياة التي اقترحها عليه مالترانا.

وعَدَّ الأخير لِفلي مزايا هذا الترتيب. سيعيشان في الطرف الآخر من مدريد: يجب أن يكونوا أذكاء أولئك الذين قد يعثرون عليهما. سيدفعان ثلاثة دورو فقط لأجل المنزل. أما باقي الإيجار فسيتكفل به «القديس» الذي يشغل أفضل غرفتين بكومة من الكتب القديمة. سيكون لديهما مطبخ خاص بهما، لم يستخدمه السيد بيثنت أبداً، بسبب صيامه وغذائه كطائر؛ غرفة كبيرة، والتي سيكتب هو فيها، ومن نوافذها تعانق أسطح مدريد القرميدية بالكامل، وأخرى ستكون بمثابة غرفة نومهما... في نهاية الأمر، قصر، سيُجملانه بحبهما، هما اللذان يتسكعان في الحقل مثل عشاق العلاقات الرومانسية القديمة.

ينقصهما فقط تأثيث المنزل؛ وقد كرسا أنفسهما لذلك بحماسة الشباب، وهما يشعران بالإطراء بسبب هذا العمل البرجوازي، وفقاً لما يقوله مالترانا.

غادرت فلي منزل والدها إلى الأبد وحي لاس كاروليناس. كان موسكو نائماً في ذلك الصباح، متعباً من رحلته في الليلة السابقة. لم تشعر الشابة بأي تردد أو ندم، فهربت دون أن تقول الأماكن التي قضت فيها حياتها شيئاً لروحها. لقد فكرت فقط في عدم إبقاء إسيدرو منتظراً، حيث ينتظرها في ميدان بيلباو.

في الساعة الحادية عشرة، دخلا ساحة راسترو الصغيرة. بالكاد تعرف فليثيانا هذا الجزء من مدريد. بعد أن اعتادت الحياة شبه الريفية في تطوان، شعرت ببعض القلق بسبب الحشد الذي يحيط بميدان لا ثبادا.

البائعات -ومعهن بضع ليمونات في يدٍ واحدةٍ أو بضعة حزم من البقدونس - كن يصحن على بضاعتهم. في شارع لا رودا، عليها أن تُمسك ذراع إسيديرو لتتمكن من السير على الأسفلت الزلق، المغطى بأوراق خضراء، قش مبلى وقشور السمك. النساء في مآزر قدرة، منتفخة بسبب بطونهن الضخمة، ينادين على ملفوفٍ جيدٍ وهندباء طازجة. شغلت سلال الباعة المتجولين الكبيرة الشارع؛ استحوذت الدكاكين بأكشاكها الخارجية على الأرصفة الضيقة.

عند الوصول إلى ساحة راسترو، استراحت الشابة للحظة متكئة على الحاجز الشبكي للنصب التذكاري لجندي كاسكورو^(١).

بدا أن مالترانا يفكر، وانتهى إلى وضع يديه في جيوب صدريته، وجمع ورقتين من فئة الخمسة والعشرين بيزيتا وحفنة من العملات الفضية.

- احتفظي أنتِ بالمال يا حبيبتى. معروف عني أنني إذا حملته أنفقه على الأشياء التافهة قبل أن نشترى جهازنا. رحبت فلشيانا بسرور بهذا القرار الحكيم، ولَفَّت في منديلها الثروة الصغيرة، وضغطت عليها بكلتا يديها بعبوسِ امرأةٍ مجتهدة مستعدة للدفاع عن المال.

ثم تقدما إلى أسفل المنحدر، عبر ضجيج راسترو الجهنمي. يمتد أمامهما شارع لا ريبيرا دي كورتيدورس، مع انحداره الشديد

(١) لجندي كاسكورو: هو نصب تذكاري لتخليد ذكرى جنود حصار كاسكورو خلال الحرب الإسبانية الأمريكية في كوبا.

لدرجة أن المنازل الأخيرة كانت أسقفها على مستوى بداية الشارع. فوق أسطح الأمريكتين رأت فلي تموج الهضاب المائلة إلى الصفرة، السهل القشتالي، ذا الانتفاخات الناعمة، وبجفافه الذي يُظهر الأشياء من مسافات طويلة.

عندما نزلا عبر لا ريبيرا دي كورتيدورس، أصبح المنظر العام أصغر، وغرق، حتى اختفى خلف أسطح الدكاكين المغلقة في نهاية الشارع. على الجانبين، وتحت مظلات من النسيج الأبيض أو الأكياس الداكنة، توجد أكشاك تجار السلع المستعملة التقليدية، الذين يعيشون طوال العام في راسترو.

على الأرض، على الخيش القديم، كانت أكثر الأشياء غير المتجانسة مبعثرة: سيوف بأعماد مخملية تُستخدم في المسارح، سكاكين كوية، سيوف الحرس الوطني الملتوية، وأوانٍ خزفية متصدعة، مملحات مكسورة، أكواب صينية تم إصلاحها برباط خشن، المطبوعات الحجرية القديمة للزجاج المغربي التي تمثل مصائب أتالا^(١) أو مآثر إرنان كورتيس^(٢)، أنسجة مطلية بالقطران، في سوادها يمكن تمييز ضربة فرشاة حمراء عبارة عن ساق، وبقعة صفراء صلعة.

تُثبت الأعمدة المظلات مربوطة بحبال، ويتدلى منها زي الجنود متأرجحًا، سترات رسمية قديمة، سراويل متآكلة من الاستعمال، تنانير

(١) أتالا: من أولى روايات الكاتب الفرنسي فرانسوا رينيه دي شاتوبريان، نُشرت لأول مرة في عام ١٨٠١. وهي مستوحاة من أحداث سفره إلى الولايات المتحدة عندما فر من الثورة.

(٢) إرنان كورتيس: جندي مغامر إسباني، فتح إمبراطورية الآزتيك في بلاد المكسيك.

فوقية من نسيج شفاف كانت موضوعة قبل ثلاثين عامًا، تنابير تفوح منها رائحة الرطوبة والغبار، تشي بالنسيان في صناديق أحد العلّة.

هناك أكشاك أخرى من أنواع جديدة، والبائعون -بدلاً من الوقوف بلا حراك، متقاعسون، وهم ينتظرون سؤال المشتري، يصرخون مناديين عن رخص البضائع، معلنين عن أصل عيوبها الشهيرة. كانت بقايا الأنافة، ضياع النزوة الأنثوية: خرز لم يعد يُستخدم في الفساتين، أكاليل زهور للقبعات، الدانتيل والتطريز المائل إلى الصُفرة، كلها قديمة حسب الموضة قبل استخدامها. في أكشاك أخرى تُعرض التلسكوبات القديمة، البوق، أحزمة الخراطيش الجلدية المتشققة، السروج، ومن بين الملابس القذرة، مثل ربيع محتضر، يظهر الورد الباهت لبعض حُلل القداس.

- هنا! إلى العم الذي أصابه الجنون ويهدي كل شيء!

يصرخ آخر:

- خذوا واشتروا! هواء! سيروا، سيروا!

من بين البؤس القذر والرمادي المتراكم في الأكشاك التي على الأرصفة، لمع فجأة بريق، أبهر الفضوليين. لقد كان تركيبة من أشياء برونزية، مُسحت جيداً للبيع يوم الأحد: مجامر ذات قبة ذهبية، ومهاريس، وأواني مطبخ، ومن بين هذه القطع، كمية كبيرة من مسدسات بيسكاي^(١)، رخيصة الثمن تسبب الارتجاف بسبب حظ من تجرأوا على إطلاق النار منها.

(١) بيسكاي: هي إحدى بلديات مقاطعة برغش التي تقع في منطقة قشتالة وليون شمال غرب إسبانيا.

أرادت فيّ وحبيبها الحصول على السرير قبل الأثاث الآخر، وتوقفا مترددين عندما رأيا في الأكشاك وعند أبواب المحلات أسرة من جميع الأنواع، من الحديد ومن الخشب، بعضها مطوي، وبعضها منبسّط، مع حشايا من الزُنبرك. توقفت الفتاة -مندهشة من هذه الوفرة- مترددة، تائهة، يعجبها عدد في الوقت نفسه دون أن تقرر أي شيء.

يتبعها مالترانا. لا يزال هناك الكثير لرؤيته: كانا عند مدخل راسترو. في الأسفل، في الأمريكتين كان لديه هو أصدقاء، وله أقارب: سيشيرون إليهما على الأكثر فائدة لهما.

في الجزء السفلي من ريبيرا، تجمع الأوغاد لتقديم «القنان العصرية الجيدة من الزجاج المنقوش... مقابل ريال». جذبت بعض النساء حولها حشدًا كبيرًا من جنسهن، وقدمن «جوارب إسكتلندية رائعة من الخيوط... بثلاثة ريالات للزوج».

دخل مالترانا دائرة النساء، وهو يقود فيّ من ذراعها. يرغب في أن تكون بالنسبة لها أول عملية شراء يقومان بها معًا؛ لنر! بضعة أزواج من الأجل: نصف دزينة. تشد الشابة ذراعه محتجة بصوت هادئ. كان هذا هُراء: لماذا نصف دزينة؟ لم يكن لديها هذا العدد أبدًا... يجب ألا يضيع المال. لكن مالترانا حملها على السكوت متظاهراً بأنه غاضب.

- أنتِ يا سيدتي ستأخذين ما يعطونكِ إياه... هيا بنا، فيّ، ادفعي لهذه المرأة الطيبة، فأنتِ صاحبة المال... كيف ستكون صغيرتي الجميلة عندما تضع ربلتيها الإلهيتين في هذه الأغلفة الملونة!

ابتعدا عن الحشد وهي تحمل الهدية في حزمة. خجلت من طبيعة الهدية الحميمة وهمست في أذن حبيبها:

- الجوارب تسبب الخصام، إنها هدية تجلب الظل السيئ: لقد سمعتها مراتٍ عديدة. يجب إفساد تأثيرها بهدية أخرى.

وتوقفا عند كشك تاجر السلع المستعملة، حيث تتكدس أكثر الأشياء تنوعاً. لقد رأى للتو محبرة زجاجية، ضخمة، ذات كرة ذهبية كسداة. اشترتها فلي بعد مساومة طويلة، وسلمتها إلى مالترانا.

- خذ. أنت بالفعل بحاجة إلى محبرة - يا مسكين - حتى تُفرغها.

واصل السير، ودخلا فناء الأمريكيتين الجديدة الكبير. هناك كبار التجار الذين يقتنون الحديد وحُلِّيَّ الأنقاض. أقيمت الدكاكين داخل بيوت صغيرة من الخشب القديم، لكن تنتشر كومة الأشياء الهائلة في الأزقة والساحات الصغيرة للفناء الكبير، حيث لا توجد مساحة في مثل هذا الضيق.

الرخام سائد في أحد الأماكن، وتُعرض بأعدادٍ كبيرة صلبان المقبرة وواجهة الكنيسة، مناضد الدكاكين، أحواض الغسل، وحتى المدافن، التي أعلن بناؤها إفلاسهم قبل نقلها إلى المقبرة. في مكانٍ آخر، تتكدس السجاجيد، مطوية بشكلٍ أسطواني، تفوح منها رائحة الغبار القوية، مُظهرة الألوان الباهتة للظهر. تظهر صفوفاً من الأدوات الصناعية والزراعية، مع انعكاسات باللون الأزرق الداكن، واللافتات المقتلعة من الأبواب والشرفات تعلن بأحرف ذهبية عن الخياطات الفرنسية وصالونات الحلاقة الأنيقة التي لم تعد موجودة.

في الساحات الصغيرة يرتفع الحديد القديم والصدئ في جبال، كان هشاً للغاية بسبب الصدأ، حتى بدا أنه على وشك الانكسار مثل الزجاج. كانت آلات مفككة، عجلاتها مغروسة في الوحل؛ قدور ضخمة، بطونها المقعرة غرقت في أكوام من الصفائح المكسورة؛ ومن بين هذه المجموعات من المخلفات الصناعية، صفوف ومزيد من صفوف الشرفات في تشكيل صحيح، وسياج حديقة محتفظة بجص الأعمدة المربعة في أطرافها.

بالكاد توقف العاشقان عند هذا الجزء من راسترو. عبرا جادة السفراء المليئة بالناس وتجار المستعمل المتفرغين الذين لم يكونوا يستطيعون الدفع مقابل كشك، يستمعون مشلولين إلى همهمة عن جريمة شهيرة أمام الملصق الكبير المرسوم بأقصى مشاهد الحدث، ودخلا ساحة أخرى. قال مالترانا:

- هذا هو راسترو من سوق راسترو؛ أرخص من الرخص. ينظر من هم من ريبيرا دي كورتيدورس إلى هؤلاء من هنا مثلما ينظر إليهم التجار من بورتا دل سول.

عندما دخلا رأيا مكتبات بثمانٍ رخيصٍ، يتجمع بداخلها رجال عجائز يرتدون بدلات بالية يتصفحون المجلدات، ويغرقون فيها أنوفهم المتوتجة بالنظارات؛ دكاكين تكديس لا توصف، تختلط فيها صور قماشية مثقوبة، وقطع من الزجاج المتسخ والمعتم، وصناديق قديمة ومرايات بمصابيح مع ذهب مقشر وأطراف غير مكتملة.

كانت زينة المسرح القديمة، النسيج السميك ذو البقع الملونة حيث

يمكن رؤية بقايا القصور والغابات المورقة فيها، بمثابة ستائر وحواجز
للكاين البؤس هذه. الأرض عبارة عن حصى غير مستوي، تفرق من
وقت لآخر في الوحل، وتختفي تحت جداول المياه السوداء التتنة.
كانت هذه الأزقة التي يفوح منها الغبار والبؤس جيلاً بعد جيل، ببلاطها
الذي كان عبارة عن جزر من الأحجار الضخمة والبحار المتعرجة من
الوحد السائل، تمنح راسترو الكثير من الشبه مع الطرق الضيقة والقائمة
للسوق المغربي.

لقد رأيا في الميدان البائعين الأكثر بؤساً، في أكشاك بها أشياء
مكسرة، مجهولة المنفعة.

ضحك ماثرنا على بعض هذه المحلات، التي لا تزيد قيمتها
الإجمالية عن ثلاث بيزيتات. تُعرض فوق بعض الصحف القديمة
مطارق بدون يد، سكاكين متكسرة بدون مقابض، مجموعة من مطارق
الأبواب، أكياس تبغ قديمة، ونسخ قذرة من المجلات المصورة.
يجلس البائع بلا حراك على كرسي مكسور، دون أن يعير اهتماماً كبيراً
للذباب الذي يحوم حول شفّتيه؛ يصرخ من وقت لآخر، لإخافتهم أكثر
من جذب الجمهور: «مقابل ٥ سنتات.. مقابل ٥ سنتات!».

أكثر ما كان متوفراً بين الأكشاك هو دكان الحداث القديمة المائلة
إلى الحمرة بسبب الصدأ. أعجب إيسيدرو بصبر بعض الباحثين،
الذين احتاجوا إلى براغي أو مسمار مثل الذي يحملونه في أيديهم،
وينتقلون من كشك إلى آخر طوال الصباح، دون تعب، وهم يزيلون
أكوام الحديد.

فحصت بعض النساء أكشاك الزجاج، وهن يتمنين المنفعة من بقاياها، ويتأملن في شقوق وشظايا إحدى المملحات، أحد الأكواب، وإحدى الزجاجات، قبل تقديم خمس سنتات مقابل كل ذلك.

جذب كشك الدُّمى القديمة انتباه فلي. كانوا أطفالاً عاشوا في منازل الأغنياء، وبخد مكسور أو من دون ساق ينتظرون في راسترو مهمتهم الثانية، يقدمون أنفسهم للأطفال الفقراء، للصغار الذين يعانون من البؤس، المجبرين على البحث عن فرحتهم في هذه المزبلة.

تتجادل امرأة فقيرة تحمل دمية في يدها مع البائع، بينما تشبثت ابنتها بتنوراتها، وتكافح من أجل لمس دمية الخرق العارية ذات الوجه الأسود والتي احترقت إحدى ساقيهما.

– أعطني إياها... سأحتفظ بها!

تتباكي الفتاة الصغيرة مع ثرثرة طفولية. لكن الأم وضعت الدمية جانباً:

– لو أنهم طلبوا ثلاثة سنتات يا ابنتي! هذا فقط للأثرياء.

تدخلت فلي متأثرة بتعبير خيبة أمل الطفلة الهائل.

– خذها سيدتي... سأهديك إياها.

ودفعت بينما تشكرها المرأة المسكينة، وتكرر الطفلة، والدمية المشوهة على صدرها، بناء على طلب والدتها:

– شكراً لك سيدتي... شكراً جزيلاً لك.

في غضون ذلك، كان إسيذرو يفحص وجوه البائعين. يبحث عن

أحد أخواله، الملقب بالمهندس، الذي وعلى الرغم من تقاعده من العمل كان، بحسب الأخبار، يُقيم محله هناك كل يوم أحد.

في الطرف الآخر من الميدان، تبدو موسيقى الأرغن تأوّهًا. تصل الألحان الخنّاء متقطعة إلى مالترانا عندما يسود صمت قصير بين صراخ الباعة.

أخذ الشاب فلي من ذراعها، وذهب إلى حيث يبدو عويل الأرغن. لم تخذعه الموسيقى: لقد كان خاله المهندس من يعزفها، سُمي هكذا بسبب المهارة النادرة التي يُظهرها في ترتيب الآلات الموسيقية والألعاب الميكانيكية. يرتدي معطفًا لونه كستنائي بأزرار كبيرة، وتحت حافة قبعته تبرز البقعتان السوداوان من النظارات ذات الحواف القماشية التي تحمي بصره المريض.

كان جالسًا على كرسي بذراعين من الخشب الأبيض والذهبي، مع منحنيات رشيقة من القرن الثامن عشر؛ يُظهر الحرير القديم -بين المُمزق والمُتَنسل- ذكرى بعيدة لمشهد رعوي.

بجانبه، امرأة طويلة بدينة فطساء، تفيض بالدهون، تجلس على كرسي من دون مسند، تغطي نفسها من أشعة الشمس بمظلة حمراء، من الدانتلا، يتناقض ثراؤها مع الأوساخ التي على ملابسها.

لم يعرها إسيدرو أي اهتمام. يعرف نقاط ضعف المهندس. تلك ستكون المفضلة في الوقت الحالي. يتمتع خاله -منذ أصبح أرمل- بشهرة مخزية في جميع أنحاء الحي، من ريبيرا دي كورتيدورس إلى

منتزه لاس أكاثياس. لم تكن هناك بائعة قوائم أو بائعة كرشة أو تاجرة سلع مستعملة من راسترو لم يتودد إليها، مستفيدًا من المكانة التي منحتها لها مهاراته والمدخرات الكبيرة التي كان الجميع يفترضها. تتناوب الجوارى في خدمته بفضائح ومشاجرات، دون أن يقرر المهندس اللامع جدًّا بشأن أي منهنَّ.

جالسًا على الكرسي الجميل ذي المسند، يُدير ذراع التدوير، متلذذًا بالأصوات الحادة التي صاحبت حركات الرأس. رأى مالترانا تحت قدميه مجموعة كبيرة من دفاتر تمهيدية للمكفوفين. من الممكن أن يذهب بعضهم إلى راسترو بحثًا عن مثل هذه الأشياء!

تشمم المهندس المشتري، وهو يتأمل من خلال نظارته السوداء زوجين توقفًا أمام «مؤسسته».

- أرغن رائع يا سيدي؛ صناعة ألمانية، ويُقدم كهدية. أنت شخص ذو ذوق. سأغير الورقة وستسمع شيئًا جيدًا: رحيل الرسول.

أجاب إسيديرو بقهقهة، في نفس الوقت الذي تشده الجارية الدهنية من كُمِّه لتحذره من خطئه. قال مالترانا:

- لكن يا خالي، هذا أنا!

- ومن تكون أنت؟

- إسيديرو، ابن أختك. لقد تزوجت، أتيت مع زوجتي لشراء بعض الأشياء القليلة، ورغبت في أن أراك لتنصحنى.

عندما سمع المهندس أن امرأة ترافق ابن أخته، تخرى فجأة عن

ذراع التدوير، وداس على الدفاتر التمهيدية، وقرب نظارته من فلي
محدّدًا فيها لفترة طويلة.

قال بابتسامة خبير في جنسها:

- جيد جدًّا يا ابن أختي، جيد جدًّا؛ تهنّئي. من اللطيف مقابلتها
أيها الشاب، وقد تستمر لسنوات كثيرة ثقل الظل وقيحًا للغاية...
المسكينة الصغيرة عمياء. أيها السادة، ويا لها من عينين تجذبان الرفيقة!
ثم تابع، مخاطبًا رفيقته الضخمة، بنفس اللهجة كما لو كان يتحدث
إلى كلب:

- اسمعي، أنت، ألا تجددين أن هذه الشابة تشبه كثيرًا نيكانورا،
بائعة السجائر في شارع ميرا إل سول؟

قالت السيدة الطويلة البدينة بوقاحة لا تقل عنه، فتظهر عند الكلام
بعض الأسنان المدببة الصفراء من بين شفتيها الغليظتين:

- لا يا سيدي، لا تشبهها. من الواضح أنك أعمى. السيدة أجمل.
قد أود أن تشبه نيكانورا نعل حذائك.

خار المهندس بسخرية:

- مووو! لقد ورطتها؛ لقد قلت فظاعة. لا تلتفتا إليها.

وتابع مخاطبًا الشابين:

- تُكِنُّ الكراهية لنيكانورا؛ لأن الفتاة موجودة من أجلي. في
الأسبوع الماضي شدوها من شعرها وذهبوا إلى وفد المقاطعة.

قالت المرأة السمينة بصوت غليظ أجش:

- قدموا إليهما النقانق.

وهي مكثفية بهذه الرغبة الخيرة، تحركت في مقعدها، عدلت المظلة، وقفت بلا حراك، وشفثاها الغليظتان مشدودتان، متظاهرة بعدم رؤية أو سماع المهندس وأقاربه.

نصح تاجر السلع المستعملة -الجالس على كرسي بذراعين- ابن أخته بالمكان الذي يجب أن يتسوق فيه. أصبح متجر لا ريرا دي كورتيدورس ملكًا لأبنائه الآن؛ تنازل عنه ليكون متفرغًا تمامًا. قد يستمتع أيضًا بعد كثير من العمل. لكن يتبقى له حبه للعمل، وخاصة الآلات الموسيقية. لم يشترِ رفاقه جهازًا معيَّبًا حتى يعرضوا عليه إصلاحه؛ فلديه دائمًا جوهرة مثل هذه الآلة، وكل يوم أحد يضع كشكه في الأمريكتين، حتى لا يفقد هذه العادة.

يغضب المهندس عندما يتحدث عن أقاربه. شقيقه تاجر القطع القديمة متعجرف، فمنذ كان يتعامل مع مركز وقساوسة أثرياء، بحكم عمله، لم يكن هناك ما يعاني منه. لم يريا بعضهما حتى لا يؤنبه على مغامراته وفضائحه. كان يسوعيًا، منافقًا؛ يعيش مثل الأبله، من دون بهجة، من دون فوضى لطيفة. بماذا ينفعه المال؟ نصح ابن أخته ألا يذهب لرؤيته في الفناء القديم للأمريكتين:

-سيستقبلك بهيئة شخص تجعلك ترغب في إعطائه صفتين... أما بالنسبة لأبنائي، فكلاهما يشبه عمه. يتقاتلان معي ويسبّانني من أجل خمسة سنتات. بالكاد يحيونني، ويتعللون أن هذا بسبب أنني أعيش عيشتي هذه؛ لأنني أتحدث مع هذه أو أخرى. كل شيء كذب؛ لأن ما

يريدونه هو ألا يدفعوا ما يدينون لي به مقابل نقل المتجر. ماذا يهم هذين اليهوديين فيما يفعله والدهما؟! أبدو شابًا بجانبهما. هنا لا يوجد شاب آخر في العائلة، سعيد ويجذبهن، إلا هذا القسيس: المهندس.

ثم نصح إسيذرو بشراء السرير من متجر أبنائه. فلديهما أنواع رخيصة وجديدة. لا ينبغي أن يشتريه من الأمريكتين. كله ذو استخدام طويل؛ على أقل تقدير، عاصر موت عائلة كاملة. سيمنحه ابنا خاله ما يحتاجه اقتصاديًا.

ثم سأل عن والدته، السيدة إوسيبيا. منذ أكثر من عام لم يرها. كيف حال الجدة مع السيد بولو؟ في يوم من الأيام عندما يكون في حالة مزاجية جيدة، ربما يقرر الذهاب إلى تطوان. لم يعد يعرف الناس هناك. تنتهي مدريد بالنسبة إليه في مقهى سان ميان، حيث يلتقي ببعض الأصدقاء ليتفرج على النساء في ميدان لا ثبادا. عندما يريد ابن أخته مقابلته، عرف الآن المكان: دائمًا في «صيدليته». لديه قاعدة خاصة براسترو والمناطق المحيطة بها، وهو أن الحي -بكل تجارته- مثل البيوت الصغيرة الحقيبة في تطوان من حيث أتت العائلة. جميع جامعي القمامة: بعضهم مع حمار وعربة، وآخرون بمنازل واسعة، لكنهم يعيشون مثل فضلات المدينة. تطرد بقايا الحياة اليومية، الطعام والخرق الممزقة من مدريد نحو القمة؛ كانت بقايا ترفها، أثاثها وملابسها، مدفوعين بتقلبات الثروة، يهبطون إلى أسفل منحدر راسترو لتتراكم في مزبلة الأمريكتين.

- الأشياء التي رآها المرء يا فتى! لو يتكلم الأثاث!

بدأ في قلب ذراع تدوير الأرغن اليدوي ورن اللحن الأغن مرةً أخرى.

ودع مالترانا خاله؛ لكن شعر الأخير - قبل مغادرتهما - بحماس الكرم.

- خذا ما تشاءان. بما أنكما عروسان، فأنا مدين لكما بهدية.

وأظهر لهما بأخلاقٍ كريمة البضائع المبعثرة عند قدميه، كتاب المبتدئين للمكفوفين، بصفحاته التي تتقلب بزاوية لأعلى. شكره الشابان. وتابع:

- أنا لا أقدم لكما الأرغن؛ لأنني أحسن إلى المسيرة العظيمة. لكن عندما أتعب، تعاليا من أجله: ستقضيان وقتاً ممتعاً.

غادر الزوجان المتحابان. كانت فلي تضحك على المهندس، وعلى ادعاءاته الفاجرة، وعلى كلب الماستيف الذي يرافقه. قال إسيديرو بسخرية:

- رجل مخيف... رعب للحي. ويبدو أنك قد فاجأته.. يجب أن أراقبكما.

بالعودة إلى قمة راسترو، أطلا على ساحة لاس بيخاس أمريكاس. أعجبت الفتاة بدكاكين التحف والأثاث الكبيرة بكراسيها الحديدية البديعة التي أضاءت الزوايا القاتمة للقصر. قدم إسيديرو لفليشيانا رجلاً بدينًا كثيف الحاجبين يعرض بعض الألواح المطلية بالنحاس لسيدتين أجنبيتين عند باب متجره. هذا خاله؛ وعليهما المرور دون أن يُحيّاه، ولم

يعتقد أنهما سيطلبان منه شيئاً.

مكثا أكثر من ساعة في دكان أبناء المهندس. أدرك مالترانا أن أبناء عمومته كانوا يهوداً، كما قال والدهم، بغير بهجة، ولا عواطف، كأن الغبار المتراكم في المتجر أعمى أرواحهم. يكلمونه بجدية حذرة، خوفاً من أن يستغل قرابته حتى لا يدفع.

في مكان آخر، من الممكن أن يشتري إسيذرو الأثاث نفسه بسعر أقل. يدفع ثمن القرابة وخزى المساومة. اشتريا سريراً صغيراً ذهبياً، طاولة للكتابة، أخرى للطعام، عدة كراسي ومرتبة مع وسائد وبطانيتين. كل شيء كان متواضعاً، وبسعر قليل؛ لكن السرير -بحديثه البراق- بدا لكليهما تزيئاً، استعراضاً لأناقة فائقة، مظهرًا هدفه العيش بطريقة كبيرة، دون حرمان. كلفتهم هذه الجوهرة سبع دورو. نظر الاثنان إلى بعضهما بقلق. يا لها من طريقة لإنفاق المال! لكن هذا الندم يتلاشى عندما يفحصان السرير مرة أخرى، متأملين بشكل خاص المرتبة التي بالزُّنبرك. هي، التي لم تكن تعرف فراشاً آخر غير فراش من القش على ألواح تخزينة في بيت موسكو الصغير! وهو، الذي ينتظر لسنين أن يتركها له الفراش الحقيق لترتاح عظامه!

غادرا المتجر مرتعدين من الإثارة بسبب عمليات الشراء التي قاما بها للتو. أخيراً، سيمتلكان بيتاً، سيكونان سيدين لشيء ما. ويدآن حياة جديدة. في غضون ساعتين سيكون لديهما أثاث في بيتهما الصغير، في ذلك العش القريب من الغيوم.

تقول فيلي وهي تقدر بلمستها انكماش المغلف الذي تحمله:

-كم من المال أنفقناه! إذا واصلنا التبذير بهذه الطريقة، فسنطلب
صدقة قريباً.

يطمئننها إسيديرو أنه لا يزال لديه مزيدٌ من المال لاحتياجات البيت.
وبعد ذلك، سيحصل على مبالغ جديدة؛ فهو يعتمد على قلمه من أجل
العيش.

ويتحدث عن قلمه بيقينٍ متغطرس، كأن العالم كله ينتظر بفارغ
الصبر أن يتكرم ليكتب شيئاً ليشتريه.

غادرا راسترو. بالقرب من الساحة الصغيرة، تأملا للحظة أكشاك
مرقعي الأحذية الذين يستغلون الأحذية القديمة التي جُمعت من
الشوارع. كان أمامهما أكوام كبيرة من الأحذية المبللة، تم استخراجها
من برميل كبير، ويمسكانها مثل حيوانات نافقة، ينتزعان مساميرها،
نعالها، كعوبها، وكل ما يمكن استخدامه. ما كان عديم الفائدة يسقط
على الأرض ملتصقاً بالحجارة مثل الفضلات المهملة.

بجانب تمثال بطل كاسكورّو صادفا تاجرّي ثياب مستعملة عائدتين
من التجول في الشوارع يناديان على عروض الشراء الخاصة بهما.
يحملان على أذرعهما عدة قطع من الملابس. يرتديان نعلاً فلاحية،
ويغطيان رؤوسهما بالبيرييه، ولكن فوقها، كما لو كانا أعلام المهنة،
يرتديان بوقار، أحدهما قبعة عالية، والآخر قلنسوة قسيس سوداء مائلة
إلى الأخضر. يسيران بجدية، مثل رسامي صور هزلية للثروة ولرجال
الدين، دون الالتفات إلى ضحكات الفضوليين، ودخلا حانة مانكو
للحديث عن شؤونهما بين «كأسي نبيذ».

نفد صبر إسدرو وفليثانا ليريا نفسيهما في منزلهما الصغير . ترددتا للحظة أمام باب المقهى ، لا يعرفان هل سيتناولان الغداء فيه . لا؛ من الأفضل أن يكون في منزلهما، بمفردهما تمامًا، دون إزعاج نظرات الناس.

عندما ظهر النادل بصينية كبيرة في الطابق العلوي حيث يخفیان سعادتهما، اضطرا أن يضعا شريحة لحم الخاصرة مع البطاطس، وسمك النازلي المقلي، وحلوى الزبيب واللوز، وزجاجة النبيذ على طاولة السيد بيثنت الصغيرة. أكلوا بشهية الشباب الجيدة، مع تلك الإثارة التي توفرها حداثة تغيير الأماكن.

تقطب فلي -من وقتٍ لآخر- حاجبيها مع مخاوفها بصفتها صاحبة منزل.

- هذا يبدأ بشكلٍ سيئٍ؛ ننفق أكثر من اللازم. مع ما يكلفه هذا الترف الذي أحضروه من المقهى لديّ ما يكفي ليومين.

يجيب مالترانا بضحكات. كان عليهما أن يفرحا: ذلك الأحد كان حفل زفافهم، أول يوم يقضيانه معًا. سيفكران في التوفير لاحقًا.

شربا من الكأس نفسها، حرصا على وضع شفاههما على البقع التي خلفها فم الآخر. يتبادلان القُبْل بين اللقمة واللقمة، ويضعان دوائر الخمر والدهن على خديهما.

تقول فلي بعبوس ظريف، وهي تمسح وجهها:

- أيها الحقيبر، كيف جعلتني أبدو! آه! اتركني لأكل! اتركني

وحدي! اسمع، أنا متعبة، أريد السلام... لا يزال لدينا الكثير لنرتبه.

أدى ظهور السيد بيثنت إلى إنهاء الغداء ببعض الهدوء. لقد أتى من سماع عدة قداسات، من حضور اجتماع أخوية، من التحدث مع السادة في المؤتمر، الذين قدموا إليه بطاقات مقدسة وأوراقاً دينية للفاجرين من العوام. كانت أيام الأحد أيام عمل عظيم.

رفض قبول بقايا الغداء الذي قدمه الشاب. «شكراً لك سيد مالترانا!» لم تكن الكبرياء - لكنه الصوم الكبير - وكان يصوم بصرامة. التهم وجبته الخفيفة المتواضعة في الشارع. لقد اكتفى الجسد المذنب. يركز عينيه المريضتين على فلي ببعض الذعر، منزعاً من وجود امرأة شابة جميلة في غرفته الخاصة، وسط الأرفف المتربة المليئة بمجلدات من الرق والتي تحمل كل الحكمة والقداسة في العالم.

- إذن أنتِ زوجة سيد مالترانا؟ حسناً، حسناً... قد تكونين لسنوات عديدة.

يتجول، عندما قال هذا، في الغرفة مرتدياً حذاء قسيس، والذي بدا كأنه يريد الهروب منه في كل خطوة، فيصحب تحركاته بصوتٍ رتيب. لديه شيء في ساقه لا يمكن تفسيره، يبدو أنه يدفع السراويل المترهلة التي تغطيها. تفكر فلي أن هذا الرجل وُلد ليرتدي رداء كاهن، ثوب راهب، قمائطاً طويلاً. يتحرك ويمشي كما لو أن تنانير غير مرئية تعوق خطواته.

كرر مرةً أخرى، وهو لا يعرف ماذا يقول:

-إذن أنتِ زوجة السيد مالترانا؟ حسنًا، حسنًا... بارك الله فيكِ، وأعطاكِ كثيرًا من الأطفال، لمرافقتكِ في الحياة... لديكِ وجه طيب؛ السيد مالترانا طيب أيضًا، على الرغم من أنه ينسى إلى حد ما صحة الروح. سترشدينه إلى الطريق الصحيح: السيدات، في هذه الحالات، يعرفن أكثر منا. أعتقد أننا سنفهم بعضنا البعض، وأنا سنعيش كمسيحيين صالحين، في سلامٍ مقدس.

بدأ السيد بيثتِ يشرح بالتفصيل حياته المستقبلية. الحرية الكاملة للجميع. لديهما مفتاحهما وكان يحتفظ هو بمفتاحه. يمكن لكل شخص أن يأتي ويذهب كما يحلو له. لم تكن هناك حاجة للاتصال إلا في حالات الضرورة، مثل الإخوة الصالحين. ينام مراتٍ كثيرة عندما تكون الشمس لا تزال في الأفق. يصل مراتٍ أخرى في وقتٍ متأخر من الليل. يتأخر وهو يتشاجر مع بعض الخاطئين ذوي الألسن الكافرة؛ يسهر على أمل أن يتوبوا في اللحظة الأخيرة. الليل جيد مثل النهار لخدمة الله. إلى جانب ذلك، ينام قليلًا: النوم يثير اشمئزازه، لأنها اللحظة التي يستغلها الشرير للإغواء والتعذيب بالرؤى الخاطئة والحماقات النجسة. كان يتطلع إلى قدوم النهار كراحة، وقبل الفجر يقف على قدميه لحضور القداس الأول. عندما يستيقظان، يتجول بالفعل لساعاتٍ طويلة بين الناس. وتابع:

- لا تفكري يا سيدتي أنني عشت دائمًا مسيحيًا. لقد قضيت أوقات الفجور، الليل.

عندما قال هذا، ابتسم بسذاجة من المفترض أنها ابتسامة خبيثة.

-عندما استملت قلب صانع أحيديتي، وهو شيطان من غرناطة ارتكب معاصي هائلة، ولا أعرف ما إذا كان قد أخبرك دون إسيديرو عن توبته، أمضيت شهورًا وحتى سنوات أستلقي في الفراش بعد شروق الشمس. كان مذنبًا إلى أن سمعني، وتشبثت به، مرافقًا له إلى الحانات والأماكن الأكثر سوءًا، سيدتي... إلى الأماكن التي تُساق إليها العذرات القديسات في عصور الاستشهاد يتعذبن بسبب أكثر شيء ثمين لديهن. الرب سامحني على هذا... يشرب ويفعل ما هو أسوأ؛ أتحدث إليه، دون قبول هداياه، ودون الاهتمام بتجديفه، آملًا أن يكون مخمورًا جدًا لأرى هل بإمكانني بهذه الطريقة وضعه في كنيسة وسماع قداس واحد فقط، على أمل أن يساعدني الله وأمه المباركة، ويلمساني قلبه. وشقَّ عليه، لكنه وصل! لقد أمضيت سنوات في صنع حياة لمارق، لكن يمكنني القول إنني أعدت روحًا إلى الرب... سيخبرك على مهل السيد مالترانا عن استمالة قلب صانع الأحذية.

ومشى -وهو يغمز بعينه دمويَّ اللون- ويفرك يديه، محتفلاً بمكره، وبذلك التحول الذي كان أعظم عمل في حياته. وتابع:

- هنا ستكونين بحالٍ جيد سيدتي؟ يوجد كل شيء في المنطقة؛ لديك عديد من الكنائس القريبة، بها قداس في جميع الأوقات. إضافةً إلى أن الكاتدرائية قريبة بعض الشيء. القديس إسيديرو، مع جوقة إسيديريان الشهيرة. إذا لم تسمعها، فاستمعي لها. جوقة من الملائكة، سرب من الكروبيم^(١)، ستركونك مدهوثة.

(١) كروبيم: ملاك يُصور على هيئة طفل جميل مُجنح.

عندما ظهر اثنان من الحمالين يحملان على ظهورهما جزءًا من الأثاث، ودعّهما السيد بيثنت. عليه أن يدعو مساء ذلك اليوم. يزور الآن ناسًا على طريق إكستر مادورا: بعض الفقراء الذين ليس لديهم وسيلة أخرى للعيش غير العمل في مصانع القرميد خلال الصيف وسرقة الهندباء البرية والحطب من كاسا دي كامبو. هناك أصبح الاثنان مالكين لكل شيء. مع ضيوف آخرين لم يكن يجرؤ على مثل هذه الثقة. لكن السيد مالترانا بإمكانه أن يفعل ما يشاء ويتصرف في مكتبته: كل الأبواب ظلت مفتوحة. إذا احتاج إلى أن يدق مسمارًا ما لإصلاح المنزل، فلديه قليل من كل شيء هناك في درج المهملات. وأراه في قاع صندوق مسامير، مسامير عريضة الرأس، ومطرقتين مكسورتين، كلها مصنوعة من الحديد القديم الذي جُمع في أثناء رحلاته إلى الضواحي وأحضره إلى المنزل بدقة جعلته يستفيد من كل شيء يراه على الأرض. إذا كانت السيدة تحتاج إلى أزرار، خيط أو إبر، فستجد أيضًا إمدادات وفيرة على طاولة في المكتبة.

خصص العاشقان -وقد وجدا أنهما بمفردهما- جزءًا كبيرًا من المساء لترتيب الأثاث. تركا الحمالين مكدسًا وسط الغرفة التي يخصصها إسيديرو لمكتبه. بعد تأملات طويلة ودون تردد بسيط، استعد الشابان لوضعه. قالت فلي:

- هنا الطاولة، بجوار النافذة. ستكتب وظهرك إلى المطبخ، وسأتي على رؤوس أصابعي، شيئًا فشيئًا، و... طاق! سأفزعك، وعندما لا تتوقع الكثير، ألقى ذراعي حول رقبتك، أقبلك... هكذا، وهكذا.

وتأثر صمت منزل الأخ بيثنت الرهباني بشكلٍ فاضحٍ بوابلٍ من القبلات الصاخبة وتنهدات العاطفة التي ترافق العناق القوي.

وعند وضع طاولة الطعام، جلسا في متواجهين؛ لكن وهما نادمان على وضع هذا العائق بينهما، أمسكا أيدي بعضهما فوقها، بينما تحتها كل منهما يبحث عن قدم الآخر. بعد ذلك، نهضت فلي منطلقة مع رعدة غير متوقعة، وركضت حول الطاولة، يلاحقها إسيدرو، الذي يطاردها بزمجرة غول.

- سأكلِك أيتها القبيحة! سألتهمكِ أيتها السخيفة... الشعثاء!

مع هذه الاستراحات، فإن ترتيب الأثاث، على الرغم من قلة عدده، يهدد بالبقاء حتى هبوط الليل.

وضع السرير هو القضية الكبرى في فترة المساء. غيرًا مكانه مراتٍ لا تُحصى، دون موافقة أيٍّ منهما على الإطلاق. يتعرقان وقد احمر وجههما تعبًا، وهما يحركان ويقلبان الهيكل الذهبي في الغرفة الضيقة. تركل فلي -وهي تشمر عن سواعدها، وقد التصقت خصلات شعرها المتمردة بجبهتها من العرق والغبار- الأرض وتقطب جبينها، لم تجد أبدًا وضعًا للسرير يعجبها. تريد أن يبدو جيدًا، أن يجعل الضوء الذهبي يلمع بكل روعته: هذا ما أنفقا المال من أجله. وعندما تراه في هذه الوضعية، تظهر مضايقات أخرى. هل تنام بجانب الحائط؟ لا؛ ستكون هي أول من يستيقظ، عليها أن تستيقظ مبكرًا لترتيب المنزل جيدًا، ولم ترد أن يكون نوم إسيدرو مضطربًا.

تغييرات جديدة في المكان، جذب وجهود أخرى، دون أن يتم وضع الفراش الملعون في الغرفة الضيقة حسب رغبتهما.

فلي -لتقديرها كل تفاصيل جمال هذه القطعة من الأثاث التي تُشعرها بالفخر- وضعت المرتبة، البطانيات والوسائد من دون أغطية. كانت ستشتري الملاءات في اليوم التالي، فقد شعرت بالاشمئزاز من تلك المعروضة في راسترو. وقفت لفترة طويلة تتأمل السرير ببعض التردد:

- سيكون جيدًا هكذا إسيدرو؟ ما قولك أنت؟

كان مالترانا -وهو يأخذها من خصرها- يهمس لها، مدغدغًا أذنيها بأنفاسه. في كلتا الحالتين، كان جيدًا. هل كانا سيقضيان المساء متعرقين وبيذلان مجهودًا مثل الجليقيين؟ للسرير المسكين الحق في الشكوى من كثرة الجر واللف. لا بد من تركه بمفرده... تكريمًا للوضعية الجديدة.

استسلمت فلي، مهزومة، فاقدة رشدها من الهمس الدافئ الذي يداعب أذنها، مقشعرة قشرة خدها الناعمة في نفس الوقت. نامت أصداء منزل القديس لمدة ساعة، دون هزات أخرى غير الضجيج المعدني للهيكل، الذي بدا محكومًا عليه بعدم الراحة.

عندما عاد العاشقان، بعد الانتهاء من ترتيب غرفة النوم، إلى الغرفة التي من المفترض أن تكون مكتبًا، بحث مالترانا عن المطرقة والمسامير. يريد تزيين غرفة عمله من خلال وضع بعض اللوحات التي أهدها

إليه صديقه. كانت صورًا، وشرح الشاب لـفلي عظمة كل هؤلاء السادة الذين يُظهرون على الورق إيماءاتهم الأسدية، ينظرون إلى الأعلى بعينين مشتتة بالإنهام.

- انظري يا حبيبتي. هذا هو فيكتور هوجو، نصف إله. عندما أرتب كتبتي، سأعطيك شيئًا من كتبه لتقرأها. هذا الآخر هو ديفيد فيديريكو شتراوس، الذي شرع في التحقق في حياة يسوع وفند كل شيء فيها. هذا الرجل الملتحي هو داروين؛ الآخر -الذي يشبه القنفذ الأبيض- عمي الكبير شوبنهاور؛ الشخص الذي خلفه زولا، بنظرته الحزينة، كما لو كان سيبيكي؛ هذا الرجل العجوز الوسيم والظريف، الصديق هيجل... جميع الأشخاص المميزين، الأفلام المحترمة، الذين لن ينزعجوا من العيش معنا بفرح شبابي كامل. الأمور التي سيشهدها هؤلاء الرجال اللامعون!

ابتسمت فلي متأملة الصور، معتقدة بحسن نية، بجهلها البسيط، أنهم رجال من مدريد يعرفهم ويتعامل معهم حبيبها. هذه الصداقة نفسها جعلتها تشعر أنها قد تثير استياء صاحب المنزل.

- لكن إسيديرو والسيد بيثنت؟ ألن يستاء لرؤية هؤلاء السادة؟

انفجر مالتريانا ضاحكًا عندما سمع اسم «القديس». في اليوم السابق، عندما ترك الصور المنقوشة في المنزل، أطلعها عليها، فظل التقيّ فترة طويلة حائرًا في أثناء تأمله. ثم قال:

- أنا دائمًا لا أثق في السادة المشهورين جدًا. أعرف هؤلاء السادة فقط لخدمتهم؛ أنا لا أقرأ الجرائد أبدًا؛ لكنني أرتاب عندما تتكلم

الصحف كثيرًا عن رجلٍ ما. الآن يتم التحدث عن الخطاة العظماء فقط:
يعيش القديسون في الظلمة.

وبعد تفكيرٍ طويل، سأل:

- أليس من بين هؤلاء السادة فولتير وجاريبالدي؟

لم يكن يعرف الأخ بيثنتِ أعظم الكفرة. يجعله اسم فولتير
-المنطوق بكل حروفه- يرتجف، في الوقت نفسه الذي تبدلت فيه
عيناه المتورمتان بدموع الغضب.

- لا سيد بيثنتِ، ليسا من بينهم.

- لقد سُررت. لأنه لو كانا فولتير وجاريبالدي هناك، كنت سأغادر.
لن أستطع العيش تحت نفس السقف مع هذين الشيطانين.

وبهدوء الآن، فحص الصور، مادحًا بعض هؤلاء السادة، الذين
بسبب لحاهم الفضية الكبيرة وجباههم الهادئة، كانت لهم -حسب
قوله- وجوه قديسين.

عندما انتهى مالترانا من تثبيت بعض علاقات الثياب في غرفة
النوم ووضع جميع الأثاث في مكانه بشكلٍ نهائيٍّ، حل الظلام. عليه أن
يفكر في العشاء والضوء. أزعجت ضرورات الحياة عزلتهم المحببة،
فجعلتهما يخرجان من فقدان الوعي هذا لطائرين متجولين ينيان عُشًّا
لأول مرة.

ارتدى إسيديرو القبة للنزول إلى الشارع والقيام بمشترياته.

- وداعًا عزيزتي... جميلتي، وداعًا.. سأعود في الحال.

ودَّعا بعضهما بين ضماتٍ قوية. ابتعدا وعادا من جديد، بقبلاتٍ جديدة، كما لو أنه سيبدأ هو في رحلة لا نهاية لها. في النهاية، افترقا في صحن الدَّرَج.

قال مالترانا، كما لو كان خائفاً من أخطار عظيمة خلال غيابه:
- أغلقي جيداً.

وقرر النزول فقط عندما رأى الباب مغلقاً ورنّت خلفه أصوات المفتاح والقفل.

عاد بعد نصف ساعة، ومعه حزمة من الشموع، وضلعان بالعجين من حانة قريبة، دفتر، زجاجة نبيذ وعلبة حلويات. لهو كامل! بالتأكيد، كانت حياة البرجوازي -في منزله الخاص وامرأة واحدة- لها سحر عظيم. كانت الحياة شاذة؛ ولا بد من إعطاء الحياة معنى هيلينياً، ولم يكن أسهل من تحقيق الهيلينية: فقد كانت في واجهة محل حلويات، في أعين فتاة رقيقة، حتى لو وُلدت بين نبّاشي تطوان.

تنتظره فلي في صحن الدَّرَج، ترتعش من الخوف. سألت بصوتٍ حزين:

- إسيدرو، هل هذا أنت؟

قد أظلمت. عندما اقتحمت الظلال غرفتها الجديدة، أحست الفتاة برعبٍ مجهول. تخيفها الكتب الموضوعة على رفوفهم القديمة. تفكر برعبٍ في المسيح المتضرع في دمائه، بشعرٍ مسترسل غير جعد، والذي

كان السيد بيثنت يضعه في غرفته المجاورة. لجأت إلى الدَّرَج، وتنتظر بفارغ الصبر وصول إسيدرو.

أشعل شمعة وبدأ في صفّ مؤونته على الطاولة. استعادت فلي فرحتها مع الضوء والحلوى.

أكلا وشربا، وهما يتحدثان عن الذهاب إلى الفراش بعد حين. يضحكان، وهما يفكران أن في ليالٍ أخرى، في تلك الساعة، كانا يتجولان في الحقول. سيذهبان للنوم مثل الدجاج. يا للحياة المنظمة! الحياة الهادئة، بعيدًا عن الجميع، يحب كلاهما الآخر كثيرًا، منعزلان عن العالم، في أنانية الحب اللطيفة. يبدو مستحيلًا بالنسبة إليهما أن يكون الناس عُميانًا لدرجة أنهم لا يعرفون أنهما يعيشان هكذا.

بينما يأكلان، تحدثا عما يخططان للقيام به في صباح اليوم التالي. سيزوران محلات شارع تولدو حتى تتمكن هي من شراء الملابس. يفكر إسيدرو -متجاهلاً احتجاجاتها- في إهدائها أحد الفساتين المعروضة على تمثال عرض الملابس عند باب متجر للأزياء. إلى جانب ذلك، تذكر أن فلي تحلم منذ فترة طويلة بأحذية ذات رقبة عالية، عالية جدًا، لونها ليموني ناعم مع عددٍ من الأزرار.

تتنهد، وهي تريح رأسها على كتف حبيبها:

- لكننا سنفلس يا صغيري. ليس لديك المال لذلك.

اعترض مالترانا. سيعمل. ولمن كان كل ماله؟ لفلي حبيبته، صانعة القبعات الظرفية، التي تخلت عن كل شيء؛ وتبعته هو، الفقير والقبيح.

تنهدت هي:

- لا تقل هذا! أنت الرجل الأكثر وسامة في مدريد، الأكثر معرفة. حتى لو كان أمير أستورياس نفسه يبحث عني، فسأقول له لا. لديّ بالفعل إسيديرو حبيبي، الذي هو بالنسبة لهذه المسكينة الصغيرة أكثر بكثير من الأمراء والملوك. لو أنك تعرف فقط مدى غيرة زميلتي في الورشة عندما أقول ذلك، على الرغم من قبحك، أنت عطوف!

انتهى العشاء، التهما الحلوى وشربا آخر قطرات من النبيذ. انزلقت فلي -دون أن تدرك- من مقعدها، واستقرت أخيراً على ركبتي مالترانا. يقدم لها حلوى بين شفثيه؛ افترقا بقبلة طويلة وحلوة، وبعد هذه المداعبة تحدث الشاب بجدية عن مستقبله. قال:

- نعيش بشكل سيئ يا فلي. هل تظنين أنني راضٍ عن الحياة التي أقدمها لك؟ الآن بإمكاننا المعاناة من كل شيء لأننا شابان؛ لأننا نحب بعضنا. لدينا الصلصة التي تجعل الشخص يلحق أصابعه مع أكثر الأطباق تفاهة: الفرح والحب.

- أنا بحالٍ جيد يا عزيزي. أريد أن أبقى هكذا إلى الأبد... ورأسي على كتفك... وأنا لا أستيقظ أبداً.

- حسناً أنا أتمنى أكثر. أريد أن أمنحك خادمة وغرفة أفضل، وأن ترتدي مثل سيدة، وتذهبي إلى المسرح، وفي أحد الأيام يُحييك الناس، ويقول الجميع: «هناك تذهب زوجة إسيديرو»، وحتى في الصحف يتحدثون عن «سيدة مالترانا الجميلة».

ضحكت في كطفلة.

- لكن كم أنت سخي! يا لها من أمور سطحية تتمناها! المهم أن يتحاب الناس. الأشخاص الذين يحسنون من حالهم قدر استطاعتهم؛ الذين يقولون أفضل ما يسعدهم.

ظل مالترانا مستغرقاً في التفكير لفترة طويلة. يشعر بالحماس والإيمان بالمستقبل وأحلام الطموح التي ترافق كل لحظات رفاهيته الجسدية.

- بدأنا بشكل سيئ يا فيلي؛ مع احتياجات كبيرة، مثل كل الذين تسلقوا عاليًا جدًا... أنت لا تدركين إلى أين يمكننا الوصول. أنت تحبيني، لكنك لا تعرفين حقاً من هو إسيذرو حبيبك. حتى الآن أعاني من سوء الحظ؛ لكنك تجلبين إليّ الثروة. سأعمل، وسأكتب كثيراً: لدي الآن قوة، حيوية للعمل، لم أعرفها من قبل. سينتهي الناس إلى ملاحظة مالترانا، إلى رؤية كاتب عظيم، موهبة غير عادية.

صاحت فيلي:

- من يشك في ذلك أيها الأبله؟! لديك كثير من المواهب: هذا ما قلته منذ أن قابلتك. اسمح لي أن أقبل تلك الجبهة حيث تحتفظ بموهبتك العظيمة؛ دعني أداعب بشفتي ذلك المستودع حيث تستخرج أشياءك الجميلة.

تضغط على رأس حبيبها بين ذراعيها، وتقبّله بإثارة، كأنها تريد أن تعض جبينه الضخم والخشن.

تابع مالتراننا، بعد أن حل نفسه، بحماس:

- سأكرس نفسي للسياسة؛ أريدك أن تكوني سيدة عظيمة، وفي هذا البلد لا توجد طريقة أفضل للتسلق بسرعة. لديّ شيء داخلي. في اليوم الذي يعرفونني فيه، سأحظى بالاحترام. سأكون مديرًا لصحيفة.. سأكون نائبًا.. سأصبح وزيرًا يا فلي، وستكونين زوجتي، زوجة صاحب المعالي!

يتحدث الشاب بإيمان كل المتواضعين الذين يملكون بعضًا من الخيال، الذين حتى في لحظات الكرب الشديد يشعرون بلمسات أجنحة الكيمير^(١) الذهبية، ويؤمنون بأن الثراء أو الثروة السياسية تنتظرهم ثابتة في المستقبل حتى إمساكها بأيديهم.

تضحك فلي بحماسٍ طفولي، ولم تشعر بأي شك حول آمال حبسها، معتقدة أن هذه الأحلام يمكن أن تتحقق في اليوم التالي.

صاحت:

-أنا زوجة وزير! وسأمتلك سيارات، وسيخلع الخدام عني قبعتي العالية بالشریط الذهبي، وسيفتح عمي فِدْرال فمه شِبْرًا عندما أمر في مركبتي عبر لا بويرتا دِل سول أمام مكتبه! وستذهب أنت إلى القصر، وستتعامل مع السيدات النبيلات، و...!

أظلم وجه فلي. ضغطت على شفيتها. لمعت عيناها. وقالت بغیظ:

(١) الكيمير أو حَيَمَر: مخلوق في الأساطير الإغريقية له رأس أسد وجسم شاة وذنب أفعى. وتستخدم كلمة كيمير لتصف هذا المخلوق أو لتدل على الوهم أو السراب أو حلم لا سبيل لتحقيقه.

- لا. لن تكون وزيرًا. لا أريدك أن تكون، ليس لديّ الرغبة، هل تفهم يا إسيدرو؟ أخبرني أنك لن تقبل ذلك حتى لو عرضوا عليك؛ أخبرني، أو سنتشاجر... العالم مليء بالإغراءات، ولا أقول أي شيء لو أن السيدات ستأتي لرؤية هذا الرجل القبيح، الذي يتحدث مثل الملائكة ويمتلك كثيرًا من الموهبة، يرتدي زيًا شائعًا، سترة طويلة من تلك السترات المطرز صدرها بالثقوب! مثل الذباب على العسل! احذر أيها الشاب! أنا حذقة للغاية، وأتنبأ بالأمر. لن تكون وزيرًا.. لا. قل لي على الفور أنك لن تكون أو سأضربك.

استوت في جلستها على ركبتي إسيدرو، متظاهرة بالغضب، صفعته بيدها البيضاء الصغيرة. لاحقًا، بدا لها هذا العقاب بسيطًا، فوضعت أصابعها في شعر الشاب المجعد، وشدت خصلاته بلا رحمة. صاح مالترانا:

- لا، لن أكون كذلك. أقدم استقالتني من الوزارة؛ أزمة تامة. لكن اتركي شعري يا عزيزتي، أنت تؤذيني! قالت فلي بهدوء أكبر:

- هذا جيد. سأتركك، لكن احرص على عدم نسيان الكلام! ما أتمناه هو أن نعيش يومًا ما مثل هؤلاء الأزواج الذين لا يضطرون إلى التهالك على معاشهم اليومي، الذين يرسلون ثروتهم إلى أحد المدارس، يمتلكون منزلهم الجيد هناك في حي سالامانكا، يذهبون في نزهة معًا، وفي الأيام التي يكون فيها الطقس سيئًا، يتجولون قليلًا بالسيارة، متعلقين ببعضهما بشدة، والنوافذ مرفوعة. هل يمكن أن

يحدث هذا يا إسيدرِين؟ ستكتب كثيرًا؛ اكتب بقدر ما تريد: لا ينبغي أن أغضب من ذلك. لكن دون أن تتعب، صحيح؟ عندما تتعب، تتركها؛ لا أريد أن تمرض هاتان العينان الصغيرتان الجميلتان للغاية.

وقبّلت عينيّ مالترانا بلطف، كأنها تخشى أن تألمهما بشفتيها.

- يمكنك أيضًا القيام بأشياء للمسارح؛ يقول عمي إنها تُدر كثيرًا من المال... لكن لا! يالي من فظة! قل لي لا على الفور، أو سأخذشك. أين كنت سأورطك؟! لا مسرح.. إنه ممنوع. ستكتب في الصحف، وستكتب الكتب. وإذا أرسلت إليك السيدات رسائل صغيرة، متحمسات لتلك الأشياء اللطيفة التي تعرف كيف تقولها، فاحرص على عدم الالتفات إليهن! انظر، لا تزال لا تعرفني؛ انظر إليّ، عندما أضع قانونًا لشخصٍ ما، فأنا أسوأ من ذبابة.

وضغطت فلي المسكينة، متظاهرة بأنها مخيفة، على إسيدرو، وعانقته بين ذراعيها، وفركت وجهها بإحدى كتفيه، وداعبت رقبته بشفتيها.

يشعر كلاهما أن التراخي الحلو، والرغبة في الراحة في شيء أكثر صلابة من الكراسي الهشة، يغزوهما... إلى النوم! لكنهما لم يناما.. لم ينعسا.

سمعا من سريرهما -يلفهما الظلام- صرير القفل ودخول السيد بيثنت، متلمسًا طريقه إلى غرفته.

ضغطت فلي بفمها على إحدى ذراعيّ حبيبها حتى لا ترن ضحكتها،

وتابعت مسرورة كل ضوضاء «القديس»، وهي تخمن معناها. طاخ!
طاخ! لقد خلع حذاء الراهب، ورماه بعيدًا. الآن يخلع ملابسه؛ ثم تمدد
على فراشه الذي من القش.

لدى فلي المشاغبة فكرة جعلتها تتقلب بالتواءات كبيرة لخنق
ضحكها. سألها إسيدرو في أذنها، ضاحكًا أيضًا، دون أن يعرف السبب.
في ماذا كانت تفكر؟ همست للفتى:

- أفكر... أفكر في الهيئة التي سيكون عليها القديس في قميصه.

وضحكا مرةً أخرى، يتعانقان بقوة، ويرتج لحمهما العاري تحت
البطانية، ويحتك كلُّ منهما بالآخر برعشة السرور الخانق.

سُمعت همهمة لفترةٍ طويلة في الغرفة المجاورة. يتلو السيد بيثنتِ
صلواته. ثم كسر شخير متعب الصمت.

لم ينم العاشقان. يضحكان من هذا الشخير المروع الذي قاطعته
تنهدات طويلة. يستيقظ السيد بيثنتِ بضع لحظات، ويتمم بصيحاتٍ
مقدسة: «أيها السيد!» ثم يغرق في نومه المضطرب، الذي تقاطعه رؤى
الصيام والتمجيد.

يسمعان خلف الجدار الفاصل صوته المخيف بارتجافات مرعبة:

- دعني... أنا أعرفك! أنت الشرير... اخرج من هنا!

لم تعد فلي قادرة على أن تتمالك نفسها، وتطوف قهقهتها الطفولية
في الصمت مثل جرس صغير فضي.

هكذا انقضى الليل. لم يعد العشقان يضحكان؛ كانا صامتين،
كأنهما نائمان. في غرفتهما يتأوه السرير مع رعشات طفيفة، كأن الفئران
تمشي تحته.

على الجانب الآخر من الجدار الفاصل، يتحدث السيد بيثنت وهو
نائم، مرتجفًا من رعب رؤياه.

- أنا أعرفك، أيها الشرير... أنت تضيع وقتك في تعليمي مثل هذا
القدارة... جسدي ميت... المجد للرب... لن تدخل النجاسة بيت
خادمه.



سرعان ما أنهى مالترانا - في الهدوء اللطيف لحياته الجديدة - كتاب الماركيز خيمينث. كان الشريف الجاد راضياً عن العمل. بالإضافة إلى ذلك، يراقب الشاب - بناء على طلبه - الطباعة وتصحيح عينات الطباعة. كان السيناتور مشغولاً جداً!

في كل مرة يقدم له إسيدرو ورقة مطبوعة، يفحصها حضرة السيد جاسبار بدقة، وهو ينفخ بارتياح أمام الصفحات التي تقدم قاعدة ملاحظات رائعة. تلك التي تظهر مع النص وحده، جعلته يعبس من الانزعاج. قال السيناتور:

- ليس بها عمق. تبدو مثل صفحات من رواية. لكن - يا رجل - ما الذي سيكلفك لو وضعت بعض الأمور الصغيرة في الأسفل؟

عندما طُبِع الكتاب، منح الماركيز مسؤولية جديدة لمالترانا. استقبله رئيس الحزب - الذي سيكتب المقدمة - بأعذار دون أن يفني بوعده. لم يكن حضرة السيد جاسبار منزعجاً من ذلك؛ لأنه يعرف متطلبات السياسة، الحياة القاسية، المليئة بالعمل، التي تجذب رجالها. أخيراً، توسلت الشخصية المهمة، التي منحت للماركيز بادرة ثقة كبيرة، ليكتب هو بنفسه المقدمة، ويسمح له بوضع توقيعه في الأسفل. من

كتب مثل هذا الكتاب الرائع، يمكنه أن يكتب في ليلةٍ واحدةٍ بضع صفحات على سبيل المقدمة.

تابع الموقر:

- وأنا -يا صديقي الشاب- أنقل إليك الطلب، وأرجو منك أن تفعل كل ما تعرفه.. يا له من شرف، أيها الشاب! كتابة أمور يقدرها بتوقيعه شخصية لامعة! قلة قليلة تصل إلى هذا المجد في سنك.. أعتقد أنه من غير المجدي أن أشير إليك بما يجب أن تقوله المقدمة. أنا أثق في موهبتك. الرئيس يحبني كثيرًا؛ لو سمحت مشاغله، لكرس مدحًا كبيرًا لعملي. اسحب قلمك دون خوف. أنت تعرف أكثر من أي شخص أن هذا الكتاب هو ملخص لحياة سياسية طويلة، وأن فيه أمورًا رائعة للغاية.

تكلم الماركيز -مثلما يتحدث- عن الممارسة، ودون توهم -أبدًا- عن مكافأة الوظيفة الجديدة. بالنسبة للكتاب، متفق على ثلاثة آلاف ريال، سيعطيه ألف بيزيتا؛ لأنه كان مسرورًا، على الرغم من أنه لم يشد على يده بالقدر الذي تمناه هو فيما يخص الملاحظات. ومع ذلك، فإن الرئيس، الذي يعرف فقط الفهرس، قد أشاد بشدة بسعة الاطلاع في العمل. بالنسبة للمقدمة سيزيده خمسين دورو، لكن يجب عليه أن يبرع، ويقوم بعمل يُذهل ويُفحم القادة الآخرين للمجموعة الذين يتجرأون على مجادلة الزعيم اللامع في مجلس النواب.

-هذه أُلغاز السياسة العليا. يا له من شرف أن تعرفها في هذه السن المبكرة! اصمت صديقي مالترانا، ستهلكني أمام الزعيم لو أنه علم أن

المقدمة أَعَدَّهَا شَخْصٌ آخَرُ غَيْرِي. لَنْ يَثِقَ بِي، وَمِنْ مَصْلَحَتِكَ أَنْ يَثِقَ بِي. عِنْدَمَا نَكُونُ أَقْوِيَاءَ... سَتَرَى عِنْدَمَا نَكُونُ أَقْوِيَاءَ!

مَعَ هَذِهِ الْأُمَالِ يَتَطَلَّعُ أَنْ يَتَمَلَّقَ مَالْتَرَانَا لَكِي يَلْتَزِمَ الصَّمْتَ. كَتَبَ الشَّابُّ الْمَقْدَمَةَ، مُظْهِرًا أَنَّهُ رَاضٍ عَنِ الْمَكَافَأَةِ. خَمْسَةُ آلَافِ رِيَالٍ، قَدْ أَكَلَ نَصْفَهَا تَقْرِيْبًا! لَدَيْهِ مَا يَكْفِي لِمُدَّةِ شَهْرَيْنِ طَوِيلَيْنِ، وَفِي هَذَا الْوَقْتِ سَيَكُونُ مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ حَضَرَ السَّيِّدَ جَاسِبَارَ -الَّذِي يَشْعُرُ بِالْإِطْرَاءِ مِنْ نَجَاحِهِ- لَنْ يَرِغِبَ فِي تَأْلِيفِ كِتَابٍ آخَرَ. قِطْعًا كَانَتِ الْحَيَاةُ سَعِيدَةً.

لَمْ يَخْرُجْ بَعْدَ مِنَ السَّحَرِ الْأَوَّلِ لِحَيَاتِهِ الْمَرِيحَةِ، الْمُنَظَّمَةِ وَالْهَادِئَةِ بِجَانِبِ فُلِي. بَدَتِ الْفَتَاةُ رُبَّةَ مَنْزَلٍ مِمْتَازَةٍ. فِي الصَّبَاحِ تَنْزِلُ إِلَى الْمِيدَانِ الصَّغِيرِ بِطَرَحَةٍ طَوِيلَةٍ وَسَلَةٍ؛ لِاحِقًا تَقْضِي الْيَوْمَ وَذِرَاعَاهَا مَشْمَرَتَانِ، وَهِيَ تَطْبِخُ، وَتَنْفُضُ الْغُبَارَ، وَتَرْفَأُ مَلَابِسَ إِسِيدَرُو الْقَلِيلَةِ.

لَمْ يَكُنِ الْآخِرِ حَسَنَ الْهَنْدَامِ أَبَدًا. يَتَحَدَّثُ أَصْدِقَاؤُهُ بِدَهْشَةٍ عَنِ بَيَاضِ قَمِيصِهِ وَنِظَافَةِ قَبْعَتِهِ. بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّهُ سَمِنٌ، وَأَصْبَحَ لَوْنُهُ أَفْضَلَ. قُدُورُ فُلِي، أَلْوَانُ الطَّبِيخِ الرَّيْفِيَةِ الَّتِي تَعَلَّمَتْهَا فِي مَنْزَلِ وَالِدِهَا وَعَدَمُ السَّهْرِ مَنْحَاهُ قُوَّةٌ جَدِيدَةٌ لَجَسَدِهِ الضَّعِيفِ بِسَبَبِ الْحَرَمَانِ وَاضْطِرَابَاتِ الْحَيَاةِ الْبُوهِيمِيَةِ.

يَقُولُ رِفَاقُهُ:

- لَدَيْهِ فَتَاةٌ تُصَلِّحُ هَنْدَامَهُ وَتَعْتَنِي بِهِ، فَرِصَةٌ حَقِيقِيَّةٌ وَجَمِيلَةٌ أَيْضًا.

كَمْ هُوَ مُحَظُوظٌ هَذَا الصَّبِيُّ!

وَيَعْلَقُونَ عَلَى حَذَرٍ مَالْتَرَانَا الذَّكِيَّ، الَّذِي يَعْرِفُ لَغْتَهُمَ الْجَرِيئَةَ

وجسارة زمرة أصدقائه السوقيين، فحرص على إخفاء عنوانه عنهم. يخشى زيارات هؤلاء، وحتى أكثر أصدقائه المقربين، أعطاهم موعدًا في قاعة أتيو المسماة «كاتشاريريا».

تشعر فلي - من جانبها - أيضًا بالآثار المفيدة لحياتها الجديدة. كانت فريحة؛ فقط بين الحين والآخر تمر سحابة أمام عينيها، وهي تذكر موسكو. ماذا سيفعل والدها في بيتهم الصغير في لاس كارولينا؟! ماذا سيقول عنها؟!

عندما يخرجان في مساء أيام الأحاد إلى الضواحي، متجنبين الاقتراب من لوس كواترو كامينوس، أو يتجولان في أكثر الطرق انعزالًا في إل رتيرو، يتأملها العاشق ببعض الفخر، كما لو أنها صنعه، وهو مسرور بكمالها.

- لو رأيتك صديقاتك من قبل أيتها الفتاة الصغيرة ... لقد أصبحت أنسة؛ في اليوم الذي لا تتوقعينه، سأشتري لك قبعة.

اشتريت فلي ثوبها من متجر أزياء في شارع تولدو. أغرتها بعض العارضات الموضوعة على الرصيف مثل سيدات من دون رأس، مرتديات الألوان الزاهية ومصفوفات في حفل استقبال. تُعلق في بطونهن جميعًا لافتة بالسعر. اختارت فليثانا ثوبًا أزرق مع زخارف سوداء، «أحدث صيحات الموضة من باريس»، وفقًا للبيان الرسمي لصبي الدكان. بدت الفتاة مختلفة فيه ومع طريحة متواضعة. حتى أنها أخفت بقفازات هاتين اليدين اللتين كانتا مصدر فخرها في حي لاس كارولينا.

ولكن أكثر ما كان يُرضي غرورها الأنثوي هو الأحذية ذات الرقبة، الأحذية المشهورة ذات اللون الليموني التي حلمت بها مراتٍ عديدة، والتي تقدرها كأفضل هدايا إسيدرو. كان الحذاء أحد اهتماماتها. تعتبر قدميها أثمن جزء في شخصها، وبينما تمشي تركّز عينيها بدلال على بقعتي الذهب الباهت المدببتين اللتين تظهران وتختبئان بالتناوب تحت فستانها.

يعودان من نزهتهما يوم الأحد متعبين، أقدامهما مغطاة بالغبار، يفكران في سكون منزلهما الصغير، العشاء الذي ينتظرهما، ليلة حميمة حنونة، تقطعها على الجانب الآخر من الحاجز رؤى السيد بيثنت المغوية.

قال إسيدرو:

- أصبحنا برجوازيين. لا يوجد زوجان شرعيان في مدريد يعيشان بشكلٍ رائع مثل هذين الجريئين.

ويعزلان نفسيهما في كل مرةٍ أكثر، راضيين عن جبهما، ناسيين العالم، معتقدين أن الحياة يمكن أن تتدفق هكذا إلى الأبد.

يتفحص مالترانا -وهو يسير في الشارع- الناس باستغراب، كأنهم من جنسٍ آخر، كأنه جاء من عالمٍ مختلف. عندما نزل من غرفته العالية، اعتقد أنه هبط إلى كوكب آخر.

الغالبية العظمى من المارة لم يحبوا ولم يكونوا أحبة. ويمكنهم أن يعيشوا هكذا! بالكاد يتذكر الأوقات الأخيرة التي عاش فيها كما لو

كان في طي النسيان، دون أي شغف آخر غير القراءة، وإطلاق العنان للمفارقات وإزعاج مَنْ هم في الأعلى، دون أن يعرف أن هناك نساء في العالم وشعورًا يسمى الحب. الآن بدا له من المستحيل أن يعيش بهذه الطريقة، مثل نبات، مثل حَجَر، دون فرح حقيقي، دون حزن حلو.. دون كمال. كما كان، وهكذا كان كل مَنْ مر به تقريبًا. كانوا يعيشون منشغلين بأكثر التطلعات فظاظة، بلا شرارة حب. ويتركز كل شعر الأرض في قِلة، هم العشاق.

يفكر مالترانا بفخر أن هناك أرستقراطية صغيرة في العالم، وأنه ينتمي إليها: أرستقراطية الحب، الذين يعرفون كيف يزينون الحياة بشغفهم. والبقية بهائم مسكينة تتشاءب من الملل بأعينٍ محبطة وأقدام في الوحل، على الرغم من أنهم استمتعوا بكل تكلفات الرفاهية.

ذات مساء، قابل مالترانا السيد مانولو الفِدرال على رصيف ميناء دِل سول، حيث مكاتبه.

قال رئيس العمال بسخرية:

- جيد، جيد جدًّا، أيها المواطن. أنت وفلي قد ارتكبتما غلطةً فاحشة. تبدو كذبة أن يرتكب المثقفون الذين ليسوا من الطبقة الرابعة مثل هذه الأخطاء.

نظر إليه بعينيه الجاحظتين، ومسح عرق جبهته لاهنًا، قبل أن يسقط وابل سخطه على إسيديرو.

- تبدو كذبة، يا رجل. ولا أعتقد أنني سأعترض على أي شيء

ضد حقيقة أنك وفليثانا اتفقتما على الاجتماع، بموجب استقلالكما المثالي. قد يشير ذلك فضيحة للرجعيين وللموحدين، لكن ليس بالنسبة لي، أنا مواطن واع مسالم أيضًا في مراتٍ عديدة. الرجل حر، والمرأة حرة، والحب يجب أن يكون حرًا ومستقلًا. لكن الشيء الطفولي الذي يستحق الجلد هو ترك ذلك التافه لوالدها المهمل هناك في لاس كارولينا. أنا سأواصل اجتماعيًا معه أكثر من ذي قبل. يعيش تشيسباس معه، ويدبران أمورهما جيدًا. إنهما يطبخان طعامًا لذيذًا. لكن المسكين موسكو حزين، يفتقد شيئًا؛ إنه لا يريد أن ينطقوا باسم الفتاة، على الأقل اسمك. يشرب كبعوضة، وعندما يشرب معه، يتناوله مع الحراس، ويريد الذهاب إلى الباردو ليقتل وجهًا لوجه الشخص الذي قتل بوستو إن أما. لقد وضعتموه في حال، أقل ما يمكن توقعه أنه سيقوم بعملٍ وحشيّ.

شعر مالترانا بالندم الشديد عندما فكر في الضرر الذي سببه لذلك الصديق. شعر برغبةٍ شديدة في التعويض عن خطئه. يمكن للسيد مانولو أن يشفع لهما؛ سيطلب من أخيه أن يغفر لهما.

تابع الفيدراليّ:

- ما فعلتماه هو شيء صبياني لا اسم له. هل أحببتما بعضكما؟ لا بأس؛ إذن تعال إليّ، فأنا خبرة، ومعا قد نذهب إلى لاس كارولينا لقضاء بعض الوقت، وكنت -مع طلاقة لساني- سأقدم اقتراحًا... «أخي: هذان الصبيان يعبان بعضهما، وهما كبيران في السن بما يكفي ليستقلا، ويجب أن يتحدا أمام الطبيعة. بالإضافة إلى أن الأمور لا

تستحق ترتيباً آخر؛ فهما يمشيان، بعد حلول الظلام، يعترشان الأنقاض، وفقاً للشائعات، وأشك في أنهما مارسا الحب قبل الزواج».. ويبدأ النقاش، ونناقش كل التحولات الضرورية، وعندما أستأنف، بالتأكيد، بالتذكير بحقوقكما الشخصية، كنتما ستتزوجان، دون أن يطردهما موسكو كطاغية. لكن الآن، بعد عبثكما الخالي من العقل، أجد صعوبة في توجيه النقاش.

غمرت مالترانا -بدافع الندم- فورة من الجراءة، وتحدث عن الذهاب مع رئيس العمال بحثاً عن موسكو ليطلب منه العفو.

قال السيد مانولو:

- لا. هذا مبكر جداً. لا تذهب؛ إذا ظهرت على هذا النحو فجأة، فسيكون قادراً على قتلك. لديه رغبة مجنونة في قتل شخصٍ ما. دعني أصلح الأمر؛ أنت لا تعرف إلى أين تذهب قدرتي؛ تخيل أنك تتحدث إلى الدبلوماسيّة نفسها.

سيجعل الوحش يلين شيئاً فشيئاً. طالما لم يذهب إلى هناك، فلن يكونا في أي خطر. وبقي موسكو في أراضيه وأقسم على عدم العودة إلى مدريد، حتى لا يقابل الهاربين. لقد أغضبه أن يتحدثوا معه عنهما. لم يذكرهما السيد مانولو قط، على الرغم من أنه يعرف أين يختبئان منذ الأسبوع الذي تلا هروبهما. يعيشان بالقرب من ساحة لا ثبادا، في منزل رجل رجعي، مجنون يوزع صوراً مطبوعة ويهيج الناس بمواعظه.

قال رئيس العمال ضاحكاً على دهشة مالترانا:

- أعرف كل شيء. في مكتبي نتحدث عما يحدث في مدريد.

وينظر إلى مكتبه، الرصيف العريض، ذي التدفق المتواصل للمارة وبائعيه، إلى البواب، وهو ينادي على تذاكر السحب القادم، أشرطة مطاطية للمظلات، كتب رخيصة وجراء للتربية بأجراسٍ صغيرة حول أعناقها.

ودّع مالترانا السيد مانولو، بعد أن وعده الأخير بالتوسط لدى موسكو لكي يصفح عنهما. كان بإمكانه المشي بهدوء، لقد ترك الأمر في أيدي أمينة. كان هو الدبلوماسي.

عند وصوله إلى منزله تحدث مالترانا عن هذا اللقاء. بكت فلي قليلاً، لكن ألمها أقصر مما توقع إسيدرو. إن الحياة القاسية في لاس كاروليناس، ووجود مغامرات ليلية تُبعد الأب عن الابنة، جعلت خطر الموت مألوفاً في المنزل، وقد أضعف مشاعر البنوة لدى الفتاة. ترى والدها في كثير من الأحيان مصاباً وقریباً من الموت، لدرجة أن الانزعاج العائلي من هروبها اعتبرته حادثاً قليل الأهمية. لم يكن هناك شعور حيّ آخر داخلها غير شعور الحب.

انتهت بقول:

- دع العم مانولو يصلح كل ذلك؛ اغفر لنا يا أبي. لكن لا شيء يفرق بيننا، صحيح؟ معك، دائماً معك.

ذات صباح، عندما مر إسيدرو عبر ميناء دِل سول بعد الساعة التاسعة صباحاً، في اتجاه المكتبة الوطنية، تعرف على عربة زرادشت

عند مدخل شارع كارمن من خلال الزخارف الغريبة لركوبته. كان فيلسوف النباش جالسًا داخل العربة، ولحيته منتشرة على ركبتيه، منتظرًا خادمه بوبو، الذي يجمع الروث من الطوابق العليا.

استوى زرادشت في جلسته عندما تعرف على مالترانا. ضحك بمكر، وغمز بعينه الصغيرتين عندما رآه للمرة الأولى بعد هروبه مع فليثانا، الأمر الذي أعطى سكان لاس كاروليناس كثيرًا يتحدثون عنه. قال، وقد أصبح جادًا:

- لا تذهب إلى هناك يا فتى. موسكو قاسٍ للغاية، وهو غاضب بشدة. لقد مر شهران منذ هروبكما، لكنه سيطلق النار عليك كأنه في اليوم الأول. اكتشف بعض الفتيان النباشين الذين يحبون فليثانا أين تعيش، وحملوا إليه هذه الوشاية وغيرها. ذات يوم تحدث مع جدتك، وأخبرها أنه سيقُتلُك إذا وجدك في الطريق. لكن أن يبحث عنك.. لا أعتقد أنه سيبحث عنك. يقضي الليالي في البارود، ويذهب أحيانًا في أثناء النهار. إنه غضب الصيد، جنون. قيل لي إن الحراس مشغولون. يعلقون على أنهم يغضون الطرف لأجل الهروب من المشكلات، لكنهم الآن يائسون ويصرخون: «يريدنا أن نقتله». في أفضل يوم -وهو يصطاد- سيقابل الملك موسكو، الذي يسير في جميع أنحاء البارود كأنه يمتلكها.

تحدث زرادشت فجأة عن الفتاة:

- لديك أفضل ما في الحيّ أيها الوغد. يحسدونك هناك ويريدون رؤيتك ميتًا! لكن ما فعلته ملائم لسنواتك القليلة. آه، لو كنت في

عمري! لو كنت تمتلك حكمتي! ستتعب: الحب هو حصبة في الرأس،
نعاني منها جميعاً في سن معينة. فكر -أيها الصبي- في أن الرجل أفضل
حالاً بمفرده. أنت تعلم أنني أمضيت بضعة أشهر في النموذجي^(١).
ضربت زوجتي الثالثة، لدرجة أنني تركتها ودمها يسيل عندما أمسكت
بها مع خادم شاب. وكانت العاهرة تبلغ من العمر ستين عاماً تقريباً.
عندما خرجت من السجن جامعته مرةً أخرى. وعندما ماتت، جامعته
أخريات. كلهن متماثلات، وعليك أن تتقبلهن؛ لأننا نحتاجهن. أقول
لك مرةً أخرى: الإنسان حيوان نبيل ومتكبر. المرأة...

قاطعته مالترانا، الذي يخاف ثروة العجوز:

- أجل -زراذشت- أعرف ذلك. المرأة -لو لم ترتدي ثوبها الجيد
وحذاءها ذا الرقبة الملائم فضلاً عن الوقار- تعطي جسدها للشيطان.
وداعاً أيها الفيلسوف العظيم. تحياتي للجدّة.

لم يسمح له زراذشت بالذهاب حتى عرف عنوانه. في صباح يومٍ
ما عندما ينهي مهامه مبكراً سيذهب لرؤيتهما وسيتحدثون. سيكون من
دواعي سرور فليثانا التحدث إلى السيد پولو، الذي رآها وهي تولد.

مر بعض الوقت دون لقاءات أخرى تُذكر العاشقين بالاضطراب
الخطير الذي تسبب فيه بسبب هروبهما من مسكن الصياد.

لم يكن لدى إيسيدرو عمل؛ لكنّ جزءاً من أموال الماركيز خيمِث
لا يزال في يديّ فلي المعتدلتين. كان قد زار الأخير، في حال خطرت له

(١) النموذجي: هو سجن مدريد النموذجي، هو السجن الرئيس للرجال في مدريد خلال الربع
الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

أفكار جديدة وأغرته الرغبة في نشر كتب أخرى؛ لكن الموقر كان في شهر عسل أدبي كامل.

تسيد العمل -بغلافه البديع- واجهات المكتبات بشكلٍ رائع. هل بيع؟ ولا نسخة واحدة. أعلن السِّيناتور ذلك بئس: لم يكن أحد يرغب في معرفة الحل الحقيقي للمشكلة الاجتماعية. يا له من بلد! هكذا صار. حافظُ على دفء رأسك، اعملْ لياليَ ولياليَ، وادرس مكثفًا كل حكمة العالم في ملاحظات لا حصر لها، بحيث يتبهن للشخص لاحقًا أقل من اهتمامهم بمُصارع عجول.

يطلق الماركيز هذا الرثاء أمام الشاب، متناسيًا للحظات تدخله في العمل. لكن هذه اللامبالاة من الجمهور قُوبلت بمدح زملائه في مجلس الشيوخ، الذين أهداهم الكتاب واحتفظوا به لم يُمس على الطاولة، دون قطع الصفحات؛ أخبار المديح القصيرة في الصحف، عمل لأشخاص لم يفعلوا شيئًا أكثر من أن يتجولوا بنظرهم على الفهرس.

نشرت كل صُحف الحزب مقدمة الرئيس.

هتف السِّيناتور:

- يا لك من رجل يا صديقي مالترانا! يا لها من موهبة! ويا لها من طريقة للكتابة... فصيحة!

ينسى -في حماسه- مَنْ كان يستمع إليه، ويستمر في مدحه للرئيس ولطفه الذي أطره بالثناء في مقاطع مختلفة من المقدمة.

لم يفكر الماركيز خيمينث في نشر كتاب آخر حتى العام التالي. كان

من السيئ أن يُسرف في ذلك. إلى جانب ذلك، شعر بالتعب؛ لأن عملاً مثل العمل الذي نشره للتو لا يُكتب كل شهر.

وعبر عن أسفه في حضور مالترانا لإرهاقه وعمله بصدق جعله يرغب في البكاء... في الوقت الحالي ليس لديه عمل آخر سوى قراءة النقد في الصحف. يُمضي الليالي في نوم مضطرب، مرتجفاً مما قد تقوله الصحافة في اليوم التالي، وعندما يجد خبراً صغيراً من المديح، يقرأه على الأسرة، ويحبس نفسه في مكتبه، يُمضي الساعات متأملاً بعينه المُحببتين قطعة الورق الصغيرة، ليُظهرها لاحقاً، مع إيماءة نكدة لرجل عظيم متعب من المجد، لجميع زواره.

في الوقت الحالي تخلى مالترانا عن جميع مهام العمل الخاصة بالسيناتور. لكن إيمانه لم يتبدل بسبب هذا: سيوفر له آخرون مهام جديدة. بعد أن رأى نفسه يفتقر إلى الشغل، توقف عن التواجد في المنزل، وقضى المساء في الأتنيو أو في المقاهي، يتجادل مع الشباب المهتم بالأدب. يعود متأخراً ليلاً، وهو ينصح فلي بانتظاره في السرير. يفرض الأدب واجباته؛ فمن الضروري أن يهتم بنفسه ليصنع مهنة ويكتسب اسماً، ويحضر عروض المسارح الأولى، ويتدخل ليقاطع مناقشات الأتنيو، ويؤدي ملاحظاته في الخلافات العقيمة التي لا تنتهي حول ما إذا كان هناك إله أم لا، وعن الفصل بين الكنيسة والدولة.

ذات صباح، أيقظته فلي من غمرة نومه. في الليلة التي سبقت تدخله في نقاش حول «فلسفة ما هو خارق»، وعلى الرغم من أنه على يقين من أن ذلك لن يجلب إليه أي فائدة إيجابية، وأن الصحف لن تخصص له

أكثر من سطر واحد، إلا أنه ارتاح وهو راضٍ عن عنائه. تحرك الرجل العظيم الذي لم يسبق له مثيل عندما سمع أن زوج والدته -السيد خوسيه- ينتظره في المكتب، وأبدى اضطرابًا كبيرًا. ماذا يريد منه البناء الطيب؟

عندما خرج، كاد السيد خوسيه أن يبكي، وأمسك يديه.
- يا لها من مصيبة إسيدرو! يا له من عار! إذا لم تقم بإصلاح ذلك، فسأمت.

أجلسه الشاب، مطمئنًا إياه. ما ذلك؟ لم يكن هناك داعٍ للقلق، فلكل شيء علاج. وتحدث البناء، في حضور فلي، عن ببن، عن باراباس الشهير، الذي سيصبح سبب وفاته.

كان في السجن النموذجي. قبل ثلاثة أيام قُبض عليه مع أوغاد آخرين بسبب سرقة النحاس والأسلاك من مصنع في باييكاس. لقد مر أكثر من شهر منذ فراره من شارع لوس أرتيستاس، دون أن يتمكن والده من التحقق من مكانه. لم يكن هذا الهروب الأول. يعرف إسيدرو بالفعل أنه اختفى عدة مرات، دون أن يُصلحه الضرب الذي يتعرض له عند عودته. لديه جلد كلب، حسبما يؤكد السيد خوسيه. لم يكن الضرب ولا النصيحة مفيدتين بالنسبة للأب. لقد كان وغدًا، لكن من النوع الذكي؛ موهبة أخيه في الكتب يمتلكها هو في الشر. يقود رفاقه، باعتباره الأكثر جرأة، وقاموا بتنصيبه زعيمًا.

تابع السيد خوسيه:

- لقد جعلني أعاني! خسرت عدة مرات أجرة يومية في الشهر؛ لأنني كَرست نفسي للبحث والإمساك به، وكله دون جدوى. فلا أزال أحتفظ ببعض الحدرس منذ كنت حارسًا مدنيًا. لقد أمضيت أيامًا كاملة في ضواحي هضبة بيميتتو. أخبروني أنه سار إلى هناك مع عصابة من المحتالين وعشيقته الصلعاء بعض الشيء، بيكيري، فتاة نحيفة مثل القصب، ذات وجه مليء بالندوب، وتبيع الصحف في بويرتا دل سول وتُشمر ثوبها حتى يرى العجائز ربلتي ساقها اللتين تشبهان النايين. لم أتمكن من الإمساك به... لاحقًا، بحثت عنه على جبل الأمير بيو، في بعض الكهوف التي توجد تحت المساكن التي من جهة المحطة الشمالية. ظننتُ أنني قبضت عليه في ما يسمونه «قصر كريستال»، كوخ يلتقي فيه الأوغاد مع العاهرات اللاتي ينتظرن الجنود بالقرب من الثكنات... لم أره أيضًا... وفي الليلة الماضية، في أثناء حديثي في لوس كواترو كامينوس مع صبي من ثامورا خدم معي وهو في النظام العام، علمت بمكان المحتال. إنه في السجن النموذجي؛ أنت متبهِ يا إيسيدرو؛ ابني في السجن النموذجي! أنا، والده، قد أبدو قاسيًا، وجاهلاً، لكن حينما أتواجد لا يضطر أحد للتحدث عني، وقد استشهد بي الرؤساء كنموذج للصدق.

وضع السيد خوسيه يده على عينيه، وهو يفركهما حتى تنحسر الدموع. ابنه في السجن! يبدو له أن ماضيه بأكمله من النزاهة القاسية والصدق الشديد ينهار بضربة واحدة. مَنْ سيقول، عندما يقود المجرمين مكبلي الأيدي عبر الطرق وبندقته على كتفه، أنه هو، جندي القانون،

وصي النظام، سينجب سجيناً، ويزيد فرداً آخر إلى الجيش الكثيب واليائس الذي يعيش في حرب مستمرة مع المجتمع!

ليست لديه الشجاعة للتوقف في الشوارع لرؤسائه السابقين، المحاربين القدامى المسالمين الذين يعيشون في مدريد، المسحوقين بسبب قلة رواتب تقاعدهم. لن يجرؤ الآن على القول: «كيف حالك يا قائدي؟» لأولئك السادة الذين يصافحونه، وهم يتذكرون ماضيه في الاستقامة والطاعة، كما لو كان ندّاً، وهم يسألونه عن الأسرة. كيف سيجيبهم أن أحد أبنائه -الوحيد- في السجن لأنه لص؟ ذلك البائس جعله يتخلى عن عالم الأخيار، وسلبه إلى الأبد كبرياء فضيلة كانت رفايته الوحيدة. ابن الأربعة عشر عاماً في السجن، ويحمل لقبه، الذي نال مرات عديدة الثناء على خدمات المجتمع!

تابع السيد خوسيه متباكياً:

-أتمنى -يا إيسيدرو- أن تفعل ما في وسعك في هذا الشأن. أنا بالتأكيد لا أعرف ماذا أريد. أنا لا أطلب منك أن تخرجه من هناك؛ على الرغم من أن هذا ممكن أن يحدث، إلا أنني أعارضه. دعه يتعفن في السجن، دعه يموت... لكونه وغداً!

ولكن بعد هذه الكلمات الحماسية، ظهر الأب مرةً أخرى. وتابع بلطف:

- أريدك أن تذهب لرؤيته. لا أستطيع الذهاب: أعتقد أنني سأكله، أنني سأمزقه إلى أشلاء إذا رأيته... لديك طلاقة لسان مختلفة؛ إنه يحترمك وسيهتم بك أكثر. عظه؛ إذا سقط، على الأقل يصلح نفسه

ويتوب. لقد رأيت كبار المجرمين انتهى بهم الأمر كأشخاص شرفاء. و... -هنا تردد- وإذا كنت تعرف كاتب العدل الذي في يده الأمر أو أي شخص آخر يمكنه التأثير، فافعل ذلك من أجل الله. دع الصبي يخرج من هذه الخطوة السيئة؛ وبمجرد وصوله إلى الشارع سأمسك به، وقبل أن يموت على يدي سيهرب مرة أخرى.

كان السيد خوسيه مضطربًا من الحدث.

يا له من عالم أيها السادة! بدا أنه تغير وبأشخاص مختلفين عن أولئك الذين يعرفهم في شبابه. يعتقد أن الصالحين يُكوّنون ذرية، وأنه هو وأولئك الذين خرجوا منه سيظلون منها إلى الأبد. لهذا السبب يعتقدون أفكارًا سليمة، ويحترمون السلطة ويطيعون كل ما هو مؤسسي... وفجأة، قفزت قطعة من لحمهم، امتدادًا لشخصهم، إلى معسكر الأشرار، مستهزئًا بكل مذاهب النظام والإذعان التي تعلمها من والده.

بدأ السيد خوسيه يشك فيما إذا كان العالم سيكون مختلفًا عما تخيله. لم يشعر بنفس الطاقة التي يشعر بها من قبل ليكره الصيّاحين، الذين يريدون أن ينقلب المجتمع، ويضع مَنْ هم من الطبقة السفلى في القمة. يجعله الألم متسامحًا. لم يعد يقارن المنظمة الاجتماعية بالانضباط العسكري. لا؛ لم يكن المجتمع جيشًا؛ كان قطيعًا حزينًا وخانعًا، كان الرعاة الأشرار مجبرون على رعايته في حقول الخراب، ويحتفظون لأنفسهم بأفضل الأراضي. تتجول ذئاب البليّة من حوله، تخطف أضعف الماشية، تلك التي تتخلف عن الصف.

تابع:

- أقول لك - يا إسيدرو - إنني شخص آخر، وإنني أفقد شيئاً من معتقداتي كل يوم. هذه نهاية العالم: كل المهازل والأكاذيب. أعتقد أننا نعيش وسط كوميديا وأن كثيراً منا يلعبون دور الحمقى. أنا متأكد من أن كثيراً من اللصوص، وكثيرين جداً، الذين لا يعرفهم الحرس المدني ولن يعرفونهم أبداً. لو اضطررت الآن لقيادة المجرمين، فسأنظر إليهم بأعين أفضل. الشياطين المساكين! هم أيضاً من الذئاب.. اللصوص، اللصوص الحقيقيون الذين يكدرّون النظام والسلام، أولئك الذين يعرضون حياة الرجال للخطر، هم في أماكن عالية جداً، في الأماكن التي لا تصل إليها السلطة.

يتحدث السيد خوسيه مثل رجلٍ أعمى يستعيد نوره تدريجياً. يحدق بذهول في كل شيء من حوله. حرك الظلم شخصيته البسيطة والمستقيمة التي بدأت تفقد قساوة الانضباط.

- نحن نعيش بين اللصوص يا إسيدرو. مثلاً: أنا الآن أكسب أجرتي اليومية من العمل في مبنى كبير في الضواحي التي تبنيها الحكومة، ولا أعرف ما إذا كان ذلك لمسكن، ميثم أو شيءٍ آخر. العمل بموجب عقد؛ يعطون للمقاول ملايينهم الجيدة، وهو يبني المبنى كما لو كان مصنوعاً من الورق المقوى. ما يهم هو كسب المال، كثير من المال، ربما لتقسيمه مع المتآمرين الذين يحمونه. أولئك الذين يعرفون التجارة يرتجفون من الخوف عندما يرون كيف يجبروننا على البناء. لقد بنينا طابقاً واحداً فقط، ونحن على يقين من أنه سينهار في اليوم الذي يقومون

فيه بتسكينه، ويُسحق المسيح بكل معنى الكلمة، شريطة أن لا نُسحق نحن! يأتي المقاتل بسيارته مرة واحدة في الأسبوع؛ ينظر، يوصي بأن يتم كل شيء من خلال نظام «انظر إليّ ولا تلمسني»، ويغادر. الأسمت عبارة عن غبار من الطريق، والجدران فواصل، والأعمدة المربعة مجوفة... في أفضل يوم تحدث حادثة، تكون ولا حتى حادثة الثاني من مايو^(١)... ونحن هناك لثلاثة أو أربعة بيزيتات، مئات الرجال الشرفاء والموت في حلقوهم، بينما المذنبون يعيشون حياة السادة العظماء. أنا منصف وأقر بأكاذيبي. أعتقد أن الذين يتحدثون عن ثورات الفقراء هم مثيرو شغب، كما هو الحال دائماً، لكن في بعض الأمور يكون لديهم حُجة.

لا يزال السيد خوسيه يتحدث مطوّلاً، مازجاً خيالات الأمل في حياته مع الحسرات التي يمنحها له المتمرد باراباس. وعده إسيدرو أن يذهب لرؤية الصبي ذلك المساء. كان صديقاً لمدير السجن، ويمكن أن يوصيه على الوغد اللعين. سيبحث أيضاً بين أصدقائه عن شخص يمكنه التأثير على أسياد المحكمة.

انصرف البناء، وفي المساء توجه إسيدرو إلى السجن النموذجي. جعلته فلي يُسرّع للذهاب لرؤية أخي زوجها. كان الإحساس الأنثوي مهتمّاً بهذا الحدث الذي أدى إلى زعزعة الهدوء المنزلي. تتذكر بشكل غامض باراباس، حيث رأته يتجول عبر لوس كاروليناس مع عصابة من

(١) الثاني من مايو: انتفاضة قام بها سكان مدريد عام ١٨٠٨ ضد الاحتلال الفرنسي الذي قرره نابليون بونابرت، والذي انتشر في كل إسبانيا، وتعتبر بداية حرب الاستقلال الإسباني.

الأوغاد. يا للمسكين الصغير! وجهه طيب.. ستُضيّعه الصحبة السيئة.

دخل إسيذرو السجن، وهو يتبع الموظف الذي خصصه له المدير كدليل. مع فتح آخر حاجز حديدي، شعر بالبرد والحزن؛ رأى في لمحة الأجنحة الضخمة، والأروقة المركبة، وفيها أبواب الزنازين ذات المزايح السميكة. ساد صمت القبور على السكان غير المرئيين. يخفت الضوء العلوي للغطاء الزجاجي أثناء نزوله، مكتسبًا الغموض الشفقي في السرايب. تُذكر صفوف الأبواب إسيذرو بشبك الكوات الموجودة في المقبرة. وكان خلفها رجال صامتون، يأكلون ويفكرون؛ لكنهم جثث متحركة، أجبرها ضيق قبورها على السكون؛ كانوا أحياء يشعرون بالحياة فقط عند سماع صوت البوق، عند استقبال المزرعة عبر النافذة الصغيرة أو عند الخروج إلى الشمس، للمشي، مثل الوحوش المحبوسة، لبضع دقائق. يرفرف سرب من الطيور المحمية تحت كوات أسقف الأجنحة في هذا الضوء الرصاصي. تبدو اللمحات السعيدة وههههه أجنحتها كأنها تقليد ساخر لضحكة الربيع المبهجة.

فكر مالتريانا برعبٍ في إمكانية الحبس لفترة طويلة في أحد توابيت البناء الحجري هذه. المئات من الرجال يعيشون هناك، دون صرخة أو كلمة أو تنهيدة، يؤسرون في صمت هذه الأجنحة، التي تبدو مثل تلك الخاصة بكاتدرائية مهجورة. لم يظن أنه شجاع قط؛ يجهل الاندفاع الوحشي للاعتداء؛ ولكن بالنظر إلى مقبرة الأحياء هذه أقسم أن يكون أكثر حكمة. لو أهانوه، فسيغفر الإهانة بدلاً من المجيء إلى هذا الجحيم الصامت من أجل نوبة حيوانية.

جعله الموظف يصعد سُلمًا، في نهايته زنازين الأطفال. بالكاد تقدما
بضع خطوات على طول رواق طويل، ألقى الموظف الذي يحرس هذا
القسم صيحة، وقفز صبي حافي القدمين، بخفة شيطان صغير، من باب
إلى باب، ودفع المزليج مع جلبة كبيرة.

عند مدخل كل زنانة، يظهر طفل، ويقف منتبهًا مع صرامة
عسكرية. يتفحصون بنظرات زائغة بعضهم، وهم يضغطون على شفاههم
لخفق الضحك.

يرتدون أحذية قماشية مُنسلة، أو يمشون حفاة على البلاط الصغير
البارد. يرتدون ملابس قدرة ومرقعة. لم يكن لدى بعضهم ثياب أخرى
سوى قميص وبنطلون رجالي مُثبت بحزام يتقاطع مع صدورهم. حُلقت
رؤوسهم، ويظهر شكل غريب لعظام جماجم كثير منهم. هناك رؤوس
ضخمة، تبدو كأنها ترتجف بسبب وزنها على الرقبة النحيلة والضعيفة؛
يعرض آخرون الزاوية المستقيمة من الخلف، قطعًا جذريًا، يعلن إلغاء
جزء كبير من الكتلة الدماغية. هناك الذين لديهم أعين أفافة ووقحة،
تحقق بقوة؛ وبعض آخر قد تجعدت أعناقهم مع ندوب الخنازيري^(١)،
أو أنوف وخدود قُصمت بسبب الجذري. ظلوا جامدين، وأيديهم
ملتصقة بسوقهم، وتنتفخ بطونهم، مع طيات قمصانهم المليئة بالأشياء
والأوراق التي يستخدمونها في الألعاب.

(١) الخنازيري: ويُسمى أيضًا الغُذَب، داء الملك، داء الخنازير أو التهاب العقد اللمفاوية العنقية
السلي. هو نوع من السل يهاجم الغدد اللمفاوية للعنق بصفة خاصة.

عرفهم دليل مالترانا جميعًا كزبائن سابقين للمنزل. أول ما انتبه له كان ماتشاكو.

قال الموظف:

- عندما أحضروه أول مرة، كان خائفًا جدًا لدرجة تعرضه لحادث عند البوابة وتعين علاجه. ثم نظر إلى هذا على أنه منزله... أنت، كم مرة أتيت؟
سأل الموظف ماتشاكو، فأجاب مبتسمًا ببساطة طفولية:
- مع هذه المرة ثلاثة وعشرين.

- أحضروك بسبب كيس نقود سيدة، أليس كذلك؟ جذبته منها وانطلقت راكضًا.

قال ماتشاكو وقد أصبح جادًا:

- لا يا سيدي. أخرجته من داخل جيبيها. لم أعد أفعل هذه الأشياء بعد الآن.

ابتسم الموظف أمام هذا الاحتجاج على الكرامة المهنية، واستمر في تعريف الآخرين. كان الولد العنيد، بعينين مرتبكتين وسترة طويلة من القماش الداكن، هو بالتو. تم إحضاره لسرقة مشد. ينظر إلى مالترانا بعيني ضحية محتضرة، معتقدًا أنه سيد قوي.

اشتكى بلهجته الفلاحية الفظة:

- نعم سيدي؛ أخذت المشد. كنت جائعًا... جئت إلى مدريد

مع والدي... نبحث عن عمل. لن أفعل ذلك بعد الآن يا سيدي... أنا صالح.

أثارت الحركات الالتوائية الغربية لبالِو وآهاته، ضحكًا بربريًا عند كل باب.

زمجر الأوغاد، مستهزئين بتوبة وخوف بالِو.

- أوه! أوه!

صرخ الموظف باستخفاف:

- لِنَرِ ما إذا كان هناك صمت!

ظلوا جميعًا بلا حراك، وأعينهم منخفضة، لكن تتجول على شفاههم ابتسامة، كأنهم مستمتعون كثيرًا بحوادث حياتهم في الحبس. واصل الموظف تسمية الصف المزدوج من المحتالين. هذا هو بسوجو، شريك جاييجو، مارجايو وبيرويلاس، وأربعة من رفاق باراباس في سرقة البرونز والأسلاك في باييكاس. لقد أبقوا شقيق مالترانا بعيدًا عنهم، لتجنب الشجار؛ لأنه تحدث عن أكل أكباد شركائه؛ لأنهم تحدثوا بأكثر مما ينبغي في أقوالهم.

قال الموظف بسخرية:

- الفتى رائع. عبقرى. هل تعتقد أنه سيكون من الجيد للعائلة إذا مات هنا؟ عندما يكبر، سنراه بالتأكيد في الزنازين أدناه.

فحص مالترانا رفاق أخيه، أوغاد ذات أعين شريرة وفكوك قوية، أكثر ضخامة من بقية الوجه. كان بيرويلاس وحشًا قبيحًا، بملامح

مقضومة، أنف مسطح، وعينين مختبئتين تقريباً تحت الحاجبين المتدليين، ورائحة كريهة تنبعث من فمه وجلده في نفس الوقت.

ثم قدم له الموظف آخريين: «جولفين، ملاك صغير بشعرٍ مجعد وعينين زرقاوين، على المرء أن يكون يقظاً للغاية بسبب التعاطف الشديد الذي يوحى به لزملائه؛ بوتو وفيو وبانييجو، الذين كانوا في المؤسسة لفترات متعددة، وكانوا «يعملون» دائماً معاً؛ موريتوس، ليتخاس ولاجارتو، الذين لم يبلغوا من العمر الثالثة عشرة بعد، ولكن لديهم خطيبتهم خارج السجن، مما يمنحهم مكانة كبيرة بين أقرانهم. كن سيدات يمكن أن يصبحن أمهاتهن تقريباً: عاهرات شوارع، يُضحكهن شغف رجالهن الصغار وينصحنهن بالسرقة؛ لأنهن لا يؤمنَّ بعاطفتهن إلا عندما يظهرن بالمال.

تحدث الموظف مع أحدهم:

- وخطيتك؟ هل تأتي لرؤيتك في بعض المرات؟

أجاب بحركة نافية: «السيدات! كلهن متشابهات! كن رقيقات فقط عندما يرين المال! ووجههن الشريرة، المتجعدة قبل الأوان»، أكمل هذه الكلمات بإيماءة وقحة.

حيّا مالترانا مراقب قسم الأطفال: عجوز ذو لحية كثيفة الشعر، مع تعبير لطيف في عينيه. أوضح الموظف الآخر لمالترانا صعوبات الوظيفة. عليه أن يكون لطيفاً مع السجناء؛ وطالب المدير بالامتناع عن جميع أشكال العنف؛ لكن عليهم أن يعاملوهم بقوة في نفس الوقت، فالأوغاد ماكرون كالقردة، تتواقع وتمرد عند أدنى درجات اللين.

يتواصلون عن طريق التلغراف الرائع من خلية إلى أخرى، ويخططون لمؤامرات ضد أي حارس بغيبض معهم.

تتمثل ثورتهم في «اضربه بغطاء»، أي أن كل واحد محبوس في زنزانتة، يضرب الباب بالدائرة التي تغطي فتحة مرحاضه، متسلحًا في نفس الوقت بمثل هذا الضجيج الذي يهز السجن بأكمله. وعلى الموظف الذي أهدهه هذا الصخب أن يترك موقعه، وينتقل إلى أروقة الرجال، التي تكون أكثر هدوءًا وانضباطًا من أروقة هذه الغوريلات الإجرامية.

في نهاية الرواق، وجد مالترانا باراباس، منتصبًا عند باب زنزانتة. لقد رأى شقيقه يدخل بهدوء دون أن يُظهر أي انفعال. يكمن زهوه في كونه «سجينًا جيدًا»، يقلد تصرفات ولامبالاة قدامى المجرمين في الطابق السفلي؛ عند الانتباه إلى نفخ البوق والتحريك بشكلٍ آلي، كأنه قام بعدة حملات وعاش في المؤسسة كأنها بيئته الخاصة.

حيًا الموظف بيده على رأسه وظل ساكنًا.

قال مالترانا:

- جيد، جيد جدًا. تبدو بخير تمامًا هنا، بينما والدك المسكين سيموت من العار. وغدا! خسيس!

ابتسم باراباس وهز كتفيه قليلًا، كأنه يترك لأخيه أن يفهم أن هذا التوبيخ لن يجعل زيارته ضرورية.

قال الحارس وهو يربت على مؤخرة رقبته:

- هذا شاب حريص. سيذهب إلى سبتة. عندما أحضره كان شيئاً أصفر، كان خائفاً بعض الشيء؛ لكنه ما كاد يدخل، حتى أصبح مثل سمكة في الماء! إذا سمحنا له، سيتغلب على خوفه. إنه يريد أن يكون الرئيس، ويتنافس مع ماتشاكو على الكارتل: بلطجيان.

استمر مالترانا - وهو ينظر إلى أخيه باشمئزاز - في لومه.

- أنت هنا لأنك لص. هل تعرف ما هذا يا بيبين؟ ألا تعلم ما الذي يسيء إلينا جميعاً؟ ألا تفهم أنك ستقتل والدك المسكين؟!

تخلي باراباس عن جموده ونظر بعينين عدائيتين وقاتلتين، إلى الذين انتصبوا على بعد بضعة أبواب.

قال بصوتٍ أجش:

- أنا هنا بسبب هؤلاء المتحدثات^(١)، الذين وشوا، وأخبروا القاضي بكل شيء. يتحمل شركائي الذنب؛ سأقتلع أمعاءهم سريعاً بقدر الإمكان.

وانتصب بغطرسة صلفة لديك صغير، وجسده اللمفاوي الهزيل كله يرتجف، مع هذه الخسة الجسدية للقتلة بالغريرة.

فهم مالترانا أن كلماته لن يكون لها أي تأثير على الصبي. قطع شوطاً طويلاً وهو ينحدر خلال الوقت الذي لم يكن يراه فيه. تم القبض عليه بسبب تسلسل الجريمة. عندما يخرج من هذه المغامرة السيئة، سيسقط

(١) استخدم الكاتب هنا اسم الإشارة للمذكر والصفة للمؤنث، وقد قصد بذلك تحقير من يتحدث عنهم.

في أخرى. كان السجن بيته، وكل ذلك الشباب المنعزل عن المجتمع، عائلته الحقيقية، التي اختارها هو، مع جاذبية الميول المشترك.

واصل باراباس الحديث، دون أن يلاحظ نظرة أخيه المستنكرة، معتقداً بسذاجة أن السرقات التي أنجزتها عصابته كانت مآثر خارقة. ربما شعر بالأسف لهذا الأخ غير السعيد، وغير القادر على التشاجر مع رجلٍ آخر ودون شجاعة للاستيلاء على منديل سيئ.

كانوا يطيعونه في السجن. أعلنها بفخر: لقد كان هناك لبضعة أيام، وقد أثنى عليه الموظفون؛ لأنه «كان سجيناً جيداً»، كان الأول في التشكيل ويساعدتهم بنفوذه حتى يطيع الجميع. احترمه رفاقه وشركاؤه. يعلمون أنه ليس لصاً صغيراً جباناً، من النوع الذي يضع أصابعه في جيوبه ويركض خائفاً حتى الموت عند أدنى إنذار. ولم يكن أيضاً ممن يقضون نصف شهر في الزنزانة دون معرفة سبب اعتقالهم. لقد كان سجيناً لسبب، وكان الرفاق يعرفون تاريخه. يعلمون أنه في «قصر كريستال» شجّ اثنين من أكثر رفاقه جرأة، في جميع كهوف بريثيب بيو بسبب طلاقة لسانه والسهولة التي يسحب بها المطواة، لم يجادل أحد في أفضل مكان على النوم وأول إناث القطيع من بائعات الصحف والمستغلات للسادة العجائز الذين يتبعون الأوغاد في أوكارهم.

تخلي السجناء الصغار -عندما علموا أن الزائر لم يكن سيّداً من سادة المحاكم بل شقيق باراباس- عن موقفهم الصارم، واقتربوا من بعضهم لاستغلال هذا الوقت في تجمع غير متوقع.

أصبح الوغد أكثر عفوية مع شقيقه، عندما رأى الموظف المرافق

لمالترانا يتعد باتجاه هذه المجموعات، أراد أن يبهره بعظمة مستقبله.

قال وهو يشير إلى رفاقه:

- هل ترى كل هؤلاء؟ حسنًا، إنهم يخافون مني ويريدون مني أن أكون قائدهم. نحن مصممون -عندما نخرج- على تكوين عصابة، وأن أكون أنا الرئيس.

كان مجلد كثيف من الصفحات المتسخة، ذو أطراف تجليد مقضومة بسبب استخدامه، يدور سرًا من خلية إلى أخرى. كانت قصة خوسيه ماريا، «ملك سييرا مورينا». تتعاطم الخيالات المرضية لهذه التصورات الخرقاء عند القراءة، في صمت الحبس، مآثر قاطع الطريق الشهم، عند التأمل في الصور وفي الهيئات المتغطرة لأبطال الطريق، مع سوافهم الكبيرة، وتحت أذرعهم وأحزمتهم المليئة بالأوقية. هكذا سيكون حالهم أيضًا عندما يخرجون إلى الميدان: سيسير باراباس في الأمام، عبر الجبال والطرق، كقائد مجيد. وكان الكتاب -بطرقٍ مبهرةٍ جدًا- ينتقل من واحدٍ إلى آخر رغم أن المدير يطارد مثل هذه الأعمال كأنها سم نقي.

تابع باراباس مع التأكيد:

- إذا اتبعوني، لو لم يكونوا جبناء مثل شركائي، فستسمع عني... في يوم من الأيام قد أعطيك أنت وأبي بأوقيات من الذهب... كل شخص يعرف ما يناسبه. ماذا من المفترض أن أكون؟ بناء.. مثل والدي؟ شكرًا جزيلًا؛ لا أريد أن أموت مسحوقًا مثل علجوم، أو في منتصف الشارع أتسول.

يريد أن يعيش: لهو، مرح، نساء؛ حياة جيدة، الأفضل. يعرف أين يجد كل شيء: كانت الشجاعة ما تجعله سيداً، ويمتلكها. على الرغم من كونه صبيّاً، فقد رأى ما يكفي.

ابتسامته تكشيرة رجل عجوز، إيماءة نُضح مبكر مثيرة للاشمئزاز، والتي تنعكس في عينيه مع بريق شديد.

انتبه مالترانا -المنزعج من وقاحة الصبي الصغير، والمتجنب نظراته التي تبدو أنها تهينه- إلى صبي آخر يقترب منهما.

كان حافي القدمين، لا يرتدي سوى بنطال وحذاء مطايطي، لكن شعره ممشط بعناية، بمفرق من المنتصف وجانبين طويلين لامعين.

سأل إسيدرو:

- وأنت.. لماذا أنت هنا؟

فأجابه المَعني بجدية:

- لطعنها... قطعة الجبن.

ضحك باراباس على النكتة الحمقاء بقهقهة مدوية، والمجموعات المجاورة ضحكت أيضاً، مثل صدى فاضح. اكتشف الجميع من هو مالترانا، ونظروا إليه بسخرية. عند سماع توبيخهم للأخ اعتبروه عدواً. كان مثل العديد من أفراد عائلاتهم الذين جاءوا لوعظهم في حضور رفاقهم، مستهزئين بهم، كأنهم ليسوا رجالاً بالفعل.

قال الموظف، وهو يقترب عندما سمع الضحك:

- دعونا نرى ما إذا كان هناك أي إجراء. إلى أول من يمزح، سأسدد ضربة على رأسه بقبضتي.

هدد مثل مدرس مدرسة، بقبضة يده. ثم أضاف مشيرًا إلى طاعن الجُبْن:

- هو هنا بسبب وقاحته. والده ثري، وقد سرق منه، ورهن أشياء من منزله، وهرب مع النساء. لم يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا. عائلته وضعت في مدرسة الفضيلة والأخلاق الحميدة لتحسين سلوكه.

ينظر إلى مالترانا بعينين مذهولتين وساخرتين، كأنه معجب بالحماسة الهائلة لذلك الأب الذي أراد تهذيب ابنه بحبسه في السجن النموذجي. تابع:

- هذا الرجل المحترم سيذهب بعيدًا. يسميه الصبيان لبيتا، وهو أعظم رفقاء باراباس. إنه الشخص الذي يملأ رأسه بالهراء وهو يتحدث عن الأمور التي يمكنهما القيام بها معًا عندما يخرجان.

بدأ مالترانا يشعر بالقلق من موقف مثير للسخرية عندما رأى نفسه محاطًا بتلك القروذ الشريرة. عندما أدار وجهه، فوجئ مرتين بغمزات ساخرة، الإيماءات التي يقوم بها بعضهم خلف ظهره وهم ينظرون إلى باراباس. يبدو أن شقيقه من والدته يشجعهم بابتسامة خفيفة.

جاءت أصوات من الجزء الخلفي من الرواق، تقلد همهمات حيوانات مختلفة. يذهب الموظف من جانب إلى آخر مهددًا بقبضته المعهودة. يقدر الجميع في مالترانا العدو، القريب المصلح للأخلاق

والمزعج الذي يأتي ليوغظ بالفضيلة. فضيلة لهم! كانوا رجالاً ويعرفون كل شيء!

لم يرغب إسيدرو في إطالة الزيارة أكثر من ذلك؛ بالإضافة إلى أن الموظف الذي عمل مرشدًا له بدا فاقد صبره.

لقد وعد باراباس بالاهتمام بمصيره، ورؤية سادة المحكمة، في حال كان من الممكن القيام بشيء من أجله.
قال الوغد بجدية منافقة:

- لا تنسَ ذلك. سيكون عملاً صالحاً؛ شركائي مذنبون أكثر مني.
لو كان هناك عدالة، لأطلقوا سراحه.

ولكن لاحظ في كلماته عدم وجود رغبة في الخروج. هناك لم يكن سيئاً؛ بالإضافة إلى ذلك، كان يفكر في «المرسوم» الذي يمكن أن يمنحه حبساً طويلاً، وفي الإعجاب الذي يرحب به الأوغاد ساكنو كهوف ضواحي مدريد لخروجه.

عندما عاد إسيدرو إلى المنزل، فكر في زيارته للسجن كما لو كانت حلمًا. وشقيقه، قطعة من لحمه، يعيش هناك بتلذذ، كأن العبودية تجعله فوق البقية! ولم يخفِ عن فلي التأثير السيئ لزيارته.

- سأفعل ما بوسعي من أجل هذا الوغد، على الرغم من أنه من الأفضل أن يكون هناك، من أجل سعادته.

يحضر السيد خوسيه إلى منزل إسيدرو ليلاً، حيث يقضي النهار في ذلك المبنى الكبير في الضواحي، حتى لا يفقد أجره.

سأل بقلق:

- ماذا عن الصبي؟

في البداية أعطاه إسيديرو آمالاً جيدة. يعتقد أن إطلاق سراحه من السجن ممكن من خلال صديق كان بدوره صديقاً لآخر يعرف الموثق. ثم بدا متشائماً. سيطلبون كفالة، ولم يكن ذلك بالأمر السهل على فقراء مثلهم أن يحصلوا عليها. وأخيراً، أراد أن يقدم بعض النصائح للسيد خوسيه. كان باراباس شخصاً ضائعاً. لا يهم إذا بقي في السجن أو في الشارع. تقريباً يفضلون تركه هناك، ليتجنبوا ارتكابه جرائم جديدة.

لم يعد البناء إلى منزل مالترانا. على الرغم من شخصيته القاسية، فقد بدا مستاءً من فقدان الأمل هذا في إصلاح باراباس، مع أنه أول من لا يثق في استقامته.

كاد إسيديرو أن ينسى أخاه. تهيمن مخاوف أخرى على أفكاره. يريد الخروج من وضعه البائس قبل نفاد الأموال الخاصة بكتاب ماركيز دي خيمينث، التي تديرها فيلي بتوفير دقيق.

من حين لآخر، فإن ترجمة كان يوفرها صديق، مقالة كان يتمكن من نشرها في صحيفة مصورة، ستحافظ على الفور على تدهور ثروته. لكن هذا لم يكن كافياً؛ فهو يفتقر إلى الدخل المنتظم والأمن لإعالة حياته.

فكر للحظة في بذل جهد ودخول مكتب تحرير إحدى الصحف... لم تكن المؤسسة سهلة: كل المناصب شاغرة، وبالكاد كان لائقاً لهذه

المهمة. انتشرت شهرة هومروس البطيء في جميع غرف التحرير.

هناك أوقات صدق فيها أن خلاصه في كتب مبتكرة للغاية تتبادر إلى ذهنه، والتي -حسب قوله- من شأنها أن تتسبب في صخب كبير بين الجمهور. لكن من سيطلعها؟ والقوة على الكتابة أين يمكن أن يجدها، بإرادة مخدرة وقلق من رزق غير آمن؟

بدأ يشك في قوته. يتلاشى إيمان لحظات الرفاهية التي يؤمن فيها بصعود مذهل نحو الانتصار. يفكر -وهو في يأسه- أنه كان تعيشاً محكوماً عليه بالبؤس، ولديه موهبة أقل من حمال. كانت ملابس السيد النبيل البالية التي تغطي جسده كسوة الجوع. يصل إلى غرفته ويستلقي على سريره، حزينا، يرتجف، كأن مصيبة تهدده، وهو يخفي وجهه بين يديه. جاءت المسكينة فلي، متلعثمة من خوف:

- ماذا لديك يا إسيدرو؟ ما خطبك يا عزيزي؟

تداعبه مثل أم؛ دفنت يديها في شعره المجعد، بينما يجيب مالترانا من بين تنهدات. لا شيء، لم يكن لديه شيء. الشقيقة، التعب من عدم العمل، الملل.

تأوه من العجز، برفقة فلي الحلوة، التي تذرف الدموع أيضاً، دون أن تطلب مزيداً من التفسيرات، وتوقعت، بغريزة المرأة، أن هذه الأزمات مرتبطة بكومة المال، التي تقل أكثر في كل مرة، المحتفظة بها في خزانها.

انتهى الصبا والتواصل المحب لجسديهما اللذين بددهما هذا
الوايل من الدموع. يتعانقان وأعينهما مبتلة، يشعران بالحاجة إلى
احتضان بعضهما، ومواجهة المحنة بقوة أكبر، وتلت الدموع القبلات،
وسلما أنفسهما للحب بأثر من الكآبة التي منحت سعادتهما حلاوة
جديدة.

في الليل يعود مالترانا إلى المنزل في وقتٍ متأخر أكثر في كل مرة.
كان على فيلي الخجولة أن تتغلب على خوفها من الغرف المهجورة، من
الصور المرعبة للسيد بيثنت.

تخطط حتى بعد الساعة الحادية عشرة على ضوء مصباح غاز اشترياه
من راسترو. طرق السيد بيثنت -عند عودته إلى غرفته ورؤيته للضوء من
أسفل الباب - بقبضته بتحفظ.

- ألم يعد السيد مالترانا بعد؟

وعندما علم أن فيلي وحدها، رفض الدخول. كان الوقت متأخرًا
وعليه أن ينهض في الفجر.

-تعملين كثيرًا -سيدتي - فنامي جيدًا. آه! ولو لديك وقت فراغ
وتريدين أن تتسلي، اقرئي تلك الصلاة الجميلة جدًا التي أعطيتها لك.
تمنح ثمانين يومًا من المغفرة.

سمعت فيلي صوت سقوط حذائه، وصرير الفراش، تنهدات
وصلوات المتعبد وهو مستلقٍ. ثم جاءت صرخات الكابوس، سُبَاب
الشرير، ليبتعد مع إغراءاته الجسدية.

تستلقي فلي في الفراش بعد منتصف الليل، منتظرة في الظلام وصول إسيدرو، معتقدة في كل مرة يأتي صوت خطوات على الدرج أنه هو. تنام في مرات كثيرة من التعب، وتستيقظ شاعرة في عينيها بتأثير الضوء العنيف.

يخلع إسيدرو -مع هيئته المتعبة- ملابسه بجوار الفراش. كم الوقت؟ الثالثة؛ الرابعة. يعتذر الشاب عن تأخيره بالحديث عن الواجبات التي تثقل كاهل كاتب، وعن مطالب المهنة. عليه الاستسلام لرؤية الناس، وحضور تجمعات فورنوس، وزيارة بعض غرف التحرير، والتسكع مع بعض أصدقائه الليليين الذين يمكنهم مساعدته. يحبها كالعادة؛ لكن عليه العودة إلى الأدب والجمهور.

ذات ليلة حضر مأدبة تكريم زميلٍ له نشر للتو مجلدًا من الشعر. كان حفلًا شبابيًا، استعراضًا للقوة وللتماسك لكي يغضب العجائز. نظفت فلي بدلتة بعناية فائقة، ووضعت على منديله بضع قطرات من عطر لا يزال باقي في قاع زجاجة؛ أضافت زوجًا من البيزيتا، لما قد يحدث، من الدورو (سعر وجبة الطعام)، والذي أخذته بحزنٍ مما كانت تسميه «رأس مال المنزل»، الذي يتضاءل أكثر في كل مرة.

الساعة الثالثة صباحًا عندما استيقظت فلي وهي تشعر بلمسة يد على جبهتها. أول ما رأت كان وجه إسيدرو، لكنه تغير، مع وجنتيه الحمراءوين، وعينه تتألقان بلمعان غير عادي. ثم شمت رائحة الزهور الذابلة ورأت عدة باقات مبعثرة على السرير، والتي بلا شك تستخدم لتزيين أدوات المائدة قبل بدء المأدبة.

صرخ مالترانا مع اهتزاز جعل فلي تضحك:

- عاش الفن! يعيش الجمال الأبدي! عاش الشباب المنتصر!

صاحت الفتاة:

- لكن اصمت أيها الملعون! ابدأ في الصراخ، وابتهج بالنبيذ؛ لأنه يبدو لي أنك أتيت إليّ بشيء مميز.

- أنا في حالة سُكر، هذا صحيح؛ في حالة سُكر من الحماس، من الحياة، من الإلهام... المستقبل لنا عزيزتي؛ سنتنصر نحن الشباب. أنت الجميلة، مصدر وحي للشباب.. دعيني أغطيكَ بالورد.

وضحك مثل ولد صغير شقي، ألقى في وجهها باقات الزهور.

اعترضت فلي:

- لكن إسيدرو يا عزيزي ستوقظ السيد بيثنت!

- لينزعج خادم الكنيسة؛ ليتضايق خادم القداس. لتسقط الظلامية!

يعيش الفن والشباب!

جعل السُّكر المبهج مالترانا ينظر إلى فلي بعينين محبتين. ما أجملها في فوضى النعاس، بشعرٍ أشعث وخدودٍ وردية، تُظهر صدرها ذا شحوب زهرة الكاميليا الناعمة من خلال التطريز المتواضع لقميصها، يتقاطع خلف رأسها عاج ذراعيها المستديرتين! كانت ملهمة الشباب. إسيدرو يقبل وجهها، كتفيها، ثدييها، وفي جميع الزوايا الرائعة من جسدها التي تكشف عنه الفتاة وهي تتقلب في السرير، وهي ترتجف تحت وابل المداعبات، مما جعلها تُطلق ضحكات وتأوهات مختنقة من دغدغة لا تُقاوم.

كانت تئن ضاحكة:

- اتركني أيها السيء. اتركني أو أصرخ.

واصل مالترانا تقبيلها، قاطعاً مداعباته بكلمات حماسية:

- اصرخي كما تريدين... لكنني لن أدعك. يجب أن أفتك بك،

أقتلك بالقبلات... أنا أعشقتك. أنت فينوس دي ميلو^(١)... فينوس دي

ميلو، لا، يا لها من وحشية! ليس لديها ذراعان، وذراعاك جميلتان جداً..

أنت واحدة من ميديشي^(٢)، واحدة من تماثيل كانوفا^(٣)، كابيتولينا^(٤)،

هذا كل شيء! كابيتولينا، التي هي أكثر عُرياً بين جميع تماثيل فينوس...

دعيني أقبلك على ركبتيك، دعيني أعشقتك.

وفي إفراط سُكره، تظاهر بالبحو لتقبيل ساقها التي تظهر من بين

مفارش السرير.

تبسم فلي لانفعالات حبيها. كان من دواعي سرورها أن تراه

(١) فينوس دي ميلو: من أشهر التماثيل الكلاسيكية القديمة المنحوتة من الرخام، سُمِّي نسبة إلى ميلوس، وهي إحدى جزر اليونان المكان الذي نُحت فيه وضاع فيه. ويُعرف أحياناً بأفروديت الميلوسية.

(٢) ميديشي: آل ميديشي، أحد أشهر عائلات فلورنسا، والتي لعبت الدور الأهم في تاريخها اقتصادياً وسياسياً وثقافياً بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، وخرج من هذه العائلة ملكتان وثلاثة بابوات.

(٣) كانوفا: أنطونيو كانوفا، نحّات ورسام إيطالي، اشتهر بنحته للرخام، حيث ركزت أعماله على التماثيل العارية.

(٤) كابيتولينا: هي كلوديا كابيتولينا، امرأة يونانية مصرية عاشت في الإمبراطورية الرومانية، في القرن الأول وربما في القرن الثاني.

سعيدًا. لقد نامت وهي تفكر في ضرورة إخباره بشيء... شيء مهم للغاية.

أمال مالترانا رأسه ليستمع بشكل أفضل.
-تحدثني.. أخبريني ما هذا.

لكن فلي قاومت الكلام، وأخفت وجهها بينما احمر خذاها بشدة. لا؛ ليس بهذه الطريقة. كانت تخشى أن يسمعها أحد؛ أن تصل كلماتها إلى التقى، الذي ينام على الجانب الآخر من الجدار الفاصل.

مدت ذراعيها لتمسك برأس إسيدرو وقربته من فمها، وهي تهمس في أذنه لفترة طويلة، بتدليل طفولي.

عندما استوى مالترانا في جلسته، لم تعد عيناه تلمعان. تبدد المظهر المفرح لسُكره؛ لقد فقد الرغبة في تشجيع الشباب والفن.
لقد ألقت الأبوة للتو حمل الهموم، العواطف الجادة والواجبات الشاقة في منتصف طريق حبه.

ابن! وداعًا أيها الشباب. اعتقد مالترانا أن عباءة السنين الرصاصية سقطت فجأة من فوق كتفيه؛ رأى البؤس الذي يعيش فيه أكثر قتامة وحزنًا.

لقد كان شعورًا لا يمكن تحديده، اختلط فيه الرضى بالخوف. كانت شخصيته ستنقسم، وتمتد على مدار حياته.

هذا جعله رجلًا. لكنه اعتقد أنه شعر بشيء من حوله انفصل عنه. ضاع الشباب المبتهج -دون مسؤوليات أو التزامات- إلى الأبد. من بعيد، كان يسحق الوهم أجنته الماسية في أثناء الهروب.

عانى مالترانا من تغيير كبير في حياته. فالمال يختفي، دون أن يكون الدخل البطيء وغير المنتظم كافياً لإعالة المنزل.

بدت له فلي أقل سروراً. تعامل إسيدرو بالمودة المعتادة، تهتم به وتدله بذلك العشق الذي يجعلها تقية أكثر من كونها عاشقة، لكنها عانت من أزمات حزن لا يمكن تفسيرها، ويبدو أنها أصابته بالعدوى. في كثير من الأحيان -عند عودة إسيدرو إلى المنزل- يفاجئها مستلقية على السرير، وتبكي صامتة. فيصرخ بنبرة غاضبة:

- لكن ماذا لديك؟ ماذا دهاك؟

لا شيء. تبكي دون معرفة السبب. تضعضع الأمومة جسمها الضعيف. اجتاحتها حزنٌ شديد، عذَّب خيالها. تفكر في الكائن الغامض الذي تحمله في أحشائها، ماذا ستكون ثروته عندما يخرج إلى العالم، في البؤس الذي يحوم حولهما، يهددهما بكل أنواع الحرمان.

في بعض الأحيان، يتفاجأ إسيدرو بفضول مزعج في نظرتها، كأنها تنظر إليه لأول مرة، كأنها تتفحصه في ضوءٍ جديد، فتراه قد تغير تماماً.

بدأت فلي تشك فيه: إيمانها ينهار بعض الشيء. كما لو أن الأمومة أجهدت عقلها، تتساءل الفتاة عما إذا كان إسيدرو عظيمًا كما اعتقدت؟ هل الشيء الأساسي الذي ينقص ذلك الرجل هو الرغبة في العمل؟ إنه متردد ومضطرب، حيث كان وسط خطر البؤس يقضي جزءًا كبيرًا من اليوم في نسيان وضعه، ويثرثر في الأثنيو وفي المقاهي حول مستقبل الشباب، حول انحطاط العجائز، حول ما يجب أن يكون عليه الفن، معلنًا بصوت عالٍ أنه يخطط لكتابة أشياء عظيمة، ولكن من دون قوة لالتقاط القلم، دون مثابرة في العمل.

تفكر فلي في كل هذا بشكلٍ غامض، وهو ما اكتشفه إسيدرو في نظراتها. هو -من جانبه وهو يراقبها وبدهشة أقل- يشعر أن حبه قل بعض الشيء، معترفًا بأن هناك امتنانًا أكثر من العاطفة التي لا تقاوم.

لقد أحب فلي بعاطفةٍ جديدة، وديعة وهادئة.

لم يبقَ من العاشق الشغوف الذي ركع أمامها مع نشوة جسدية، ودعاها فينوس، سوى القليل... فينوس المسكينة! شوهت الأمومة الإلهة. يشق انتفاخ رهيب الخطوط المتجانسة ويمدد المنحنيات الرائعة. تلك الأحذية ذات اللون الليموني التي كانت مصدر فخر لفلي لم تعد تناسب قدميها. تشعر الفتاة باضطراب في أمعائها على شكل غثيان، ودوار وانهايار عصبي، وكان مالترانا -مع أنانية رجل متفوق- يغادر المنزل، بحثًا عن علاج أصدقائه اللطيف.

تزامنت حالة فلي غير الطبيعية مع حدث جعل إسيدرو يخشى على حياة الفتاة.

ذات صباح ظهر السيد مانولو الفيدرالي . استقبلته فلي - التي لم تره منذ هروبها من منزل والدها - ببوادر مودة كبيرة. والأب؟ لكن السيد مانولو أجاب بصعوبة. كان بحاجة لإخبار إسيذرو شيئاً مثيراً للاهتمام؛ دعاه إلى النزول إلى الشارع، للتعبير عن نفسه بحرية أكبر.

نزل مالترانا خلفه، مستشعراً شيئاً خطيراً في مظهر رئيس العمال المتجههم. سأله وهو يقف على الرصيف:

- أنت لم تقرأ صحف اليوم؟ مات موسكو؛ بل قتلوه. لقد حصل التابعون على ما يريدونه.

وحكى الموت المأساوي لأخيه. خصصت الصحف بضعة أسطر لهذا الحدث. لم يجذب ذلك القتل على الأراضي الملكية الاهتمام. وقع موسكو ومساعدته تشيسباس في كمين نصبه الحراس. مات المعلم ممزقاً بالرصاص؛ أما تلميذه ورفيقه في المستشفى فسقط برصاصتين في كتفه. وأكدت بعض الصحف - عند حديثها عن الحادث - أن الضحيتين كانا مخربين خطرين تصديا للحراس؛ وقالت جرائد معارضة إنهما فقيران يتضوران جوعاً لم يدخلوا ملكية العائلة إلا لقطف الهندباء البرية.

تابع رئيس العمال:

- كان الأمر مساء أول البارحة. عرفت أمس مساء؛ جاؤوا ليخبروني من لاس كارولينا... لم أرغب في الذهاب لرؤيته. لماذا؟ هل سأقوم بإحيائه؟ سيُدفن بالفعل؛ أولئك الذين رأوه يقولون إنه أثار الشفقة. رصاصة في الجبين وأخرى في الفم: رصاص في كل مكان.

بالكاد يتمكن الأصدقاء من التعرف عليه؛ كان مشوهاً جداً. يا إلهي! هل هكذا يقتل الرجال؟ لا أعرف كم تجمعوا؛ يعرفون من أين سيمر، وبهدوء تام، مختبئين وراء الشجيرات، أطلقوا النار، دون أن يتمكن المسكين من وضع يده على بندقيته... سيكونون سعداء! لن يفكروا بعد الآن في موسكو؛ مصدر قلقهم! المسكين تشيسباس، عندما يُشفى، إذا شُفي، سيذهب إلى السجن... إنه لمن الجنون يا إسيدرو التفكير في أن مثل هؤلاء الرجال يموتون مثل الكلاب؛ لأنهم يريدون العيش على الفئاض عن الحاجة، على ما لا يحتاجه الآخرون الذين يصطادون مثل الوحوش، دون أن يرتكبوا أي جريمة أخرى غير جمع بعض الأرنب.. الخناجر! وبعد ذلك لا يزالون متفاجئين أننا نطالب بالثورة!

أثر موت موسكو في مالترانا بشكلٍ كبير. لقد فكر وهو يشعر بتأنيب ضمير لربما كان له دور ما في هذه الكارثة. المخرب -مدفوعاً بالغضب- استسلم لرحلاته المحفوفة بالمخاطر، كأنه يتحدّى الموت. ثم فكر إسيدرو في شريكته، المتوترة والمحطمة بسبب حالتها الجسدية؛ في خطورة نقل الأخبار إليها، ما لم تُعرّض أزمّةً جديدةً صحتها للخطر. عندما صعد، كانت فلي تنتظره بنظرة استجواب ووجه حزين، كأن غريزة الأنوثة حذرتها من المصيبة. فقط بسبب أمر هام يمكن أن يقرر عمها زيارتهما. لقد كان أمراً يخص والدها، أليس كذلك؟ هل قرر -أخيراً- البحث عنهما؟ هل سيظهر في أي لحظة؟

أرهفت الالتفاتات -التي قام بها إسيدرو للإجابة- غرائزها. في لحظة لمحت الحقيقة. غمغت:

- لا تقل أكثر يا إسيدرو. لا تجهد نفسك. لا تخف عليّ. أنا قوية.
هل قتلوه في الغابة؟

استقبلت بهدوء الأخبار المأساوية. تعجب مالترانا بثناتها: كانت ابنة موسكو الجديرة. تلك المرأة الصغيرة الضعيفة، التي تبكي في كثير من الأحيان دون سبب، ظلت بلا حراك، وعيناها جافتان، عندما علمت بالمصيبة.

تتوقع هذه النهاية منذ فترة طويلة. في ليالٍ كثيرة ترى في أحلامها والدها مغطى بالدماء، ويموت تحت بنادق الحراس، الذين أعطوه الضربة القاضية. لقد اعتادت على إمكانية حدوث ذلك خلال سنوات حياتها في لاس كاروليناس بجانب المخرب.

بالكاد بكت. وقفت مصعوقة مخبولة بسبب المفاجأة. رأى مالترانا -عندما عاد إلى المنزل ليلاً- عينيها حمراوين، كأنها عندما وجدت نفسها وحيدة، شعرت بقوة المصيبة، واستسلمت للبكاء ساعاتٍ طويلة. بدا أن هناك سؤالاً يتجول عبر شفثيها، يعذبها بقلقٍ شديد. قالت أخيراً:

-هل تعتقد -يا إسيدرو- أن ليس لنا ذنبٌ في وفاة أبي؟

أثار السؤال نفسه استفهامات في ذهن مالترانا؛ لكنه سارع إلى طمأنة صاحبه. لا؛ لا مسؤولية تقع عليهما. مات موسكو لأنه متهور. كانت النهاية المنطقية لحياة المغامرة، لتلك الطريقة الجريئة لكسب العيش مجازفاً بحياته. ألم ترّيه يصل إلى البيت مراتٍ كثيرة يقطر الدم من جروحٍ فظيعة!

بدت فلي كأنها تهدأ، لهذا توقفت عن البكاء عندما رأت نفسها وحيدة. أتى السيد مانولو عدة مرات إلى المنزل لينبه الشابين إلى ميراث موسكو الضئيل. فقد باع إلى أهالي تطوان كلاب المخرب الشهيرة، وعُدة الصيد الخاصة به، وكل ما يحتويه منزل لاس كاروليناس الصغير. وبهذه الطريقة جمع حوالي ستين دورو، أعطاها لفلي، التي احتفظت بها دون أن تقول أي شيء لإسيدرو.

كانوا بحاجة إلى المال. أصبح الجو حارًا، وأنقلتهم ملابسهم الشتوية، رغم أنها بالية، بوزنٍ خائق. كلاهما يرتدي ملابس سوداء من متاجر شارع تولدو الرخيصة.

فلي -في هذا الطقم الثاني- لم تعد تسمح لنفسها بأي نزوة. لماذا تتزين؟ شوه الحمل جسدها الضعيف والرقيق. تُمضي أسابيع كاملة دون أن تغادر غرفتها، دون أن تطل من النافذة. تفتقر إلى القوة لترتدي ملابسها. وبحماس إرادتها تصل إلى المطبخ، وهي تسعل وترتجف من الغثيان، وتعد الطعام.

هي -التي اعتنت من قبل بملابس إسيدرو عناية شديدة، وأظهرت تصميمًا على تمييزه عن رفاقه بنظافته- تخلت عنها الآن، دون إلقاء نظرة على ياقاته الدهنية، على بناطيله المنقطة بطين الأمطار البعيدة.

أمنيته أن تكون بمفردها، أن يتعد إسيدرو؛ وتظل بلا حراك ساعاتٍ كاملة، وهي جالسة على الكرسي الصغير القديم الذي يشغله حببها أثناء الكتابة، وهي تحرق بثبات التنويم المغناطيسي في بطنها المبالغ فيه، الهائل، الذي يرتفع ويرتفع، وهو يسحب تنانيرها، ويكشف عن قدميها المتورمتين.

في بعض الليالي، في صمت غرفة النوم، كانت تظهر لمالترانا تلك الكرة الأرضية من الجلد المشدود، التي انتفضت من الداخل بسبب هزات غامضة. لقد كان الخوف قلق المبتدئة أمام الظاهرة غير العادية.

تسأل بصوتٍ مرتعش:

- هل سألد اثنين؟ أنت من تعرف الكثير، ألا تدرك أن هذا كثير جدًا؟

لكن إسيدرو يجيب بمزاج سيئ. حملها هو نفسه مثل الآخرين. عليها أن تتركه وشأنه. لديه أمور أكثر جدية يفكر فيها؛ كان يائسًا بسبب المظالم التي تعرض لها. لا أحد يهتم بالشباب؛ ولا يفسحون لهم الطريق.

وبعد هذا النواح نام، بينما تمرر في -في الظلام- يدها الاستجوابية فوق ذلك الجبل، مصدر الفرح والقلق في الوقت نفسه.

في الساعات الأولى من الليل -عندما كانت في بمفردها- دخل السيد بيثنت غرفة ضيوفه للحظة. كأن على الشابة أن تمنحه بعض الرسائل، قرر الورع أن يعبر الباب.

في أثناء غيابه أتى بعض الأصدقاء يسألون عنه. كان هؤلاء قسيسًا عجوزًا ذا ثوب بالٍ لونه أخضر مائل للسواد، مجنون وفقير مثل السيد بيثنت، وعددًا من الإخوة من الأخوية الدينية، وصانع الأحذية المرعب الذي كلفته توبته أفضل سنوات حياته. كلهم متدينون وصالحون، يستحقون أسمى ثناء من «القديس».

يستمع لتفسيرات الشابة مع حركات برأسه. أخبرها فلان ألا تمتنع عن الذهاب إلى كنيسة سانتا كروث في اليوم التالي، حيث كانت جنازة سيد من المؤتمرات الكاثوليكية. ترك الكاهن العجوز رزمتين من الورقيات في غرفته ليوزعهما. أتى صانع الأحذية مرتين بوجه متجههم باحثاً في عجلة كبيرة. سيحتاج إلى المال: كانت تكلفه هذه التوبة ثمنًا باهظًا.

يستمع السيد بيثت إليها وهو مبتسم، ثم لاحظ هيئتها.

- وأنت كيف حالك؟ كيف يسير هذا الحمل؟

منذ رآها في مثل هذه الحالة، تحدث معها بثقة أكبر. مشوهة بسبب الانتفاخ، ثقيلة ومتألّمة، غير قادرة على الحركة دون تنهدات ألم، لم يعد داخلها ذلك الخوف الذي تشعر به كل أنثى. كانت الأمومة المؤلمة تقدس المرأة، وتتيح لها الاقتراب منها بلا خوف ولا اشمئزاز، وتعاملها ببساطة أمومية.

- لا بد أنك تعانين كثيرًا. في بعض الليالي أسمعك تتقلبين في الفراش.. اصبري؛ إنها العقوبة التي فرضها الله علينا لعصيان المرأة الأولى. علينا جميعًا أن نتحمل الذنب.

استشارته فلي بثقة بريئة، كأنها في حضرة جارة مقربة من الحي. لم يكن السيد بيثت رجلًا؛ فالجنون الديني حرمه من ممارسة الجنس. تئن وهي تتحدث معه عن انتفاخ بطنها المزعج. أخبرته عن رعبها. هل كان ذلك طبيعيًا؟ ماذا يظن الأخ الصالح؟

ونظر السيد بيثنت العفيف إلى بطنها المتنفخ، دون أي تردد، كأن الأمومة وظيفة لا أصل لها، لم يكن يتدخل فيها الحب إطلاقاً.

يشك -في خيالاته التقية- إذا كان هذا الحمل يخفي شيئاً خارقاً للطبيعة، وهو آية الإرادة الإلهية.

سأل فلي -التي تُجيبه باستغراب-: ألم يقل لها الكائن الذي تحمله في أحشائها شيئاً؟ ألم يكلمها من قبل أو يُظهر رغبته بأصوات غريبة؟
تابع:

- أنتِ تُخطئين، إذا كنتِ تعتقدين أنني أقول هذا بحماقة وبعجنون. فأنا قرأت شيئاً ما. هنا في الداخل لديّ حياة القديس بيثنت فريير، شفيعي الشريف، الذي يدعوه مداحه «القديس بابلو الإسباني». لا تتخيلي أنه كتيب من كتيبات اليوم، ولكنه مجلد به أغلفة من الرق، مطبوع منذ قرون، ومؤلفه هو الأب الموقر بالدثيرو، وهو رجل محترم له شهرة عظيمة بسبب الأعمال التي كتبها عن حياة الحيوانات... فيخبرنا الأب بالدثيرو أن والدة القديس -عندما كانت حاملاً- شعرت بقلق كبير ومخاوف بسبب عدم تناسب رحمها والضوضاء التي يُحدثها المخلوق. ظنت في بعض الليالي أنها تسمع نباحاً في أحشائها، وملاًها الخوف، ذهبت للتشاور مع رئيس أساقفة بلنسية، الذي كان قديساً وحكيماً. قال الأسقف: «لا تخافي يا امرأة؛ إذا نبج ابنك في رحمك؛ فذلك لأن الله يريد أن يكون كلب كنيسة الدرواس العظيم، الذي سيقا تل ذئب الهرطقة». هكذا يرويها الأب بالدثيرو، الذي كان رجلاً علامّة، وغير قادر على الكذب. رفق الله لا ينتهي أبداً. من يدري لعله يريد أن يكرر

معجزاته فيك، فيُخرج كلب درواس آخر من ذلك الرحم للدفاع عن قطيعه!

رَقْتُ فِلي من بساطة الورع، واستاءت في نفس الوقت من مهمة الحيوان التي نسبها إلى ابن أحشائها. قالت مشيرةً إلى بطنها:

- حسنًا - هو، يا سيد بيثنت - هو، في الوقت الحالي، لا يقلد شفيعلك.. لم ينبح بعد.

تابع الأخ:

- داخلِك إيمان برفق الرب. سيحين كل شيء، وهكذا ستحدث الخطوة السيئة، سأجلب لك بعض الآثار المُعجِزة لصديق لي، وشريطًا للعدراء يصنع العجائب.

بدأ الصيف. جدّف إسيذرو بيأس عندما رأى أن كل الأشخاص الذين يمكنهم مساعدته غائبون عن مدريد. لم يتمكن من العثور على عمل: أوقف الناشرون أعمالهم؛ لا يحتاج مترجم إلى مساعدة؛ ملأت الصحف الأسبوعية المصورة صفحاتها بالنقوش التي تصور صيف الملوك والطبقة الأرستقراطية على شواطئ الشمال، دون ترك مجال لمقالٍ سيء.

استيقظت كل الروائح الكريهة لمدريد، التي كانت نائمة خلال الشتاء، وعادت إلى الحياة عندما حل الحر. كانت الاسطبلات ومزارع الألبان تبعث رائحة كريهة نتيجة تخمير الروث؛ وتطرد أفواه البلوعات تعفن أحشائها؛ حتى خيول عربات الأجرة - في فترات انتظارها

الطويلة- ترفع ذيلها، وتُشرب الجو برائحة الشعير الكريهة المفرط الطهي والقش المتعفن.

الشارع أكثر ضجيجًا مما كان عليه في بقية العام. يبدو أن الأطفال تُولد بين حصى البلاط: عصابات صاخبة تشغل الأرضة، منغمسين في ألعابهم في حرية البلدة. أفسحت الشرفات -المفتوحة بسبب الحر- المجال الواسع أمام ضجيج العربة التي تندرج، والبائع الذي ينادي، والمبرة التي تشخذ الأسنان بصريها، والبيانو المتجول الذي لا يعرف الكلل، مما يسبب الصداع النصفى العام مع تقلباته. كان الشارع -كأنه اتسع بفعل الحرارة- يُدخل من خلال جميع الفجوات، نتانته وضوضاءه إلى أكثر زوايا المنازل عمقًا.

تحترق الغرف التي يسكنها الشبان من الصباح إلى الليل تحت لهيب الشمس. تنزل حرارة خانقة من السقف، كأن فرناً يحترق فوقه. فلي -عارية الصدر، متعركة- تتنفس بصعوبة، تجر قدميها متحركة من جانب إلى آخر، غارقة في هذه الحرارة التي كانت عذابًا جديدًا. كان خشب الأثاث، الطاولات التي تشغلها كتب التقي والتي كان يتحرك فوق أغلفتها المثربة العث، يصرون في أثناء الليل، مع طقطقة مزعجة. الجدران الساخنة تطرد من حضنها طفيليات الصيف. البق يسقط من السقف، والبراغيث تقفز على البلاط الصغير. لم يستطيع السيد بيثنت إزالة أكوام مجلداته دون تناثر الصراير في عجلة مقرزة.

تشعر فلي أن الغثيان وفقدان الشهية يزدادان مع هذه الولادة الجديدة المقرفة التي تحيط بها.

بالكاد تأكل . كانت قلة المال، ومخاوف البؤس، تزيد ضعفها . يراها
مالترانا تذبل، وتفقد حيوية شبابها، كأن ذلك الكائن الخفي يستهلكها
ملتهمًا أفضل ما في حياتها.

يعاني الشاب أيضًا من أزمات كبيرة من خمود الهمة . يعود
إلى المنزل بتعبير حزين، يسقط على السرير، وهو يقول إنه يريد أن
يموت . لم يتمكن من العثور على عمل . ينتقل من مكان إلى آخر لزبارة
الأصدقاء، ويظهر في مكاتب تحرير المجلات، دون الحصول على
ترجمة أو تسليمه مقالًا . الحياة مشلولة: كل من يستطيع أن يعطيه شيئًا
كان غائبًا .

لقد سعى وراء ماركيز خيمينث، على أمل أن يلهمه بعملٍ جديد؛
لكن الشخصية المهمة كانت غائبة أيضًا . يقضي الصيف في إحدى
مزارعه، وينوي البقاء هناك حتى الشتاء .

في لحظات الكآبة هذه، يدرك إسيدرو مدى بؤس وضعه . ذراعاه
ضعيفتان، ويداه رقيقتان؛ حتى أنه لم يكن يمتلك القدرة الجسدية ليكون
عتالًا لكسب رزقه .

يتذكر بمرارة الخطب التي قرأها مراتٍ عديدة عن بؤس المحرومين
من الطبقة العاملة . آه ! هم - على الأقل - لم يكونوا يتضورون جوعًا في
منتصف الشارع . يجد الرجل المتعب دائمًا كِسرة خبز ناشف وكأسًا من
البيبذ ليخرج من متاعبه . لكن ماذا عنه؟ ماذا سيحل به، مسمومًا بأفكارٍ
لم تنفعه، مفتقرًا للقوة الوحشية التي يكسب بها البؤساء ذو القمصان
خبزهم؟

في لحظات اليأس هذه، يفكر في حامل البكالوريا، لجولس ديل، وهو أحد الأعمال التي أثارت إعجابه كثيرًا، لأنه رأى فيه التاريخ المظلم لحياته. تبادر إلى ذاكرته إهداء الكتاب الكئيب ذو الحزن الشديد: «إلى كل أولئك، المقتاتين على اليونانية واللاتينية، الذين يتضورون جوعًا». كان ينتمي إلى هذا الفيلق من البؤساء، الذين لم تجد شكواهم صدًى، الذين توسلوا للحصول على الخبز مع حياء وخجل من سترتهم الطويلة البالية، الذين يضحكون مع بشاعة بؤسهم، دون الغرق في الخوف مثل العمال اليدويين.

فكر مالترانا لأول مرة إذا كان الخطأ الكبير في حياته هو السماح باقتلعه من حقل البؤس الذي وُلد فيه؛ إذا كانت تلك السيدة الطيبة راعيته، دون أن تعرف ذلك أو تريده، هي جنية مصيره السيئة؛ إذا كان محكومًا عليه بالجوع الأبدي لأنه حلم بالمجد، وبارتدائه ملابس البوهيمية الرثة، عندما يتمثل سلامه في الاستمرار داخل قميص شيوخه. وجدت فلي -على الرغم من ضعفها- القوة لتشجيعه. المال ينفد، وليس لديهما أمل في المزيد. لكنها ستساعده: لقد اعتادت على العمل. والفتاة المسكينة -المصابة بفقر الدم بسبب نقص التغذية، المغمورة بوزن بطنها- داخلها انفجار من الطاقة الخارقة، من النوع الذي لا يمكن أن يحدثه سوى العصبية الأنثوية. كان من المستحيل عليها أن تعود إلى مصنع القبعات: لقد كان بعيدًا جدًا، بالإضافة إلى أنهم لن يقبلوها بعد فضيحة هروبها. لكنها تعرف مهناً أخرى تافهة وغير مهمة، من النوع المتاح للفتيات الفقيرات ومساعدتهن على درء الجوع. تصنع «الورد»

للمشدات وتزينه. تحتفظ بصداقةٍ مع صاحبة ورشة، بعد أن عملت فيها عندما كان العمل نادرًا في مصنع القبعات.

اعترض إسيدرو. تعمل هي، بينما يبقى هو في التقاعس القسري! تعمل، وهي مريضة، ويجبرها اضطراب جسمها على قضاء ساعات طويلة ساكنة! وداعًا، أيتها الشاعرية. اعتقد مالترانا أن نعيم المحبة سيهرب إلى الأبد بمجرد أن تتعرض تلك الأيدي الجميلة لعبودية الأجور. تستحوذ معدات البؤس على ضحاياها، ولم تسمح لهم أبدًا بالرحيل. إذا عملت، ستعيش دائمًا محكومًا عليها بالعمل: لن تعود البهجة والوفرة إلى عشها أبدًا. يموت كلاهما من البؤس، بدلًا من رؤية المحبوبة، فلي الحلوة، تهين نفسها مرةً أخرى بسبب متاعب العامل. كانت شابة.. زوجة كاتب.

استقبلت الفتاة هذه الاحتجاجات باستهجان. جعلها العقل الأثوي تحتقر مثل هذه المخاوف، وفي إحدى الليالي، عندما عاد مالترانا إلى منزله، رأى الغرفة مليئة بالمشدات البيضاء والمتواضعة، مشدات الفقراء، التي جمعتها فلي من الورشة. تُمضي الساعات ونصفها العلوي منحنيًا على بطنها الضخم، حيث تستقر عليه إطارات القماش. تصنع «الورد»: خياطة على شكل مثلث تزين نهايات عظام الحوت^(١). لقد كانت مهمة صعبة وذات أجور زهيدة، مثل جميع وظائف النساء.

كان إسيدرو غاضبًا. هل تريد قتل نفسها؟ لكن ابتسامة فلي تضمنت

(١) عظام الحوت: تُستخدم عظام الحوت لصناعة المشدات، خاصةً حوت البالين المحتوي فكه العلوي على مئات من الألواح القرنية التي تُستخدم لتقوية المشدات.

احتياجاتها. تشير بعينها إلى درج الخزانة حيث تحتفظ بالمال. لم يتبقَّ سوى القليل من البيزيتا التي أحضرها لهما العم مانولو. لم يدفع إيجار الشهرين الأخيرين للسيد بيثنت؛ هما مدينان لمتاجر مختلفة في الشارع؛ عليه أن يتخلى عن البيزيتا التي تعطيه إياها من وقتٍ لآخر من أجل التبغ، و«مآدب الشباب»، وتلك النفقات التي يعتبرها ضرورية «ليجعل نفسه مرئياً»، و«لتجديد» اسمه الأدبي.

البؤس يقترب، لكن البؤس الحقيقي، الكئيب، بلا هدنة ولا رحمة. تتكهن به فلي، تفتح عينها الكبيرتين المليئتين بالغموض، كأنها رأت جسده يحوم حولهما. يبدو أن الكائن الذي تحمله في أحشائها يشعر أيضاً بقرب الشبح. يهتز قلقاً بشكلٍ متزايد، ووالدته تبكي وهي تفكر في مصيره. سيكون الفقر الحنيّة الوحيدة التي تحتضنه عندما يظهر في العالم. فلو لم يكن لدى الحظ رحمة، ففضل أن يموت الكائن البريء في محبسه قبل أن تراه، قبل أن تشعر بأن العطف استعبدها.

انكبت على العمل بشجاعة أنثوية، مظهرة هذه المقاومة التي لا يقدر عليها إلا الكائنات العصبية. كان مالترانا يرى، عند استيقاظه، فلي أمام كومة من المِشدات، تخطيها بحماس. تحني وجهها النحيل بسبب الضعف، وتتابع تقدم الإبرة بعينها العميقتين الحزبتين، الجمال الوحيد الذي لا يزال نقيّاً فيها. يضطر إسيديرو -عند عودته إلى المنزل في وقتٍ متأخر من الليل- إلى بذل جهود كبيرة لحملها على النوم.

-أتركني أنهي هذه الدزينة.

تقول دون أن ترفع رأسها، مثابرةً في عملها، حريصة على ألا تضيع
ثانية.

يشعر مالترانا بالخجل من هذه التضحية. يتذكر فلي وهو في الشارع
بتأنيب ضمير. كان أمراً بغيضاً أن يتجول هو بلا نشاط، بينما الشابة
المسكينة تعيش وهي تعمل في هذا الجو الحار جداً. يشعر بالحاجة
إلى مرافقتها، يعتقد أن وجوده يخفي نوعاً ما عار وضعه. عند عودته
إلى المنزل، ينتقل من كرسي إلى كرسي، وهو يقرأ، يكتب، يتحدث،
ليخفي ملله. في بعض الأحيان، بسبب نقص الكتب؛ لأنه باع كتبه كلها
ذات القيمة، يُخرج واحداً من مكتبة السيد بيثنت، ويحاول أن يضحك
على مُغالاة الورع في حياة القديسين. لكن الوقت لم يكن للضحكات،
ويتهى به الأمر بإعادة الكتب الغليظة التي أكلها العث إلى رفوفها. في
أحيانٍ أخرى يشعر برغبة في العمل، ليلحق بمستوى رفيقته المتحمسة.
سيفعل شيئاً رائعاً: كان رأسه مليئاً بالأفكار. يجلس على المائدة،
يغمس ريشته في المحبرة، يُربت على جبهته؛ لكن الإبرة تغني خلفه
وهي تخترق النسيج، تصرّ المشدات وهي تتراكم، الذباب يطن حول
رأسه، والحرارة الشديدة والخائقة تغطي جلده بلاكلي من العرق. يمزق
الأوراق والمزيد من الأوراق، وانتهى به الأمر إلى وضع قلمه بحركة
غاضبة. هرب الإلهام، خائفاً من ضجيج الأقمشة والتصاق الحشرات.
من المستحيل عليه أن يفعل أي شيء، وسينتهي به الأمر بالسير بعصبية،
وهو يقسم أنه أبله؛ حتى أن فلي -التي أزعجها غضبه- تتوسل إليه أن
يعود إلى الشارع بحثاً عن التسلية.

كرّس إسيدرو -الذي يشعر بالخجل من تقاعسه- نفسه لمرافقتها عندما إعادة القماش إلى الورشة؛ لأنه لم يتمكن من فعل شيئاً آخر. في المرة الأولى ترك فيها فلي المسكينة، وهي تجر ساقها وتسوق أحشاءها الثقيلة أمامها، تحمل الرزمة لأخذها بالقرب من بويرتا دل سول. هو مثقف -له عديد من الأصدقاء- وعلى الرغم من أن معظمهم خارج مدريد، يخشى أن يراه أحد يحمل رزمة. لقد كانت حيرة أنانية، رغبة في الحفاظ على هيئته كرجل بئس عظيم وقور أمام البؤس. لكن عندما رأى فلي تحزم عملها للمرة الثانية، منتفخة من التعب، مستسلمة، بابتسامة حزينة، شعر بوخز الضمير العميق.

همهم محرّجاً:

-اتركي هذا يا عزيزتي. سأحزمه أنا، وسأحمله إلى باب المتجر. من الدناءة السماح لك بالذهاب بمفردك.

لا تزال المسكينة تقاوم قبول هذه المساعدة. لقد كان رجلاً نبيلًا، مفكرًا ونابعة مستقبلية. ماذا سيقول أصدقاؤه -رفاق القهوة- إذا رأوه في الشارع مُحملًا كالسّاعي؟ لكن إسيدرو قام بعمل لفطة لا مبالاة، على الرغم من الرعب الذي توحى به هذه اللقاءات. دعيهم يتحدثون كما يريدون. يريد أن يساعدها، وأن يكون مفيدًا لها.

يخرجان كل يومين بعد حلول الظلام، محملين بهذه الطرود، يعطون فلي بضعة ريالات مقابل عملها. كان مالترانا يتبع الرصيف بالقرب من الحائط، مع بعض الإحراج، وهو يُخفي وجهه، ويلقي نظرات زائغة ليتعرف على المارة. تبذل الشابة -على الرغم من بطاء

ساقياها- جهداً لمتابعة خطوته السريعة، مثل وقت هروبها. تلهث وهي تهرول، وبطنها يتمايل بشكل مؤلم.

العودة أكثر بطئاً وهدوءاً عندما لا يحملان شحنات عمل جديدة إلى المنزل. يسيران ممسكَي ذراعيهما على طول الأرصفة، وهما لا يزالان دافئين من حرارة النهار. تدخن البلدة وهي تتنفس في هدوء الليل النار التي سختتها بها الشمس. حركة المرور أقل كثافة في الشوارع مما كانت عليه في بقية العام. الشرفات مغلقة؛ بالكاد يمكن رؤية مستطيل من الضوء على الواجهات المظلمة. يتجمع الناس على الطاولات الصغيرة الخارجية للمقاهي ومحلات الهورتشاتا^(١). تجلس التجمعات في حشد أمام البوابات، تُسد الأرصفة. يُعلق في عدد من النوافذ إبريق ينضح ماءً. تصدر رائحة الأسفلت المحموم والروث المختمر من أرضية الطرق الكبيرة.

بالقرب من منزل السيد بيثنت، في الشوارع الضيقة للأحياء الفقيرة، تقتل رائحة الصيف الكريهة حاسة الشم. تدخن ساحة لا تُبادا مثل مزبلة متعفنة. من أقبية المبنى الخالية من الهواء، تظهر نتانة الخضار المختمر، منتشرة في جميع أنحاء هذا الجزء من مدريد، التي تفوح منها رائحة بستان مهجور.

(١) الهورتشاتا: من المشروبات التقليدية المصنوعة من اللوز المطحون وبذور السمسم والأرز والشعير أو المكسرات. يُقدم هذا المشروب بارداً باعتباره من المرطبات الطبيعية في فصل الصيف. وفي إسبانيا عادة ما يُصنع من حب العزيز والسكر والماء. وجاءت فكرة صنع الهورتشاتا من حب العزيز من فترة وجود المسلمين في بلنسية في الفترة من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر.

يناقش العاشقان -عند عودتهما البطيئة- استخدام المال الذي حصلوا عليه للتو. لم يكن كافياً لمعظم الاحتياجات البدائية. تحصل فلي على خمسين سنتاً مقابل كل دزينة من المشدات. بالكاد لو أنها عملت ليلاً ونهاراً، كان بإمكانها تجميع زوجين من البيزيتا. حسبت حساباتها بشكلٍ عقلي: سواء في الساحة الصغيرة، أو في المتجر؛ لم يكن هذا المال كافياً للخروج من المأزق، رغم أنها توقفا عن القهوة والنبيذ، ولا يأكلان أكثر مما هو ضروري حتى لا يتضورا جوعاً.

فكر مالترانا -عندما سمع هذا الأنين من ربة منزل- بحنين في الماضي. يا لها من ذكرى حلوة، ذكرى التنزه عبر الأراضي المسواة بالقرب من كاناليو، ذكرى الاستراحات في مطاعم الوجبات الخفيفة في أمانيل، وهما يتحدثان عن الحب، ويمرران البرتقال من الفم إلى الفم، سعداء بالشمس التي تملأ روحيهما ببهجة نورها، فرحين بالليل الذي يحميهما بظله، ويمنح مداعباتهما سحرًا جديدًا مع جمهورية صدى الليل! هرب كل شيء إلى الأبد؛ أصبح بعيدًا، مثلما تبدو فلي من الأوقات السعيدة أبعد، المسرورة، الباسمة والممتلئة بالدهشة، من هذه الأخرى، المشوهة بالأمومة، الحزينة من البؤس، وبإيماءة من الإحباط، كأنها لم يكن لديها إيمان بمستقبل رجلها واستسلمت للانزمام، ورعايته مثل طفل كبير، بحنو أمومي أكثر من حب عاطفي.

لم يعد مالترانا يفكر في ما إذا كانت الحياة مبهجة أم حزينة، سوداء أم وردية. ببساطة كانت الحياة مملة، وكانت الهيلينية مهزلة من الكتب. الأثينيون -دون مال، ودون أمل، ومع وجود أثني محبوبة تدعمهم-

كانوا بالتأكيد يرون كل شيء رماديًا، مع أن شمس الشعراء تتلألًا على مياه بيرايوس^(١)، مع أن رخام البارثينين^(٢) يلمع مع ابتسامة إلهية وعازفات الفلوت سيقضين اليوم ينفخن على مزاميرهن العذبة. الفقر هو الوحش الخرافي للقبح الذي لا يقهر. لم يكن هناك فن في العالم يمكن أن يجمل قناعه المرعب.

ذات ليلة، في أثناء مرورهما عبر بويرتا دل سول، انتبها إلى صراخ بائعي الصحف. ينادون «الكارثة الرهيبة» التي حدثت في ذلك الصباح، حيث سقط عدد لا يُحصى من القتلى والجرحى.

بقي إسيذرو في المنزل طوال اليوم، منشغلًا بكتابة بعض الوريقات، مقابل عشرة سنتات، لتلك المجلات الأسبوعية الاجتماعية التي تطلب تعاونه في الفترات المتقطعة التي تنشر فيها أعدادها. شعرت في بالانجذاب للحدث، بهذا الفضول الذي يوقظ الرعب في المخيلة الأنثوية.

اشترى الجريدة، وعلى ضوء فانوس قرأ مالترانا الملخص -بأحرف كبيرة- تُعنون قصة الحدث. انهيار المبنى الذي يعمل فيه السيد خوسيه في الساعات الأولى من الصباح. على الفور كان لدى مالترانا شعور مسبق بالمصيبة. قبل القراءة، كان على يقين من أن زوج

(١) بيرايوس: مدينة يونانية تقع جنوب العاصمة أثينا. تاريخيًا كانت ميناء مدينة أثينا القديمة، ولا تزال تلعب هذا الدور في الوقت الحالي.

(٢) البارثينون: معبد إغريقي في مدينة أثينا، يُعتبر من أفضل نماذج العمارة الإغريقية القديمة. بناه الإغريق في الفترة ما بين ٤٤٧ و ٤٣٢ ق.م.

والدته لقي حتفه بين أنقاض ذلك العمل المثير للصدمة، غير المسبوق، إلى درجة تشويش أفكار رجل صارم وجعله يفقد الإيمان في النظام الاجتماعي بالكامل. بحث في الورقة عن أسماء الضحايا. كان هناك عديد من الجرحى الذين يحتضرون في المستشفيات. تم انتشار جثة واحدة فقط من بين الأنقاض، وهي جثة العامل الوحيد الذي قُتل على الفور، وهو السيد خوسيه. تمت الإشارة إلى اسمه وعنوانه بدقة لم تترك مجالاً للشك.

شعر مالترانا بألم مفاجئ. تذكر والدته؛ فكر في الامتنان الذي يشعر به إيسيدرو بسبب لطف رفيقه. السيد خوسيه المسكين! لعله يتوقع أن الموت حرية، يتكهن بقرب ذلك الموت عندما عمل في المبنى المثير للاستنكار الذي كان موضع غضبه. كان الموت حلًا لذلك الرجل البسيط، الذي كان غاضبًا على عالم بعيد عن المبادئ السليمة وضد سوء الحظ الذي حوّل أبناء خدام القانون إلى تلاميذ الجريمة.

في اليوم التالي كانت الجنازة. اعتزم جميع البنائين في مدريد الاستفادة من استراحة منتصف النهار لحضورها، مما يمنحها معنى الاحتجاج على نهب الأقوياء.

أراد إيسيدرو أيضًا مرافقة الجثة إلى المقبرة. كل ما يستطيع فعله من أجل زوج والدته.

في صباح اليوم التالي، غادر إلى بوابة طليطلة قبل منتصف النهار بقليل. عند وصوله إلى الجسر، استدار يسارًا متجهًا إلى المشرحة، على ضفة النهر. سخّنت حرارة الشمس برك مائتانارس المليئة بالقذارة

من المجاري التي تصب فيها. تسمم رائحة المراحيض المغلية هواء الصيف الكثيف.

المناطق المحيطة بالمخزن تشغلها مجموعات من الرجال يرتدون قمصانًا بيضاء، ونساء تشمرن أكمامهن، وقد خرجن لتوهن من المغاسل.

يلقى الجميع على الكارثة بصرخات الغضب والشتائم. كانت النساء الأكثر جرأةً وصخبًا. ينظرن نحو مدريد رافعات أذرعهن بتعبير تهديد.

- لصوص! لصوص! يقتلون العمال ليصبحوا أثرياء. يهتمون فقط بالعمل، والفقراء يموتون كالكلاب.

ثم واجهن الرجال الذين وصلوا، جميعهم تقريبًا كانوا بنائين، يحملون كيسًا صغيرًا من الطعام معلقًا حول أعناقهم. يهينوهن بكلماتٍ وقحة. جناب! سيقون هادئين بعد هذا كما هو الحال دائمًا، منتظرين الوقت ليهلكوا في كارثةٍ أخرى. أوه، فقط لو كن يرتدين البناتيل! لو سُمح لهن فقط بالتدخل في شؤون الرجال، لكان الأمر مختلفًا.

يجيب البنائون بإيماءة محبطة. ماذا سيفعلون؟ لم يكن معهم أسلحة؛ سئموا من أن يضربوهم لأقل احتجاج في الشارع. يهتف بسخرية بعض الرفاق أصحاب الأعين الهائجة:

-أسلحة! أسلحة! ولماذا تريدونها؟ هذا غير مُجدٍ. ديناميت بالله عليكم! قنابل الديناميت!

دخل مالترانا المشرحة، وشق طريقه عبر حشد القمصان، ورأى
جثة السيد خوسيه على طاولة رخامية، داخل تابوت متواضع دفع ثمنه
العاملون في المهنة.

وبحسب ما قيل للشباب، فإن عموده الفقري مكسور، وهيكله
العظمي مهشم في عدة أجزاء. يبدو الوجه سليماً، متقلصاً بسبب إيماءة
من الألم الهائل. استطاع إيسيدرو رؤية واحدة من عينيه فقط، مفتوحة
بشكلٍ زائد، بدا أنه يثبت حدقة عينه الزجاجية عليه. اعتقد أنه قرأ في
هذا العالم الباهت، عن الغموض الحزين، آخر تفكير للضحية، اللعنة
التي مرت مثل البرق عبر دماغه عندما لم يعد موجوداً. لا شك أنه مات
وهو يبغيض التبجيل طوال حياته. يمكن قراءتها في تقلص وجهه: كان
مطبوعاً في تلك التكشيرات التي تبدو أنها تحتج. لو كان من الممكن
إحياء الجثة، فمن المؤكد أنها ستهتف بشيء تخريبي ضد المجتمع
الظالم، ضد الرجال القاسيين، مطالبة بالدمار والانتقام، من أجل
الاستلقاء مرةً أخرى في النعش بعد هذا الاعتراف الذي قاله بعد وفاته
عن خُدعة حياته.

بالقرب من التابوت يتحدث بعض زملائه في العمل. لن يطلقوا
عليه اسم «الخروف» بعد الآن. يحب المستغلين أكثر من رفاقه في
البؤس. المحنة، العمياء دائماً، واضحة هذه المرة عندما عاقبته بسبب
جشع أولئك الذين يدافع عنهم. يا للمسكين! ومع ذلك، كان واحداً
منهم: ضحية أخرى، يجب الاحتجاج لأجلها.

انتهى مالترانا من رؤية السيد خوسيه. قام رفاقه بإغلاق الصندوق

بالمسامير، وغطوه بعلم الجمعية الأحمر.

بدأ النعش في كسر أمواج الحشد، محمولاً على أكتاف مجموعة من البنائين. عندما غادر إسيذرو المشرحة، متتبّعاً القماش الأحمر، رأى ضفة النهر، الجسر وفسحة طليطلة مغطاة بالقمصان البيضاء، القبعات والقلنسوات التي ترتفع، تاركةً رؤوسهم مكشوفة عند مرور التابوت.

في فسحة جسر طليطلة، بين الهرمين الحجريين اللذين يرتكزان في قاعدتهما فوق كرتين ذهبيتين، مثل منضدتي سرير ضخمتين، رأى كتلة داكنة ذات نقاط لامعة: صف مضغوط من الرجال السود. الشرطة تغلق الطريق.

تم الدفن دون تردد. النساء تصيح حول التابوت، نائرات وباقيات، كأن شمس الصيف القاسية تقضم رؤوسهن الشعثاء بخيلٍ عدواني.

- لصوص! لصوص! إلى مدريد! لسحل القتلة!

تشير أخريات إلى النعش بإشارات النادبات المأساوية. لم يعرفن السيد خوسيه، لكنهن يهتفن بتهديدات من الانفعال:

- هناك يذهب شرف العالم؛ عامل جيد؛ رجل في قميص. يا للمسكين! ومن قتلوه يحتفظون بالدورو، ويأكلون القِطْع الجيدة!

واصطدم رئيس الموكب بحاجز الشرطة. تحدث ضابط برتبة نقيب للمتظاهرين. يمكنهم الاستمرار عبر متنزه لاس أكاثياس، والالتفاف حول مدريد عبر الطرق التي تحيط بالمدينة، دون إزعاج أي شخص. هذه هي الأوامر التي تلقوها. لن يدخل أحد المدينة، لعبور المركز، بحثاً

عن شارع ألكالا. هناك، في متنزه لوس أوتشو إيلوس، ليغلق طريقهم
ويمنعهم من الوصول إلى بوابة طليطلة. كل ما يريدونه، الصرخات،
البكاء، الهُتاف، كل شيء ما عدا السير في شوارع مدريد، وأن يشهد أهل
المركز الجنازة، مع موكب عمال اليومية الذين يطالبون بالانتقام.

ارتفعت فوق مجموعة الرؤوس -كردّ- عُصيان طويلة، وفي
نهايتها خرقة سوداء تشبه الكفن. كان علم الغضب والألم، الذي ارتجله
مجموعة من الفتیان.

النساء تحتج صارخة على أوامر الشرطة.

- هذا كل شيء: يجب أن نسير عبر الطرق المحيطة بالمدينة، مثل
الماشية التي تمر عرضاً... الفقراء في الإصطبل. لا يمكن لأي جنازات
أخرى أن تمر في شوارع مدريد غير جنازات السادة الذين يموتون من
الشبع أو الرذائل السيئة. هي للسيارات وعربات الأحصنة. نحن، نمر
من الطرق المحيطة بالمدينة؛ لأن رائجتنا كريهة. الموت للصوص!
السحل لهم! إلى مدريد! إلى مدريد!

وكانت النساء أول من تقدم، يمسكن بأطراف النعش، ويدفعن
حامليه حتى يكسروا صفوف الشرطة.

يتراجع رجال الشرطة دون التوقف عن مواجهة هذه الدفعة الهائلة،
وفي نفس الوقت، وبالقوة المعتادة، وضعوا أيديهم على السيوف وبدأوا
في إخراجها من الغمد قبل أن يأمر الرئيس بذلك. بدا أن عدداً منهم
يشكون بأعينهم من ضياع الوقت الذي استلزمته حوارات النقيب مع
المتظاهرين. ما الذي سيفعلونه لو لم يضرّبوا؟ لقد جاؤوا من أجل ذلك.

لم يعرف إسيدرو كيف بدأ الاشتباك. فجأة رأى الناس يتدافعون خلف النعش؛ رنت صرخات، ضربات قوية شبيهة بضربات الملابس التي تُنفَض. لمعت فوق رؤوس الحشد في الشمس -مثل الشرائط البيضاء- الأسياخ الثقيلة ذات الحواف.

افترق الحشد، فروا في اتجاهات مختلفة. في لحظة تشكل هذا الفراغ المأساوي الذي يمتد بين مَنْ يفر وَمَنْ يَضْرِب، وعلى الأرض قبعات مهملة وشبح أسود لرجل، بجمهة حمراء، سقط يحاول النهوض على يديه.

النساء أبطأ في الركض. توقف بعضهن وأذرعهن على خاصرتهن، تطلعن من أفواههن كل إهانات خيالهن النائر.

- جبناء! قذرون!

لو كنَّ يعرفن تاريخ كل واحدٍ من الحراس وعائلته، لعنفوهن على دناءتهم. هم هناك، يضربون العمال المساكين، وفي هذه الأثناء تذهب زوجاتهم إلى مواعيدهن... وبعد هذه الراحة، ركضن مرة أخرى عندما رأين أنهن اقتربوا وسيوفهن مرفوعة.

أكثر من ضربات السيف، أثارت عُصي بعض الرجال الذين لا يتردون الزي العسكري والذين ذهبوا إلى الجنازة واستمعوا إلى ما قيل في المجموعات المتظاهرة، والذين -عندما حدثت الضربات الأولى- رفعوا السوط، وضربوا مَنْ حَوْلهم. يهتف الحشد ضد أوغاد «الشرطة السرية».

وواجهت مجموعة من الشبان المتربصين -في الأراضي القفر المجاورة المهاجمين- بغطسة الشباب. لقد كانوا الشجعان الذين يظهرون في كل ثورة، أبطال الشوارع، الذين يتغنون بأسمى القصائد الشعرية عندما تنتصر ثورة، أو يذهبون إلى السجن مع اللصوص عندما يشاركون في تمرد.

- بنادق!

يزمجرعون -ناظرين بعضهم إلى بعض- كما لو كان بإمكانهم توفيرها.

- أوه، لو كان لدينا بنادق!

وكان هناك تعبير بطولي في تصرفهم، قرار الموت مقتولين، ومطاردة الأعداء إلى وسط مدريد. في ظل عدم وجود أسلحة، التقطوا الحجارة، الحُطام، قطع القصدير والأحذية القديمة من الأرض، وألقوا وابلًا من المقذوفات على الشرطة. كانت الشرطة -التي اعتادت ضرب الحشد الأعزل- تقف حائرة، مترددة مع بعض الذعر أمام عدو حازم، لم يكتفِ بالهجوم، بل يتقدم بجسارة.

بدا الأمر كأنه فرقة سوط. أطلق النقيب للتو النار من مسدسه.

- نار! اللعنة! إطلاق نار!

أطلق رجال الشرطة النار من مسدساتهم وهم يتقدمون بخطوة من الأبطال، واختاروا أهدافهم على تلك الظهور التي تفر في جميع الجهات.

فكر مالترانا في السيد خوسيه. كانت جنازته جديدة بمعتقدات حياته. لم يكن ينقصها شيء: عصي الأوغاد، إطلاق النار بحرية، بحماس كبير من المدافعين عن القانون، الذين يمكنهم اختيار ضحاياهم دون عقاب.

لم يرد الشاب أن يهرب: مكث بجوار النعش، مستشعرًا أن هناك سيكون أكثر سلامًا. بالإضافة إلى أنه كان القريب الوحيد للمتوفي في الموكب، ولا يجب أن يتخلى عنه.

ترك الحاملون -الذين تلقوا الضربات الأولى- التابوت يسقط على الأرض، وهم يفرون بسرعة. اختفى القماش الأحمر في الهروب. حاول عمال آخرون الاستحواذ على النعش ورفع، لكنهم دُفعوا بواسطة السيوف. كان هذا الصندوق الأسود بمثابة علم تمرد، يمكن تنظيم الثورة حوله مرةً أخرى. في أثناء عدم انتظام الحشد الهارب، كان التابوت على وشك التدحرج، وإطلاق البجته التي كان يحويها على غبار الطريق.

جلس إسيدرو على الصندوق الجنائزي، خوفًا من تدنيس جديد، وانسحب مذهولًا وخائفًا من ضجيج الطلقات. جاء أيضًا رجل بقميصٍ ليجلس على النعش، كأنه مكان لجوء.

سمع مالترانا صرخة، ورأى البلوزة البيضاء ملطخة بالدماء تتأرجح وتسقط على الأرض. ثم سطع فوق رأسه وميض سيف، وانكمش الشاب أكثر لتجنب الضربة. لكن لم يمسه أحد. مرت ثوانٍ قليلة بدت له بلا نهاية، دون أن يصاب جسده بأي صدمة. يعتقد أنه سمع صوتًا،

صوت بعض الأشباح السوداء التي، سواء بسيفٍ في اليد أو إطلاق نار،
يمرون أمام عينيه الخائفتين اللتين تريان كل شيء ملفوفًا في ضبابٍ
كثيف.

- دعه.. ألا ترى أنه رجل نبيل؟!

لأول مرة في حياته أدرك مزايا وامتيازات تلك البدلة التي كانت
بالنسبة إليه زي البؤس.

كان يعاني من الحرمان؛ يحوم الجوع حوله وهو يشير عليه كواحدٍ
من خدامه؛ لكنه ينتمي بسبب مظهره وعاداته إلى جنس الموفقين. كان
رجلاً نبيلًا. لقد كان فوق أولئك الذين ربّحوا لقمة العيش أكثر منه،
لكنهم شعروا بمداعبة العصا بمجرد أنهم حاولوا أن يطلبوا - كإضافة
إلى كسرة الخبز - قليلًا من العدل والرحمة من أجل حياتهم.



للأخ بيثنت طاغية يتحمل بخنوع مطالبه.

لقد كان صانع الأحذية النائب، الذي حوّل إلى الإيمان الجديد كل
عنف شهرته القديمة لالتهام القديسين. في حديثه إلى راعيه كان يرعبه
بالنواحي المتعطشة للدماء لحدثه المخلصة. ليس هناك حقيقة أكثر من
الحقيقة الدينية، ومن لم يقبلها، علقه! القليل من محاكم التفتيش لم
تكن كثيرة في أوقات البدع هذه ورفض الله. حماسة المبتدئ تخيف
المُعلم، وجرأة سيئ الأخلاق الذي يريد محو ذكرى تاريخه بمبالغات
مفزعة.

إضافةً إلى ذلك، يصدق في الحق المطلق على الشخص وممتلكات
معلم أصول الدين الخاص به، وينظر إلى الزوجين اللذين يعيشان مع
السيد بيثنت بعداء، مشتبهًا في أنهما سلبا منه جزءًا مما يعتبره ملكًا له.
لم يتحدث معه حتى لا يسأله عن حياة ذلك الزواج، وهو يعرف
بالتفصيل الدقة التي يوفيان بها التزاماتهما.

قال عندما رأى القديس:

- لم يدفع لك بعد عن الشهر الماضي! ولا السابق أيضاً! وأنت هادئ جداً! يا لك من رجل، يا الله! هذا ليس إحساناً سيد بيثنت.. هذه حماقة. يجب أن يكون الإحسان من أجل الأخيار، من أجل الذين يدافعون عن المذاهب السليمة. إنه لأمرٌ مُخزٍ أن تدفع لأجل هؤلاء الناس، بينما تتخلى عني وأنا لديّ عائلة، وأنا ابنك وأعيش ككاثوليكي صالح.

اعتذر الأخ على استحياء، باحثاً في جيوبه لإسكات احتجاجات التلميذ المخيف ببعض العطايا.
يؤكد في إشارة إلى ضيوفه:

- ليسا شخصين سيئين. المسكينان لديهما ثروة يسيرة جداً، لذا يجب مساعدتها. إنها فتاة ممتازة: مجتهدة جداً... متواضعة جداً.
- لكنهما لا يذهبان إلى القديس سيد بيثنت؛ انظر وسترى أنهما لا يدخلان الكنيسة أبداً. إنه رجل كافر كتب في أسوأ الصحف. ادخل إلى غرفته يوماً ما، وابحث جيداً، وستجد أكواماً من الكتابات ضد الرب والقديسين. علاوة على ذلك، يخالجنني قلبي أنهما غير متزوجين؛ هذان الزوجان لا يعيشان كما أمر الله.

احتج الأخ الساذج. ارتكب تلميذه خطيئة النميمة؛ يظن السوء في الجميع: كانت عيوباً من حياته القديمة. لماذا لا يتزوجان؟ لقد أكد له السيد مالترانا وهي، ويجب عليه أن يصدقهما. كل شخص في منزله، متجنباً النميمة والتطفل، وأي شخص سيئ سيعاقبه الله.

صاح التلميذ:

- هذا صحيح. إنهما يعيشان من القبعات، ويأكلون نقودك، وأنت والدي، وبينما أنا غاضب، دون أن أكون قادرًا على منح نفسي متعة الذهاب إلى عيد الأربعين ساعة أو إلى الخطبة، أعمل حتى يأكل بالكاد زوجتي وأطفالي.

قال الأخ بلطف:

- سيتم إصلاح كل شيء. إن رحمة الرب عظيمة وتذكر الجميع. استقبله إسيدرو بإيماءة قاسية، مدرِّكًا عداء صانع الأحذية، عندما أتى إلى المنزل يبحث عن السيد بيثنت. يسخر من شدة تدينه؛ يستشعر الاستبداد الذي يمارسه على مُعلم أصول الدين، والإساءة التي ارتكبتها لروحه التي خلصها الأخ البسيط.

يتذكر الشاب بعض الصور المطبوعة لقديسين مرسلين، يظهرون فيها مع ساجد همجي عند أقدامهم، كرمز للفتوحات العظيمة التي نُفذت لأجل السماء؛ وفي محادثاته مع فلي، كان دائمًا يُسمى الإسكافي الهندي التائب.

يتسبب هذا اللفظ في اشمئزازه بسبب الغضب الذي يدافع به عن معتقداته الجديدة، والتي لا يمكن مقارنتها إلا بالوحشية التي يحافظ بها على معتقداته السابقة. بالإضافة إلى أنه لم يحبه بسبب المنفعة التي يجنيها من تحوله، مستغلًا السيد بيثنت ومهددًا إياه عندما لا يمنحه ما يكفي. الأخ المسكين -الخادم الخاضع لمجده- عبد فتوحاته الخاصة، كان يوحى لإسيدرو بالشفقة.

يتحدث في كل مكان عن انتصاره الشهير؛ يُظهر الهندي التائب كأنه تذاكر النصر، وهو يبالغ ببراءة في الأعمال المروعة أيام معصيته؛ لكن بعد هذا العرض، عندما يبقيان بمفردهما، انفجر التلميذ النهم في النواح بشأن بؤسه، ولا يتوقف حتى يقتنع بأن ما بقي في جيوب القديس كان عددًا قليلًا فقط من الصلوات المطبوعة وفتات الخبز.

قال إسيدرو عندما رأى السيد بيثنت يدخل:

- بحث عنك هنا هذا الفظ. الهندي التائب.. تلميذك الإسكافي. الحيوان الشجاع! تعتقد أنهم في الجنة لا يشكرونك على هذا المكسب. سيتعين عليهم إقامة معلف بجوار حصان القديس مارتين أو حمار بلعام^(١).

صاح القديس:

- سيد مالترانا، مزيدٌ من العطف... مزيدٌ من الحب للشخص. المسكين وقع نوعًا ما: عادات ماضيه؛ لكنه صالح ويحب الله. ويبدو أن القديس يعاني عندما يرى نفسه بين هذين المتنافرين.

لم يكن الهندي التائب مخطئًا في الاشتباه في أن راعيه يمنح بعض الدعم لضيوفه. يرى القديس عمل فلي المتواصل؛ يخمن بنظراته في المطبخ عوز الشابين؛ يسمع من سريره حوارات الزوجين يناقشان مأزق اليوم التالي.

عندما يغيب إسيدرو، يقترب هو من فلي ببعض الخجل، تاركًا ما

(١) بلعام: كاهن دُكر في التوراة.

يجده في جيوبه على كومة من المشدات. في بعض الأحيان كانت عبارة عن حفنة من النحاس، وأحياناً أخرى بيزيتا، والتي يفركها بمنديله قبل أن يعطيها لها.

قال بصوتٍ غامضٍ:

- أنت لا تعرف شيئاً سيد مالترانا. دع السر يبقى بيني وبينك. يجب مساعدة بعضنا كمسيحيين صالحين. هذا المال أعطته لي هذا الصباح السيدات الصالحات اللواتي يرعونني. بالنسبة لكما... أنتما فقيران مثل الذين أزورهم في الضواحي... لكن لا تبكي.. ستأتي أيام أفضل؛ يضغط الله ولا يخفق.

وضحك على خبثه الخيري، الذي ظل غامضاً، دون أن يتمكن السيد مالترانا من الشك فيه.

- سيد بيثنت، مع هذا الشهر يمر ثلاثة بالفعل لم أدفعهم لك. العمل سييء؛ في الصيف لا يوجد عمل؛ لكن الوقت المناسب سيأتي، عندما يعود الناس إلى مدريد، وحينئذٍ سأدفع كل المتأخرات دفعة واحدة.

- اهدأ سيد مالترانا. أنا لا أطلب منك شيئاً؛ لن يتخلى عنا الله، وسنحيا جميعنا.

يجد إسيدرو حياته أكثر مشقة وصعوبة في كل مرة. لم تكن البيزيتاتان اللتان تكسبهما في العمل طوال اليوم وأغلب الليل، والريالات القليلة التي بإمكانه جمعها في الأسبوع عن طريق ملء وريقات مقابل العشرة سنتات للمجلة الاجتماعية، كافية للمعاملات

المعيشية. اختفى نظام وطريقة الأكل، اللذان جَمَّلا الأيام الأولى من حياتهما المشتركة، بسبب البؤس. كانت فلي بحاجة إلى كل وقتها للعمل، وبالكاد تستطيع دخول المطبخ من وقتٍ لآخر.

يراقب مالترانا -بكل غطرسته الفكرية- الموقد، وفي غياب الأشغال الأكثر أهمية، يتعلم برعونة من فلي سر أنواع الطبخ. أين ذهبت تلك القدور اللذيذة من شهر عسلهما، تلك الأطباق التي تجعل الشخص يريد أن يأكل أيدي حبيبته المجتهدة من القبلات؟ كانت الحياة حزينة، وأحياناً تخرج القدور نيئة وأخرى متفحمة. ضجر البؤس يُفقداهما النشاط، بحيث يمضيان أياماً كاملة دون إشعال النار، ويتغذيان على بعضٍ من الطعام البارد الذي يُجلب من الحانة.

عندما ينقصهما المال تماماً، يُلقي مالترانا بنفسه في الشارع. يقارن نزوله من الطابق الرابع بهبوط الذئب من القمم إلى السهل، مدفوعاً بالجوع.

كانت الضحية التي يبحث عنها الذئب التعيس بألوية هو السيد مانولو الفدرالي. ينتظره في المكتب بورتا دل سول، وعندما ظهر رئيس العمال، شرح له أحزان حياته.

استمع الفيدرالي الطيب مغمض العينين، يهز رأسه كأنه يوافق على كلام الشاب، معترفاً بأنه يتحدث جيداً. ثم وضع يده في جيب بنطاله، ملوحاً بنقود البيع، وانتهى به الأمر بإعطائه بيزيتاتين دون أي شكوى. كل هذا كان خطأ النظام القديم.

قال بتعبيرٍ مهيبٍ:

- لديك هناك الوجودية^(١) والمركزية. لديك موهبة وتموت جوعاً؛ ومثلك كثيرون. المركزية تستفيد فقط من المحتالين. في اليوم الذي تتمتع فيه كل ولاية وكل إنسان خاصةً باستقلاليتهم، سيحصل الجميع على ما يستحقونه... أقول لك هذا حتى تتعلم، حتى تكونا مقتنعين كيف تدفع لكما الوجودية.

وجمع البيزيتاتين مع وابل جديد من الأفكار المعقدة، الذي استمع إليها مالترانا باستسلام.

في لحظات الضيق الأخرى، يتذكر إسيديرو - حتى لا يزعج السيد مانولو كثيراً - عمه المهندس، الذي يبحث عنه في مقهى سان ميان. لقد رآه محاطاً ببعض الأصدقاء العجائز مثله، رفاق مسرورين يُكوّنون قائمة بعدد الفتيات الجميلات في الأحياء الفقيرة.

لم يستقبل المهندس طلب ابن أخيه الأول بشكل سيئ.

قال غامزاً مرتبطاً على ظهر مالترانا:

- أنا أعرف بالفعل ما هذا. النساء! لا يوجد شيء مثلهن لكي يسير الرجل وهو يلهث خلف البيزيتا. كلهن مسرفات، ولا يسعدن حتى يخرجن أحشاء الرجل... كم تحتاج؟ ثلاث بيزيتات؟ لكن يا فتى، إنك مع هذا لن تمتلك شيئاً! خذ زوجاً من الدورو: نحن الرجال الحقيقيون يجب أن نساعد بعضنا؛ اليوم لك.. غداً لي.

(١) الوجودية: الدولة الوجودية هي أحد نماذج مركزية السلطة التي تتركز في يد واحدة في الحكومة المركزية.

وسلمه دائرتين من الفضة مع إشارة رفيق في السلاح. تابع:

- اسمع.. زواجك سيكون خدعة. أدركت ذلك بمجرد أن تحدثت معي. أنت شجاع يا ابن أخي! والفتاة تستحق ذلك؛ فتاة بعينين مثل مصباحي زيت. إذا لم تكن من العائلة لأخذتها منك. أنت أصغر سنًا، لكنني أمتلك ذلك الشيء الرائع بالنسبة للنساء. هم يقولون ذلك.

وأشار إلى رفاقه الجالسين على الطاولة.

غادر مالترانا بين الامتنان والانزعاج من حماقة عمه، ولم يعد لرؤيته إلا بعد أسبوعين، بسبب الاحتياجات الجديدة.

- مرحبًا! اجلس.

قال المهندس عندما رآه، ببعض الفتور.

ظل يتحدث إلى رفاقه، وفجأة قال لابن أخيه:

- في الليلة الماضية رأيتكما تمران أنت والفتاة، محملين بالطرود الكثيرة في شارع طليطلة. هل تعلم أن تلك الفتاة خسرت كثيرًا؟ لا أستطيع أن أرى جيدًا، لكن يبدو لي أنها أصبحت قبيحة مع ذلك البطن، وتتحرك مثل القارب، ووجهها منتفخ كأنها قد رميت لها كعكتين للتو. حتى بدا لي أن عينيها أصغر.

عانى مالترانا من كلمات عمه في صمت، والتي بدت مزعجة له أكثر في وجود مجموعة من الحمقى. ومع ذلك، فقد قام بتزييف ابتسامته مفكرًا في الأموال التي يمكن أن يمنحها له.

تابع المهندس:

- أعتقد أن الوقت قد حان بالنسبة لك لكي... هيا بنا. النساء لا تدوم طويلاً؛ إنهم مثل السجائر: عندما تصل إلى أكثر من النصف، يصبح كل شيء رماداً، وعليك التخلص منهن. هل أتحدث خطأ أيها السادة؟

وافقوا جميعاً على حكمة تاجر الخردة.

عندما اعتقد إسيذرو أن الوقت حان لتقديم طلبه، لم يرحب به العم بنفس الطريقة في المرة السابقة. لقد فقد هيئته كشاب محظوظ؛ لم يُوح له بالحسد: لقد كان أحمق، ليس لديه سرعة الخروج من المتاعب؛ لقد سقط وهو يحتفظ بهذه الفاسقة لسبب تافه يضعها في حالة مهمة.

- خذ ثلاث بيزيتات. لا يمكنني إعطاؤك المزيد؛ وأحذرك أنها الأخيرة. لدي كثير من النفقات، والأوقات سيئة. لم أقم ببيع الجهاز بعد.

أدرك مالترانا أنه لا ينبغي أن يتوقع المزيد من المهندس، وتوقف عن الذهاب إلى مقهى سان ميان.

يضغط البؤس عليهما بشكل أكثر قسوة من أي وقت مضى. فلي متعبة؛ لقد فقدت عزم أيام عملها الأولى. يتقدم حملها. تنحني أمام العمل بجهد إرادتها الكبير، وتزيّن المشدات، وتطرز الزهور يدوياً؛ ولكن بالكاد تضطر للانتهاء من دزينة، فقد كان وجهها ملوناً بموجة من الدم، ورأسها يدور، وهو يلقي بجسدها إلى الخلف، تغمض عينيها كأنها سيغمى عليها. لم تعد تستطيع العمل بعد الآن.

في غضون ذلك، تزيد صعوبات المنزل، مما جعل حياة الاثنين أكثر صعوبة. اختفت مظاهر رفاهيتهما: لم يتبق سوى القليل من المعيشة البدائية. كان إسيدرو -الأكثر دراية بفن الدفاع عن النفس من البؤس، بسبب حياته القديمة- مسؤولاً عن إنهاء الثروة اليسيرة. قطعة قطعة، باعها كلها. لم يعد يلمع في غرفة النوم بروعة الذهب ذلك السرير الذي جعل فلي فخورة وشهد أعظم أفراح الزوجين. ينمان على الأرض، على مرتبة، وحاولا أن يُظهرا لبعضهما أنهما أفضل بهذه الطريقة، حيث كان الجو حارًا جدًا في ذلك الوقت من العام. كما اختفت المحبرة، هدية فلي. فقد وفر لهما بيعها وجبة عشاء، بعد يوم طويل من الصيام. أكلا، لكن الشابة اعتقدت أنهما أصبحا أقل اتحادًا بعد فقدان هذا الشيء الذي اشترته في اليوم الأول من حياتهما المشتركة. تنظر إليها مثل معبود سعادتهما.

لقد باعا أيضًا ملابسهما الشتوية، بدلة التشريفات الكبرى التي اشتريها من شارع طليطلة، والتي بمثابة اللحظة الأكثر تنويعًا لرفاهية فلي. أما الأحذية ذات الرقبة واللون الليموني، مع صفها العالي من الأزرار، فلم يتمكنوا من إخراج أي شيء منها؛ لقد تلفت مثل أوهام الزوجين التعييسين.

أصبح مالترا -الذي واجه البؤس في أوقاتٍ أخرى باستهتار مبهج لطائر متجول- يائسًا وشعر أن أحلك الأفكار تمر عبر دماغه عندما يرى فلي، مستكينة وصامتة، وهي تعمل بجهدٍ خارق، بينما المطبخ بارد ولا يوجد في زواياه أصغر كسرة خبز ناشف.

البؤس، الوحش الأسود الشرير! كيف يخدش اللحم؟! يا لها من إحياءات مقرفة تهمس في أذنه! أحيانًا كانت عينا مالترانا تتجولان باستجواب كئيب في غرف الأخ بيثنت. الآن هم الأفضل في المنزل: كانوا ممتلئين بشيء؛ بينما غرفهما تُظهر فراغًا مخيفًا.

يشعر بإغراء إجرامي لأخذ بعض كتب القديس وبيعها؛ لإنزال المسيح الملطخ بالدماء والهبوط به إلى راسترو، حتى يشتريه أبناء عمومته. عليه أن يبذل مجهودًا كبيرًا لصد هذه الأفكار. الصليب فقط يساوي بضعة ريالات؛ الكتب التي يحتفظ بها القديس بهذا التقدير لا تصلح -في معظمها- إلا ورق تغليف.

يُقَسِّي العَوَز -مع مخاوفه- شخصيته. ربما بسبب ذلك، بدا أن السيد بيثنت يخجل من معاملتهما. يدخل ويخرج دون أن يراه أو يتحدث إليه. لم يعد يقترب من فلي بلطفه الغامض لترك مالا فوق المِشَدَات.

على العكس، ذات مساء عندما كانت بمفردها، وصل الهندي التائب وذلك القسيس العجوز، الذي لا مأوى له مثل السيد بيثنت. يريدان انتظاره، وبدلاً من البقاء في غرفة الأخ، دخلا إلى غرفة الشابين. أشار الهندي التائب بنظرات شرسة إلى اللوحات المعلقة على الحائط. كان الشيء الوحيد المتبقي من الرفاهية البدائية. لم يحاول مالترانا بيعها، يعرف بقيمتها الضئيلة. علاوة على ذلك -في وسط بؤسهما- كانت الدليل الوحيد على أن مثقفاً يعيش هناك.

يفحص الكاهن -متتبعًا نظرات الهندي التائب- الصور بذهولٍ

واضح، ويقرأ ويعيد قراءة الأسماء المطبوعة في الأسفل، كأنه يخشى نسيانها. في نفس الوقت يسعل بتعبيرٍ ساخر. نحيح! نحيح! ويهز الإسكافي المتدين رأسه كأنه يرد: «ياه! كيف حالك؟ ألم أقل ذلك؟».

عندما علم مالترانا بهذه الزيارة، انفجر في صيحات الغضب. لو كان هنا، لألقى بهما في الشارع؛ ليتعلما عدم التطفل على منزل شخصٍ غريب.

بعد بضعة أيام، لاحظ إسيديرو أن السيد بيثنتِ يُؤخر خروجه الصباحي، أو يعود إلى المنزل مبكرًا جدًا، كأنه يبحث عن فرصة للتحدث معه. يراقبه من خلال الباب الموارب، وهو يتجول في مكتبته يغمغم بالصلوات؛ لكنه لم يجرؤ على التقدم، كأنه يخشى الاقتراب منه في حضور فيلي.

ذات صباح، عندما كان إسيديرو يغادر، رأى أن السيد بيثنتِ يغادر غرفته في الوقت نفسه، كأنه ينتظره. التقيا عند صحن الدرج.

– سيد مالترانا، يجب أن نتحدث.

يؤلمه كثيرًا ما سيقوله له، لكن الحاجة أجبرته. عليه أن يبحث عن منزل جديد؛ سيغادر هو ذلك المنزل بمجرد انتهاء الشهر.

– لا أستطيع سيد مالترانا؛ لا أستطيع دفع الإيجار. وليس الأمر كما لو أنني أحاول إلقاء اللوم عليك لعدم مساعدتي. يا إلهي! لم تدفع حصتك لأنك لم تستطع... لكنني سأرحل. سأضع الكتب في أي مكان: هذا الكاهن الذي رأيتُه عدة مرات سيحتفظ بها لي. سأعيش مع صانع

الأحذية المسكين؛ يرغب هو وعائلته في استضافتي معهم؛ الاعتناء بي قليلاً هو حقاً ما أحتاج إليه.

صُدم مالترانا بالنكبة الجديدة التي وقعت عليه. إلى أين يذهب؟ لكن توتر المصيبة -التي تُفسّي شخصيته- جعله يستقبل بفتور هذا العائق.

- سيد بيثنت، أنت رجل طيب، ولا أعتقد أنك قادر على اتخاذ مثل هذا القرار بمفردك. هذه مسألة تتعلق بالهندي التائب، الذي يريد أن يحتكر، وربما صديقك القسيس...

واحتج القديس مدافعاً عن رفيقيه. لم يكن من الضروري أن يحقد عليهما أو ينسب إليهما نوايا فاسدة. يغادر لأنه كان فقيراً ولا يستطيع تحمل إيجار المنزل. يشعر بالأسف تجاه فلي ومالترانا، اللذين كانا لطيفين معه ولم يفسدا حياته بأي استياء. لكن سيعيش الجميع حتى لو انفصلوا، كانت رحمة الرب عظيمة.

ومنجرّفاً بحماس المعلم، أضاف:

- ما يجب عليك فعله سيد مالترانا، هو أن تتصالح مع الله؛ امنح ملاك الخير الذي يعيش معك ما يخصه. اتحد معها كما توصي كنيسة الأم المقدسة.

خمن إسيدرو ما قصده الأخ. فقد اكتشف أنه وفلي غير متزوجين. كان الهندي التائب قادراً على الجري في جميع أبرشيات مدريد لإقناع راعيه أنه يؤوي زوجين خاطئين، مستسلمين لشهوة الجسد.

يشي مظهر السيد يثنت بنفوره من العيش في مثل هذا الاتصال
القريب بالخطيئة. غضب مالترانا من هذه الشكوك. قال بعنف:

- سواء كنا متزوجين أم لا، ما الذي يهم حضرتك؟ نحن نحب
بعضنا؛ نتحمل بؤسنا معاً؛ نحن شركاء في النصيب، دون الحاجة إلى
التزامات ووثائق. ما الجريمة في هذا؟

رفع الأخ كتفيه بدهشة عارمة، كأن من العار أن يتساءل عن هذه
المعصية. تابع بلطف:

- بالإضافة إلى أنك خدعتني. سيد مالترانا، لقد سخرت مني...
لا: لو لم أغضب من ذلك! لو لم أحاسبك! لقد قبلتك بكل سرور تحت
سقفي، لكنني أخبرتك أنك لا تستطع العيش مع فولتير وجاريبالدي
وأبناء الشر الآخرين.

قال مالترانا مبتسماً على الرغم من غضبه:

- وبالفعل، فقد امتنعت عن إحضار هؤلاء السادة المحترمين إلى
المنزل لإرضائك.

أجاب القديس بانفعال، في الوقت نفسه الذي تدمع فيه عيناه
المتهيجتان:

- لكنك أحضرت أسوأ منهما، وهنالك بالداخل تعاملهما
كقديسين، ولن يمر وقتٌ طويل قبل أن تضيق لهما الشموع. أنا جاهل،
وكنت أعتقد أنه لا يوجد شخص أكثر ضللاً من هذين الخاطئين اللذين
سميتهما. لكن الشخص -على الرغم من افتقاره إلى الاستتار- يكون

لديه أشخاص حكماء وفطناء لتوعيته، والآن أعلم أن أولئك الذين يزينون غرفتك هم أعظم شياطين، وأخطر من الآخرين؛ لأن بعضهم لا يزال حيًا، وفق مخططات الله السامية، الذي يريد أن يختبرنا.

صرخ مالترانا بنبرة عدوانية:

- وماذا تريد؟ أن أزيلها لإرضاء ذلك الإسكافي الذي يستغلك والقسيس المجنون الذي ينصحك؟

قال القديس بخنوع:

- لا؛ احتفظ بهم، لو أن هذه رغبتك. أنت وأنا لا ينبغي أن نعيش معًا. أنت شاب.. من شباب اليوم؛ أنا عصفور الله الصغير المسكين... مريم الطاهرة! المسيح وكتبي تحت سقف واحد مع أعظم الشياطين المعروفة!

اعتقد مالترانا أنه لا جدوى من مواصلة الحديث. كان الأخ مصممًا على الانفصال، ولم يرغب مالترانا في التسول، أو أن يعرف الورع الضرر الجسيم الذي يلحقه به بهذا القرار غير المتوقع.

- جيد؛ لن تنقصنا المنازل. وإذا كان هذا الانتقال ليس أكثر من عذر لي للمغادرة، فأنت تبقى هنا بهدوء مع مسيحك وكل مخزن الهراء الذي تحتويه مكتبتك. سنغادر على الفور.. في وقتٍ أقرب مما تعتقد.

احتج القديس، وتحرك نوعًا ما:

- لا تكن في عجلة من أمرك؛ ابقَ مدة الشهر بكامله. سأنتظر. وأما المتأخرات؛ فجميعها منسية. أحبك يا سيد مالترانا. أنا أحبك؛ لأنه على

الرغم من كونك بذيئاً، إلا أنك لم تسب أبداً في وجودي. أنا أقدر هذا الاحترام.

صد مالترانا مثل هذا الثناء. كان سيغادر في أقرب وقت ممكن: لم يُرد المزيد من الخدمات. يا ليتة يستطيع أن يغادر وكر اليوم هذا اليوم!

وأدار ظهره للسيد بيثنت بغطرسة محترقة، مؤكداً أنه يقبل فقدان بصره على أنه خير عظيم على المتعبد وأصدقائه.

لكن عندما انصرف إلى الشارع، انهيار كل تشامخه في الحال. أعقب الغضب الإحباط. ماذا سأفعل؟ إلى أين أذهب؟ شعر بأنه تعيس، أضعف مما كان عليه قبل شهور، عندما كان يتجول بلا مأوى، ويقضي ليلاليه في صالة التحرير. لم يعد لديه ذلك الفراش الحقيق في شارع لوس أرتيستاس كملجاً. بالإضافة إلى ذلك، كان يفتقر إلى الشجاعة ليكون وحيداً في مواجهة البؤس. لقد ثبط التفكير في فلي المريضة والضعيفة بسبب العمل همته، لن تستطع العيش مثله في الهواء الطلق، واثقة في حظ البوهيمية، والتي تحمل -علاوة على ذلك- في داخلها تهديداً جديداً للمستقبل.

تجول في الشوارع لفترة طويلة، وأثقل سوء حظه على أفكاره. في أثناء مروره عبر بورتا دل سول، رأى أنها التاسعة في ساعة الوزارة. فكر للحظة في السيد مانولو، وحاول البحث عنه في مكتبه. يمكنهم العيش في منزله؛ من المؤكد أن الفيدرالي سيأخذهما عندما يراهما في منتصف الشارع: لقد كان رجلاً صالحاً. لكن مالترانا تراجع

عن فكرة العيش على الصدقات، محروماً من تلك الاستقلالية التي يتحدث عنها السيد مانولو طوال الوقت. بالإضافة إلى أنه كان لديه زوجة، وله أطفال، سينظرون نظرة سيئة إلى طفل الزوجين الجائعين.

في تفاؤله، يعتقد أن الحظ سيتغير، لتعبه من مطاردته. يقترب الشتاء، سيعود الأشخاص الذين يمكنهم حمايته إلى مدريد؛ لم يكن من الصعب أن يكلف بسلسلة من المقالات، أو ترجمة طويلة، أو كتاب ليقعه شخص آخر. الأمر المهم، في الوقت الحالي، هو انتظار الدخول في مكانٍ ما، مندمجين مع رؤسهما، حتى لا يظهر إلا في اللحظة المناسبة. ولكن إلى أين يذهب دون نقود، ودون أثاث، وحتى دون أن يطمئن إلى طعامهما في اليوم الحاضر؟

عند عبوره بورتا دل سول، رأى عربة زرادشت في شارع كارمن متوقفة بالقرب من الرصيف، وبين قضيبها فيلسوف النباش وظهره إليه، يفصل القُمامة التي أعطاها إياها الخادم للتو.

فكر مالترانا في جدته وكنزها. السيدة إوسيبيا غنية: يؤكد جميع الجيران ذلك. كان الشاب غاضباً من فكرة الثروة الغامضة لجامعة القُمامة الجشعة. حفيدها يتضور جوعاً وله حق في جزء من الكنز الخفي.

حركه فجأة قرارٌ حازم. سيذهب لزيارة ماريبوسا، مستغلاً غياب زرادشت. اعتبر نفسه قادراً على القيام بأكبر قدر من العنف مع تلك المرأة العجوز الدنيئة، المعجبة به والتي تمدحه بشدة، دون أن تفكر أبداً في مساعدته بأصغر هدية.

مر وقت طويل منذ أن عبر مالترانا من لوس كواترو كامينوس. عندما كان موسكو حيًّا، كان يخشي الاقتراب من لاس كاروليناس. وبعد وفاة المخرب، تسبب هذه الأماكن بإثارة اشمئزاه، الأمر الذي أثار ندمه. لكن الضرورة محت تردده، وانطلق في طريقه إلى تلك الضاحية من تطوان.

عندما وصل إلى الربوة التي كان كوخ زرادشت على قمته، كان عليه - كما هو الحال دائمًا - إخافة كلاب جامع القُمامة بالحجارة والصراخ.

خرجت الجدة - عندما سمعت أصواتها - من المطبخ، وهي تتأمل باستغراب بعينها الرّمصتين الغريب.

- جدتي، أنا... إسيدرو.

أرادت ماريبوسا - عندما تعرفت على حفيدها - أن تحضنه، لكنها منعت نفسها وهي تنظر إلى يديها القذرتين من الطهي كره الرائحة. جلس مالترانا - الذي اختنق من الحرارة - في الساحة، وهو يبحث عن ظل أحد الأكواخ. أبدت الجدة دهشة كبيرة من زيارته.

- مَنْ يستطيع أن يتوقعك! مر وقتٌ طويل دون أن تأتي لرؤيتي! منذ أن قمت بعملك الفاسق مع ابنة موسكو.

كان صامتًا، ولم يرغب في الإدلاء بأي تلميحات أخرى إلى ذلك الحدث الذي وضع حي لاس كاروليناس في حالة اضطراب، ولم يعد يتذكره أحد بعد الآن.

واصلت المرأة العجوز:

- عدة أشهر دون رؤيتكِ! وما الذي أتى بك إلى هنا؟ لأنك حتمًا أتيت لشيء ما.

تغمز ماريوسا بعينيها، وضمت الثقب الأسود في فمها المحاط بالتجاعيد، مخمنة أن حدثًا ذا أهمية كبيرة فقط يمكنه أن يجلب حفيدها إلى هناك.

تجاهل مالترانا كل الديباجة. يمر الوقت؛ لن يتأخر زرادشت في العودة، ويريد التحدث إلى المرأة العجوز بمفردهما. قال بجدية:

- جدتي، لتوفير الكلام، سأطلق النار على نفسي، وقبل ذلك أردت أن أراك، وداعًا إلى الأبد.

رسمت المرأة العجوز إشارة الصليب. الحمد لله! لكن هل جُن جنونه؟ ما خطبه، حتى يقول مثل هذا الهراء؟ بعينين مندهشتين استمعت إلى حفيدها الذي حكى بؤسه. لا مال ولا بيت، والرفيقة المسكينة مريضة، ولا أمل له سوى أن يُولد طفله في وسط الشارع.

كررت ماريوسا بنبرة مندهشة:

- وكنت قد آمنت بإمكانياتك يا إسديرين! وتصورت أنك تربح ثروة من الكتابة في الصحف!

لكن دهشتها لم تَدُم طويلًا. بدت كأنها تتأمل، تنسحب، منكمشة داخل ملابسها، مثل حلزون خائف يحتمي في قوقعته. كانت تنن:

- يا إلهي! ماذا يحدث في العالم؟! يا للبؤس! إحداهن، عالقة هنا، لا تعرف شيئًا... وماذا سنفعل يا إسديرين؟! ماذا علينا أن نفعل؟

ثم، وهي تخمن ما بدا أن حفيدها يقوله بعينه، تابعت بين أنين:
- أود أن أمتلك كنوز ملكة إسبانيا؛ لأمنحها لك. لكنني فقيرة،
أفقر من الفئران. العم بولو مقتنع أنني أخفي كيس نقود، وبالكاد أدخر
بيزيتاتين، ينتزعهما مني، وعندما لا أملكهما، يضربني. إذا لم تعمل
الواحدة كل شيء، فستموت.

كان مالترانا متأثرًا بتعليقات الأشخاص، الذين يأكدون ثروة العمّة
ماريوسا، يشعر في كلماتها بزيّف منافق. صرخ متوسلاً:

- جدتي! جدتي!

وللتغلب على بخلها الشديد، وصف لها حالته. لم يكن يطلب
له شيئاً. لو كان بمفرده - كما في أوقاتٍ أخرى - فلن يأتي ليضايقها.
نفس الأمر الذي يعيشه في مواجهة المحنة، سيستمر في العيش. ولكن
هناك الأخرى، فليثيانا التعيسة، الشهيذة، التي عاشت بسلام مع والدها
المخرب، والتي أخرجها من منزلها لتشاركه مصيره. لا أستطع التخلي
عنها. عند موته من الجوع، سيأخذ الخبز من فمه ليمنحه لها: يبدو أن
دمه قليل حتى يروي عطشها.

- عليك أن تري - يا جدتي - ما تفعله تلك المرأة من أجلي. ليس
لديّ عمل، وهي تعاني ليل نهار من أجل الحصول على قليلٍ من الخبز.
إذا كنتِ تحبينني، فأحبّيهَا كثيراً أيضاً. هي زوجتي ووالدتي في وقتٍ
واحد. وبدلاً من رؤيتها بلا مأوى ودون مصدر رزق، سأقتل نفسي يا
جدتي، سأقتل نفسي!

كان مالترانا يتملكه الحماس لكلماته الخاصة، وتأثر عندما تذكر ما
يدين به لرفيقته، فأحنى رأسه، يتقطع صوته من حشجة البكاء.
بكت العجوز أيضاً، وهي ترى بكاء حفيدها، وفركت عينيها بطرف
مريلتها. كانت تئن:

- أنت على حق. يجب القيام بشيء ما من أجلها. هكذا يجب أن
يكون الرجال. من الجيد أن ترى أنك تحبها.

سألت حفيدها كم يحتاج للخروج من وضعه. إذا كان قليلاً، فربما
يمكنها مساعدته... ربما يمكنها العثور على شخص يقرضه ولو خمسة
دورو.

- أحتاج كثيراً، يا جدتي... كثيراً. ليس لدينا شيء؛ ينقصنا كل
شيء. لا، هذه الدورو الخمسة عديمة الفائدة بالنسبة لي؛ الشع اليوم
والجوع غداً. ما أطلبه منك هو جهد لإنقاذي، وإخراجنا من هذه
الورطة، حتى أستطيع السير بمفردي.

جفت عينا المرأة العجوز وكشرت تكشيرة قاسية، كما لو أن
عواطفها تلاشت فجأة. لن تستطع إنقاذ حفيدها؛ كانت فقيرة. وعقدت
ذراعيها، وبدت أنها مصممة على الاستماع دون أن تتأثر بأي شيء قاله
لها إسيدرو.

خمن أفكار جدته. يُقوِّي الجشع الروح! وكنزها؟ هل ستتخلى عنه
متظاهرة بالفقر، بينما كل من هم في النباش يتحدثون عن ثروتها؟
ضحكت ماريبوسا بتعبيرٍ ساحرةٍ ساخر.

- كنزي! بالفعل ظهر كنزي! هل أنت قادم من أجله أيضًا؟ لقد خدعوك يا إسيدرین؛ لقد أخبرتك بذلك ألف مرة. لا يوجد مثل هذا الكنز.. أكاذيب الناس... أنا فقيرة.

لكن غطسة بخلها لم تسمح لها بالنفاق. فقد هربت منها ابتسامة الرضى، مستنكرة اليقين في وجود الكنز وعزمها على الدفاع عنه ضد الجميع.

صاح مالترانا:

- جدتي! لا تفعلی ذلك من أجلها أو من أجلي، لأنك لا تحبيننا. لكن افعلیها من أجل من سيأتي.

حاول التأثير على ماريوسا بالتحدث معها عن ابنه المستقبلي، عن ذلك الطفل الصغير، الذي سيكون مثل إطالة غير عادية لحياة المرأة العجوز. سيكون لديك ابن حفيد! تمكنت قلة من النساء من رؤية نسلهن إلى هذا الحد. وهل ستكونين قادرة على التخلي عن هذا المخلوق الرقيق؟

استيقظت غريزة الأسرة داخل البخيلة. تأنت مرة أخرى، وترفع مريلتها إلى عينيها، لكن دون أن تتحرك، ودون أن تقبل بتوسلات حفيدها. كانت تتمتم:

-أيها البائس! أنت بائس للغاية! وكل الخطأ هو خطأ والدتك، لتصميمها على الفرار من الحي... كم كان من الأفضل لنا جميعًا أن نستمر في التجارة!

قام مالترانا بعمل حركة تعني نفاذ صبره. ما علاقة والدته المسكينة
بما حدث الآن؟ هل تريد مساعدته، نعم أم لا؟
استمرت العجوز في التذمر دون إجابة، ووقف الشاب بإيماءة
حازمة.

- وداعًا يا جدتي. ابقِ مع ما يخلصك. أنا أعرف الآن ما يجب عليّ
فعله.

ولكن قبل أن يُدير ظهره ثانيةً، انقضت عليه جامعة القمامة.
- إسيدرين! يا بُني، ابق! سيكون لديك ما تريد: كل ما يخص
جدتك سيكون لك، حتى لو بقيت عارية، حتى لو تضررت جوعًا.
خفت العاطفة من جشعها الشديد؛ ملأها حزن حفيدها بالخوف.
بالإضافة إلى ذلك، في تفكيرها الحَرَف تفكر في صورة ابن حفيدها،
ذلك المخلوق الذي لم يأت بعد، وتملؤها بالفخر.

قالت بطريقة غامضة في أذن مالترانا:

- سأعطيك كل شيء، كل شيء!

ثم نظرت بقلق إلى التلال المجاورة، كأنها تخشى وجود شخص
فضولي. أضافت:

- شاهد جيدًا. حالما ترى عربة العم بولو، أعلمني. احذر!

ووضعت أصبعها على أنفها للدلالة على الحذر واليقظة، دخلت
النفق الضيق المؤدي إلى الغرفة الواسعة.

مر وقت طويل. تخيل إسيدرو العمل الذي ستقوم به الجدة بيديها

المرتعتين لاستخراج ذلك الكنز الشهير من المخبأ الذي يتبعه
زرادشت، دون العثور عليه على الإطلاق. أخيراً خرجت، متسخة
بأنسجة العنكبوت، ووشاح رأسها مغطى بقطع من القش.

تحمل في يديها خرقة بيضاء مليئة بالأشياء. عندما وضعتها على
جذعها، بحذرٍ شديد، كأنه يحتوي على أشياء هشة، رن في الداخل
رنين معدني.

تتنهد ماريوسا كأنها تتردد آلام هذه التضحية، وبيطء، دون أن
تتوقف عن النظر لبعيد، خوفاً من أن تتفاجأ، حلت عقد الربطة.

بريق من الذهب، الأحجار الكريمة وأشياء ذات لمعان عظيم، والتي
تبدو أكثر روعة في جو البؤس هذا، تؤذي عيني مالترانا المذهولتين.
كان الكنز حقيقياً. يحيا الرب! كان للواقع مفاجآت مثل قصة رائعة.
فكر الشاب للحظة في روايات المغامرات العجيبة التي قرأها في شبابه.
ابتهجت العجوز بدهشة حفيدها.

- كم هي جميلة! صحيح؟ كلفني جمعها كل حياتي. ولا تعتقد
أنني نشلت أي شيء بطريقة سيئة: كل شيء في القمامة... لدي زبائن
رائعون، كلهم أثرياء.

توقف مالترانا عن النظر إلى الكنز، ليتأمل ماريوسا بعينين يمكن
للمرء أن يقرأ فيها الدهشة والحنو في نفس الوقت.

سأل بلطف:

- ألا يوجد أكثر يا جدتي؟ هل لديك هذا فقط؟

نظرت إليه ماريوسا مصدومة.

- ماذا! هل يبدو قليلاً بالنسبة لك؟ لكن يا فتى، يوجد هناك ما يشتري كل لاس كاروليناس! انظر يا إسيدرین.. إنه كنز!

لم يكن مالترانا بحاجة إلى النظر كثيراً. بعد الانبهار الأول، رأى الزيف الفاضح للمجوهرات الضخمة والسخيفة التي تتلأأ فوق كومة الخردة.

كانت زينة مسرح، فخمة بشكلٍ ساخر، مصنوعة من معدن ذهبي، مع أحجار مختلفة الألوان، جعلت عظمها ماريوسا المسكينة ترتجف من العاطفة. قالت:

- مجوهرات الملكة هذه كانت من تلك السيدة الطيبة التي تحبني كثيراً: من الممثلة الهزلية التي ماتت. لقد وجدتها في عربة مليئة بالرسائل الممزقة، البدلات القديمة والبقايا التي أخذتها من منزلها... فكرت للحظة في إعادتها، لكنني احتفظت بها، ولا أندم على ذلك. كان الورثة حقراء.

أبعد الشاب هذه الزخارف السخيفة جانباً، ليقلب بيديه الشرهتين بقية الكومة.

قالت المرأة العجوز:

- انظر إلى تلك المسبحة: المصنوعة من اللؤلؤ الجميل. كانت مملوكة لسيدة من القصر.

قدم مالترانا إيماءة فتور. كذبة أيضاً: كانت حبيبات من العاج،

ذات ترصيع ضعيف بالذهب. وكذبة دبائيس الأمان المزدوجة؛ الخواتم السوداء بسبب الحبس الطويل، بزجاجها المعتم والباهت؛ أزرار الأزياء الرسمية العظيمة، التي كانت تعتقد السيدة العجوز أنه ذهب خالص؛ الدبائيس المخضرة والصدئة، مع أحجار كريمة باهتة. تلك الثروات التي جعلت جامعة القُمامة ترتجف بسبب الجشع لم تكن أكثر من قُمامة لا قيمة لها.

وضع إسيذرو جانبًا ما اعتبرته ماريبوسا أقل قيمة فقط: ديزيناتين من الملاعق الفضية ذات الأشكال والأحجام المختلفة، سقطت بلا شك في أثناء الغسل في روث المطبخ؛ سلسلة من الذهب، خشخشة نفس المعدن وأربعة خواتم ملساء، لكن لها بعض الوزن. كان الشيء الوحيد في كنز الجدة الذي له بعض القيمة. ربما يعطونه مقابل كل هذا ما يصل إلى ثلاثين دورو.

تابعت ماريبوسا باهتمام الفصل الذي يقوم به حفيدها، مبتسمةً وهي ترى أنه راضٍ عما هو أكثر تواضعًا في الكنز، تاركًا الجواهر العظيمة، الأشياء اللامعة، التي تملؤها بالفخر.

تتمتم:

- أحسنت. ما تأخذه يَكْفِيكَ في الوقت الحالي. ستحفظ جدتك الباقي لمأزقٍ آخر، وعندما أرحل سيكون ملكك.

باحترام ديني تكدس على الخِرقة البيضاء الخردوات المبهرة التي أفسدتها يدا حفيدها. أقرت له العجوز في ذهنها بأعظم المديح. كان إسيذرو حفيدها صالحًا؛ لم يرد أن يستغل لطف جدته، وترك لها

الأفضل. مدفوعةً بالامتنان، فكت أحد طرفي الخِرقَة، وسحبت بعض العملات الفضية من العقدة.

قالت:

- هاك يا إسيدرِين. كل المال الذي أملكه. لكي تضيف إلى تلك الأشياء الصغيرة.. إنك غير متطلب. معك هنا على الأقل سبعة دورو بين بيزيتا مزدوجة وبسيطة.

وضع مالترانا المبلغ في جيبه. ثم وزع الملاعق والأشياء الأخرى في جيوب بدلته.

تحولت خيبة أمله الهائلة -بسبب جشع جدته الساذج الذي جعله يعاني- إلى بهجة حنونة عندما رأى الاهتمام الذي تلف به بقية الخردوات.

تابعت العجوز بصوتٍ غامض:

- لقد رأيتَ الكنز بالفعل. أنت الوحيد الذي يعرفه. كن حذرًا في الحديث. هذا يقترب فقط بوجود زبائن جيدة، وأنا أعمل سنوات وسنوات بعينين مفتوحتين حتى لا يفلت شيء. عندما يكبر ابن حفيدي سنبيع التيجان، الأساور ودبوس الصدر مع هذه الماسات التي مثل الحمص التي تأخذ الضوء من الأعين. ابتهج يا إسيدرِين؛ لم يخدعوك: جدتك غنية، تمتلك كنزها؛ لكن عليك وحدك أن تعرفه؛ لأنه سيكون لك.

ثم نظرت بقلقٍ إلى بعيد، وهي تضع يدها فوق عينيها.

- أنت تتمتع ببصرٍ أفضل يا إسيدرِين. أليست تلك عربة العم بولو؟ نعم، إنها كذلك؛ هذا اليهودي هناك بالفعل، ذلك الماكر، الذي لا يفكر إلا في نشل كنزي. اهرب يا إسيدرِين؛ لئلا يُمسك بنا هنا؛ لئلا يشم رائحة صرة النقود.

واختفت المرأة العجوز، مع قلق الخوف، وهي خائفة من أن تُسلب منها تلك الثروات، التي تحبها كحياتها الخاصة، في النفق، وهي تضغط بين ذراعيها على الربطة. ودعت إسيدرو على عجل، على أن يُحضر إليها ابن حفيدها بمجرد ولادته! ستُسر برؤيته مرة، ثم تموت تاركة ثرواتها.

هبط إسيدرو من الربوة عبر الأراضي المزروعة لئلا يلتقي بزرادشت، وهو يفكر -بينما يسير- في وسيلة إخراج بضعة بيزينات أكثر من الكنز الشهير المخفي في جيوبه.

* * *

في الخريف، ذهب إسيديرو وفلي للعيش في لاس كامبرونراس. بعد مغادرة منزل الأخ بيثنت، سكنا في غرفة داخلية في شارع امباخادورس. يدفعان مقابلها ثلاثة دورو؛ لكن بعد الشهر الأول لم يتمكننا من دفع الشهر الثاني، وغادرا الغرفة، وقد أنقذا بأعجوبة تقريباً أثاثهما القليل.

خشي مالترانا القلق والإزعاج الذي يجلبه الإيجار معه أكثر من عذاب الجوع. أما فلي فيهما فقط تأمين السقف. تضع نظاماً اقتصادياً مذهلاً من أجل جمع الأموال تدريجياً للمنزل. تمتلك الآن ثلاثة بيزيتات، وتمتلك دورو واحداً، وتقترب ببطء من اثنين، وفجأة تظهر حاجة ملحة، طلب لا يمكن تجنبه، الدفع إلى المتجر، الذي يرفض البيع بالدين أكثر دون الحصول على شيء تحت الحساب، شراء المواد لتقوية المشدات، الحاجة إلى وضع نعلين للحذاء ذي الرقبة الوحيد لدى مالترانا، بينما يظل هو سجيناً في الغرفة؛ وبهذه الطريقة يستحوذ سوء الحظ بضربة واحدة على كل المدخرات، دون إعطاء وقت لاستكمال مبلغ الإيجار.

اعتمد مالترانا قراراً. الفقراء مثلهما -الذين يعيشون حياة غير ثابتة- لا يمكنهم العيش إلا في أكواخ يتم دفع أجرة غرفها يومياً، في مساكن البؤس الجماعية، مثل بيت العمال الكبير قبيح المنظر الذي وُلد فيه.

يعيش في عدة مبانٍ من هذا النوع، في أحياء لاس بِنِيو لاس ولاس إنخورياس، والتي تثير اشمئزازه بسبب اكتظاظها، والأوساخ القذرة على جدرانها، والمشاجرات المتكررة بين الإناث الشعثاء، اللائي يهين بعضهن من ممرٍّ إلى ممرٍّ.. مسكينة حبيته فلي لم تكن أميرة، لكن للأسف! يشعر بامتعاض عميق عندما يراها، وهي رقيقة ولطيفة للغاية، تعيش في هذا الجحيم.

وجد غرفة مستقلة في لاس كامبرونراس، وقرر الانتقال إلى هذا الحي الذي يسكنه الغجر، الذين بدوا له أكثر تقديرًا وهدوءًا من عائلات المنازل المجاورة.

الإيجار يُدفع كل ليلة: ريال ونصف. عند الغسق، يطرق الباب مسؤول التحصيل، رجل طويل، نحيل وأسمر، جعلته قامته الزائدة يمشي متقوس الظهر. كان من الشرطة. الشخص الذي يدير المنازل في لاس كامبرونراس جعله هناك جامعًا وحارسًا للنظام، نظرًا لشخصيته كوكيل للسلطة. لهذا أعطاه ربحًا على التحصيل وسكنًا مجانيًا لنفسه ولزوجته الولودة وعصابة الأطفال الصغار الذين يكملون الأسرة. منذ شبابه، الذي قضاه في الريف، قبل أن يصبح جنديًا، كان مغرمًا جدًا بزراعة الأرض، وعندما لم تجعله مهامه كعميل «للشرطة السرية» يذهب إلى مدريد، يُمضى ساعات في المهمة البطولية لتحويل الأرض المقلوعة ذات التربة الصفراء إلى بساتين صغيرة، واستخراج مياه الري من الساقية المهجورة باليد.

يوشي الشابان له باحترام كبير، إلى حدّ جعله يصرح بأن السيد
إسيدرو والسيدة فلي هما الشخصان اللذان اللذان يعيشان
في لاس كامبرونراس.

قال مالترانا عندما طُرق على الباب، في وقتٍ متأخر من الليل:

- تفضل بيبي.

ظهر بيبي حاملاً في يديه قلمَ رصاصٍ ودفتر شيكات خشناً من
ورق حافته غير مستوية. سلم ورقة بعد خربشة بعض العلامات وتسلم
العملات النحاسية.

بدا إسيدرو راضياً عن مسكنه الجديد. يتأمل النهر -عبر نافذة-
بالقرب من قدميه، وعلى الضفة المقابلة المروج التي رسمها جوياء،
والتلال التي كانت أشجار السرو وأضرحة مقابر ألمودينا وسان إسيدرو
تتكس فوق قممها. عبر نافذة أخرى يرى بادية لاس كامبرونراس،
وهي مساحة كبيرة من الأرض يخترقها جدول صغير، تغسل فيه النساء
الفجريات خرقهن، ويطفو فوق تياره الخرق وأجزاء من الصحف. في
المقابل، تُفتح بوابة كبيرة تؤدّي إلى زقاق من الحصى يُجانبه صفان من
الأكواخ. بعضها منخفض الأسقف؛ وأخرى لها رواق خشبي في الطابق
الأول، مع سلالم صغيرة من الألواح الشخينة الفاسدة، والتي تصرّ عند
أدنى ضغط كأنه على وشك الانكسار.

سرعان ما اكتشف مالترانا السكان غير المتجانسين في لاس
كامبرونراس. يشكلون عالمًا منفصلاً، مجتمعًا مستقلاً داخل حشد

من البؤس المخيم حول مدريد. يروي له يبي المُحصل عادات وغبابة أطوار هؤلاء الناس، الذين يسميهم «ماشيتة».

كان هناك قسمان كبيران في الجوار من لاس كامبرونراس، لم يُخلط مطلقاً بين حدودهما؛ من ناحية كان الفلاحون، الأقل عدداً، ومن الناحية الأخرى الغجر الذين يشكلون غالبية السكان. يقسم الشحاذون أنفسهم، الذين يذهبون إلى مدريد كل صباح للتسول على أبواب الكنائس، وبائعو الخردوات الذين يتجولون في الصيف في أسواق بيع الخردوات في قشتالة، وخلال الشتاء ينظمون ألعاب الغش في الضواحي، أو يشاركون في بعض عمليات السرقة إذا سنحت الفرصة.

ينقسم الغجر إلى ثلاثة أقوام: الغجر الأندلسيين، والغجر القشتاليين، وغجر لا مانتشا. يتعاملون بأخوة فرضتها العادات والعرق، لكن كل مجموعة ظلت مخلصمة لأصلها، معتقدة أنها متفوقة على الآخرين. يؤنب الأندلسيون غجر لا مانتشا على فظاظتهم والقشتاليين بسبب افتقارهم إلى الدماء الغجرية، فهي مزيفة بسبب تهجين لا حصر له مع الفلاحين. هؤلاء -بدورهم- يحتقرون من هم من الأندلس لغشهم وأكاذيبهم، مما أعطى العرق شهرته المخزية.

تعرف عليهم إسيدرو في لمحة سريعة بعد أيام قليلة من العيش في لاس كامبرونراس. الأندلسيون حليقو الذقن، بقبعات عريضة، وسترات مخملية قصيرة بلون النيذ وقَصبة^(١) كبيرة على آذانهم. سُكان

(١) قَصبة: خصلة الشعر الملتوية.

لا مانشا وقشتالة يرتدون قبعة من الشعر، ويحملون شاربًا مقصوصًا
وسترة من الجوخ الداكن؛ فقط لونها البرونزي الشرقي يميزهم عن
فلاحي لا مانشا، الذين يقلدون لباسهم.

تخرج النساء في الساعات الأولى من الصباح، ولا يُعدن حتى حلول
المساء، أو يبقين داخل منازلهن، حبسات طوعًا، مع سلبية الإناث
الآسيويات. كما يتضح فيهن اختلاف أصولهن. النساء الأندلسيات
ثرثارات وصاخبات. كن يتحدثن بإيماءات ويلوحن بأيديهن، وهن
ينشرن حولهن بأحاديثهن الارتباك. يرتدين تنورة من البركال المشجر
مع كشكش طويل، يحملن طرحة طويلة مثلثة، كعكة الشعر الزيتية
تسقط على مؤخرة العنق، قرون صغيرة من الشعر الملتصق على
جباههن، وعدة سلاسل من الخرز الأزرق حول أعناقهن. يخرجن من
لاس كامبرونراس بعد شروق الشمس بوقتٍ قصير، في طريقهن إلى
ميدان دي لا ثبادا، ليكشفن الطالع ويفتحن البخت للخادومات، اللاتي
كن أفضل زبائنهن. الرجال ممددون عند الباب؛ وكانت مجموعات
من الأطفال بلون الشوكولاتة، حفاة وبطونهم عارية، يتشبثون بتنانير
أمهاتهم المرسومة.

كما قال الزوج:

- يا فتاة، لِنَرِ لو أنك أحضرتِ اليوم شيئًا للأكل. اسمعي، لقد
سئمت من الجوع الشديد.

يتحرك الصغار حولهن ويرافقوهن إلى أعلى التل حتى جسر
طليطلة.

لنر ما إذا كان بإمكانهن النشل، مثل أوقات أخرى، تسوّلي من بعض الفلاحين. وإذا لم يكن هناك تشولي (اسم يُطلق على الدورو)، فقد كان بلاني (بيزيتات قليلة)، والتي تحتاجها العائلة، ووثيقة في فرص الحظ. يصرخ الصغار عندما يظنون بالقرب من الجسر:

- أحضرت شوكلاتة، كثيرًا من الشوكلاتة.

كانت الشوكلاتة هدية الغجر العظيمة.. شرابهم وطعامهم. كافٍ كان البالينتشو (الخنزير)؛ كثير العصارة البالياس (شحم الخنزير)؛ حلو المانتخوس (اللوز)، الذي يُلقى في حفنات في أيام الزفاف؛ لكن الشوكلاتة أفضل ما في العالم، غذاء الله، الذي يُسكرهم بعطره وحماسته.

كان الصغار -على أمل أن تجلب أمهاتهم كمية هائلة من الشوكلاتة بحلول الليل- يحيونهن من بعيد.

- وداعًا يا أمي.

تبتعد الغجرية باتجاه بوابة طليطلة، وهي تجمع -في خيالها المخادع- وسائل خداع أحد الفلاحين الذي يقدم لها الحظ السعيد، وتُخرج الأموال منه، وهي تعدّه -عن طريق السحر- بالجائزة الكبرى في اليانصيب.

يتجولن حتى الساعة الثانية عشرة في ضواحي السوق، ويوقفن الخادومات، ويذهلونهن بأحاديثهن، ويمدحن وجوههن الملائكية،

حتى لو كانت قبيحةً قبحاً فظيماً، يندبن بأقصى درجات اليأس البشعة مصائب حُبهن وأنهن لم يعتنين بدرءِ الحظ السيئ بالجوء إلى تجربة الغجر.

- يدكِ... أرني يدكِ، أبرزيها، أقول لكِ لأجل القديس يوحنا إنها تحمل داخلها ثروة وأنكِ لا تعرفين ذلك.

لديهن زبوناتهن، مؤنات بهن إيماناً لا يتزعزع، يسرن بصعوبة لمقابلتهن، متلهفات لوشي جديد. يذهبن إلى بوابات منعزلة، وهناك -فوق غطاء السلة- تُطلق الغجرية أوراق اللعب القذرة المخبأة تحت شالها. يخرج كل شيء: الرجل الأسمر الذي حزن على الخادمة، ولكن ربطته امرأة بيضاء بوسائل مستنكرة، والتي لا بد من هزيمتها؛ بعد ذلك، الرجل الأشقر في أوقاتٍ كثيرة يحمل سيفاً (جندياً)، والذي سيحضر بنفسه ليحملها بعيداً على حصان أشهب؛ ثم يُخرجن الذهب مرتين: مال والمزيد من المال.

تؤكد الغجرية بقناعة لم تكن تعترف بالرد:

- لقد ورثت شيئاً.

أجابت الخادمة البسيطة:

- ماذا أرث أنا يا مسكينة؟!

- جيد؛ لذلك سترتين.

وتستمر اللعبة. المرأة قليلة الحياء: المرأة السيئة مرةً أخرى، سبب هلاكها لو لم تقضٍ عليها وتفعل ما قالتها لها.

عندما كانت الفتاة -المذهولة من هذه الشرثرة، والمتشككة فيما إذا ستفق مدخراتها على العلاج الرائع الذي تقترحه لربط صديقها غير المخلص - ينتهى بها الأمر بإعطائها ريالين، فتطلق العجرية الرثاء والتضرعات:

- ملكتي، أضيفي ولو ريالاً. مع ذلك الوجه القرنفلي الصغير الأسر! تعالي أيتها المليحة، لديك عينا العذراء الصغيرة... انظري! لدي مجموعة من الأطفال التي لا تنهض من الأرض، وهم ميتون من الحاجة. لدي رجل أكسح؛ والدي! الذي أشرف على الموت؛ أمي المسكينة ماتت؛ أخي (أخي، هل تفهمين؟) في سجن ألكالا.

وتستمر في سرد المصائب والوفيات، كما لو أن الطاعون الأسود قد مر عبر لاس كامبرونيراس.

- هيا، أيتها الغالية، أكثر قليلاً، لهذا السبب لن تظلي فقيرة. أنا لا أسألك عن ورق مصرفي من البنك؛ سيكون لك حظ إذا كان هناك ثلاثة أفلاس أخرى.

في استكشافاتهن حول السوق، عندما يتجولن بملل، دون العثور على زبونات، يغرسن أنفسهن بجرأة أمام الرجال الخارجين من الحانات أو التجار الذين يأخذون قليلاً من الهواء عند أبواب مؤسساتهم.

- هل أخبرك عنها أيها اللطيف؟ أعطني يدك، ولحية القديس خوان الصغيرة، لديك رجلان راقصتان وعينان صغيرتان مثل الشهاب.

يصدوهن كأنهن كلاب، ويهددوهن بالاتصال بزوجاتهم، وابتعدن
هن دون استياء، ووجوههن ساخرة، وأعينهن مفتوحة بشكلٍ مفرط.

- أيها الأب القديس! يا له من مزاج سيئ لدى السيد! كأنك الموثق
الذي يتولى التصريحات! ترى نفسك في السجن، أيها الملعون، ورفيع
المقام لا يريد إخراجك حتى بكفالة!

بعد منتصف الظهيرة يتوقف التدفق إلى السوق، وتتابع العجريات
-بدلاً من العودة إلى لاس كامبرونراس- إلى وسط مدريد، يتسكعن
حتى يحل المساء. يتوسلن من أجل الصدقات؛ يتوقفن أمام نوافذ
المقاهي، ينقرن على الزجاج؛ يلقين نظرات مضطربة على الأكشاك
الموجودة خارج المتاجر، تحسباً لأي غفلة. يذهبن إلى كل من يخرج؛
ليست السرقة عندهن خطيئة كبرى: فالسرقة مهنة تستحق الثناء، إذا
تمت بمهارة ودون مخاطرة. وعندما يسرقن قطعة قماش أو بعض
التفاح أو خبزة صغيرة، يعدن بفخرٍ إلى المنزل، قائلين للجارات:
- اليوم سخرتُ من الحلف.

يعرف مالترانا -وهو يطل من باب أحد تلك الأكواخ البيضاء من
الخارج والسوداء من الداخل، دون فتحات تهوية أخرى غير الباب-
أصل سُكَّانها بمجرد رؤيته للنساء داخل أكواخهن أو ملاحظة غيابهن.
يسأل عن عمد النساء اللواتي يجلسن في دائرة على الأرض
الخشنة، وهن ينظرن إلى بعضهن في صمت، وفكاكهن مستندة على
أيديهن.

-هل أنتن أندلسيات؟

كن يهتفن مستاءات:

- نحن أندلسيات! نحن سيدات بيتنا. نحن لا نخرج لخداع الناس.

كن عجريات لا مانشا. كان لديهن آباء أو أزواج يعملون لإعالة الأسرة؛ وإذا لم يكن هناك مقايضات، وإذا توقفت تجارة الدواب، فإنهن يغلقن بطونهن ويعانين الجوع في صمت، وهن يجلسن بجوار حجارة الموقد الباردة، وتنانيرهن مبعثرة حولهن مثل عيش الغراب الضخم، قليلات الكلام وجاهزات للموت دون التحرك من مكانهن.

يشعر مالترانا -على الرغم من بؤس منزله- بالتعاطف عندما يرى منازل هؤلاء الناس. كانت غرفاً صغيرة جداً أرضها من التراب المدقوق، منخفضة كثيراً عن الشارع. لم يكن لديهم حواجز، وعندما يستلزم الحياء فصل الأسرة، يخرجون من المآزق بتعليق بطانية قديمة بحبل. في الجزء الخلفي من الكوخ الخيول والبغال والحمير، التي تشكل ثروة الأسرة، رؤوسها مدفونة في صناديق بمثابة مِعلَف وأردافها في مواجهة الباب. تُبسط المراتب المتهالكة -المكدسة في أحد الأركان- ليلاً بالقرب من الأرجل الخلفية للبهائم، وتنام الأسرة ورأس مالها المدلل بسبب دفء الروث المُشاع. كان بعض الآجر الموضوع في وسط الكوخ بمثابة مطبخ. لا تُشعل النار إلا ليلاً. دخان الحطب يملأ الغرفة، ويخرج إلى حيث يستطيع بسهولة: عبر الباب المفتوح أو الشقوق في السقف، حيث لم يكن هناك أدنى ثقب ليكون بمثابة مدخنة. اسودت الجدران بطبقة من السخام التي تمثل سنوات طوَالاً من الجو

الخائق؛ تكتفي البهائم -المعتادة على هذا الاختناق البطيء- بالنفخ في مِعْلَفِهَا. تراقب النساء -بأعين دامعة من الدخان- المقلادة. الأطفال الرضع يسعلون متزاحمين على ضروع أمهاتهم، كأنهم يبحثون عن اللبن الطازج.

يشيد بي المحصل بمزايا التدخين المستمر. فيقول:

- بفضل ذلك، لا يموتون مثل البق. الدخان يطهرهم؛ لأنهم لا يلمسون الماء أبدًا. كن حذرًا -يا سيد إسيذرو- إنهم قدرون! على العكس، وقت الطعام لم أرَ أشخاصًا لديهم شكوك كبيرة.

لم يتوقع منهم قبول صدقة الطعام، ولا الاستفادة من بقايا طعام أي شخص. تجلب الفجريات -عند العودة من مدريد- مأكولات من الدكاكين؛ أطعمة نيئة لظهوها في حضور الأسرة. يمضون أيامًا كاملة دون أكل، في هدوء كالعادة، وعلى الرغم من جوعهم، يقومون بإيماءات اشمئزاز عند التحدث عن جامعي القمامة، المتسولين، عن كل القرويين الذين جعلهم البؤس على اتصال بهم، الأشخاص الذين لهم بطون خسيصة، الذين يتغذون على الحثالة التي رماها الباقون ويرتدون نفاياتهم.

سرقة... قدر استطاعتهم! يسرقون في مدريد، يسرقون في الحقول الصيفية عندما يخرجون في رحلات إلى الأسواق الموسمية؛ ويجب أن يكون كل شيء جديدًا، لم يستعمله أحد. بدلاتهم -مع أنها مرقعة ومتسخة- تخصهم، وقد صنعت لأجسادهم، ويفضلونها -بكل حقارتها- على الملابس المستخدمة بشكلٍ أفضل. تعاني معداتهم

-قبل الجوع- الغثيان من الاشمئزاز. عندما يصل ثوب شخص غريب إلى أيديهم، يقومون ببيعه لجامعي القمامة بهيئة فاخترة. في ليالي الوفرة، تجلس العائلة حول المقلاة. تلقي الأم قطع اللحم الطازج في الزيت الساخن، وكل واحد يخزّه بمطواته، بسرعة كبيرة لدرجة أنه مهما كانت المرأة ترمي وترمي، لم تكن المقلاة لتمتلى.

يتجمع الرجال يوم الخميس في سوق البهائم بجوار باب طليطة. ومن لا يملكون ماشية يذهبون إلى هناك أيضاً، على أمل أن يقع في نصيبهم شيء ما، حاملين عصياً كبيرة، كأنّ عليهم أن يرعوا قطيعاً وهمياً. ومع الجلف الأول الذي يبدأ في النصب عليهم، يطلقون عليه emburreo، correate، وهي أسماء يسمون بها فنون التجارة السيئة.

بعد ذلك يعودون، وهم يندبون انحطاط التاجر المحتال. يجب انتظار الأسواق الصيفية الكبيرة. في سوق مدريد بالكاد هناك مشتررون يمكن رؤيتهم؛ جميعهم غجر... وكيف يمكن أن يخدع بعضهم بعضاً؟! يعود الأكثر ثراءً ليدخلوا ماشيتهم كلها عبر أبواب المساكن القصيرة: الحمير المتواضعة ذات الأذان الطويلة والنهيق الفاضح؛ الحصان ذو العُرف المجدول والذيل المشط، التي ترمح حول سوط سيدهم، مؤكدة أن الحصان الذي يركبه الملك لم يكن أفضل؛ chori و choro (البغلة والذكر)، حيث يأملون في بيعهما بسعر جيد، عندما بدؤوا الرحلة الصيفية عبر قشتالة ولا مانتشا، وهم يقدمون بهائم للفلاحين.

يبقى الغجر بقية الأسبوع في لاس كامبرونراس لا يفعلون شيئاً، في انتظار عودة إناثهم، طيورهم اليقظة والمغردة التي تجلب في مناقيرها الخبز إلى الأسرة. يفترون بكوبٍ من العرق أو كسرة خبز ناشف، ويتحملون الجوع طوال اليوم، في تشرّد هادئ. يلعبون بالقضيب الحديدي أو بالأوتاد في خلاء لاس كامبرونراس؛ وأمهرهم يعزفون على الجيتار، مبتهجين بضعفهم بموسيقى حزينة؛ والمجتهدون يتمددون على بطونهم على ضفة النهر، وهكذا يظلون ساعاتٍ وساعات في انتظار بعض عصافير الدوريّ للإمساك بها عن طريق شبكة موضوعة على العشب. بعض العجائز ذوي الهيئة الرائعة يصفقون أمام مجموعة من العفاريت الصغيرة الملونة بالشوكولاتة بشعيرات فوق آذانهم، يتعلمون الرقص، ويحركون أقدامهم وأذرعهم بشكلٍ غريب، ويهزون بطونهم بالتواءات فظة. كانت الحياة القبلية: يستريح الذكور من أجل امتياز قوتهم، في انتظار الغذاء من الإناث اللاتي يذهبن إلى الغابة، أو إلى المدن المجاورة.

عرف مالترا - بعد أيام قليلة من إقامته في لاس كامبرونراس - أسماء جميع المحترمين الأوغاد رعاع الغجر، السُّمر والرشيقيين، مع وجوه التهمها الجدرى. كانت ألقابهم مونو، باستيان، ماتاموروس، مالاويا، كاتشولي، موتشون ونبكو وغيرها ليست أقل غرابة. لم يسبق أن كانوا في حالة سُكر، ومشروبهم المفضل هو الشوكولاتة.

الشخص الوحيد الذي يُبدي - بحديث غير مترابط وصيحات صاخبة - ولعه بالكحول هو سالجيرو، الذي يُسمى نفسه سالجِريو، وهو

رجل عجوز خبيث، يسكن في الكوخ الأول في الزقاق لأكثر من ثلاثين عامًا. في الشتاء يصنع سلالاً من الخوص، بمساعدة المرأة العجوز التي تعيش معه. وفي الصيف يخرج إلى الأسواق لممارسة تجارته كجزاز.

بحلول المساء تصل النساء متعبات من يوم كامل من الجري عبر مدريد. ترتجف البطون الفارغة مع اقتراب رُسل الوفرة. يتعرف العجبر عليهن بمجرد وصولهن إلى منحدر لاس كامبرونراس.

يقول أولئك الذين يلعبون بالأوتاد، محذرين الأزواج:

- من هناك تأتي بوتشيشي وبيكيه.

وبعدهن تظهر كلايينا، كورتثونا، بوت، بللا، ولاس تشيريناس. هؤلاء الأجل، ويشتهرن بمهارتهن على جلب غنيمة جيدة إلى المنزل. القروي الذي يلحقون به، يضايقنه فوراً. فقط لا كولو دي كورتشو يمكن مقارنتها بهن، غجرية بدينة، بعينين صغيرتين كأنها مخيطة، وخفة يد تجعل أي شيء يمكن أن يُسرق في برهة يختفي تحت تنانيرها.

يخرج الرجال لملاقاتهن. تستفرغ بوابة شارع العجبر مجموعات ومجموعات من الأطفال القذرة، الذين يمضون اليوم يغنون في الجوقة، ويقرعون الصناعات ويتلقون دروساً في الرقص لدرء الجوع.

- ماذا أحضرت؟

يسأل العجبري زوجته، وهو يمد أطرافه الخدرة من الراحة، ويشد حزامه بكلتا يديه ويمسك شعره الأشعث الذي يغطي أذنيه.

إذا كانت الرحلة مثمرة، تتبخر العجبرية بفخر.

- هلم بنا أيها القذر، كثيرٌ من الشوكولاتة لتمدتها أنت وأبناءؤك!
يشعلون النار في كوخهم، وهم يعدون -أولاً- الشوكولاتة ويتركون
الطبخ للعشاء لاحقاً. في منازل أخرى، يُستغنى عن المقلادة تماماً، لا
يريدون -بعد يوم من الجوع- طعاماً آخر غير الشوكولاتة. كانت رفاة
السلالة، غذاء الأغنياء، وجميع أفراد الأسرة، الذين يجلسون القرفصاء
حول النار، مستغرقين في التفكير في غليان القدر المليء بالشوكولاتة.
إذا جمعت المرأة دورو بغشها ونهبها، فقد استخدمت كل الكمية
تقريباً في ألواح المعجون الثمين. تشرب العائلة الشوكولاتة السائلة
ببهجة، وتمضغها نيئة كأنها تمضغ الخبز. ينتشر العطر المر في المنازل
المجاورة، فيثير الحسد. يُطل الأطفال بأعين شغوفة، ثم يركضون بعدها
ليخبروا أمهاتهم عن مآدبة الملوك هذه:

- أمي، في منزل ماتشويلو يشربون الشوكولاتة. يقولون إنهم قاموا
بعمل مقايضة جيدة.

وتتنهد الأمهات بحسد. يا لحظ بعض الناس!

في منازل أخرى ترن صرخات يائسة، وضجيج عراك، وضربات
على الجدران. يُفتح باب، وتُخرج امرأة ذات تعبير خائف رأسها
الأشعث.

- أغيثوني! زوجي إنريكي يقتلني! يكسر ظهري! يشجني قطعاً؛
لأنني لم أحضر شيئاً!

تستمر في الصراخ ورأسها خارج الباب وجسدها داخل المنزل دون

أن تتحرك، حتى يتمكن الغجري من ضربها دون عناء. لم ينتبه أحد لهذه الصرخات.. تحدث كل يوم. تتجول المرأة في مدريد، دون أن تأتي بأي شيء، من المؤكد أنها ستعرض لعلقة. لقد كان ضرورة من العادات الحميدة، تقليد جليل: جميعهن رأين الشيء نفسه في منزل والدهن.

يهبط الليل، يذهب ببي المحصل من حُص إلى حُص مع دفتر الشيكات الخاص به. في بعض المنازل، يجد الرجل جالسًا في الزاوية، ويبدو عابسًا، والمرأة مستلقية على الأرض.

تئن الغجرية:

- مُر دون أن تتوقف خوسيليو. اليوم لا أستطع أن أعطيك الريال:
لم أكسب أي شيء. انظر ماذا فعل هذا المتوحش بجسدي!

وتشير إلى زوجها غير المبالي مع هدوء مَن يقوم بواجبه.

الموقد مُطفأ، وعصابة الأطفال -المقتنعين بأنهم لن يجدوا كسرة خبز ناشف في المنزل- تستمر في القرع بالصناعات في الشارع - ترا لا لا لا - وهم يمرون ويعودون أمام الأبواب التي تفوح منها رائحة الشوكولاتة، مع أمل الحصول على بعض الحساء.

يلاحظ المحصل -في أماكن أخرى- العجلة التي تخفي بها العائلة الوفرة التي لديهم. لم يكن للموقد سوى عدد قليل من الجمرات؛ كانت الأواني الفخارية -المتسخة بالشوكولاتة- مخبأة في لفات الوسائد. أكبر أفراد العائلة تمد بعض العملات النقدية بين تنهدات الفتور.

تقول:

- هاك - يا خوسيليو - أخي. ليس لدينا المزيد؛ أنا مدين لك بريالين، سأعطيكهما غداً. آه! نحن نتضور جوعاً حتى الموت!
ويذهب خوسيليو إلى منزل آخر، متيقناً من الجباية، فمع أن هؤلاء الأشخاص يتأخرون في الدفع، إلا أن الأمر ينتهي بهم دائماً إلى الوفاء بديونهم. لقد كانوا متشردين، فبمجرد أن يبدأ الصيف يعيشون حياة التجول من سوق إلى سوق، ولهذا السبب هم بحاجة إلى أن يكون سقفهم آمناً عند حلول البرد.

تحدث إسيدرو - عندما يغادر منزله في الصباح - إلى سالجيرو الجزاز. قابله وحيّاه بمجاملات عظيمة.

- اذهب مع سلامة الله يا سيدي صاحب السعادة. أنت تعلم بالفعل أن سالجيرو هو خادمك المخلص، حتى لو كان غجرياً فقيراً.

كلما كان إسيدرو قادراً على إعطائه سيجارة، يرافقه سالجيرو -الراضي عن الهدية- إلى أعلى المنحدر، حتى متنزه لوس أوتشو إيلوس، دون أن يتوقف عن التحدث إليه بهراء غجري.

مظهر الطقس أكبر قلق له. لم تكن تمطر؛ فالأمور تسير بشكل سيئ.

سأل مالترانا ضاحكاً:

- لكن بالنسبة لك ما الذي يهملك سواء هطل المطر أم لا؟ أين حقولك؟

استغرب سالجيرو. كان المطر خبزاً بالنسبة لهم؛ فهو ينتج

المحاصيل الجيدة، ومع الوفرة في الحقول، ينفق الفلاحون أموالهم على شراء الدواب بشكل أفضل.

- نحن نعيش في الصيف يا سيد إسيدرو. لولا الأسواق، لمتنا كالفران. أنا أجزّ، ورفاقي الذين يملكون الدواب يبيعونها. في الشتاء، يكون العشب باهظ الثمن. هؤلاء المساكين الذين تراهم لا يأكلون مرات عديدة من أجل الماشية، وهي ثروته، العلف... في الصيف، إذا كان الحصاد جيداً، فإن الفلاح يكون كريماً ولا يمانع في إعطائنا التبن والشعير عندما نمر.

يتحدث سالجيرو بحماس عن الأسواق الصيفية، وأسواق البهائم الكبيرة التي تمنح الحياة للغجر المتجولين لبقية العام. يعرفهم كلهم؛ يذهب إليهم راكباً حماراً والمقص في حزامه. في لاس كامبرونراس لم يبق سوى امرأته العجوز وبعض النساء الأخريات الأرامل. حتى الغجريات اللاتي لديهن أكبر ذرية يبدأن السير خلف القطيع، ويتبعهن جميع أطفالهن. وبينما يصنعون الرجال أفخاخهم في ميدان السوق، يركضن بين المنازل يفتحن البخت، وهن يقولن حسن الحظ، ويقدمن الأكبر سنّاً أنفسهن لعلاج الأمراض بعلاجات غامضة، تنتقل من الأمهات إلى البنات منذ أقدم العصور.

أول سوقين في سان خوان: سوق سيجويا، وأبيلا. ثم يأتي السوق المشهور في ألكالا في شهر أغسطس. وفي سبتمبر تكون أسواق إلسكاس، أرانخوز، أوكانيا، مورا، وكيثانار وبلمونت. وفي أكتوبر يكون آخرها: أسواق كونسجرا، تالابرا وتوريخا. قبل أيام من استقرار

مالترانا في لاس كامبرونراس، عاد جميع الجيران من هذه الأسواق الأخيرة، نهاية الوقت المناسب للتجارة.

كان سالجيرو متحمسًا وهو يتذكر هذه التجمعات الكبيرة من البهائم التي تحتاج إلى الجزّ، لقاءات عائلات الغجر من أقصى أطراف شبه الجزيرة. كانوا متصلين جميعًا بسبب النسب بعد قرون طويلة من الزواج، دون تجاوز حدود العرق، ويرى بعضهم بعضًا مرة واحدة في السنة، عندما يلتقون في الأسواق، ثم يبدؤون في عودتهم عبر الطرق المختلفة، بحثًا عن الاعتزال الشتوي.

تعلم مالترانا من الجزّاز جغرافية الغجر الممتعة. كانت طليطلة هي تولدات، وقرطبة، كوردوبات. بلدة كانت جاو. يطلقون على بلد الوليد جاو بارو، «المدينة الكبيرة»؛ على إشبيلية، جاو دي سيا؛ على بلنسية، غاو دي لوس ماروييس؛ وفي جميع أنحاء جليقية، جاو دي لوس مالالوس. مدريد كانت لوس فوروس.

- هم نعيم - يا سيد إسيدرو - مثل هذه الأسواق. في كل لحظة يوجد أخرق وتُباع الدواب؛ ليس الأمر كما هو الحال هنا، حيث يقضون أيام الخميس عند بوابة طليطلة دون تغيير الحمار السيئ. وأنا - عندما لا أقوم بالجزّ في الأسواق الموسمية - أعمل كمنظم. ولأنني أمتلك طلاقة اللسان، فإنني أبذل قصارى جهدي حتى يبيع رفيقي بضائعه، ثم هناك الإكرامية وتُشرب كأس جيدة من مور وكوب لذيق من بانيالو. سيادتكم لن تعرف ما هذا. ما الذي يجب معرفته، إذا كان مع العديد من الكتب

التي قرأتها لا تتحدث ولا حتى القليل من الكالو^(١). حسناً إنه النبيذ والعرق؛ وعندما أسمع زملائي يقولون إنني مولالو، فإنهم يعتقدون أنني في حالة سُكر؛ لكن لا يوجد شيء من هذا القليل: قليل من الفرح ولا شيء أكثر.

تسبب وجود مالترانا وفلي في هذا الحي - حيث لا يوجد قرويون آخرون غير المتسولين وبائعي الخردوات في الأسواق الموسمية - في بعض المشاعر في مجتمع الغجر. يعيش الزوجان خارج الزقاق، في الطابق العلوي في بيت منعزل، ويشغلُ الطابقُ الأرضيَّ محلَّ أطعمة.

شعرت فلي - في الأيام القليلة الأولى - باشمئزاز شديد من مسكنها الجديد. يخيفها أن ترى كثيراً من الغجر؛ كان هؤلاء الرجال - ذوو اللون البرونزي والنظرة الشريرة مثل قطاع الطرق - يوحون إليها بالقلق. كانت خائفة من النساء وهي تراهن من بعيد يصرخن ويهددن بعضهن بلغة غريبة، لم تفهم منها سوى بضع كلمات. يعيشان بسلام؛ لكنها تشعر بعدم ارتياح المرأة الأوربية التي تجد نفسها منقولة إلى مدينة في إفريقيا، بين أشخاص يبدوون خاضعين، يمكنهم أن يشعروا فجأة بعداء العرق.

ضحك إسيذرو من قلقها. أين المكان الأفضل من هنا؟ صحيح أن رائحة النهر كريهة، لكنهما سيعتادان على هذه الرائحة النتنة لفضلات القرية. على العكس، يسمعان الطيور، ويتأملان الحقل والسماء عندما يفتحان نوافذهما، لم تصطدم أعينهما بجدار متسخ على بعد أمتار قليلة، مما يسلبهما الهواء وزرقة الفضاء.

(١) الكالو: لغة الغجر.

يجمل إسيدرو -بخياله- الحي. قبل قرن كان هذا الجزء هو
الأجمل في مدريد. هل ترى فلي المروج على الجانب الآخر من النهر؟
حسنًا هناك يرقص الأوباش والشابات من عوام مدريد الذين رسمهم
جويا؛ يتنزه هناك الرسام العظيم والدوقات الجميلات اللواتي يرسمهن
عاريات. لقد شهدت تلك البساتين أكثر الفترات اللطيفة والرعية في
تاريخنا.

أضاف الشاب:

- فكري يا فلي في أننا نعيش بريال ونصف كسادة في وسط الريف،
وإلى جانب ذلك يكون الدفع يوميًا: راحة حقيقية.

لم تعد الشابة -وهي ترى في جميع الأوقات هؤلاء الناس ذوي
المظهر المرعب والعادات السلمية- تخاف منهم. النساء -من جانبهن-
ينظرن إليها من النافذة وهي تعمل على المشدات، ينتهي بهن الأمر إلى
الشعور بالإعجاب. اجتهداها يلهم هؤلاء الإناث المتشردات، اللواتي
تتلخص أعمالهن المنزلية في إشعال النار وترك العائلة تلتهم عشاءها
نصف النبیء، احترامًا كبيرًا.

بالإضافة إلى ذلك، وصلت أخبار غامضة إلى العجر أن إسيدرو
كان رجل قلم، وأنه على الرغم من مصيبتة يمكنه الخروج منها؛ وكان
هذا كافيًا لإثارة الاحترام فيهم مثل القاضي، والكتبة وجميع السادة
المهمين الذين يكتبون أيضًا ويرسلون رجلًا فقيرًا إلى السجن بمجرد
اختفاء أحقر دابة. توقفت بعض النساء العجائز في تنانير الأرامل
السوداء مالترا للحدث معه عن أطفالهن في مليلة أو في سبتة.

تتاوهن:

- لا يا سيدي. حماس. كانوا يحملون ساطورًا في حزامهم، وعندما أصبحوا في عداد المفقودين، فإنهم... أدركوا. يجب أن يكون لورقتك تأثير جيد... حاول أن تمنحهم العفو، أو انقلهم إلى سجن أفضل.

هؤلاء الأشخاص ذوو الخيال النابض بالحياة، الذين يعيشون في كذبة أبدية، قد خلقوا أسطورة جميلة حول تلك السيدة الشابة، الطيبة، الكادحة، التي تبقى ساعاتٍ خلف الزجاج، بعينين منخفضتين، مثل عذراء صغيرة على مذبحها. مجموعات العجريات الصغيرات رثات الثياب، في مسيراتهن الشعبية عبر الحي، يصحبهن قرع الموسيقى بالعصيّ الصغيرة، تتوقف أسفل النافذة وتغني للتي كانت مجازًا «السيدة». ترى فلي مجموعة من الرؤوس الصغيرة الشعثاء بأعينٍ من الجمر ووجوه نحاسية، أفواههن مفتوحة من الغناء، يظهر حلقاتهن الوردي الداكن وأسنانهن الحادة والشفافة. تستقبلهن الشابة بابتسامة حلوة، يطلقن جميعًا صيحات هائلة.

- أعطينا شيئًا يا سيدتي! أعطينا قبلة.. هيا!

ويتحدثن فيما بينهما عما سمعنه من أمهاتهن. «السيدة» ابنة رجل ثري جدًا، ماركيز أو ما شابه ذلك؛ لكن بما أنه لم يسمح لها بالزواج من السيد إسيدرو، فقد هربت معه، ويحتملان الجوع، وعملت هي من أجل زوجها، كما تفعل جميع النساء الشريقات؛ كأنها عجيرة جيدة.

هذا الاجتهاد من أجل الحفاظ على الذكر والروايات التي يتم تداولها حول أصلها العالي جذبت إناث لاس كامبرونراس بفضول لا يُقاوم.

أول من دخل المنزل كانت تيودورا، امرأة عجوز ذات مكانة كبيرة في الحي: نموذج للحكمة، تحظى حتى باحترام الرجال. كانت أرملة؛ ترتدي ملابس الحداد، بمبالغة غجرية؛ لأنه حتى فوق تقاطع منديلها كان بإمكانك رؤية حافة قميصها الأسود البركالي.

بدون زوج ربحت منه، ولا أي ثروة أخرى واضحة غير ثلاث دواب لأحد أبنائها، كانت المرأة صاحبة أكبر قدر من المال في لاس كامبرونراس، ومنزلها الأفضل. تملك عددًا قليلًا من الكراسي الصغيرة للجلوس عليها وزينت الجدران السخانية بورق مقصوص من النوع المستخدم في خزانات المطبخ، مُكونة بساطًا متعدد الألوان، مما يعطي الكوخ الخاص بها طابعًا شرقيًا، في انسجام مع الوجه الداكن للسكان.

تيودورا هي المرأة الأكثر حكمة في عرقها. عملت طبيبة للرجال، وقابلة للنساء، وخاطبة للفتيات اللاتي على وشك الزواج. لم تكن هناك غجرية عذراء لم تمر بين يديها قبل الزواج لتثبت سلامتها. وكان قرويّو الحي يطلقون عليها بتهكم اسم «أم العذارى».

دخلت منزل إسيديرو بحجة حمل فلي. تعرف عن هذا أكثر من كل الأطباء مجتمعين؛ وبعد النظر إلى بطنها الضخم لفترة طويلة، وضيق عينيهَا ومدت شفتيها المجمعدين على شكل بوق، قالت بيقين:

—ستكون فتاة أكثر ظرافة ومتعة من أمها. أراها من هنا.

شعرت فلي بالإطراء من الشناء الهائل للسيدة العجوز وقصصها غير العادية عن عادات الغجر، تُسر فلي عندما تراها تأتي كل مساء. أحيانًا برفقة نساء أخريات وتفتخر بصدقتها الكبيرة مع «السيدة».

نظرت فلي إلى ابنة تيودورا، هي فتاة تبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، تكاد تكون طفلة، ترتدي ملابس حداد قاسية وبهيئة من الحزن المستسلم، كأنها راهبة مجبرة على العيش في العالم.

قالت المرأة العجوز:

- إنها أرملة يا سيدتي. مات زوجها بعد عامين من العيش معًا... لن تتمكن أبدًا من الزواج؛ قانوننا يحظر ذلك. ألا يكون للمرأة أكثر من زوج واحد. يمكن للرجال أن يتزوجوا بمجرد أن يمر الحداد: لهذا السبب هم رجال. الإناث.. لا. انظري إلى المسكينة. صغيرة جدًا، وتقضي حياتها في تذكر زوجها المتوفي. انتهت الحفلات والأعراس والحفلات الراقصة بالنسبة لها. ولما مات زوجها، قصوا شعرها بموسٍ وليس بمقص، كما هو القانون بيننا؛ وضعت عباءة قصيرة على رأسها، وبدأت في البكاء. تنام في ملاءات سوداء، ترتدي أحذية جليقية، وترتدي فقط أسوأ القماش، وعندما يكون هناك حفل في منزلها، تذهب إلى منزل أحد الجيران، هاربة من الضوضاء. آه، الموت! يا له من وحش لعين! ويا له من حزن!

وعند تسمية الموت الموت الرهيب، قامت بإيماءات مروعة من الفرع، كأنها أمامها وتدفعه بعيدًا بيديها.

تتأمل فلي في أحيانٍ أخرى شابة صغيرة ذات أمشاط حمراء في شعرها، وتنورة مجوفة بها زهور بكشكش طويل، وقلائد لا حصر لها باللون الأخضر والأزرق والوردي. كانت طفلة تقريبًا. نفخ البلوغ بالكاد طبقة صدرها ببراعم أنثوية؛ وملابسها الجوفاء -وهي ترن بخشخشة

فاضحة - تعلن عن نحافة علجوم أنثوي.

سألتهَا فلي:

- وهذه الفتاة الصغيرة متى تتزوج؟

صاحت المرأة العجوز بضحكة وقحة:

- هيا! حسنًا، أينما تذهب، تكون أكثر انفتاحًا من باب ماكارنا^(١)!
هي زوجة ابني رافاي، الذي يطلقون عليه بوتو... تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا؛ ولكنني تزوجت أنا من المرحوم زوجي وأنا أكثر شبابة.

وروت تيودورا لفلي حوادث الزفاف، أهم حدث في حياة العجبر. كان الشباب في العشرينيات من العمر يضعون أنظارهم على إحدى الفتيات والتي تبلغ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة فقط. فالنساء - بعد هذا العمر - ليس لهنَّ أي قيمة. يبحث الحبيب عن دعم من بعض النساء احترامًا لأعمارهن. في لاس كامبرونراس، يتم اختيار تيودورا دائمًا «السيدة تيودورا: أحب فلانة، ولكن مع نهاية جيدة». تبحث المرأة العجوز - التي سُرت بأنه وضع ثقته بها - عن الفتاة. «فلان يريد أن يكون صديقك، لكن رسميًا، من أجل الزواج قريبًا». وكانت العذراء العجيرة، خافضة رأسها، تجيبها. «بما أنه لا يريد أن يخونني ويفقدني، وبما أنك امرأة لها كثير من الاحترام تتدخل له... حسنًا، سأكون صديقه». يلتقيان من وراء آبائهما، بعيدًا عن الحي؛ يمضيان ساعات كاملة بمفردهما، في حرية تامة، لكنها لن تهتم لو تجرأ العجري الصالح على أشياء أعظم.

(١) ماكارنا: حي من أحياء إشبيلية.

عندما يتصور الصديق أنه في وضع يسمح له بإعالة منزل، ويحكي لأحد أصدقائه الذي قَبِل أن يكون إشيئنه، متحملًا جميع نفقات الزفاف، يخطف صديقتة، ويأخذها من منزل والديها. فضيحة كبيرة في الحي! يخرج والد العروس إلى الشارع صارخًا أنه سيقتل ابنته. يمسك به جميع الأصدقاء -الرفاق والجيران- حتى لا ينفذ الانتقام الأبوي، يقسم -وعيانه تزوغان- ويطلب بندقية ذات ماسورتين محملة جيدًا بالرصاص لقتل الهاربين، وساطورًا حادًا لقطع رقابهما، ولا يتحرك من مكانه، على الرغم من أن أصدقاءه بالكاد يمسكون به، مكتفين بإملاء النصيحة الحكيمة كما جرت العادة.

- ماذا ستفعل يا صديقي؟ إنها أمور الحياة... لقد فعلنا الشيء نفسه عندما كنا فتية.

ينتهي الأمر بالأب إلى دخول المنزل، وبما أن عليه أن يظهر سخطه على شيء ما، فقد كانت العادة أن يضرب زوجته حتى الموت.

وبعد يومين، يظهر الخاطف العجري أمام والد العروس، مرتديًا سترته المخملية ذات اللون الأحمر القاني وقبعته الأندلسية البيضاء لأيام الاحتفالات، ويجثو على ركبتيه آسفًا، ويمسك بإحدى يديه الكبيرتين، يقبلها، ثم يئن:

- رُدُّك هو السكين، وأنا -المسكين- اللحم. قطعني كيفما تريد.

هذه الكلمات -المتكررة لقرون- تؤثر في العجري العجوز، وتجلب الدموع في عينيه، كأنه يسمعها لأول مرة. فيرفع الفتى ويُلقى ذراعيه حول عنقه، ويقول متأثرًا:

- أنا أسامحك لأنني أحبك، لأنه ليس خطأك... لكن هي لا تأتي؛
لأنني سأقتلها.

بعد أيام قليلة، تظهر الفتاة برفقة تيودورا وعرّافات أخريات
محترّفات من لاس كامبرونراس.
يصرخن من الباب:

- ها هي فتاتك! دعونا نرى إذا كنت ستضربها أيها المتوحش!
يدير الغجري عينيه ويرفع ذراعيه كأنه سيسحق الطفلة الصغيرة،
فتسقط عند قدميه ويداها متجاورتان ووجهها حزين، وفجأةً يجهد
بالبكاء:

- ابنتي! مُهرة قلبي! يا له من غم سببتموه لنا!
يعانقها، ويقبلها بصخب، ولا تقل زوجته المسكينة في بكائها،
لكنها فرحة، وهي ترى نهاية مؤقتة لعهد الضرب.
تعود الفتاة إلى منزل العريس، وتبقى هناك حتى الزفاف الذي
يستغرق ستة أو ثمانية أو عشرة أشهر، بينما يجمع الآباء المال من أجل
الحفل باهظ التكاليف.

تشعر فيلي بالفضول بشأن زواج الغجر، وتسمع أشياء رائعة.
تقول رفيقة تيودورا ضاحكة:
- نأخذ إبريقاً، نرميه إلى أعلى، يتكسر، ويكونان قد تزوجا الآن.
صاحت المرأة العجوز:

- أيتها العاهرة، لا تسخري من السيدة. هذا الأمر عن الإبريق غير صحيح. إنها مضايقة نفعلها مع القرويين؛ أكاذيب يتلعونها، تمامًا كما يعتقد الملعونون أننا نخطف الأطفال للحصول على دهونهم. لا يوجد إبريق أو أي شيء مثله. حتى بعضنا يتزوج في روما^(١)... هذا، على سبيل المثال.

وأشارت إلى زوجة ابنها، ضاحكةً بخبث وهي تتذكر هدايا الزفاف العظيمة. تشعر بعض السيدات الثريات -اللاتي في طريقهن لشرح العقيدة للكنيسة المجاورة- بالتعاطف مع تلك الفتاة الجميلة والرشيقة، حيث أظهرن تصميمًا على أن يكون الزواج بالطريقة الكاثوليكية.

تحدثت السيدة العجوز إليهن، متعللة أن الفقر هو عقبة لا يمكن التغلب عليها. كان الغجر مؤمنين صالحين ولا يخشون من دخول الكنيسة، أو أن يكون في الكنيسة. لكن الإراخايس (الاسم الذي يطلقونه على القساوسة) يجعلون الناس يدفعون كثيرًا مقابل عملهم! النساء المتدينات -اللاتي استحوذت عليهن ثروة تيودورا- استعجلن كل شيء. صنعن بدلة كاملة للعريس، برداء من القماش الغني، وجعلن العروس جميلة كعذراء. علاوة على ذلك، أعطوهما مائة دورو واشتروا الحلوى بوفرة حتى يشبع كل شخص في لاس كامبرونراس.

- يا له من حفل زفاف يا سيدتي! يا لها من نقود صرفتها هؤلاء القديسات! كانت الكنيسة بالكامل مليئة بالأضواء؛ وضعن غطاءً ذهبيًا على رؤوس أطفالها، وبدأ قسيس كثير الكلام في الصراخ، كأنه لم يَرَ قط

(١) روما: كناية عن الكنيسة الكاثوليكية.

عَجْرًا يتزوجون في الكنيسة؛ كأننا أناس متوحشون، من أولئك الذين لا يؤمنون بالله. ثم أُلقيت الحلوى في لاس كامبرونراس كأنها تُمطر من السماء.. يسقط المانرلاوس مثل البرد... وعندما رحلت السيدات وبقينا بمفردنا، زوجنا الصبيين على طريقتنا، وفقًا لقانون العَجْر.

كانت تيودورا - قبل أن تتحدث عن هذا القانون وممارساته - تنظر حولها بريية. كن جميعهن متزوجات أو أرامل. لم تكن هناك فتاة؛ ويمكنها التحدث دون خوف.

الشخصية الرئيسة في حفلات الزفاف هي السيدة تيودورا، الشهيرة بكاتانيتا، المسؤولة عن ارتباط الفتاة. قبل الحفل بيوم واحد، تذهب إلى مدريد برفقة أكبر نساء الحي سنًا، وجميعهن يحملن سلاسلًا كبيرة للحلويات. كن يشترين بوفرة، وخاصة المانتيوخوس (اللوز أو اللوز المُحلى)، وهو الهدية الرئيسة للعَجْر. ولا بد أيضًا من اقتناء تاج من الورد للعروس، وشريط من الساتان يقطع صدرها، والمنديل - المنديل الشهير - الغرض الرئيس في الحفل.

يقول الإشبين الذي يتحمل كل المصاريف: «اشتروا الأفضل. حتى لا يؤذيها؛ ليكون رقيقًا، من الأغلى»؛ تفهم تيودورا هذه الأشياء.

في اليوم التالي، تبدو العروس جميلة، مرتدية التنورات الداخلية والبلوزة، وشريطًا من الساتان الأحمر يقطع صدرها، وشعرها مسترسل، وتاجًا من أزهار قماشية، مرتفعًا مثل الخوذة العالية. يبقى الضيوف عند باب المنزل، وتتقدم تيودورا حاملة المنديل الجميل في يدها، جادة وحاجباها مقرونان مثل كاهنة. يدخل معها والدا العروس والعريس،

شيوخ العائلتين، وبعد إغلاق الباب تتمدد الفتاة على مرتبة مع تاجها وشريطها. كانت تيودورا -دون أن تسمح لنفسها بأن تغمرها عاطفة الحضور- هادئة وواثقة من خبرتها، تُدخل يدها ملفوفة في منديلها من خلال طبقات التنورات الداخلية، وهي تغوص لفترة طويلة في هذا التموج المُنشا. تظل العذراء بلا حراك -وعيناها مطبقتان- دون إيماءة، تتلون قليلاً بسبب الألم والدغدغة.

يخرج المنديل مرةً أخرى، والجميع ينظر إليه. الزهور البيضاء الثلاث! علامة العذرية! الزفاف يمكن أن يتم.

وعندما يفتح الباب مرةً أخرى وتُظهر العجوز المنديل، تدخل العبقرية على عجل، تصرخ بفرح، وهي تحيي العروس بحركات صاخبة:

- يحيا الخير! يعيش الشرف! مرحى للفضيلة! دعونا نجمعهما معاً!

يأخذ الإشبين سلة مليئة باللوز المحلّى ويرميها مرة واحدة على العروس. وهي -الممددة على المرتبة- تتلقى الرش دون أن تطرف. ثم يستقبلها الوالدان بوابل من اللوز، وخلفهم العجائز رفيعو الشأن وجميع الضيوف، حتى الصغار التافهون. تختفي العروس تحت وابل من السكر، تظهر رأسها فقط بخوذة الورد العالية، وهي تبذل جهوداً للتخلص من البرد، بينما يبقى باقي جسدها ثابتاً تحت السيل الحلو. يصرخ الناس:

- هيا لنجمعهما معاً! موسيقى! موسيقى!

تبدأ القيثارات عزفاً حزيناً. يعطي العريس يده للعروسة لتنهض بين قرمشة اللوز المسحوق بقدميها، ويدآن الرقص، وتضع تاجها على رأس زوجها. يُمضيان الليل على هذا النحو، وهما يلتهمان الحلوى، ويرميانهما على الجدران، ويشربان عشرات من فناجين الشوكولاتة. وحين يلوح الفجر يذهبان إلى النوم، متخمين بالسكر والشوكولاتة. يرقص جميع الغجر مع العروس، ويرتدون خوذتها العالية الوردية. في اليوم التالي، تقوم أمهات العروس والعريس بصنع أطباق من الحلوى المبعثرة على السرير، وترسلها إلى العازبات في الحي مع زهرة من التاج. يركب العريس حصاناً، حاملاً الأنثى على ردفه؛ وكان كل الفتيان -وهم يركبون أفضل بهائمهم- يشكلون موكباً لهما، ويحملون فتيات الحي على أرداف الأحصنة، وينطلق الموكب البديع بعجلة عبر الحقول، كأنَّ هذا الحفل بداية الزواج في حياة الجنس الرحال.

واستطردت تيودورا:

- ولا تزال الأيام تمر قبل أن يجتمع العروسان حقاً. بينما هما مع والديهما، يشعران بالحرَجَ وينامان منفصلين. فقط عندما يجتمعان في منزلهما يقرران الذهاب إلى الفراش معاً.

تُذهل الزهور البيضاء الشهيرة فلي، مما جعلها تتبع بعناية إشارات الخاطبة. كانت مثل بياض البيض. ويلٌ لمن لا تُظهرها في ذلك الحدث، الذي له مهابة احتفال ديني! وعندما يظهر المنديل بدونها أو بدون بقع الدم، يندلع صراخ الموت على الفاسقة. كان هذا دليلاً على افتقارها

للعذرية. ترتمي النساء عليها، وهن يمزقن تاجها، ويسحبن أقراطها حتى يشققن أذنيها، ويمزقن ملابسها البيضاء إلى أشلاء. عندما يُفتح الباب، تخرج كهيمة مطاردة وسط صفير الرجال، خريشات الفتيات وحجارة الصبية الصغار لتحتمي في بيت أبيها. كان الأخير قاسياً. فيقوم بقص شعرها بالموس ويعطيها بعض الجوارات من أجل الملابس، ويُلقِي بها في أحلك زاوية، وهناك تبقى دون أن يتحدث معها أحد، تولي ظهرها للناس، ترتجف عندما تسمع صوتاً، تعباً من حياة الإهمال هذه. وإذا كان بداخلها بقايا إرادة، تهرب لتضيع في الطرقات.

تستمع فلي مذهولةً إلى قصة هذه العادات البدائية التي تنتشر على أبواب مدينة عظيمة.

عندما يعود إسيدرو، تكرر له هذه القصص. ويُلقِي الشاب -عندما يستمع إليها- يُلقِي نظرات استغراب على الجسر المجاور، حيث تمر السيارات والعربات والمشاة، كل حركة المرور في مركز سكاني كبير؛ إلى الأراضي المقلوعة القريبة، مع مصابيح الغاز الخاصة بهم؛ إلى الترام الكهربائي الذي ينزل عبر متنزه لوس أوتشو هيلوس، ليترد الشرر الأخضر والأزرق من عجلاته. فقط أمتار قليلة تفصل بين الحياة الحديثة التي تدور أعلى ذلك المنخفض، حيث لا تزال تقاليد الحياة البدوية قائمة، وبربرية عرق متجول غير مدرك لأي تقدم. كانت حياتهما تتلامس يومياً، لكنهما يتجاهلان بعضهما، يجهلان بعضهما، دون أن يشعر مَن هم في الأسفل -في عزلتهم- بأدنى تأثير مَن هم أعلى. اغتاظت تيودورا عندما سمعت أن السيدة تشكك في علمها.

إذا كانت تخطبهم أخريات؛ فالخطأ ممكن. لكن هي! لم يكن هناك سوى تيودورا واحدة في شبه الجزيرة بأكملها. هناك في قرطبة هناك غجرية أخرى تمتلك فنّها، لكن الجميع يُقر بدناءتها. مع تيودورا لا يصلح الخداع: يثق الغجر في غشهم؛ لهذا السبب لم تكن تأخذ أقل من ثمانية دورو للارتباط، ومن لا يملكها لا ينبغي أن يتزوج. يدعوها الغجر من جميع أنحاء إسبانيا لحفل زفافهم، ويتحمل الأثرياء -علاوة على أنهم يدفعون لها جيّدًا- جميع نفقات الرحلة. تتواجد في الأماكن الأكثر شهرة لتجمعات الناس من عرقها؛ وتساfer إلى الأندلس، وتعرف مرسية، وتحدث عن رحلاتها إلى بلد الوليد وريوسكو. لم يشك أحد في علمها.

قالت:

- من النادر أن تفشل الأزهار البيضاء. الغجريات المسكينات هن أناث مهذبات. الآن ترغب عدة قرويات -تذهبن إلى شوارع المدن- في أن يكونوا مثلنا.

عند عودة مالترانا إلى المنزل، قبل أن يطبق الليل، يحضر أحيانًا هذا التجمع.

تستقبل العجوز -عند رؤيته- بضجة كبيرة كأنها سيدة المنزل:

- تعال أيها الأب القديس. من بين عطاياك، شارب حاكم صغير. يا له من شرف لنا أن نراك! نحن هنا نصاحب هذه الشابة الجميلة، التي تحمل في بطنها الجميل طفلة مثلما كان ابن الله.

وتتحدث عن المخلوقة التي ستولد بالتأكيد كأنها رأتها، مفصلةً خصالها الجسدية: كيف كان شعرها وكيف عيناها؛ تشبه والدتها في أي شيء وماذا ستأخذ من والدها.

يستمتع مالترانا إلى ثرثرة المرأة العجوز بنفاد صبر خفي. تُقسي عوائق حياته -التي تكون في كل مرة أكبر- طَبْعُهُ مما جعل ثرثرة الساحرة لا تُطاق.

تنظر تيودورا -عندما حل المساء- إلى النافذة، مشيرة إلى زوجة ابنها أن تطل منها.

- اخرجي إلى النافذة، وانظري هل زوجك في الجوار.

ينتظر الغجري الشاب أمه وزوجته، مفكرًا في العشاء، ولا يجرؤ على الصعود إلى منزل السيد إسيدرو، وبمجرد أن رأى زوجته صرخ في مزاج سيئ:

- هيا إلى المنزل.

انصرفت الغجريتان، ولكن عندما رأى مالترانا نفسه وحيدًا مع فلي، زاد حزنه، كأنه رأى بشكلٍ أوضح كيف كان وضعه مخيفًا.

لقد حان الوقت الذي ينتظره. بدأ البرد؛ يعود إلى مدريد الذين يمكن أن يوفروا له العمل، فقد انتهت إجازاتهم، ومع ذلك لم يتحسن وضعه.

بمجرد أن تلقى أخبارًا عن وصول الماركيز خيمينث، ركض لزيارة الشخصية الهامة؛ ليحثه على كتابة كتاب آخر. استقبال فظيع!

قال السّيناتور عابساً:

- كم أنت مسرور أنك تمتلكني! سأعمل معك مرة أخرى قريباً!
الشباب طائش.

واستمر في النحيب، كأنه يتألم من ثقته المفرطة في كائن أدنى منزلة.

خلال الصيف كان أضحوكة جميع أصدقائه. مَنْ سخروا منه في تجمع الرئيس في سان سباستيان! يصرخون أن الكتاب ليس ملكه؛ وأن شاباً كتبه له مقابل بضعة بيزيتات، وأن هذا الشاب يستمتع على حسابه بالاستشهاد بمؤلفين وهميين، وهو ينسخ فقرات من كتب ليست موجودة.

قال الماركيز بشهامة رجل عادل:

- أنا أتجاهل ذلك الماضي. كلُّ فيما يخصه. الكتاب جيد جداً؛ ما يقال عنه هو الحقيقة الخالصة، لو عرفت ذلك! وعن المؤلفين الزائفين والكتب المخترعة، الجميع يحسد، يحسد لا أكثر... ما يزعجني ليس هذا، لكنهم يقولون إن الكتاب ليس لي، إنهم يسخرون مني أمام الرئيس -الذي كما تعلم- شرّفني بالمقدمة. ولهذا -كل ذلك خطؤك- حيث لم تكن حكيماً، تحدثت بطيش الشباب ووضعتني في موقف سخريّة. أجل يا سيدي، في سخريّة تلحق ضرراً كبيراً بحياتي السياسية.

حاول مالترانا -مصعوقاً من غضبه- الدفاع عن نفسه. لم يذكر مؤلف الكتاب: وكان هذا صحيحاً. ربما سيكتشف أعداؤه أنه هو الذي

ذهب إلى المطبعة لتصحيح العمل؛ ربما جاء الطيش من جانب آخر، لكنه كان يقسم أنه لم يقل شيئاً.

أما بالنسبة للدقة في الكلام المقتبس، فلم يسمح له ضميره بالدفاع عن نفسه بنفس الطاقة. كان يتلثم وهو يقدم أعذاره. من المحتمل أنه أخطأ في اسم أحد المؤلفين، وأنه نسب ما يخص بعضهم لآخرين. لكن الماركيز قاطعه بقوة:

- لا. أكرر أن الكتاب جيد جداً. لو أنني كنت أعرف! التفسيرات غير ضرورية... ما يزعجني هو الشيء الآخر: أنهم يقولون إن الكتاب ليس لي؛ يفترض أن رجلاً في مستواي قادر على التزيّن بأقلام الآخرين. قال ذلك بنبرة مريرة، بنفس التعبير الذي يُزعج به الحكومات في مجلس الشيوخ لافتقارها إلى حماية القمح؛ وانتهى الأمر أيضاً بسخط مالترانا على الملعونين الذين افترضوا أن الماركيز خيّمث غير قادر على كتابة مجلد.

غادر إسيدرو من هناك دون تلقي أموال ولا مهمة جديدة. إلى جانب ذلك، أدرك أن السيناتور يغلق بابه في وجهه إلى الأبد. بعد هذه النسيمة، كانت أفضل طريقة لإثبات أن مالترانا لم يساعده هي الامتناع عن التعامل معه تماماً. حسناً، لقد جعل الشاب يتفهم ببرود إيماءة الوداع، تكاسل يده والنصائح التي أعطاها له.

- مزيد من التكتّم أيها الشاب. لتشق طريقك، عليك أن تكون حذراً. الحياة ليست لعبة؛ لا داعي للحلم أيها الصديق الشاب.

في حالة يائسة، عاد مالترانا إلى غرفته الصغيرة في لاس كامبرونراس.

يدخل كل يوم إلى مدريد مطارداً الأمل، لكنه يرفرف أمامه دون أن يُسمح له بالوصول إليه. يزور أصدقاءه في صالات التحرير، متسائلاً بحرص متى يمكنه وضع رأسه في إحداها؛ عرض على المسؤولين لصق الشرائط وعمل الحزم. كان راضياً بأي شيء؛ كان الشيء المهم هو الحصول - مهما كان - على زوج بيزيتا كل يوم. حتى أنه طلب توصيات لبعض أعضاء مجالس البلدية، وطلب منهم أي منصب في مكاتب البلدية.

بالكاد يحمل حِزماً إلى مصنع المِشدات بالقرب من بورتا ديل سول. كان لدى فيلي نفس الدزينة في المنزل منذ أسبوعين، دون أن تتمكن من الانتهاء منها.

كانت مريضة.. مريضة جداً. يتابع مالترانا تقدم مرضها بقلق. تشتكي من آلام شديدة في الرأس؛ وفجأة فقدت بصرها، وتحدث بشكل غير مترابط، وتهين أحياناً إسيدرو دون أن تعرف السبب، وأحياناً تعانق رقبتَه لتطلب منه العفو، مع سيل كبير من الدموع.

أعلن الشتاء عن نفسه ببرودة مرعبة. تظهر في برك النهر كل صباح بلورات جليدية كبيرة. يبقى الغجر في غرفهم الصغيرة، يدفئون أنفسهم بجوار النيران. في بيت العاشقين لا خبز ولا نار. ترتدي فيلي ملابسها الصيفية، دون معطف آخر غير شال تم شراؤه من مؤسسة للتسليف. لا يزال إسيدرو يحتفظ بذلك الكاب ذي اللون المبهم، والذي بمثابة بدلة

بؤسه. ينفعه لإخفاء رقة بدلته وقميصه المُنسل، المغطى بشكل سيئ
بمنديل أسود لامع مع الوَسْخ. يقدم الشاب المسكين مظهرًا مؤسفًا أكثر
مما كان عليه عندما كان يعيش في شارع لوس أرتيستاس، دون عائلة
أخرى غير زوج والدته. تبقى فلي الآن -التي تولي في أوقاتٍ أخرى
عناية كبيرة بنفسها- بلا حراك في الكرسي الكامل الوحيد في المنزل،
كما لو أنها لا ترى ولا تفهم، دون أي إحساس آخر غير البرد المستمر
الذي يجعلها ترتجف في لفافتها الخفيفة.

يخرج مالترانا يوميًا بحثًا عن الخبز. يذهب إلى مدريد لتقديم طلب
للحصول على وظيفة دون جدوى، لاقتراض المال، للتسول من جميع
الأشخاص الذين يعرفهم. لم يعد الذئب الذي يهبط من القمة بحثًا عن
الطعام؛ كان القارض المسكين، الخجول والمرهق، يتسلق ببطء من
قاع جحره إلى مرتفعات السكان العظام، منتظرًا فئات مأدبة الأقوياء.

تبقى فلي في المنزل، مريضة، ترتجف من البرد، تثبت نظرتها التي
بها غموض أحرق على الأرض، كما لو أن انتفاخ بطنها يمتص أفكارها.
كان يُغمى عليه، مع عدم وجود صابورة أخرى سوى فنجان قهوة ساخن
أو كوب من العَرَق، أحيانًا تحت المطر الذي يتسرب عبر نعال حذاءه
المتقطع، وفي أحيانٍ أخرى ترجه الأعاصير الباردة التي تهز أكمام كابه
برفرقة طائر جنائزي كبير.

ذات صباح -عند مغادرته المنزل- توقف مذهولًا. تساقط الثلج
في كومة عند قدميه عندما فتح الباب. كان كل ما يحيط بعينيه أبيض،
بياض نقي وجنائزي، مثل كفن عذراء ميتة: الجسر والنهر أبيضان،

منحدر لاس كامبرونراس أبيض، أسطح الحي والأراضي القاحلة. كان الصمت كاملاً.. العزلة مطلقة. يبدو أن العالم مات خلال الليل تحت وطأة الجليد. كان الدخان الأزرق المتسرب من المداخن هو العلامة الوحيدة على الحياة.

تردد مالترانا للحظة. شعر بحب فجائي للحبس، وعاطفة نحو البيت، جعلت الرجال يختبئون في بيوتهم. لكن في الطابق العلوي، من منزله، لم يبق شيء. في الليلة السابقة التهم نصف خبزة وقشوراً من ربع قطعة جُبِن. لم تأكل فلي. لفترة طويلة، أدى الحمل والاشمئزاز من الأطعمة الرديئة إلى إبقائها في حالة فقدان دائم للشهية. كان عليها أن تعيش.. هيا!

بدأ يمشي، وساقاه المحميتان غارقتان في الثلج، تلك السراويل الصيفية متآكلة الحواف، والتي بالكاد أخفت الشقوق والتمزق في حذائه. بردت قدماه عندما لمستا الثلج؛ بعد بضع خطوات ظن أنه يمشي حافي القدمين.

داخل مدريد رأى الشوارع مهجورة، بلا عربات، بلا ترام، كل شيء متساوٍ، جداول وأرصفة، بسبب تلك الطبقة البيضاء، كأنها أمطرت ملءً. على جوانب الشوارع انفتحت ممرات من الطين الأسود، يمر عبرها عدد قليل من المارة بين جدار مزدوج من الثلج. تبدو الأشجار كالقطن؛ تتدلى الندف البيضاء من الشرفات وأفاريز الأسقف. يبدو أن مصابيح الإضاءة لها قبة ملتوية مثل قلنسوة النوم. الأوغاد -المتحمسون بسبب حادثة المشهد- يدرجون كرات ثلجية كبيرة، تتوجها دُمى قماشية من اختراعهم.

يتجول مالترانا - بأقدام متجمدة ومرتجفة من البرد - عبر مدريد.
صعد إلى منزل زميل قديم ليطلب منه شيئاً، حتى لو كان مجرد بيزيتا،
ولم يجده. ذهب إلى الطرف المقابل من القرية، باحثاً عن صديقٍ آخر،
لكنه لم يكن في المنزل أيضاً.

فكر - كآخر مورد - في الماركيز خيمينث. لم يستطع التخلي عنه؛
سيطلب منه المساعدة حتى لو ركع على ركبتيه.

وصل إلى حي سالامانكا جازاً رجليه. كان عليه أن يتجادل مع
البواب، الذي يسد طريقه، وأخيراً سمح له بصعود سلم الخدم حتى
لا يلطخ سجادة السلم الرئيس بالثلج الذائب الذي تطلقه قدماءه. عند
باب المطبخ تم رفضه بشدة بعد أن اختفى الخادم لبضع لحظات ليعلن
اسمه. كان الماركيز مشغولاً للغاية: لم يستطع استقباله.

تجاوزت الساعة منتصف الظهيرة. تهدد السماء - الرمادية الضاربة
إلى البياض - بمزيد من الثلوج. ينعكس ضوء الشفق اللا متناهي في
البياض بدرجات الأزرق الرصاصي. يمشي مالترانا محبطاً، وذراعه
متدلّيتان، دون أن يعرف إلى أين يتجه.

انهارت إرادته، انهزمت، وافتقر إلى القوة للقتال؛ يريد أن يموت.
أغلقت كل الطرق في وجهه؛ كان الأمر كأن العالم أصبح مقفراً فجأةً.
كل الثلج الذي يحيط بعينه حمله في روحه.

رأى في بورتا دل سول موقداً هائلاً مليئاً بالنار، وحوله حشد من
الأوغاد المشردين، الذين يدفئون أيديهم، ويركلون في نفس الوقت
لينشطوا أقدامهم الخدرة.

انضم إليهم مالترانا، وبدا أن التأثير المفيد للحرارة أيقظ إرادته. ماذا يفعل هنا؟ فكر بندم في فليثيانا، التي سترتعش من البرد في كوخها، بينما يدفع نفسه في المجرمة العامة. هؤلاء المتشردون الذين لا أسرة ولا عاطفة متفوقون عليه؛ يمكن أن يقاتلوا بشجاعة أكبر مع سوء الحظ.

يؤمن بإمكانية تحريك عواطف صاحب المتجر الذي كان من لاس كامبرونراس والذي يدين له بالكثير. خلاصه في الوقت الحالي كان هناك، حيث الجميع في مدريد غير مرتين، كما لو أن البرد قسّى ضمائرهم، كما لو أن شلل الحياة عزل الرجال في رفايتهم الأنانية.

عاد إلى المنزل. عند مغادرته بوابة طليطلة، رأى الثلج النقي والأملس، دون أثر، دون وطء أقدام موحلة للشوارع، متساوياً ولامعاً، مثل كفن ضخّم يغطى النهر والجبال والمساكن، والذي خرج منه الأشجار مثل الخيوط المسترسلة.

أخافه هذا الامتداد المنبسط أمام نظره، الذي يُخفي عدم استواء الأرض، الحُفر على جانب الطريق، الحُفر في الأشجار، منحدرات الأراضي المقلوعة. ظن عقله -الذي حطمه الجوع، وأخمد نشاطه البرد- أنه رأى -بهلوسة محزنة- صورة حياته المستقبلية في هذا السهل الأبيض الصامت الرتيب.

كان العالم باردًا، بلا روح ولا رحمة؛ وفكر في رحيله المؤلم دون دفعات شفقة.

الموت من الجوع! سيذهب إليه في الحال: سيراتح على الفور.
ولكن ماذا عن تلك التعيسة التي تنتظره، المريضة وشبه المجنونة، كأنها
لا تتحمل ثقل أحشائها؟ أي شيء مصيرها؟

مالترانا المتغطرس، الرجل المتفوق، الذي كلمته ضربة فأس؛
المؤمن المخلص بفرحة الحياة وبهليلينته المرفقة.. شعر بضعف ساقيه
واتكأ على شجرة.

لم يستطع التحمل بعد الآن.. لقد هُزم. اعترف بجبنه، مذهولاً
تحت ضربة الحظ.

يا للمسكين! وضع يديه على عينيه، وبكى بصراخ حَمَل مُهْمَل،
كطفل يستيقظ في الظلمات ويشعر بالفراغ من حوله، دون أن تلتقي يداه
المرتعثتان بدفء صدر أمه.



في نفس يوم تساقط الثلوج، أثرت مصيبة جديدة بشكلٍ مؤلم على
إسيدرو.

عندما عاد إلى المنزل، كان قادرًا على تناول الطعام. بدأ أن صاحب
الدكان الحقير في لاس كامبرونراس يشعر بالشفقة على بؤسه، حيث
قَبِل كل وعود الدفع الفوري. لينت قساوة الطقس صاحب الدكان،
وصعد الشاب برغيفين من الخبز، وزجاجة نبيذ، وجبن وعلبة سردين.
حفلة كاملة. بعد تناول الطعام، شعر بإحياء حبه للحياة. خدش
في جيبه ليجمع قطع التبغ الأخيرة؛ لف سيجارة، ومطلقًا سُحبًا من
الدخان بمتعة الرفاهية، تأمل من خلف النوافذ المنظر الطبيعي الثلجي
الذي أوحى إليه بحزنٍ عميق قبل ساعات.

بالكاد استطاعت فلي الأكل، شعرت بالاشمئزاز من تلك الأطعمة،
يدفعها الغثيان بقوة من فمها. ومرةً أخرى غرقت في جمودها، في ذلك
الإنهاك الذي يجعلها كأنها غير محسوسة.

ابتعد الشاب عن النافذة عندما سمع تنهيدة ضيق.

تَنَن فلي، وهي ترفع يدها إلى عينيها:

- لا أرى... لا أرى!

ركض مالترانا نحوها.

- ما الأمر يا حبيبتى؟ بمَ تشعرين؟

قالت بصوتٍ بطيء:

- أبى... عمى مانولو... برد، برد شديد.

خاف الشاب من عدم اتساق كلماتها.

عينها بلا حراك، متضخمتان إلى حدٍّ كبير، مع حَوَل يكشف القرنية
بأكملها، مما دفع الحدقة إلى زاوية الجفون. وضعت يديها على جبهتها.

تمتمت مثل طفلة مريضة:

- ألم... كثير من الألم.

ثم تلمست معدتها، وكررت نفس الأنين. تحني رأسها كأنها لا
تستطع أن تقاوم ثقل ذلك الصداع الذي أضعف قدراتها الذهنية. تجيب
على أسئلة إسيذرو المزعجة بشكلٍ غير مترابط أو لا تجيب عليها،
وتبقى في صمتٍ عابس.

فجأة اشتكت من طنين في أذنيها يدفعها إلى الجنون، من الإحساس
بالوخز في جسدها، من الصلابة التي تجمد أطرافها.

أنت:

- كل شيء يدور. الجدران تدور.. الأرضية تنفتح.. ثقب شديد
السواد، شديد السواد! إسيذرو، خذني.. أمسكني.. أنا أسقط... أنا
أسقط!

وعلى الرغم من أن الشاب أمسكها بإحكام بين ذراعيه، تحرك يديها، تحمي نفسها لئلا تسقط في الهاوية السوداء التي يراها خيالها المضطرب.

ثم صاحت، وبدأت في البكاء مع صرخات يائسة:

- والدي.. والدي المسكين! انظر إليه.. إنه عند الباب.. يدخل.. ينظر إلينا؛ يرتدي كفنًا.. أبيض، أبيض كالثلج.

نظرت عيناها الشاردتان نحو الباب؛ وكان هناك هذا اليقين في كلماتها، حتى إن مالت راناً التفت مصداً للحظة في يقين هلوستها.

بجهد كبير تمكن من حملها إلى السرير الفقير، ووضعها عليه معتقداً أن الأزمة انتهت. لا تزال تبكي؛ يأمل الشاب في أن تخلصها الدموع من الآلام التي تضغط على رئتيها وتخرق جبينها مثل مسمار ساخن.

سرعان ما أصبح مقتنعاً أن الأزمة آخذة في الازدياد. لم تعد فلي -وهي ممددة على السرير- تحرك رأسها من جانب إلى آخر بشكل مؤلم. أمالتها على كتفها اليمنى، بينما استمرت عيناها في التحديق إلى اليسار بثباتٍ مقلق، كأنها تحديق في شيء يُلقى فيها الرعب. اتسعت حدقة العين. فمها يفتح قليلاً مع ارتعاش الفكين أو يُغلق وهو يضغط على اللسان. اتخذ شحوب وجهها صبغة ضاربة إلى السواد؛ كان التنفس مؤلماً قصيراً، غير منتظم، ويرتج بسبب التنهدات الصاخبة. وفجأةً يتقطع مع تقلص عنيف لعضلات الصدر، وبقيت المريضة بلا حراك، كأنها ستموت من الاختناق.

يتحرك مالترانا حول السرير - مذهولاً - دون أن يعرف ماذا يفعل،
مرعوباً من وحدته وقلة خبرته.

- فلي.. عزيزتي.. تنفسي.. تكلمي! يا إلهي! ما هذا؟

ويضرب يديها، ويسحب ذراعيها، وينفخ في فمها كأنه يريد إعادة
الهواء إلى رئتيها.

استمر هذا أقل من دقيقة، لكن بالنسبة للشاب بدا الأمر بلا نهاية؛
فقد شعر بألم مثل ألم المريضة. تنفست مرة أخرى، وتحول جمودها
فجأةً إلى هياج مجنون. تقلصت العضلات المستديرة واتسعت،
وأُغلقت الجفون وفُتحت، وهي ترفرف بسرعة جنونية. تدور العينان
في مدارهما، وهما تطلقان ضوءاً غريباً، كما لو أن الكهرباء التي سببها
التشنج عكست على الحدقتين الخضراوين شرراً. أُغلق الفك ببقوة،
فتلنخ اللسان بالدم. ظهرت رغوة فقاعية في زوايا الشفاه، مع عويل
مكتوم. يتقلص الجسم ويتمدد، وينحني مثل القوس، بينما يغرق الرأس
والقدمان في أغطية الفراش غير المرتبة.

يركض إسيذرو مثل المجنون عبر الغرفة. ثم فتح النافذة وصرخ:

- النجدة! تيودورا! سيدة تيودورا!

لم يسمعه أحد. الشارع، الساحة، زقاق الغجر المجاور، كان
كل شيء صامتاً، مغطى بالثلج، بدون ظل شخص. ظل يصرخ، بقلق
الخوف. وأخيراً رأى وجهاً أسمر مليئاً بالتجاعيد، بعينين فضوليتين من
الكوخ الأول.

- سالجيريو.. سالجيرو! لأجل أمواتك أسألك! أبلغ تيودورا.. أن تأتي. زوجتي تحتضر.

عندما ابتعد عن النافذة، رأى فلي تتدحرج على الأرض، وتزعق بتعبيرٍ مخيفٍ يثير الأعصاب، وفمها مليء برغوة ملونة باللون الأحمر بسبب الدم من لسانها. جعلتها التشنجات تسقط من السرير، وهي تضرب الأرض ببطنها. وعلى الشاب أن يبذل جهودًا كبيرة لرفعها والإمساك بها، ومنعها من التدحرج مرةً أخرى.

بدأ تنفسها يقل. تفتح فمها، وهي تمتص الهواء مع أنفاس صاخبة وكبيرة؛ اتسع أنفها بشكلٍ مفرط، ثم تصطدم أجنته الأنفية في أثناء تقلصها. بدأ اهتزازها يقل في حدة؛ توقفت العضلات عن الانقباض. تمددت ذراعاها ملتصقتين بالساقين بلا حراك. تُظهر عيناها اتساع حدقة العين، مع غُبشة باهتة، كأنهما عينا جثة.. استحوذ عليهما نعاس ثقيل وخامل.

اعتقد مالترانا للحظة أنها ماتت، ولكن عندما قرب أذنه من شفيتها، هداً. يحرك نفسٌ خافتٌ الجسم الساكن مع حشجة.

حينئذٍ سمع قرعاً على الباب، وذهب لفتحه لكي تدخل تيودورا وامرأة عجوز أخرى.

كم من الوقت مر؟ جاءت الغجريتان تركضان قلقتين من رسالة سالجيريو، لكن إسيذرو اعتقد أن شيئاً مثل قرن قد مر.

ترك نفسه يسقط على كرسي، كأنه عندما تلقى مساعدة هاتين السيدتين شعر فجأةً بكل الرعب الذي تسببت فيه الأزمة.

فحصت تيودورا المريضة، بينما يشرح لها إسيدرو ما حدث بصوتٍ مرتجفٍ. كانت على علم بهذه الحوادث؛ فقد رأت عددًا من النساء يعانين الشيء نفسه في حملهن.

قالت بثقةٍ منحها لها علمها:

- إنه قلب سيئ يا سيد إسيدرو. الشابة صغيرة جدًا لدرجة أن الحمل يسبب لها اختلالًا. وهذا -لحسن حظ الطفلة الموجودة في الداخل- لم يتكرر بعد.

ثم تحدث عن فصدها؛ كانت قادرة على إجراء العملية. لقد وخزت جميع المرضى في الحي بإتقان يود عديد من الحلاقين امتلاكه. ولكن أمام إيماءة مالترانا، تماكنت نفسها. اتفقا لن تفصدها؛ ففي الوقت الحاضر ذهب الخطر؛ ولكن بمجرد أن تستيقظ السيدة المسكينة، ستناولها بضعة أقذاح صغيرة من مغليٍّ يصنع المعجزات: أعشاب من الحقل جمعتها بنفسها تحتفظ بها في منزلها. ذهبت رفيقتها عبر الأعشاب الخبيثة، وظل مالترانا والمرأة العجوز بجانب المرأة المريضة، يتأملانها صامتين.

نامت فلي بهدوء، وعيناها مغمضتان. بدا النوم يطغى آخر علامات المرض في تطوره.

عندما استيقظت بعد حلول الظلام، وضعت يدها على جبهتها،

كأنها تريد أن تثبت ذكرياتها. نظرت حولها، مترددة، كأنها متفاجئة عندما وجدت نفسها في السرير، في منتصف الليل، في ضوء شمعدان تعكس على الحائط ظلِّي إسيديرو وتيودورا، الجالسين بجوار السرير.

صرخت المرأة العجوز:

- أنت بخير الآن يا سيدة! مرحى! لدينا الآن طفلة!

انقض مالترانا غريزيًا على المريضة، يُقبلها مرارًا وتكرارًا، متجاهلاً استغراب فلي، التي تناضل من أجل جمع ذكرياتها.

أعدت الغجرية -بمساعدة رفيقتها- نقيعها الشهير في المطبخ، حيث جعلت المريضة تشرب عدّة فناجين منه.

بعد رؤية فلي هادئة، غادرت المرأتان، وأوصتها بعدم مغادرة سريرها. لم يكن ذلك أكثر من أزمة لحالتها: ربما أُصيبَت بالبرد. وعليها أن تعتني بنفسها، فالطقس كان بغيضًا جدًّا.

عندما أصبح الشبان وحدهما، تحدث إسيديرو إلى المريضة عن الخوف الذي شعر به.

- اعتقدت أنك ستموتين، وأنني فقدتك في لحظة.

وأضاف ببساطة، وصوته لا يزال مرتجفًا من ذكرى التأثير الماضي:

- آه يا فلي! لا تموتي يا روحي! لم أكن أعرف كم أحبك حتى هذا المساء، عندما اعتقدت أنك ستغادرين إلى الأبد.

حركت المريضة إحدى يديها بتكاسل وداعبت شعر مالترانا المجعد، متأسفة على الطبيعة المرعبة للأزمة، كأنها حدثت بإرادتها.

قالت ببطء:

- أيها المسكين! يا له من رعب سببته لك! لا يزال ظاهراً على وجهك؛ أنت شاحب ويرتجف صوتك. وبّخني؛ لأنني شريرة. أقسم أنني لن أفعل ذلك بعد الآن. سأحتوي أعصابي؛ سأحاول ألا أنقاد وراءها، حتى لو انفجرت.

عادت إلى النوم في وقتٍ متأخر جداً من الليل. كان الصمت مطلقاً. خارج المنزل، لا ضجة خطوات، ولا صوت: كان الثلج يُثقل على الحياة، وأغرق تحركاتها.

تمطرٌ ثلجاً. برد حاد لا يقاوم، البرد الذي يتبع تساقط الثلوج بكثافة ينزلق عبر الشقوق من الخشب، يتسرب عبر الجدران. تنتفض فلي في الفراش، وهي تتمم بتنهيدة طفولية، دون أن تفتح عينيها:

- برد... برد شديد.

كانت مغطاة بالبطانية الوحيدة الموجودة في المنزل، والشال الذي اشتراه لها إسيدرو في بداية الشتاء. وبسط الشاب على جسدها بذلة من البركال والثياب البيضاء القليلة التي تتدلى من بعض المسامير. كانت هذه الأقمشة الرقيقة من معطف وهمي.

استمرت المريضة ترتجف، وقام إسيدرو المسكين -المرتعش من البرد- بخلع كابه ليضيفه إلى الغطاء.

كانت ليلة مروعة. يتجول مالترانا في الغرفة كأنه في منتصف

الشارع. لم يكن هناك صوت ريح: كان السكون مطلقاً؛ لكن في هذه البيئة الهادئة فالبرد أكثر حدةً وفتكاً. بدا أن العالم ينتهي في تلك الليلة، وأن الشمس لن تشرق بعد ذلك، وأن الأرض ستبقى إلى الأبد تحت كنفها الثلجي.

دخل الشاب المطبخ. بقيت بعض الجمرات في قدرٍ صغير، تركتهم تيودورا بعد الغلي. أدخل هذا الموقد المؤقت إلى الغرفة، ووضعه بالقرب من السرير.

ظلت فيلي تشكو في أثناء نعاسها.

- برد... برد شديد... قدمي متجمدة.

خلع مالترانا سترته - وهو ثوب صيفي لا يزال باقياً على كتفيه كدليل على الفقر - وبسطه على السرير.

كانت النيران المحتضرة تخدم. فكر إسيدرو بحسد في قوة العمال. إذا كانت لديه قوة البناء، عامل رصف الشارع، كان سيقطع باباً، وسيقوم بفلق نافذة للحصول على النار؛ سيدافع عن نفسه ضد الليل القاسي، الأبدى مثل الموت. يتأسف لبؤسه الجسدي، مما يضيف أحزاناً جديدة إلى وضعه. كان أعزل في الحياة. آخر المتشردين السائرين عبر الطرقات أفضل منه، مع كل ثقافته غير المجدية.

«النار... تحتاج جذوة»، أخبرته فيلي منزعجة، في عذاب التجمد الذي يزعج نومها.

نظر بغضب إلى الأوراق والكتب المكسدة في الزاوية. في مدريد

لم يجد مَنْ يعطيه الخبز، لكنه يعود دائماً بجيوب مليئة بالأوراق. عرض عليه الرفاق الصحف لقراءة مقالاتهم؛ أهداه المؤلفون كتباً بإهداء بهي. «للكاتب المثقف والبارز إسيدرو مالترانا، معجبك...» كانوا معجبين به؟! لماذا؟ ربما بسبب بؤسه. يبيع الكتب مقابل بضعة ريالات، مقابل ما أرادوا أن يعطوه إياه، ومع ذلك لديه دائماً مجلدات في منزله: أبيات حزينة لأشخاص يتمتعون بصحة جيدة ووسائل للدفاع عن أنفسهم ضد الجوع؛ روايات عن أزمات النفوس. معاملات لحل الصراع الاجتماعي. يطارده الورق، يحيط به؛ وُلد ليكون خادمه. دائماً الورق، الأسود من الحبر، يضايقه ويسد طريقه! في هذه الأثناء، هرب الخبز والرفاهية منه، بحثاً عن الشرسين.

مع الغضب الذي تلهمه هذه الأفكار، ألقى على الجمر الحزين مجلداً، أول ما جاء في متناول اليد. تحول الورق السميك واللامع إلى اللون الأسود، في نفس الوقت اندلع اللهب من صفحاته المثنية بسبب النار، لينشر دخاناً كثيفاً عبر الغرفة.

ولا أقل قدر من حرارة يمكن أن يمنحها الورق الملعون، سبب الحسد والجنون لكثير من البلهاء. وخوفاً من أن يجبره الدخان على فتح النافذة، أخذ القدر مع المجلد المتفحم وحمله إلى المطبخ.

عند عودته، تجول فترة طويلة وذراعه متقاطعتان ويداه تحت إبطيه، يرتجف من البرد، ويهز ساقيه بعنف، كأنه يخشى أن يصبح مخدراً.

فتحت فلي عينيها وأبدت دهشة عندما رأت إسيدرو يرتدي قميصاً. سيُصاب بالزكام؛ فالجو شديد البرودة. أين ملابسه؟

كذب مالترانا باستخفاف يجعل المرء يبكي. فقد ترك معطفه على السرير لأنه شعر بالحر. كانت الليلة رائعة، فلا يزال يشعر في بطنه بدفع النبيذ الذي شربه في المساء وذلك السردين الذي كان طعام أمير. كان الشاب -وهو يقول هذا- تصطك أسنانه، ويتظاهر بالضحك لإخفاء ارتجافه.

أجبره البرد أخيرًا على اللجوء إلى السرير. احتجت فلي على إصراره على البقاء مستيقظًا؛ وهو يشعر بالرضى؛ فلقد مر الخطر.

واجتمع كلا الجسدين بسبب جاذبية الحرارة، فالتصقا مع قشعريرة شديدة. تمتزج أنفاسهما وعرق جلدهما؛ كانا يختبران شهوانية رفاهية الحيوان عندما يتدفان شيئًا فشيئًا في هذه المشاركة لأجسادهما. يشعر مالترانا بالاستدارة القاسية لنصف الكرة الأموي، ملازمة صُرة الحياة التي تهدد مستقبله. هرب الشباب منه لتركز في هذا التجويف. فقدت المسكينة فلي فرحتها وصحتها فجأة. لقد اتحدا معًا، مؤمنين بجمال الحياة، بربيع الحب الأبدي، مع ضحكات واستهتار طائر، ليريا نفسيهما فجأة سجينَي عملهما، متحولين إلى والدين مبتدلين، مع كل ضيق المسؤولية.

نامت فلي مرة أخرى، وظل حبيبها يفكر. بدا أن ظلام الغرفة يشوش أفكاره. دون أن يعرف السبب، تذكر إحدى ألعابه في ملجأ الفقراء. كان الأولاد يمسكون ذبابة، ويقتلعون أجنحتها ثم يدفعونها متظاهرين أنها تطير.

آه! كان مثل تلك الذبابة. اقتلعوا جناحيه؛ سلبوا منه الأسلحة

الطبيعية للنضال من أجل الحياة. من الأفضل تركه في الأعماق الاجتماعية حيث وُلد، متفرغاً للعمل اليدوي مثل أسلافه. ستكون ذراعه قويتين، وستكون يداه قاسيتين؛ لن ينقصه الخبز. يجتاز مدريد بحمرة لجوج، بدناءة متسول يرتدي سترة رسمية، مخترعاً أكاذيب ليأكل، بينما الجياع في البلوزات يجدون دائماً طريقة لإشباع جوعهم. هنا يساعدون في تفريغ عربة؛ وأبعد من ذلك، يفتحون باب عربة؛ يتوسلون الجميع، والأيدي المُحسنة تعطي وتعطي، كما لو أن قسوة العامل اليدوي أثارت تعاطفاً أكبر. كان يتجول منكشاً، خَجَلاً، دون وسيلة أخرى سوى محاصرة أصدقائه بمنظر بؤسه، وسماع وصف مستلف لا يُطاق، بينما الآخر هو العامل الفقير، الذي يستحق الحماية.

آه، تلك السيدة المسكينة التي أعادت غرسه! كم من الضرر تسببت به دون أن تدري! يفكر فيها بامتنان، لكنه قال لنفسه إنه كان من الأفضل ألا يعرفها أبداً، وألا يفتح كتاباً، وألا ينتقل من ملجأ الفقراء ليتعلم الآن سيكون عامل بناء؛ ستحمل فلي حبيبته سلة العمل، كما كانت والدته تحملها؛ سيأكلان على الرصيف، في متنزه، دون أي طموح آخر سوى متعة إشباع حاجات الجسد. حتى أخطار الموت كانت ميزة. كان سقوط السقالات، وانهيار الأرضية، وسائل للخروج بسرعة من عالم البؤس هذا، والانتهاء بشكلٍ نهائي.

كان كل شيء أفضل من حياته الحالية، لوضعهما الغامض، بدون كسرة خبز ناشف لمن هم في الأسفل ولا الرفاهية التي يتمتع بها من

في الأعلى. لم يكن من عبيد الأرض الذين يأكلون ولا من السادة الذين يهيمنون.

لقد درس ليكون تعيّساً، ليعرف ويتذوق كل قبح الحياة. لم يستطع أن يؤمن بالأكاذيب المقبولة بسبب حسن نية المتواضعين. لقد ساعدته ثقافته على مخالطة أصحاب الامتياز، وهو يعلم الوفرة التي تحيط بهم. يفتقر إلى القوة الجسدية للعمل كرجل؛ كان رقيق الصحة أضعفته الدراسة، ولم يساعده تطور فكره على أن يشق لنفسه طريقاً.

ذبابة مسكينة مشوهة! انتزعوا جناحيه منذ ولادته، والخط السيئ يتسلّى بدفعه، وهو يصرخ: «حَلِّقْ!» كيف كان سيرتفع؟ لقد هُزم دون مساعدة، وسقط على الأرض، دون جهد ليتحرك. الدراسة الفوضوية والشره عملت فقط على قمع إرادته. يقضي حياته في معرفة ما كانت تفكر فيه آلاف الكائنات عبر القرون، وعندما دفعته احتياجات الحياة إلى العمل، وجد نفسه أعزل، دون قوة للاستمرار في طريقه.

الظل الذي أحاط به عندما فكر في هذا كان صورة لحياته. كله أسود! إلى أين يذهب؟ ماذا يفعل؟ كأن مصيبته لم تكن كافية بالنسبة له، فقد ضم إليه الحب امرأة تعيّسة، جريمته الوحيدة هي حبّها له وإعجابها به؛ لقد علقها في ذراعه لكي يمشي بصعوبة أكبر، متعثراً في كل خطوة، يجذب هذه الرفيقة بمشقة، حيث كانت في البداية السعادة وتحولت شيئاً فشيئاً إلى سلسلة يجرها خلفه، تمنعه من التقدم. يرى كل شيء أسود، مع عتمة البؤس الذي في نهايته الموت. يتمنى الموت، إنهاء هذه الحياة التي بلا هدف نهائياً، وضع حدّ لحياة فاشلة لا تقاوم

وشاقة كأنها خطأ من القدر. لكن وهي؟ والرفيقة الحلوة، التي هجرت
فلك حياتها لتتبعه، مفتونة بسبب جاذبية حظه السيئ؟

شعر مالترانا - وهو يستمع إلى تنفسِ فلي، ويتحسس في الظل
جسدها المشوه بسبب الأمومة - بالندم نفسه، كما لو أنه قتلها وجثتها
ممددة بجانبه. ذلك المساء شعر بجُبن أمام الفضاء المغطى بالثلوج؛
انكماش طفل مهجور، رغبة في أن يصبح أصغر، أن يتوقف عن كونه
رجلاً، أن يتحول إلى حشرة، إلى نبات، إلى حجر، إلى شيءٍ دون
القسوة البشرية؛ وراح يبكي بصمتٍ، وهو بين النوم واليقظة المؤلمة،
ضحية هلوسات مرعبة، حتى تسرب ضوء النهار عبر شقوق النافذة.

بعد عودته من مدريد، في المساء التالي، وهو يطأ الثلج المتحول
إلى طين، وجد منزله في ثورة. كان سعيداً: لقد تمكن من جمع بعض من
البزيتات؛ لكنه نسي سعادته عندما رأى تيودورا مع غجريات أخريات
حول فلي، التي كانت في الفراش، مغمورة في رُقاد الأزمة.

تكررت النوبة. كانت المريضة مصابة بكدمة على جبينها تشي
بسقوطها على الأرض. هرعت الغجريات، اللاتي أبلغتهن إحدى
الجارات، لمساعدتها.

قطبت تيودورا جبينها عند التحدث إلى الشاب... «سيد إسيديرو
«السيدة» المسكينة مريضة للغاية». هذه النوبات تتكرر. كانت أمور
الحمل تجعلها في حالة سيئة جداً. وبحسب روايتها، ينقص فلي
شهر على الولادة، لكن هذا الشهر كان أحد الأخطار الكبيرة. لم يكن
لديهما مال ليدفعا إلى طبيب؛ هناك ينقص كل شيء. عليه أن يخرج

ليكسب قوته، هن يمكنهن عمل معروف من وقتٍ لآخر، مثلهن مثل المسيحيات الطيبات، ولو أنهن غجريات؛ لكن هذا لم يكن ممكنًا في جميع الأوقات، فقد كانت منازلهن وعائلاتهن بحاجة أيضًا إلى الرعاية.

قالت الغجرية:

- في النهاية -سيد إسيرو- علينا اتخاذ قرار. ليس هناك مخرج، لكنني أعتقد أن الشابة المسكينة ستكون أفضل حالًا في المستشفى.

مستشفى! دهل مالترانا، كأن هذه الكلمة تعادل ضربة. مرت فترة، كان قادرًا على التفكير. مستشفى! ولم لا؟ لقد صنعوها لأشخاصٍ مثلهم: كانت مكانًا للبهجة، مقارنةً بهذه الغرفة الخربة، التي يعتقد أنه رأى في أركانها أطيايف الجوع والألم خائفة... مات والداه فيها.

قضى تلك الليلة دون أن ينام، يراقب فيلي، التي استعادت مقدرتها، لكنها بالكاد تستطيع التكلم. كان لسانها متفتحًا، بخدوشٍ كبيرة بسبب عضه أثناء النوبة.

شرح إسيرو بخجل، بينما تتأمله بصمتٍ، وعيناها تبدوان متسعيتين بسبب التشنجات الأخيرة. الوضع سيئ للغاية هناك: يمكن أن تموت مهملةً في أثناء غيابه، تمامًا كما يموت الأشخاص غير العقلاء، وارتجف بمجرد التفكير في الأمر. لا، لا! كان يومية بقوة، كأنه رآها في مخيلته تموت في أثناء الليل، دون أي مساعدة سوى صرخات حبيبها وركضه، وقد جُنَّ من المصيبة.

تمتم بصوتٍ يرتجف، وتوقف لبرهة طويلة:

- أنا لا أعرف كيف أخبرك يا عزيزتي، يجب أن تتحلي بالشجاعة...
أن تُقدري الأشياء كما هي. ما أخبرك به هو مجرد فكرة... لو أنك لا
تريدين ذلك، فلن يحدث. يمكنك دخول المستشفى. لا. لا تفزعي.
ليس في المستشفى حيث يذهب الجميع؛ في العيادات، في الكلية. لديّ
أصدقاء جيدون من أيام دراستي. سيزورك أساتذة... كلهم حكماء.
مسألة البقاء هناك لشهر على الأكثر. سيكون لديك الطفل، محاطاً
برعاية أكثر من هنا. ستشفين، وبعد ذلك.. بعد ذلك نواصل حياتنا أكثر
سعادة من الآن؛ لأن الحظ السيئ لن يعذبنا دائماً.

توقع إسيدرو انفجارها في البكاء، احتجاجاً بسبب نفور غريزي،
وتفاجأ برؤية جمود وجه فلي، وعيناها المحدقتان والحزيتان مثبتتان
عليه. بعد وقفة طويلة، خفضت رأسها في إشارة إلى الموافقة. نعم
وافقت: ستذهب إلى المستشفى، لكن دون أن تشارك الشاب في تفاؤله.

تمت، وهي تحرك لسانها بصعوبة كبيرة:

- لا أشعر، لا أشعر إلا أنني لن أراك... وربما لن نرى بعضنا مرةً
أخرى أبداً.

صاح إسيدرو:

- فلي يا روحي، لا تقولي ذلك؛ لا تصدقي هذا يا عزيزتي! سنكون
سعداء مرةً أخرى. سترين كيف يعاملونك بشكل جيد هناك.

في صباح اليوم التالي، غادر مالترانا في وقت مبكر جداً، متجهاً إلى
شارع أتوتشا لينتظر عند باب سان كارلوس رفيقاً قديماً من أيام دراسته،

والذي أصبح الآن طبيباً ومساعداً في عيادة.

كان لقبه نوّجِراس. شابُّ ذو شخصية مرحة، ضئيل الجسم، مع نظارة ذات زجاج سميك، يأخذ أحداث الحياة بوصفها مزحة، كأن المشهد اليومي لمآسي الآلة البشرية واضطراباتهما يداويه من كل رعب. لم يَرِ إسيدرو منذ فترة طويلة، وعندما تعرف عليه عند باب كلية الطب، عانقه ضاحكاً من مظهره البائس.

قال:

- لا بد أن ما يُقال عن الأدب خطأ. هل تريد شيئاً مني؟ اطلب ما تريد، إلا المال. كما ترى: دكتور، أستاذ سريري، وأمتلك ألفاً وخمسمائة بيزيتا سنوياً مع استقطاع. أقل من أولئك الذين يكنسون الوزارات.

توقف الطبيب المرح عن الضحك أمام جدية مالترانا. أخبره عن فِلي ومرضها.

قال الطبيب:

- هيا.. هي عشيقتك؟

أجاب إسيدرو بالإيجاب. أجل؛ عشيقة يحبها كثير من الأزواج الذين لا يحبون زوجاتهم؛ عشيقة يمكن التباهي بإخلاصها الذي تعرفه قليلٌ من الزوجات.

قال الطبيب وهو يرفع كتفيه: «حسنًا، تفضل. وماذا لديها؟».

شرح مالترانا أزمات فِلي، محاولاً تذكرها بكل تفاصيلها.

قاطعہ الطیب:

- لا تقل أكثر من ذلك. الأعراض واضحة. كنت أفكر في النزول معك إلى لاس كامبرونراس لرؤيتها، لكن لم يعد الأمر ضروريًا. هذا ما نسميه تسمم الحمل. يجب أن تحدث عملية الولادة، ويتم تعجيلها، وإلا يكون هناك خطر الموت. أحضرها هذا المساء؛ سأنتظر في القسم. سنضعها في عيادة الولادة. أنا لست فيها، لكنني سأوصي رفيقي على شريكتك، باهتمام كبير... أراك مساءً، أليس كذلك؟

كان في عجلة من أمره؛ فأستاذه ينتظره في غرفة المدرسين. أراه مدخل القسم، وهو باب صغير أسفل البوابة الكبرى للكلية بقليل. «هناك في الرابعة».

وغادر مبتسمًا، دون أن يחדش ألم رفيقه قشرة اللا مبالاة التي تحميه من المصائب البشرية.

في المساء غادرت فلي منزلها. لقد كانت مسيرة بطيئة، مما جعل مالترانا يعاني كثيرًا. عندما رآها تمر عبر باب الغرفة الصغيرة، اعتقد أنه سمع صرخة مفاجئة في أذنه. تغادر بلا رجعة: ستتحقق هواجس المريضة. لقد فقدها إلى الأبد!

كان منحدر لاس كامبرونراس ومنتزه لوس أوتشو إلوس أحد شوارع أمارجورا.

كانت فلي ملفوفة في شالها، ورأسها مغطى بمنديل يشكل قناعًا على عينيها، تتقدم بخطوات متثاقلة متكئة على حبيبها.

بالكاد يمكنها أن تحرك ساقها المتورمتين؛ بطنها الوحشي عذبها
بوزنٍ خانق. أدت الأسابيع الطويلة من عدم النشاط في كوخها في
لاس كامبرونراس إلى إضعاف حركتها. توقفت بعد خطواتٍ قليلة؛
استسلمت للسقوط، وهي تلهث، على جميع مقاعد ومصاطب المتنزه.
أرادت تيودورا مرافقتها إلى فويتثيا، وتشجيعها بكلماتها وإيماءاتها
العجزية.

- إلى أعلى يا طفلي... لِنَرَ كيف يمكننا السير بضع خطواتٍ
أخرى؛ لِنَرَ كيف تتحرك هاتان القدمان الجميلتان.
والتفتت إلى مالتراننا، وتتمتم بتعبير بالٍ:

- إنها مريضة جدًا يا سيد إسيدرو! كم هو لطيف منك أن تحملها!
عبروا باب طليطلة، وفي فويتثيا تركتهما العجزية، بعد إعطاء
المريضة عدة قبلات.

- أتمنى أن يجعلك الأعظم في السماء جيدة قريبًا؛ أن لا تفارقك
والدته المقدسة. وداعًا يا قطعة السكر الصغيرة؛ وداعًا أيتها اللوز
المُحلَّى!

ولم يعودا يسمعان كلماتها الأخيرة، حيث إنها ابتعدت ووجهها
مخفي في مئزرها.

صعد إسيدرو بفلي الباكية، المتأثرة بوداع العجزية، في عربة
مستأجرة. يتذكر الشاب الأيام الأولى من حبهما، عندما تجولا في
ضواحي مدريد، مختبئين من الناس. منذ ذلك الحين لم يذهبا في

سيارة. الآن، كل النقود التي يحتفظ بها في جيبه، بيزيتا واحدة وبعض العملات النحاسية، لدفع ثمن طريق الألم هذا، ربما آخر ما سيفعلانه معاً.

دخلا إلى القسم. عبر على عدة مجموعات من النساء رثاء الهيئة بأطفالهن على صدورهن ورجال ذوي مظهر بائس، وجميعهم تظهر عليهم أمراض مقززة.. عمى تقيحي، الخسارة، وخراجات شوهت أطرافهم، ولوتها. ينتظرون دورهم للاستشارة المجانية. رائحة قوية من المطهرات تتخلل الهواء.

رأهما نوجراس -الطبيب المبتهج- من خلال نافذة المكتب المجاور الصغيرة، وخرج للقائهما. حلق في فلي، وخفضت هي عينيها، خجلة... لم تكن امرأة بالمعنى الحرفي. ظل العاشقان وجهًا لوجه في موقفٍ مربك.

كان مالترانا يرتجف، عندما كان في العربة، وهو يفكر في رعب الوداع، البكاء، الصراخ، العناق، وربما نوبة جديدة للمريضة.

لم يكن الأمر كذلك؛ لم يكن هناك شيء من هذا. مجرد صمت -بساطة في الفراق- مؤثر أكثر من نهايات الألم الصاخبة.

ناقش الطبيب التوصيات التي قدمها لرفيقه في عيادة الولادة. لقد حجز سريرها بالفعل؛ حتى أنه كان مهتمًا براهبة القسم.

قال وهو يُبدي بعض العجلة:

- متى شئت، سأرافقك.

أخيراً نظرا إلى بعضهما، دون دمعة، دون تنهيدة، وهما يحدقان
بأعينهما بشكلٍ مفرط، مع تعبير مرعب. سيفترقان!
اتخذت هي أول خطوة. يا لشجاعة النساء!
- وداعاً يا إسيدرو.

- وداعاً يا فلي.

صوتهما يئنّ؛ لكنهما لم ييكيا، ولم يجرؤا على تقبيل بعضهما
والمصافحة في حضور الطبيب غير الماهر الساخر، وهؤلاء المرضى
المحذقين فيهما.

ابتعدت عبر ممر مظلم، يسبقها الطبيب. خطواتها تتذبذب... لكنها
لا تريد أن تدير وجهها للخلف، كأنها تخشى أن تفقد كل ثباتها.

خرج مالترانا إلى الشارع، وبعد بضع خطوات كان عليه أن يتكئ
على الحائط. يشعر بالبرد: برد قارس تسلل إلى روحه. شمس المساء
مشرقة، شمس لم يرها إسيدرو أبداً من قبل؛ شمس معتمة، غائمة،
جنائزية، كما لو أن نجم النهار يرسل أشعته عبر سُدّة سوداء؛ كأنه يلفها
كريب^(١).



(١) كريب: قماش أسود يُستخدم إشارة للحداد.

لم يعد إلى لاس كامبرونراس. كان خائفًا من العيش في ذلك المنزل دون فلي. يشعر برعب فاقدٍ أحبابهم ولم يجرؤوا على الدخول إلى غرفة الجنائز. ماذا سيفعل بمفرده في ذلك الطرف المنسي من مدريد، بين الغجريات اللائي سيذكرنه بحبيبتِه؟

كان بحاجة لرؤية أناس جدد، يفقد بعض الوعي، وينسى حزنه. عاد إلى غرفة التحرير في تلك الليلة بعد غياب دام عدة أشهر. استقبله رفاقه بهتاف ساخر:

- هومروس! هومروس العظيم هنا! تحياتنا لـ «المزعج» اللامع! وسألوه هل أحضر -نتيجة وحدته- إحدى المقالات التي تثير الذعر بين المشتركين.

رآه بعض رفاقه في غرفة التحرير وهو يسير مع فلي عبر رتيرو. - أخبرنا يا هومروس ماذا فعلت بتلك الفتاة اللطيفة المتعلقة في ذراعك؟ هل وجدتها في كتاب يوناني؟ هل كانت من أتیکا^(١) أم من بيوتيا^(٢)؟

(١) أتیکا: أحد أقاليم اليونان.

(٢) بيوتيا: إحدى مقاطعات اليونان التي تضم عدة مدن هامة.

أجاب مالترانا بعينين دامعتين:

- إنها في المستشفى.

كانت لهجته حزينة للغاية، لدرجة أنها أسكتت رفاقه المبتهجين.

يمضي الليالي في غرفة التحرير. توقف عن عادة البيات خارج البيت، ولأنه لا يريد العودة إلى المنزل، يبحث عن غرف خالية من الضوء، وينام على إحدى الأرائك. إذا وصل زائر واضطر إلى إشعال الضوء، يستيقظ مالترانا مثل كلب نافضاً طرفي معطفه، ويذهب إلى غرفة أخرى أو يخرج إلى الشارع، في محاولة لإنهاء نومه في منزل صديق.

بالكاد يأكل. حريضاً على إلهاء نفسه، على المحادثات التي من شأنها أن تفقده بعض الوعي، يصاحب في كثير من الليالي بعض السكارى المشهورين، وفي الصباح يسIRON في أكثر الشوارع المركزية، بخطوات غير ثابتة، يناقشون بصوت عالٍ الفلسفة أو الأدب. في خضم نزاع، تداهم ذكرى فلي إيسيدرو، فينفجر في البكاء. يعزو رفاقه اللوم في هذا البكاء إلى الكونياك. سيشربون البيرة.

في صباح أيام كثيرة يذهب إلى باب سان كارلوس لانتظار نورجراس. فيقوم الأخير بعمل إيماءة نفور عندما يراه.

- أنت على الطريق الخطأ يا فتى؛ أنت نتن من مشروب العرق. ماذا يحل سُكرك؟

يُجيب مالترانا بمزاج سيئ. لم يكن يطلب النصيحة: ما كان يريده هو معرفة حالة فلي.

كان الطبيب الشاب صبورًا. هل يعتقد أن ليس لديه أشياء أخرى تشغله؟

-تخيل مع ستة آلاف ريال كل الراتب! لا بد لي من زيارة كثيرين والأشخاص الذين يدفعون بصعوبة. علاوة على ذلك، تلك الفتاة ليست في عيادتي... رأيتها أول أمس. بدت لي بخير؛ ولكن إذا تكررت نوبات تسمم الحمل، فقد تموت في إحداها. سيستحثون ولادتها: ربما سينقذها هذا.

في اليوم التالي، كان نوجراس هو من تحدث معه أولاً، عندما رآه:
- أنت أب: في الطابق العلوي، تراعي الراهبات طفلك. صحته جيدة ولم تخرج الأم بشكل سيئ من الولادة. إذا أردت أن تذهب هذه النسخة الثانية من شخصك إلى ملجأ اللقطاء، فخذ سريعاً هذا الصغير. لم يشعر مالترانا بأي عاطفة. فكر فقط في الذهاب إلى لاس كارولينا لإخبار جدته. ماذا سيفعل مع الطفل؟ ستعتني به السيدة إوسيبيا.

ونزلت الجدة -متأثرة بالحدث- إلى مدريد لاصطحاب ابن حفيدها برفقة امرأة أخرى. ذهب إسيدرو معهما حتى سان كارلوس، لكنه لم يرغب في عبور الباب. سيطرت عليه أنانية جُبْنه. لقد عانى بالفعل بما فيه الكفاية. هل ستتحسن هي لأنها رأتَه؟

عندما خرجت الجدة، أرادت أن تُريه الطفل الذي تحمله صديقتها -الأصغر والأقوى- بين ذراعيها.

تَنّ المرأة العجوز باكيةً من الفرح:

- انظر إليه يا إسيدرو. إنه شيرويم^(١). يا له من جميل! هو ابنك، صورتك!

نظر مالترانا إلى هذا الجسد النابض دائري الشكل تقريباً الذي يتحرك في قاع الطرحة الطويلة. أجل، كان صورته: قبيح بقبحه نفسه، وقبح ذلك الوغد الذي في السجن بين النشالين الصغار. الرأس الضخم نفسه، الذي يبدو مصبوباً بأيدي المحنة.

تحمل ماريوسا ابن حفيدها. لن تبحث له عن مرضعة في لاس كاروليناس. تعرف امرأة معينة من الحي، متزوجة من موسيقي في فرقة عسكرية، والآن -بعد أن تقاعد من الخدمة- يمتلك متجرًا صغيرًا بجوار طريق إكستريمادورا، على ربوة كوربوس. لقد فقدت لتوها صغيراً، وستكون مسؤولة عن إرضاع ابن حفيدها مقابل قليل من المال. أخبرته المرأة العجوز -قبل أن تغادر- عن فلي. لقد رأتها مريضة للغاية.

- كم بكت تلك الفتاة قبل أن نأخذ الصغير! يا للقبلات التي أعطتها إياه! سألتني عنك. اذهب لترأها يا رجل؛ ستسعد المسكينة، وهي بحاجة إلى ذلك جداً.

قضى مالترانا وقتاً طويلاً دون زيارة فلي. كل يوم يتخذ قراره برؤيتها في صباح اليوم التالي. يقضي الليل من مقهى إلى مقهى، وفي الفجر من

(١) الشيرويم: هي جوقة من الملائكة مذكورة في عدة مواضع من الكتاب المقدس.

حانة إلى حانة، مع رفاق الحياة المشردة، حزينًا دائمًا ويشرب من أجل النسيان.

في الصباح وصل إلى سان كارلوس لمعرفة الأخبار. يكفيه أن يعرف أن فلي لا تزال على ما يرام. يهاجمه الخوف من رؤيتها في مكان الألم هذا وأنها ستخمن سُكره.

قال لنوجراس:

- إنك سترافقني في يوم من الأيام؛ لا.. ليس الآن. أشعر بالعجز. إضافةً إلى أنني في حالة سُكر قليلًا. ألا تعرف عني ذلك؟

أخيرًا، ذات صباح كان مصممًا، يريد أن يراها. يمكن تخمين بعض التحضيرات في نظافته الخارجية، كأنه ذاهب إلى مقابلة غرامية. حلق للتو؛ أخفى شيئًا ما تحت أطراف الكاب، بدا أصغر عمرًا بعد بضع تمريرات للفرشاة.

جعله نوجراس يعبر أروقة الكلية، وصعدا السلالم، ومرا بأروقة أخرى، وفي النهاية فتح الطبيب بابًا.

أول ما رآه مالترانا هو أغطية الرأس البيضاء لراهبة، مشغولة بترتيب الزهور التي على القماش والشموع على المذبح بيديها شديدة البياض. كانوا في قاعة ذات جدران جيرية لها إطار أبيض، مع إفريز من الطوب الأبيض أيضًا. تبدو الغرفة مقسمة بجدار يصل إلى حافة الإفريز، مع وجود مساحات مفتوحة كبيرة بين الأعمدة التي تدعم السقف.

رأى إسيدرو عددًا من الأسرة الحديدية بأغطية من البركال مزهرة،

وبجانبتها طاولات صغيرة مع قوارير ومبولة. على الوسائد تبرز رؤوس النساء مع هُزال مائل إلى الخُضرة، بشعرٍ متشابكٍ وقذر. تذكر مالترا ن قاعات الرجال. كانت هذه أقل إثارة للاشمئزاز في أمراضهم. تذبل الأنثى بسرعة أكبر، حيث أذاب المرض بروتاتها الساحرة.

توقف الطبيب أمام السرير الذي يبحث عنه. استغرق إسيديرو بضع لحظات للتعرف عليها. كان يمشي عدة مرات أمامها دون أن تلفت انتباهه. كيف تغيرت عندما رآها! ناسياً حزنه على المريضة، دائماً يستحضر في ذكرياته فلي الجميلة والمبهجة في أيام حبهما الأولى. والآن -بعد أن رآها هزيلة، ذات ملامح ممتقعة، أكثر قبْحاً وبؤساً من اليوم الذي غادرت فيه لاس كامبرونراس- كان عليه أن يبذل جهداً للتعرف عليها. يعتقد أنه رأى صديقة لفلي، رفيقة جيدة تذكره بالأخرى، التي كانت من الأيام السعيدة التي.. آه! لن تعود أبداً.

بقي بلا حراك أمام السرير، مع مظهر الخجول، مرتبكاً من تلك الرؤوس الشعثاء، أفنعة الألم والبؤس، التي اتفقت نظراتهم الفضولية. سأل بصوتٍ هادئ:

- كيف حالك؟

استقبلته فلي بصمتٍ، بابتسامة باردة، تتقلص تجاعيد وجهها المنهك، فتميز طرف فكها الرقيق بحدة نصل الرمح. وهناك حيث وضع قبلاته مراتٍ عديدة، في ثمل الشغف! بؤس الحياة! كانت عيناها، عيناها المجنونتان، مع حَوْل بسبب الأزمات المتكررة، الشيء الوحيد الذي لا يزال يشي عن الجمال المنطفي.

في الفراش المجاور رأى فتاة شابة شعرها ملفوف في منديل أحمر
وكتفاها مغطاتان بسترٍ قصيرة بلون سمّني. بين نظريز قميصها، يظهر
ثدياها الضئيلان، بالكاد يبرزان مع انتفاخ طفيف على الأضلاع البائسة.
كانت خادمة ولدت طفلة؛ بهيمة عمل فقيرة تحولت إلى أم بسبب نزوة
مؤقتة للسيد. ربما ستره السيدة التي بمثابة معطف لها في المستشفى هي
المكافأة الوحيدة لخطيئتها.

تظهر فلي - وهي تتأمل إسيديرو - أيضًا بعض الغرابة في عينيها،
كما لو أنها وجدته قد تغير. لقد مر وقت قصير جدًا، ومع ذلك اعتقدا
أنهما سيتقابلان بعد غيابٍ طويل جدًا.

ظلا صامتتين فترة طويلة، ينظران إلى بعضهما، لكنهما لم يجروا
على فتح شفّيتهما. في النهاية، تحدثت هي بدافع الأمومة. وابنها؟
تظاهر مالترا أنه يعرف. كان هناك، على طريق إكستريمادورا، مع
مرضعته، وهي امرأة عظيمة بحثت عنها جدته. يمكنها أن تظل هادئة...
وهو لم يذهب بعد إلى ربوة كوربوس، ولم يقابل المرضعة!

ثم سأل عن مرضها. كانت فلي تتحدث بصوتٍ حزين؛ تبدو
مستسلمة للبقاء هناك دائمًا، دون أمل في العودة إلى العالم. صوتها
بطيء، مع تردد طويل؛ هناك نوع من عدم التناسق في كلماتها؛ جهودها
في ترتيب الجُمل وتوجيه أفكارها واضحة.

وبينما يستمع إليها، ينظر إسيديرو من زاوية عينه إلى الراهبة،
الواقفة بجانب المذبح، وهي تتحدث إلى الطبيب. آه، هؤلاء الناس
الذين يعيشون في اتصال يومي مع البؤس البشري! كم هم قساة، كم هم

أقوياء! يا لها من لا مبالاة بألم الآخرين، التي لم تكن بالنسبة إليهم أكثر من مجرد حادث تافه! تبدو نظراتهما الباردة كأنها تحتوي على مسامير. التواءات الألم، الموت، كل شيء ينزلق فوقهما دون أدنى خدش، دون إحداث أدنى حرج.

نظرت الراهبة -بعد أن تحدثت مع الطبيب- إلى مالترانا ببعض الفضول. كانت بصيرة الخبيرة واسعة الاطلاع في الحياة، تتكهن بالزوجين غير الشرعيين، بالحب المتمرد، الذي يحتقر الأعراف الاجتماعية. أثارت رائحة الخطيئة فضولها الأنثوي؛ تجعلها قسوتها تمقت ذلك الشباب الذي يعشق من خلف الدين.

لم يعرف مالترانا ماذا يقول. خلق الحزن فراغاً كبيراً في تفكيره. إلى جانب ذلك، كان محرّجاً من كثرة التحديق فيه. كان عذاباً عظيماً أن يقف أمام فلي دون التمكن من أخذها من يدها، خائفاً من عيني الراهبة المعاديتين.

دفع حواف معطفه للخلف، ووضع حزمة مخفية من البنفسج على السرير. بدا أن عطرها لطّف ذلك الجو الذي تفوح منه رائحة الأجساد المريضة والمطهرات.

قالت فلي بصوتٍ صبياني:

- آه! زهور! زهور!

وداعبت نظرتها إسيدرو بتعبير من الامتنان. كان قليلاً من الشعر منتشرًا على سرير المستشفى. زهور! وكلاهما يفكر في الشيء نفسه.

لقد رأيا في خيالهما أشجار اللوز في بستان أوبيسبو، التي تشهد على مقابلاتهما الأولى؛ الزهور التي ألقى بها على سريرها، عندما أيقظها، عند عودته من المآدب؛ الزهور التي شهدت نزهاتهما المسائية، عندما يخرجان وهما يمسان بأذرعهما، مثل البرجوازيين، في مأمن من البؤس ومتأكدين من أنه لا شيء يمكن أن يزعج سعادتهم.

كررت:

- زهور! كيف أشكرك؟!

اعتذر مالترا على استحياء. كان بنفسجًا، لم يكن لديه مال لأكثر من ذلك. ومع ذلك، فقد كلفه الحصول عليها كثيرًا. كانت باهظة الثمن: وُلدت الزهور من أجل الأغنياء؛ ولا يزال فضلها لأنهم تركوا لها السماء والشمس. يتذكر أيضًا ولعها بالبرتقال. يريد أن يحضر إليها واحدة؛ لكن بعد الركض عبر بائعي الخضار في شارع مايور، وهو يبحث عن أول ما وصل منها، استسلم بسبب فقره. أخذ البنفسج كل أمواله.

همهم في أذنها، كما لو كان يُلقى عليها دعابة طفولية:

- يومٌ آخر. هل تسمعينني؟ يومٌ آخر سأحضره إليك، دون أن تكتشف الراهبة، ودون أن يراه الطبيب.

وافقت وهي تنظر إلى حبيبها بعينين حزبتين كبيرتين، بينما تُقرب حزمة البنفسج إلى وجهها، وتشمها بهجة.

تنحنح نوجراس بإصرار وهو ينادي على مالترا. استغرقت المقابلة وقتًا طويلاً: «يومٌ آخر، أكثر».

أخذ إسيذرو اليد الضاربة إلى الصفرة التي مدتها إليه.

- وداعًا يا فلي... وداعًا يا عزيزتي. سأعود.

ذكرته المريضة بوعده. فلا بد أن يحضر إليها البرتقال والزهور، كثيرًا من الزهور!

الاختلال الذهني لأزمتها، جعلها تنسى عوز عشيقها.

لم يعد مالترانا. مرت أيام دون أن يجده الطبيب في الصباح في ضواحي سان كارلوس. كانت هذه الزيارة كافية لمنحه بعض السكون.

ذات ليلة، عندما كان نوجراس يغادر مسرح أبولو، اصطدم به على رصيف شارع إشبيلية. كان مخمورًا، وأكثر قذارة وإهمالًا من الأوقات الأخرى. يمكن التخمين من تجاعيد معطفه وإهمال ملابسه أنه كان نائمًا دون أن يخلع ملابسه، هناك حيث سمحت له مآسي حياته المشردة. كان شاحبًا، بعينين غائرتين وملامح نحيلة: وجه الجوع وإدمان الكحول. عندما رأى نوجراس، بذل جهدًا ليبدو هادئًا. سأل:

- وهي؟

كان الطبيب متشائمًا. «هي» حالتها سيئة جدًا. لم يرها: لم يكن لديه الوقت؛ لكن رفيقه المسؤول عن القسم لديه أمل ضئيل. تتكرر نوبات التسمم باستمرار، ويمكن أن تموت في إحداها. يكفي أن يتباطأ تنفسها لبضع ثوانٍ عندما يتقلص جسدها من التشنجات، ليحدث الاختناق.

سأل الطبيب:

- وأنت.. لماذا لا تذهب لرؤيتها؟

صاح البوهيمي:

- لماذا! أعاني كثيرًا؛ أنا أفترق إلى الشجاعة للعودة. يؤلمني أن أراها بين هؤلاء النساء القذرات والمرضى. لا أستطع التحدث معها بحرية. كلهن ينظرن إليّ، كأنني حيوان غريب. الراهبة تزعجني. سكت للحظة، ثم أضاف بتعبير من الخزي، وعيناه تغمرهما الدموع:

- لا أستطيع أن أذهب خالي الوفاض: المسكينة تريد الزهور.. لقد وعدتها. منذ أيام أرغب في شراء باقة كبيرة لها، كبيرة جدًا، لتغطية سريرها، حتى تتخيل أن حديقة كاملة تندفع نحوها، تتبعثر عند قدميها... لكن ليس لديّ نقود.. لا شيء، لا شيء على الإطلاق. لا يمكنني حتى شراء غصن صغير من تلك التي يبيعونها في الشارع. بالكاد أكل؛ أتجول هناك ككلب دون سيد. لو لم أجد صديقًا ممن يدعوني للشرب، لمت الآن.

بعدما ودع الطبيب، قال بفتور، بكسل إرادة مريضة وجبانة:

- سأذهب... سأذهب عندما يكون لديّ نقود... عندما يمكنني إحضار شيء لها. أعتقد أنها لن تموت على الفور. ستظل على قيد الحياة بعض الوقت. ألا تظن ذلك؟

رفع نوجراس كتفيه بريية. أجل؛ كان من الممكن إنقاذها: المرضى الذين يعانون من أمراض أكثر خطورة استعادوا صحتهم. لكن حياتها معرضة لخطر الموت بالاختناق في كل مرة تُعاني فيها من أزمة. لا شيء يمكن أن يؤكده.

مر أسبوع دون أن يريا بعضهما مرةً أخرى. في صباح أحد الأيام التقيا في بويرتا دل سول، ورأى الطبيب مالترانا بمظهر أكثر بؤسًا: بدا كمتسول، متسخ، رث الهيئة، مستسلم للإهمال، دون مساعدة من يد أنثوية لترتيب هندامه. كان نوجراس في عجلة من أمره. ابتعد عن مدريد مدة يومين لأسباب مهنية، وكانوا ينتظرونه في الكلية.

- أخبار سيئة إسيدرو. تلك الفتاة لم تعش.

اتسعت عينا مالترانا بدهشة، كأن هذا الخبر تجاوز حدود الاحتمال.

- هل أنت واثق؟ هل رأيتها؟

قام نوجراس بعمل إيماءة رفض.

- ما الشيء غير العادي في وفاتها؟ كان متوقعًا. لقد ماتت، وسنموت نحن جميعًا أيضًا... أنا لم أرها؛ لدي أشياء أخرى لأحضرها. لكن في نفس اليوم الذي غادرت فيه مدريد، أخبرني بذلك رفيقي. لقد ماتت.

ظل مالترانا ساكنًا -ورأسه منخفض- مذهولًا من الخبر. ثم ثبت عينيه المتسائلتين على الطبيب.

- وماذا فعلوا معها؟ والحنة؟ قل لي بحق الله، أين أخذوها؟!

شعر بالندم الشديد بسبب أنانيته وجبنه. يريد أن يزور قبرها؛ لأنه قضى أيامه يتجول، لا يجرؤ على رؤيتها في المستشفى.

أجابه الطبيب بابتسامة باردة. قبرها هو المقبرة العامة، حيث يذهب جميع الأموات الفقراء. لم يكن للفتاة التعيسة أقارب أو أي شخص يدفع مصاريف دفنها. لم يظهر إسيدرو لترتيب الأمور، ومن المؤكد أن

جسدها - قبل الذهاب إلى المقبرة - مر عبر غرفة التشريح. فهم يعانون
مثل هذا النقص في الجثث!

لم يرغب مالترانا في سماع المزيد. أدار ظهره دون أن يودع صديقه،
كأنه يهرب من الندم والعار.

يتجول في الشوارع، محاولاً ألا يبكي. الناس تنظر إليه. تعب من
هذا الفضول، أراد مغادرة البلدة والسير في الريف.

يرى البيوت وسط ضباب كثيف. الناس والعربات يمرون بجواره
مثل الأشباح بدون صوت. لم يفكر. يظن أن تجويف جمجمته فارغ.
صدغاه يطنان. لسانه يكرر خفيةً بعنادٍ غبي:

- مقطعة... مقطعة!

شيئاً فشيئاً اقترب تفكيره -الذي بدا أنه هرب بعيداً، بعيداً جداً-
وعاد إلى داخله. تبدأ ذكري السنوات الأولى من شبابه، من أيام دراسته،
بشكلٍ ضعيف، وتنمو وتنمو حتى أخذت أهمية الواقع.

رأى نفسه يتسلق سُلماً صغيراً في مدرسة سان كارلوس، مع زميله
في الضيافة، طالب الطب، الذي يجمع بعض الأشياء في المختبر.
يطل إسيدرو من النافذة. في الأسفل هناك فناء صغير مرصوف البلاط
الرطب، كما لو كانت تسقط عليه همرات من دلاء الماء بشكلٍ
متكرر. على البلاط، دمية من جذع ضخمة وذراعين ورجلين هيكليتين
رفيعتين، متقلصتين بسبب وقفتهما البشعة. اعتقد أن هذا الشكل مصنوع
من الورق المقوى، وقد تم تصميمه بشكلٍ فظ من قبل فنان غير ماهر،

وكله بنفس اللون الأصفر. ينقصه أن يرسموا له الحاجبين وأن يوفقوا شعراً مستعاراً على الرأس الأصلع لإضفاء بعض المظهر الحقيقي. على درجات أحد السلالم رأى عدة رؤوس مقطوعة تستريح على قواعدها، لكنها بلا جلد، يظهر احمرار عضلاتها والأزرق الغامق في عروقه. يتأمل مالترانا بفضول ألعاب العلم هذه. كانت قطعاً من الورق المقوى لدراسة الطلاب. وعندما سأل صديقه السؤال، انفجر الأخير في الضحك:

- لا أيها الأبله. إنها جثث معدة لفصل التشريح. هذا الجسد يخص امرأة.

ثم جعله رفيقه -بتفوق القوي، ليختبر حيرة طالب الكتب- يدخل المدرج، ويأخذه من مائدة إلى أخرى. يا لنظافة هؤلاء الجزارين ذوي البلوزات البيضاء! هنا، ذراع متقلصة على الرخام، ليس بها أكثر من العظام والأوتار، مشدودة ونظيفة كأنها ستتهز: قيثارة يُعزف عليها في حفلة آكلي لحوم البشر. أبعد، كانت الأرجل تُظهر الحشوة المتقاطعة للعضلات الحمراء؛ جذوعها مفتوحة في الهواء، مع اللون الوردى الرقيق لأضلاعها. هذه الجزارة العظيمة من الرخام والزجاج جعلت المرء يفكر في إنسانية متفوقة بشكل رهيب أفسدها أكلة لحوم البشر، حيث يتغذى القوي على رفات الضعفاء. نظرة من الفضول الشديد قلصت الوجوه؛ أيدٍ بلا رحمة، مسلحة بالفولاذ، تغرق في أسرار ذلك الجسد البارد، النظيف ومجهول الهوية، الذي لم يكن يتذكر أصله البشري.

وفي مجزر الفحص هذا، اختفت في عزيزته! هناك جسدها قد ذاب،
دون أن تنزل في الأرض إلا بقايا ممزقة وعديمة الشكل في قاع قفة!

فلي! فلي! كرر اسمها متذكرًا آلاف التفاصيل عن علاقتهما
الغرامية. الأذن الوردية، التي يعض شحمة أذنها بعدوبة في نفس الوقت
الذي يهمس بكلمات حلوة؛ رأسها الصغير الذي يلجأ في ليالي الشتاء
إلى كتفه بنفس الإيماءة الخجولة لطائر يخفي منقاره تحت جناحه؛
ساقا الإلهة، التي تتظاهر بإخفائهما عندما يجرب عليهما تلك الجوارب
التي اشتراها من راسترو؛ بطنها قبل التشوه الأمومي، مع غمزة رشيقة
في السرة، والتي تبدو كأنها تلمع عندما تحركها هزات الضحك؛ كأسا
ثديها من المرمز، مجنوليا^(١) الحب... كل شيء تحطم أسفل الفولاذ،
بلا شفقة، بلا رحمة. الأيادي التي لم تعرفها قد انتهكت سر جسدها...
ذلك الجسد الذي يوقظه في الصباح بلمسته السندسية، عندما زحفت
فوقه لينهض، ونظرت في عينيه للحظة، تربكهما أنفاس الاثنين.

فلي! فلي! ما الذنب الذي اقترفته حتى يحرمها القدر حتى من سلام
القبر؟

كان مالترانا يبكي الآن، دون خوف من أن يلاحظه الناس.

كان في الريف. نظر حوله، ورأى على مسافة قصيرة مقبرة سان
مارتين. دون أن يدرك ذهب غريزيًا إلى تلك الأماكن التي شهدت أول
أفراح حبه.

(١) مجنوليا: نوع من الزهور.

لم يجرؤ على دخول المقبرة. حاصره الموت بإصرار شديد ليكرر زيارته. آه، كيف يكره السيدة الشائنة ذات العينين المطفيتين، والبشرة الشاحبة للغاية، التي يصفها هناك في الداخل ذات مساء، أمام الفتاة المذهولة! وبأي سرور يبصق على صدرها الضخم والمر، على جانبيها القويين، إذا مرت أمامه!

صحيح أنه بعدها تعود الحياة مرةً ثانية؛ أن فليات أخريات سيأتين إلى العالم؛ لكنهن لن يَكُنَّ له. التي تخصه، ويحملها بين ذراعيه، لن تعود أبدًا. كانت شعاعًا من أشعة الشمس عبر غيوم سمائه، تحييه بأوهام حلزونية، تحلق مثل الحمام. تلبدت الغيوم إلى الأبد، وانطفأ شعاع الشمس، وجاء الحمام على الأرض مدعورًا من البرد.

سار - كأنه في رحلة حج - على طول الطريق الذي سلكه مع فلي ذلك المساء إلى سعادته. توقف مثل ورع في أماكن معينة ليتذوق المتعة الدينية للذكرى. هنا، أعطى ماله لبعض المتسولين ليتملوا احتفالًا بسعادته؛ أبعد، أعطته فلي برتقالة لامتناسها، عابسة بأمان. عند وصوله إلى الحانة، تجول حولها بإصرار جعل أصحابها على أهبة الاستعداد، قلقين من مظهر مالترانا البائس.

بالقرب من كاناليو^(١) تخلت عنه قواه. تسحقه الذكرى؛ هو أيضًا سيموت. يحتاج أن ينسى: كانت رؤية هذه الأماكن تؤلمه بشدة. الشتاء أسقط أوراق الأشجار. الأرض قاحلة. مشهد سعادته نفسه، مثلما كان مع مالترانا؛ لكن ريحًا جليدية هبت، قتلت أوراق الخريف الفرحة

(١) كاناليو: عبارة عن قناة ري تغذيها المياه من حوض نهر لوثنويا بمدرسد.

المليئة بالضوضاء والأناشيد، ولم يتبق سوى الأغصان العارية. تبدو الآن أشجار اللوز في بستان أوبيسو - التي تنثر الزهور على رأس فلي - مثل المكانس المزروعة بعصاها.

ذهب إسيدرو - مذهولاً مثل جريح - يبحث عن جدته.

استمع زرادشت والسيدة إوسيبيا إليه في صمت، لكن دون أن يشاركا في انفعالاته. إذن ماتت فتاة موسكو؟ كله بأمر الله! وانسحب العجوزان إلى أنانيتهما، شاعرتين أنهما أكثر قوة، وأكثر سعادة، مع رضى للحفاظ على حياتهما، بينما الموت يلاحق الشباب.

لم تفكر العمة ماريوسا إلا في ابن حفيدها، الذي مدحت صحته بشدة. لم يكن مصير الأم مُهماً بالنسبة لها؛ كل اهتمامها كان للصغير.

بقي إسيدرو هناك. إلى أين يذهب؟ لقد وصل تهاونه الجبان إلى أقصى حدود اللا مبالة. يعاني من لحظة التخلي عن الحياة. لو كان مؤمناً لأصبح ناسكاً، رجلاً عادياً في دير ترايست، زاهداً في الصحراء. الآن فهم الهروب من العالم، والعزلة القاسية، والحماقات المقدسة لبعض الأشخاص اليائسين، الذين عندما يعرضهم الألم يجدون علاجاً في جهلهم وإيمانهم.

مكث عدة أيام في كوخ زرادشت - فَرِحاً بقذارته - مستغلاً ذلك في إماتة نفسه.

آه يا ضمير! يا ثقل الندم المنهك! لم يعد يشعر بالألم بسبب موت فلي. ما يخرجه هو الهجر الذي تركها فيه، وجبن إرادته الضعيفة،

وأناية عدم الحزن على المريضة. ماتت المسكينة وحدها، في تلك الصالة البيضاء الكبيرة، محاطةً ببهايم بشرية، تفكر في نفسها فقط مع أناية الألم، دون نظرة مودة، دون يد تشد على يدها! وهذه الجريمة لا يمكن تداركها! آه، لو أمكن فيّ أن تحيا ليوم واحد فقط، أو لساعة واحدة! كانت فكرته الثابتة والعنيدة... فقط لو عادت إلى الحياة، حتى لو ماتت للحظات قليلة! يقوم بواجبه وسيكون أكثر هدوءًا: شغل حياته سيكون له نهاية جديرة. يركض إلى جانبها، لكي لا يتخلى عنها حتى اللحظة الأخيرة. يشعر أنه قادر على السرقة حتى يرقد رفاتها في نعشٍ فخم، ليحررها من القبر المشترك، حتى لا يأخذوها إلى ذلك المجزر الأبيض، حيث تُقطع الجثث.. ولكن للأسف! يموت الشخص مرة واحدة. لم يكن للشر علاج! أيها البائس! أين شعر شغفه؟ ما الشيء المشترك بينه وبين العشاق الذين يراهم مع كتبهم، وهم ينحنون على فراش المرأة المحتضرة، يحتضنونها ويشتكون من الوداع الأخير؟ فيّ، فيّ! في مقابل حياته الخاصة، يطلب هو أن تُبعث للحظة، ما يكفي من الوقت لتقبيلها، وللمغادرة مع اقتناعها بأنه يحبها، لإنقاذ جسدها المبجل من التدنيس البغيض.

تأخر حوالي أسبوعين في العودة إلى مدريد. ذات صباح عندما دخل البلدة، رأى نوجراس من مسافة بعيدة في طريقه إلى سان كارلوس، وشعر بالحاجة إلى التحدث إليه. لقد ألهمه مشاعر جديدة؛ لأنه قابل فيّ؛ يظن أنه وجد فيه ذكرى غامضة للميتة.

حيّاه الطبيب بسرور، ونظر إليه بعينين قصيرتي النظر منظرًا عدسات

نظارته. ثم تذكر «الحبيبة الصغيرة» التعيسة، ببعض الاستخفاف، دون إعطاء أهمية لتأثر مالترانا. هل ارتاح؟ هل لديه بالفعل شخص آخر بديل؟ آه، أيها البوهيمي الفاسد! كانت الحياة بالنسبة له: حرية، علاقات مع النساء، ودون عبودية المهن المُلحَة.

ثم قطب جبهته كأنه يُجمع ذكرياته. وأضاف:

- يا رجل، شيء فضولي للغاية. هل تتذكر ذلك اليوم عندما أخبرتك أن الفتاة ماتت؟ حسنًا، لم يكن هذا صحيحًا. عندما وصلت إلى سان كارلوس بعد رحلتي، أخبرني الرفيق. كان خطأه: لقد اعتقد أنها ماتت في نوبة، لكنها خرجت منها.

فتح مالترانا عينيه، وظل جامدًا من الدهشة، كأنه سيشهد ذلك البعث الذي حلم به عدة مرات، كما لو أن فلي تظهر أمامه. قال مرتجفًا:

- ولكن هل هي على قيد الحياة؟

- لا يا رجل؛ ماتت بعد أسبوع. فكرت أن أحذرك، أن أكتب إليك؛ لكن مَنْ يَخْمَنُ بحق الجحيم أين أجذك، بهذه الحياة التي تعيشها؟ ماتت، لا تشك في ذلك؛ الآن حقيقي. أنت روح أسمى، وبعض الهموم لا تأثر فيك. لا تشك في أنها ماتت. رأيت جثتها على طاولة في فصل التشريح.

آه أيها الحظ! أيها الإله الشرير والمقلب! حتى آخر لحظة كنت تلعب معه!

كان الشتاء ينتهي. يبدو المساء كالربيع، بسمائه الزرقاء الصافية ودفء شمسهِ اللطيف.

عبر الماترانا جسر سِجوبيا، ودخل لاحقاً طريق إكستريمادورا. يرتدي ملابس الحداد. لم يعد الكاب -كسوة البؤس الكريهة- معلقاً على كتفيه. يعامله الحظ بقسوة أقل عندما رآه وحده. كان يعمل -يقبلون مقالاته في بعض المجلات- ويكلفونه بترجمات، يعيش في منزل ضيافة، ويدخر ليدفع لمرضعة ابنه. لم يعرف الوفرة، لكنه لم يعلم أيضاً ما عليه من آلام ومشقات من قبل. كانت الرفاهية؛ لكن كم تأخرت! وكيف بدت له بلا طعم!

سار على رصيف يتعرج بجانبه جدول. ينظر بتشتت إلى اللافتات على الأبواب. جميعها تقريباً لحانات، ولكن حانات في الضواحي، وهي في نفس الوقت بمثابة نزل ومطاعم لتناول الوجبات الخفيفة. «نبذ لفلان». وهنا يكون اسم صاحب المنشأة كأن أصحاب الحانات هم مَنْ صنعوه.

في بيتٍ صغير وحقير من الألواح الخشبية، لفتت لافتة أخرى انتباهه: «حانة أجوستين، الملقب ببولرو، طبخ بعشرة سنتات». بعشرة سنتات! ممّ يتكون هذا الطبخ؟ فكر فيه باشمئزاز؛ لكنه قال لنفسه إنه كان سيزور الحانة في وقتٍ آخر لو عرف هذا الرخص.

تُعرض إعلانات عن متخصصين في الألعاب النارية على عديد من الشرفات، مع نماذج لعجلات خُدع والمفرقات الضخمة. استقر جميع عمال المسحوق في مدريد في هذا الحي، الذي بدا كأنه شارع رئيس في البلدة، بُنِزله الريفية ومنازله المتسخة بغبار العربات.

وصل مالترانا -المستمر في الصعود- إلى نهاية الصف المزدوج من المنازل. اختفى الطريق عن الأنظار، محاطاً من جانب بجدار لا نهاية له للمنزل الريفي ومن الجانب الآخر بالتلال، التي في أحاديدها يظهر شعر الشعير الحزين، الذي يدوسه المارة باستمرار.

اتبع مالترانا مساراً يؤدي إلى مسكن حقير على قمة تل. هذا هو تل كوربوس، والمنزل هو المتجر الصغير حيث يتربى ابنه.

كانت المرأة تخطط عند باب المتجر، تحت كرمة جافة، في فسحة صغيرة، تُشرف منها على الجزء الكامل من مدريد المطل على النهر.

وعند التعرف عليه، نهضت المرضعة على عجل. كانت تريد إخراج الطفل الصغير، الذي كان نائماً بعد ليلة من الأرق والبكاء.

اعترض مالترانا. لينام؛ سيراه لاحقاً: لم يكن في عجلة من أمره.

جلس على مقعد، أمام طاولة من الألواح المفككة، يتأمل المنظر العام الرائع. أرادت المرأة أن تُضيفه... القليل من العرق؟ لكنه قام بإيماءة اشمئزاز. الماء، لا شيء سوى الماء. وأخذت إبريقاً من الدكان المظلم الذي تنبعث منه رائحة تمليح، مشروبات كحولية ودهون. اقتناء المياه يكلف جهوداً كبيرة على هذا الارتفاع. يُمضى زوجها اليوم صعوداً ونزولاً على التل لملء برميلين من النبع الذي على الطريق.

بعد ذلك، تحدثت المرضعة عن التقدم السيئ جداً لعملها. كانا سيخسران المدخرات التي جمعها زوجها، الموسيقي المسكين، في الجيش. الأكواخ القريبة من التل مملوكة للفقراء الذين يعيشون في أسوأ بؤس: جميعهم تقريباً كانوا طوايين، ولا يعملون إلا في الصيف.

ويقضون الأشهر الأخرى في العوز، وهم يطلبون بالدين من المتجر. لم يكن لديهم أي وسيلة أخرى غير النهب من المنزل الريفى، فيقفزون من فوق الحائط لقطف الأشواك^(١)، التي يبيعونها في مدريد.

أضافت:

- رأيت كثيرًا من البؤس يا سيد إسيدرو؛ لكن هذا هو أسوأ ما في الأمر. انظر إلى ذلك الفتى الذي يصعد بالزجاجة... بالتأكيد ليس لديه أي نقود. وعليك أن تمنحهم، دون الحزن على خسارة كل شيء متأخر فجأة. دخلت إلى المتجر، يتبعها الصبي، وظل مالترانا منهمكًا في تأمل مدريد.

من هناك، كانت البلدة هائلة وشامخة. تبدو قليل من العواصم في أوربا جميلة جدًا. في الأمام، الجزء الأكبر من القصر الملكي، وأعمدته البارزة تخترق صفوف النوافذ السوداء. في أحد الجوانب، تل الأمير پيو، المتوج بأحواض الزرع. في الطرف المقابل، قبة سان فرانشيسكو الكبير والمدرسة الإكليريكية. في الأعلى، السماء بلا سحابة، صافية، كما لو أن زرقته قد غسلتها الأمطار الأخيرة، مع صفاء يمتص الدخان وعلى الفور يمحو دخان المداخن. في الأسفل، على المنحدرات التي تؤدي إلى حقول أشجار التفاح، توجد كتل كبيرة من النباتات: بساتين كامبو دل مورو، بيرخن دل بويرتو، منحدر لا بيجا. انقسمت الكتلة البيضاء لبيت المزرعة خلف جسر سجوبيا، وانضم خط معدني، شريط أفقي وأسود، إلى جانبي هذا القطع: الجسر المرتفع الطويل.

(١) أشواك: نبات ينمو في الحقول، بأزهار صفراء وأوراق مجمعة وشائكة، تؤكل ساقها مطبوخة عندما تصبح طرية.

تبدو مدريد من هناك عاصمة رائعة.. مدينة هائلة. بين زرقة السماء وخضرة الأشجار التي تصطف أكثر مظاهر حياتها المهيبة، عظمتها الأقوى. مسكن الملوك في الوسط؛ من جهة، الثكنات على ذلك التل الذي عبارة عن جبل مارت في مدريد؛ على الجانب المقابل، المعبد الفخم، الذي يبدو كأنه يسحق الأكواخ المجاورة بعظمته، وثكنة أخرى غير مسلحة، حيث يتم إيواء مجندي الدين الذين يرتدون ملابس سوداء. لم يكن ينقص شيء: لقد كانت الصورة الكاملة للأمة؛ يبدو أن كل شيء تركز في هذا الوجه الضخم للبلدة العظيمة.

في الأسفل -في بيرخن دل بويرتو- تُقرع الطبول؛ ويرى مالترانا من بين الأشجار كيف يسير الجنود الجدد على إيقاع الطبول، مثل صفوف النمل، يتعلمون ضبط السرعة. يغني جلد الطبل؛ والبوهيمي، في انغماسه التأملي، معتقداً أنه يفهمهم. تتحدث معه الطبول الصغيرة؛ كأنهم يخمنون أفكاره، قالوا له في سخرية: «ستستمر... ستستمر». ولم يكونوا يكذبون. طالما يقرعون في هذه النغمة المنتظمة، الآلية، دون حمى ودون جنون، سيتبعها الجميع هي نفسها.

لاحقاً، ثبتت نظرتة على هذا الجزء من النهر. أسقف كبيرة مكسورة، بها فجوات واسعة يتسرب من خلالها الهواء والأمطار. كانت بيوتاً كبيرة مهجورة بمثابة ملاجئ للبؤساء. وبجانبيها تلمع في الشمس أسطح الزنك الصدئة والصفائح القديمة لأكواخ المتسولين. وخز البؤس كان هناك أيضاً. كما استقر أمام هذا الوجه الأجل لمدرديد، المتشردون اليائسون عديمو الحظ، كل الحشد الذي رآه ذات

ليلة، بعيني مخيلته، وهم يطوفون حول السعداء، حول القافلة النائمة في سباتها الرائع من الشيع.

فكر مالترانا في جامعي القُمامة في تطوان، وعمال كواترو كامينوس وبييكاس، والمتسولين والمشردين في لاس بينويلاس ولاس إنخورياس، وغجر لاس كامبرونراس، وعمال البناء العاطلين عن العمل في الحي الذي أمامه، في جميع التعساء الذين تطردهم المدينة المتعجرفة من حضنها واستقروا على أبوابها، وهم يعيشون حياة همجية، متعاشين مع فنون الإنسان البدائي وحيله، تتراكم في اختلاط البؤس، وتتكاثر على سجاد ورثة أحقادهم و منفذي انتقامهم.

يبدو أن العاصمة المهيمنة والمظفرة تغطي على الفضاء بعظمتها الكثيرة. تضحك -وهي تظهر على زرقة السماء- مع اهتزاز نوافذ قصورها الكبيرة المخدوشة من الشمس، وبياض جدرانها، وخضرة حدائقها ذات الحفيف، مع رشاقة أبراج كنائسها. لم ترَ الجَمع الجائع المتناثر أسفلها، الحشد الذي يتغذى من فضلاتها وقذارة حزام الروث الحي، والعفونة المؤلمة.

كانت جميلة وبلا شفقة. ألقت بالبؤس بعيداً عنها، منكرة وجوده. إذا فكرت يوماً في التعساء، فقد كان ذلك بمثابة بناء أديرة على مشارفها، حيث يُعتنى بالصور الخشبية بشكل أفضل من رعاية أبناء الله، من لحم ودم؛ أديرة ذات ضخامة هائلة، تدق أجراسها وتدق في الفراغ، دون أن يسمعها أحد. لم يكن يفهم الفقراء واليائسون لغتها؛ يخمّنون ما هو كاذب في صوتها. يدقون من أجل الآخرين؛ لم تكن نداءات حب؛ كانت نوبات زهو.

يومًا ما سيتوقف الحشد عن الوقوف ساكنًا. أولئك الداخلون
مدير يد عند الفجر سيظهرون ظهرًا. لن يقبلوا بعد الآن بالفضلات:
سيطلبون نصيبهم؛ لن يمدوا أيديهم: سيطلبون بغطسة.

وسيرتجف الناس السعداء من الخوف أمام الوجوه المَهْدَدَة،
الملابس البائسة، نظرات الحَوْل الجائع، الرغبات المجنونة ومجرمي
الدمار. أين تختبئ هذه الوحوش حتى ذلك الحين؟ من أي وكر
خرجوا؟ وجيد، أيها الناس السعداء، كنتم تعيشون معهم دون أن تعرفوا
ذلك. يستقرون بالقرب من جدرانكم، ويمرون على بواباتكم كل يوم
في ساعة نومكم. لم تروهم لأنهم ضعفاء، لأنهم يتدللون بتواضع. لقد
أنكرتم وجودهم؛ لأنهم لم يتفوهوا بتهديدات. لم تُظهروا لهم شفقة ولا
رحمة عندما كان هناك وقت.

فحص مالترانا في ذهنه هذا التيار الجارف من البؤس، الكراهية
والياس، والذي يمكن تحويله إلى جيش. ما الذي ينقص الحشد؟
زعماء، رعاة جسورون يرشدونه إلى العلو، مدركين الطريق. آه! لو
أَنَّ مَنْ وُلِدوا في حضنه مسلحين بقوة الفكر لم يهربوا، خجولين من
أصلهم! إذا كان عبيد الفقر، مثله، بدلًا من تقديم أنفسهم بجبن للأقوياء،
يقفون بين ذويهم، ويضعون في خدمتهم ما تعلموه، ويسعون جاهدين
للانضمام إلى الحشد، وإعطائه راية، وتذوب حرياتهم الشجاعة في
الإرادة المشتركة!

سمع خلفه بكاء طفل وصوت صاحبة الدكان:

- إلى بابا إيسيدريتو. إلى بابا! صافحه.. حيّه!

بقيت تلك الحزمة من الدهون الطفولية على ركبتيه، حيث عناه بالكاد ملحوظتان مثل قطرتين سوداوين. تفوح منها رائحة اللبن الحامض، البول والبخور القوي الذي حاولت به المرضعة إخفاء الرائحة الكريهة القوية. يستنشق مالترانا هذا العطر بفرحة. قبله على فمه الصغير الأدرد؛ لم يجرؤ على مسح اللعاب من شاربته.

أصبح أباً! فكر في امتداد حياته، وانقسام شخصيته، وشهادة على وجوده، والتي، بعد سنوات من وفاته، ستؤكد مرور رجل يُدعى مالترانا عبر العالم! ذلك اللحم الأبيض الناعم مثل الزغب يخصه. فيه شيء من كيانه ومن ذلك الجسد الآخر، آه! الممزق الذي اختفى إلى الأبد في غموض الأرض.

ومن يهتم بحظ التعساء، مصير الحشد البائس والصراعات المربعة التي يمكن أن تتطور في المستقبل؟

ليعيش: كان يحمل حياته بأكملها بين ذراعيه. يملؤه دفء هذا الجسد الصغير بعزيمة أنانية ووحشية. عندما أخذ ابنه، شعر بالقوة. كان بمثابة سلاح منحه الثقة والشجاعة لمواصلة مسيرته.

يريده أن يكون سعيداً موفقاً قوياً. بما أن العالم كان منظماً على أساس عدم المساواة، فليتصور ابنه من بين أصحاب الامتيازات، حتى لو اضطر إلى سحق كثيرين للقيام بذلك.

ما لم يحققه بؤس فلي ومصيرها الحزين، حققه ذلك الطفل بلمسته فقط. يسقط صدى إرادته مُحدثاً غباراً. كان رجلاً آخر. جراته تنظر بازدراء إلى كل العوائق.

شعر أنه قادر على السرقة والقتل من أجل ابنه. لم يكن لديه أداة أخرى، ولا سلاح آخر، غير قلمه، لكنه سيجعل منه خنجرًا وعتلةً، وشيئًا لا يرحم من شأنه أن يؤدي إلى الموت والسلب. ما لم يجرؤ على فعله من أجل الحب، سيفعله لأجل ابنه. سيرمي نفسه في وسط القتال، بجسارة المرتزق. وداعًا: الأفكار، الإيمان، الحماس... الأوهام، كل الأوهام. يحتقر ثقافته، لكنه يفكر في الاستفادة منها ليجعل لنفسه أجرًا أفضل. المال والسلطة سيكونان لهما عبدًا آخر.

نصيبه يتغير. سيتقلب في الحقارة، سيستمع بانحطاطه، وسيبيع نفسه كعبد، حتى يكون ابنه حرًا. مصيره هو مصير المهاجم الذي يسقط في الخندق حتى يدخل رفيق السلاح عبر الثغرة. سيختفي هو في الوحل، لكن مالترانا -الصغير الذي جاء من الخلف- سيمر منتصرًا على جسر ظهره.

ونظر إلى نفسه في تلك العينين الصغيرتين، اللتين بلا تعبير تحدقان فيه، قال مالترانا لابنه في ذهنه:

- ستصل أيها الصغير. سأزحف أمامك؛ سأفتح طريقًا في الطين بلساني، لتتقدم دون أن تتسخ. لا تخف من أن أصاب بالإحباط، أن أشعر بالجبن مرةً أخرى وأتركك مثل الشهيدة المسكينة. هذا الحب الذي يولد الآن هو من حديد. الآن أنا شخصٌ آخر. أنا... والدك.

